رواية

طائـــر النمنمة

للكاتب التركي

رشاد نوري غونتكين

الترجمة من التركية

صفوان الشلبي

مكتبة 1679





تليجرام : هنا سور الازبكية

أكبر مكتبة رقمية

طائر النمنمة



• رشاد نوري غونتكين / مؤلف من تركيا

• صفوان الشلبي / مترجم من الأردن

• الطبعة الأولى : ٢٠١٨

• حقوق النشر والتوزيع محفوظة:



دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع

P.O.Box 927951 Amman 11190 Jordan

Tel.: 00962 6 5150050 - 00962 795414176

E-mail: wardbookjo@yahoo.com - bookwardjo@gmail.com

• رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: 2017 /6 /2987

• (ردمك) ISBN 978 – 9957 – 632 – 38– 0



للكاتب التركي

رشاد نوري غونتكين

مكتبة|1679

طائر النمنمة

رواية

الترجمة من التركية

صفوان الشلبي





القسم الأول

مكتبة
t.me/soramnqraa

-١-

كنت في الصف الرابع. لابد أني كنت في الثاني عشر من عمري. طلبت معلمة اللغة الفرنسية الراهبة أليكسي، أن نحاول الكتابة عن بعضٍ من ذكريات طفولتنا.

لن أنسى معلماتي في تلك المرحلة أبداً، ولا شكايتهن من شقاوتي وكثرة ثرثرتي، ما دفع بالمديرة إلى إبعادي عن زميلاتي، فأجلستني على مقعد صغير مفرد في ركن منعزل من الصف كي أتوقف عن الثرثرة مع زميلاتي أثناء الدرس وكي أتعلم حسن الإصغاء للمعلمات.

مقعدي هذا، كان إلى جانب عمود خشبي استحيل إخراجه من الصف لضخامته مع ما يصاحب ذلك من حيرةٍ حول الكيفية التي أُدخل بها إلى داخل الصف. قابل هذا العمود كل ما أحدثته في جذعه من جروح وثلم بمطواتي، بصبر ووقور وصمت وهدوء رزين. إلى جانبي الآخر، كانت تتطاول نافذة لم يُفتح أباجورها قط، لتأمّن عتمة كنائسية ورطوبة تتناسب وأجواء الدير. لكنني كنت أستطيع رؤية زرقة السماء ونافذة و شرفة البيت المجاور للدير، من خلال أوراق شجرة سنط ضخمة، عبر فرْجات ذلك الأباجور، بتوسّدي صدري على مقعد الدراسة ورفع ذقني إلى الأعلى قليلاً.

في الحقيقة، لم يكن هذا المشهد ممتعاً، فالنافذة مغلقة دائماً، ولا جديد في الشرفة سوى تعليق مرتبة ولحاف طفل صغيرٍ على حافّتها، من حين

لآخر. لكنني كنت مسرورة من قَدَري هذا.

خلال الدرس، وبينما ذقني مرتكزة على يديّ وعيني تحدقان إلى السماء من بين فُرُجات الأباجور، كنت أبدو في وضعية روحانية، تبعث الفرح في نفوس معلماتي، ظناً منهن أن ذلك من بوادر تعقّلي. في حين، كنت أشعر بمتعة الانتقام منهن بمغافلتهن.

بعد أن أنهت الراهبة أليكسي إيضاحاتها، تركتنا للكتابة، فشرعت أوليات الصف الجديّات اللاتي يزينّ المقاعد الأمامية بالكتابة، على الفور. رغم أنني لستُ إلى جانبهن، لكنني كنت أعرف ما يكتبن وكأنني أقرأ من فوق أكتافهن ذلك النمط الشعري الكاذب: "أمي الحبيبة، هي أولى ذكريات طفولتي، انحناؤها الحنون فوق سريري الصغير بشعرها الأصفر الذهبي وعينيها بزرقة السماء"... في الواقع، قد تكون الأمهات بألوان أخرى غير الشَعر الأصفر الذهبي أو العينين بزرقة السماء. لكن هذه الألوان، نهج تقليدي لقلم الطالبات في مدرسة الراهبات!

رغم أنه لم يبقَ في ذهني الشيء الكثير عن أمي التي فقدتها في سن مبكرة، لكن من المؤكد أنها لم تكن ذات شعر ذهبي ولا بعينين زرقاوين. وبما أنني كنت طفلة مختلفة تماماً، فلا توجد أية قوة تستطيع جعلي أن أراها بمظهر غير مظهرها الحقيقي ولا بدفعي للتفكير بأن أحبها على نحو مغاير لما يكنه لها قلبي من محبة.

غرقت في التفكير. ماذا أكتب؟ كنت ما زلت في مكاني لم أتوصل إلى أية فكرة، رغم أن الساعة الوقواق المعلقة على الحائط أسفل اللوحة الزيتية لمريم العذراء، تتقدّم باضطراد. حللتُ شريط شعري ونثرته على

وجهي. كنت أحرك القلم بين شفتيّ وأعض عليه بأسناني. مثلما أن للفلاسفة والشعراء تصرفات غريبة كحكّ الأنف وشد شعر الذقن، كان عض القلم ونثر شعري على وجهي من علامات غرقي في التفكير. حمداً لله فساعات تفكيري كانت نادرة جداً، وإلا كنت سأمضي حياتي كالغولة أو كساحرات حكايات الأطفال.

مرَّ على ذلك سنوات طوال، حينما شرعت بكتابة مذكراتي في مدينة غريبة وفي غرفة فندق بعيد، لأواجه الوحدة في ليلة بدت كأن لا نهاية لها. أعبث بشعري وأنثره على وجهي كما كنت أفعل في طفولتي. ربما لأني كنت طفلة طائشة غير مبالية، وأحاول أن أحجب بشعري رؤية ما يدور حولي، كي أبقى وحدي مع أفكاري الخاصة. أمّا لِمَ كنت أحرك القلم بين أسناني كسيخ الكباب؟ فلا أزال لا أدرك الحكمةَ من ذلك. كل ما أعرفه أن شفتيّ لم تخلُ من بقع الحبر الأزرق الداكن قط، ما دفع بأحد زائري في المدرسة خلال سنوات بلوغي، إلى الظن بأنها بدايات لنمو شارب لي، حينذاك، تمنيت لو انشقت الأرض وبلعتني.

عن ماذا كنت أتحدث؟ أجل... ما أعطته لنا الراهبة أليكسي من وظيفة حول أولى ذكريات الطفولة...

ذلك اليوم، رغم تضارب أفكاري، لا أزال أذكر ما استطعت كتابته من بضعة أسطر:

"على الأرجح أني ولدت كالأسماك في مياه بحيرة. لن أنسى أمي ولا أبي ولا مربيتي ولا الجندي حسين، ولا الكلب الأسود الذي طاردني في الشارع ذات يوم، ولا النحلة التي لسعتني من إصبعي حين دسستُ يدي في سلة العنب لسرقة بعض منه، ولا العلاج الأحمر الذي يؤلمني

حين يُقطر في عينيّ، ولا رحلتي إلى استانبول مع العزيز حسين... أجل، يمر في مخيلتي أشياء كثيرة، لكنها ليست أولى ذكرياتي... ليست أقدم من محاولتي السباحة عارية، بين أوراق الشجر الكبيرة، في البحيرة التي أحببت... بحيرة كبيرة كبحر، لا حدود ولا نهاية لها... ومحاطة بالأشجار. لابد أنكم ستتساءلون كيف يمكن أن تكون هذه البحيرة كبيرة كبحر ومحاطة بالأشجار في الوقت نفسه... أقسم بالله أنني لا أكذب، وفي حيرة مثلكم... لكنها كذلك، ماذا أفعل!"

حين قرأت وظيفتي في الصّف، التفتت زميلاتي نحوي وضحكنَ مقهقهات، واضطرت الراهبة أليكسي المسكينة لبذل جهد كبير حتى تمكنت من تهدئتهن.

ما يدهشني ويثير حيرتي، لو أن الراهبة أليكسي تظهر أمامي الآن، بقامتها الطويلة كشجرة، وثيابها السوداء الملامسة للأرض، ووجهها الشاحب الأبيض المليء بالبثور، وشفتيها الحمراوين كزهر الرمان، وياقتها البيضاء الواسعة، وغطاء رأسها الشبيه بوشاح وصيفات القصور، لتكرّر السؤال نفسه، فلن أجيب بغير ذلك، وسأعيد ما ذكرته ثانية عن ولادتي كالأسماك في مياه بحيرة.

علمت لاحقاً، أن تلك البحيرة تقع جوار قرية صغيرة لم أتمكن من حفظ اسمها، ولا تبعد كثيراً عن مدينة الموصل، وأن بحري المترامي الأطراف بين عديد الأشجار، ليس سوى تجمّع مياه متبقية من نهر قد جفّت مصادره.

-٢-

في ذلك الوقت، كان أبي يعمل في الموصل، وكان عمري لا يتجاوز السنتين والنصف على الأغلب. كان الوقت صيفاً حاراً جداً لا يسمح بالمكوث في المدينة من شدة حرارته، فاضطر أبي وأمي إلى الانتقال إلى تلك القرية. يمتطي أبي حصانه كل صباح، ذهاباً إلى الموصل، ويعود مساء بعد غروب الشمس.

لم تتمكن أمي من رعايتي لمرضها الشديد في ذلك الوقت... فأمضيت أياماً صعبة أتنقل خلالها بين غرف الخادمات، إلى أن تعرّف أبي على امرأة عربية لا أهل لها في إحدى القرى المجاورة. كانت تُدعى فاطمة. لقد وهبتني فاطمة حنان الأمومة وعاطفتها، بعد أن فقدت طفلتها.

ترعرعت ونشأت كطفلة صحراء في سنواتي الأولى... تحملني فاطمة على ظهرها كالبقجة وتتجوّل بي تحت الشمس المحرقة، وتصعد بي إلى قمم أشجار النخيل.

هكذا أتيت إلى تلك القرية. تحملني فاطمة مع زادنا اليومي كل صباح، إلى تلك الواحة وتدخلني المياه عارية تماماً... نمرح ونغني ونأكل... وحين يغالبنا النعاس، نعدّ لأنفسنا وسادة من الرمال، ونغمر جسدينا في الماء، وننام متعانقتين.

اعتدت على الحياة في الماء، حتى أنني عند عودتي إلى الموصل ثانية، بتُّ كسمكة أُخرجت من البحر. لا أتوقف عن التذمر والمشاكسة، وكلما

سنحت لي الفرصة، أخلع ثيابي وأركض إلى الشارع عارية.

كان الوشم يزيّن أنف ووجنتيّ ومعصميّ فاطمة. اعتدت على ذلك، حتى بدت لي الوجوه بلا وشم، قبيحة المنظر. فراقي لفاطمة كان أول مصاب جلل أحزنني كثيراً. بعد طول تنقّل، أقمنا في كربلاء. كنت في الرابعة من عمري، عمر يتذكر المرء فيه معظم الأحداث التي مرّت به، إلى أن تقدّم عريس مناسب لفاطمة. لا أزال أذكر ذلك اليوم، حين أصبحت مربيتي عروساً. جلست في إحدى الزوايا، في بيت مليء بالنساء، كنّ بالنسبة لي، من جميلات العالم، لأن وجوههن موشومة كوجه فاطمة. كنّ يحملنني من حضن إلى آخر، إلى أن أجلسوني إلى جوار فاطمة.

أذكر كيف أكلنا بأيدينا من طعام في صينية وُضعت في وسط الغرفة. في النهاية، غفوت على ركبتي مربيتي، من تعب يوم منهك، ومن دوار الحفل المصحوب بالدفوف والدربُكّات.

لا أعلم إن كانت أمنا فاطمة الزهراء على قيد الحياة حين استشهد ابنها في كربلاء؟ إن كانت قد أدركت ذلك اليوم المشؤوم. ما أطلقته من عويل، لا يساوي شيئاً إلى جانب ما أطلقْتُه من عويل حين وجدت نفسي في حضن امرأة غير فاطمة، صباح اليوم التالي لليلة الفرح في بيتنا.

باختصار، لا أظن أن كربلاء قد شهدت مثل هذا المأتم منذ واقعة كربلاء. بعد أن بُحّ صوتي من البكاء، أعلنتُ إضراباً عن الطعام.

بعد أشهر، عسكري يدعى حسين أنساني ألم فراق مربيتي. كان حسين فارساً أصيب بإعاقة إثر سقوطه عن الحصان أثناء التدريب. أحضره أبي إلى البيت كجندي خدمة. كان رجلاً طائشاً ومتهوراً أقرب إلى الجنون. أحبني سريعاً، وقابلت محبته بغدر غير مأمول ولا يغتفر. في

الواقع، لم نكن ننام معاً مثل فاطمة، لكن ما إن أفتح عينيّ، مع صياح الديكة كل صباح، حتى أهرع إلى غرفته، أجلس على صدره كمن يمتطي حصاناً، وأفتح جفنيه بأصابعي.

عوّدني حسين على عساكر الثكنة بديلاً عن بحيرة فاطمة وأشجارها. لم أرَ مهارة في حياتي كمهارة ذلك الرجل الضخم ذي الشارب الطويل، في ابتداع الألعاب لتسليتي. متعتها تكمن في خطورتها وإثارتها للحماس، كأن يرميني في الهواء ثم يلتقطني كالكرة، أو يجلسني على قبعته الفرو ويمسكني من قدميّ ثم يدور بي بسرعة في الهواء. ما كنت أشعر بمتعة أشد منها حين يتناثر شعري في الهواء فتغرورق عيناي من شدة الضحك.

هذه الألعاب الخطرة كانت تؤدي إلى وقوع أحداث مؤلمة. لكن اتفاقاً صارماً كان قد عقد بيننا. لا أبكي مهما تألمت، ولا أشكوه لأحد. كان ما يدفعني إلى الالتزام بهذا الاتفاق، هو خشيتي من توقفه عن ملاعبتي وليس استقامتي بحفظ العهود وكتم الأسرار. كنت أوصف بالفظّة، في طفولتي. كنت أؤلم وأعنّف كل من ألعب معه. ربما، هذه طباع متأتية من ألعاب حسين. كما أني، كنت أواجه أية شدة أتعرض لها، بوجه ضحوك وقوة احتمال، جرّاء ما تعلمته من حسين.

كان حسين يعزف على الساز للجنود الأناضوليين في الثكنة، من حين إلى آخر، أو يجلسني على رأسه ويقوم بحركات بهلوانية.

اعتدنا على ركوب خيل أبي، خلسة منه. حين لا يكون أبي في البيت، يخرج حسين أحد الأحصنة من الإسطبل، يضمني إلى حضنه ويتجول بي لساعات في السهول. لكنّ لهوَنا هذا لم يدم طويلاً. أغلب الظن، أن الطباخة قد أخبرت أبي، فنال حسين المسكين لطمتين على خديه، ما عاد

إثرها يجرؤ على الاقتراب من الإسطبل.

يقال إن المحبة الخالصة لا تدوم دون شجار أو خصام. كنت وحسين نتشاجر خمس مرات في اليوم، على الأقل.

كانت لي طريقة خاصة بإبداء امتعاضي. أجلس القرفصاء في إحدى زوايا الغرفة وأدير وجهي نحو الحائط. بعد ثلاث إلى خمس دقائق يرق قلب حسين على حالي، فيأتي نحوي ويمسكني من وسطي ويرفعني في الهواء، فيتعالى صياحي وصياحه.

بعد طول مشاكسة وتمنع من طرفي، أهدأ في حضنه وأعلن رضاي بتقبيل ذقنه.

صداقتي مع حسين دامت لسنتين. لكن سنوات ذلك الزمان لا تشبه السنوات الحالية. كانت طويلة، بل طويلة جداً...

ألا يبدو أن حديثي عن ذكريات طفولتي لا يدور سوى حول فاطمة وحسين؟ أمر مثير للدهشة!

كان والدي نظام الدين فارساً برتبة ضابط. ابتُعث إلى ديار بكر في السنة التي تزوج أمي، ومنذ ذلك الحين، لم يعد إلى استانبول ثانية. ثم نُقل من ديار بكر إلى الموصل، ومن الموصل إلى خانقين، ثم إلى بغداد، ثم إلى كربلاء... في الواقع، لم يمكث سنتين متواصلتين في أي من هذه الأمكنة.

يقال إنني أشبه أمي كثيراً. شاهدت هذا الشبه في صورة لها بعد زواجها بأبي. لكن صحة أمي المسكينة، لم تكن مثل صحتي. كانت هزيلة جداً. لم تكن صحتها تحتمل عناء السفر والتنقّل الذي لا ينتهي، ولا هواء الجبال ببرده القارس ولا قيظ الصحاري. لابد أنها كانت تعاني من مرض ما، رغم محاولتها إخفاءه... كانت تحب أبي كثيراً، وتخشى أن يجبره

أهله على تركها لمرضها.

كان أبي يقول لها عند كل مأمورية جديدة تناط إليه:

-قد لا يدوم ذلك سوى بضعة أشهر، ونعود إلى استانبول ثانية. سأرسلك إلى استانبول، عند أمك، حتى تنتهي مأموريتي. لابد أنها في شوق إليك، وستسعد برؤيتك.

لكن أمي كانت تجيبه دائماً:

-لم يكن هذا ما تعاهدنا عليه. لن أتركك وحدك، ولن أعود إلى استانبول إلا سوياً.

وحين يدور الحديث حول مرضها كانت تقول دائماً:

-ليس سوى قليلاً من الإرهاق ... وربما بسبب تقلّب الأجواء، تعب عابر سيزول...

كما أنها كانت تخفي حنينها إلى استانبول وإلى بيتنا في "كالندر" على ضفاف البوسفور الذي يراودها في أحلامها دائماً.

لم تتوقف جدتي عن تقديم الاسترحام الواحد تلو الآخر، إلى قائد الجيش والحاشية السلطانية. لكنها لم تؤتِ بنتيجة.

بعد أن اشتد مرض أمي، لم يجد أبي بُدّاً من السفر براً إلى بيروت لنكمل الرحلة بعدها إلى استانبول بحراً، دون أن ينتظر الموافقة على طلبه لإجازة لمدة شهر.

لا أزال أذكر كيف عبرنا الصحراء في هودج على ظهر البعير.

كأن رؤية أمي للبحر في بيروت قد أنعشها قليلاً. أجلستني إلى جانبها، في سريرها في بيت أصدقاء أبي في بيروت، تمشط شعري وتضمني إلى صدرها باكية، غير مبالية بقذارة يديّ وثيابي.

بعد عدة أيام نهضت على قدميها دون مساعدة من أحد، وتجولت في أرجاء البيت. ارتدت أجمل ثيابها، ومشطت شعرها، وتزيّنت لاستقبال أبي حين عودته. كنت أظن أن قلب أبي العسكري قاسي، لكنني ما زلت أذكر دموعه وهي تنهمر من الفرح، ونظراته الحنونة حين رأى أمي قد استعادت عافيتها...

كانت تلك الليلة التي أمضيناها بسعادة وحبور كأنها ليلة الوداع الأخير لأمي، فقد وُجدت في صباح اليوم التالي، متوفية ودم قد نزف وجفّ على شفتيها!

لا أزال أتساءل كيف لم أعِ ما حدث رغم أني كنت في السادسة من عمري. لقد تابعت حياتي كعادتي باللعب والعراك مع الأطفال في حديقة البيت الواسعة، والتجول مع حسين في شوارع المدينة وعلى شاطئ البحر كأنَّ حدثاً مأساوياً لم يقع.

لكن وفاة أمي كانت شديدة الوقع على أبي، وما عاد يرغب بالعودة إلى استانبول دون أمي، بعد أن دفنها في ديار غريبة... لكنه شعر أنني كطفلة في مثل عمري، لا ينبغي لها أن تواصل العيش إلى جانبه، في ثكنة عسكرية، فقرر إرسالي إلى استانبول للعيش في كنف جدتي وخالاتي.

أوصلني العسكري حسين إلى استانبول.

حجز لنا أبي في الدرجة الممتازة، في الباخرة. أثارت رؤية طفلة صغيرة في حضن شاب بلباس عسكري بلا رتبة، انتباه وفضول ركاب الدرجة الممتازة... رغم ذلك، ما كنت لأشعر بالسعادة نفسها لو كانت هذه الرحلة بصحبة أحد غير حسين.

كان إلى جوار البركة الحجرية في الأيكة الخلفية لقصرنا الساحلي تمثال لطفل عار كُسرت ذراعيه من الكتف.

في الأيام الأولى لإقامتي في قصرنا، بدا لي هذا التمثال المكسور، بلونه المسوّد بفعل الشمس والرطوبة كأنه طفل صحراوي ذو عاهة. لابد أن الفصل كان خريفاً فمياه البركة المخضوضرة كانت مغطاة بأوراق الشجر الحمراء. بينما كنت أتابع هذه الأوراق شاهدت أسفلها عدداً من الأسماك الحمراء تسبح في الماء، فخضّت من فوري في البركة بحذائي الجديد وفستاني الطويل الحريري الذي خاطته لي جدتي حديثاً.

جلبة وذعر تعالى من حولي. لم أدرك سببه. لكن خالاتي حملنني إلى الطابق العلوي من القصر، وشرعن بخلع ملابسي واستبدالها موبّخات.

ذلك الذعر الذي لم أدرك سببه، جعلني لا أجرؤ على الخوض في بركة الماء ثانية، وبتّ أكتفي بالتمدّد على بطني إلى جوار البركة. ذات يوم، بينما كنت أراقب الأسماك في الماء، كانت جدتي تجلس على كرسي الحديقة وشالها الأسود على كتفيها كعادتها دائماً، وحسين إلى جوارها راكعاً على ركبتيه كأنه يصلي.

كانا يتحدثان بصوت خفيض. لابد أنهما كانا يتحدثان بالتركية، فلم أفهم ولا كلمة واحدة من حديثهما، فقد كنت لا أجيدها، في ذلك الوقت. لكنني أدركت أن الحديث يدور حولي، من خفضهما لصوتهما ومن نظراتهما نحوي من حين إلى آخر. تابعت مراقبة الأسماك المتهافتة على فتات الكعك الذي كنت ألقيه لها، واسترق النظر نحو جدتي وحسين، من حين إلى آخر. كان حسين يبكي، ويمسح عينيه بمنديله الكبير كلما نظرت إليه. للأطفال فطنة وإدراك أكبر مما يظنه الكبار.

أدركت أن شيئاً ما لا يروق لي يحاك ضدي: سيبعدون حسين عني.

لم أكن في عمر يتيح لي فهم بعض الأمور التي تجري حولي، لكنني كنت أدرك جيداً أنّ هذا البعاد سيحدث يوماً ما تماماً مثل غروب الشمس أو هطول الأمطار، أعلم أنها ستحدث دون أن أفهم سببها

تلك الليلة، استيقظت من نومي على سريري الصغير المجاور لسرير جدتي. كان القنديل المجاور لسريري قد انطفأ فتيله، لكن نور القمر كان يغمر أرجاء الغرفة عبر النافذة بضيائه الفضي. ضيق يقبض على صدري منعني من الاستغراق في النوم ثانية. رفعت رأسي وشرعت بمراقبة جدتي عدة دقائق إلى أن تيقّنت من استغراقها في نوم عميق. نزلت عن سريري بهدوء، وخرجت من الغرفة على أطراف أصابع قدمي. هبطت الدرج الخشبي ببطء وحذر، إلى صالة الطابق الأرضي. ما كنت أخشى الظلمة والوحدة كبقية الأطفال في عمري. كانت جميع الأبواب والنوافذ مغلقة سوى نافذة واحدة إلى جوار باب الحديقة. لم يحتج قفزي من النافذة إلى جهد كبير لاعتيادي على تسلق الأشجار والقفز منها عندما كنت بصحبة مربيتي فاطمة.

كان حسين ينام في غرفة البستاني، في نهاية الحديقة. أسرعت الخطى إليه وأذيال منامتي البيضاء تنجرّ خلفي. كان حسين يغطّ في نوم عميق، فدخلت الفراش إلى جواره دون أن يصحو.

كان حسين ثقيل النوم، بل أن إيقاظه في الصباح، عندما كنا في العراق، كان عملاً شاقاً، ويحتاج إلى وقت طويل ومحاولات مختلفة مني، كاعتلاء صدره وشد شاربيه الطويلين. لكن تلك الليلة، كنت خائفة من استيقاظه. لم يكن ليرضَ ببقائي إلى جواره، وكان سيعيدني إلى غرفتي عند جدتي مهما حاولت التوسل إليه.

كل ما كنت أريده أن أمضي آخر ليلة له عندنا، إلى جواره أعانقه.

ظلّ تصرفي الطائش في تلك الليلة، محور حديث العائلة لوقت طويل.

حين استيقظت جدتي عند الفجر ولم تجدني في سريري، أصابها ذعر وهلع شديدين. دبّت الصوت وأيقظت جميع أهل البيت. دقائق وانطلق الجميع يحملون القناديل والشموع وانتشروا في أرجاء الحديقة وعلى شاطئ البحر... لم يبقَ مكان إلا وبحثوا عني: من مرآب اليخت إلى بركة الماء وحتى داخل بئر الماء في بستان الجيران...

بعد أن فقدوا الأمل بالعثور عليّ، استدركت جدتي، فهرعت إلى غرفة حسين لتجدني نائمة إلى جوار الجندي معانقة له.

أضحكُ كلما تذكرت يوم فراق حسين. لم أتذلل وأستعطف أحداً في حياتي كما فعلت مع جدتي وخالاتي كي يسمحوا ببقاء حسين. حتى حسين كان يبكي وينتحب دون خجل رغم شاربيه الكبيرين.

تظهر الروايات المرء الحزين، على هيئة بائس بكتفين هابطتين وعينين بلا بريق، صامت وواجم.

أنا، على العكس من ذلك، إذا ما تعرضت لحدث محزن، تلمع عيناي وأشرع بالضحك بصوت مرتفع، وأقوم بحركات جنونية وطائشة. أظن أن ذلك أفضل كي يفضفض المرء عمّا يختلج في صدره من ضيق.

أذكر أنني واجهت فراق حسين على هذا النحو. اندفعت بطيش، أتعارك مع أطفال الجيران وأعاملهم بمنتهى الخشونة.

شعرت بحنق شديد على حسين وحاولت محو ذكراه من مخيلتي. أشعر بالغيظ كلما ذُكر اسمه، وأشرع بشتمه بكل ما تعلمته من شتائم بالتركية: "حسين حقير، حسين سيء، غير مؤدب..."

هذا المسكين، ما إن وصل إلى بيروت حتى أرسل إليّ علبة من التمر، لعلمه بشدة ولعي به. تلك الهدية خفّفت من غلواء غضبي منه. التهمتها جميعها في جلسة واحدة، لكنني احتفظت بالنوى، لعبت بها لأسابيع عدة، ثم جعلت من بعضها عقداً شبكته حول عنقي، وزرعت ما تبقى في أرجاء الحديقة، أسقيها كل يوم على أمل أن تتحول حديقة البيت إلى غابة نخيل.

طيشي الزائد أوقع جدتي في حيرة وأربكها. كان من الصعب مواجهتي وضبط تصرفاتي الطائشة. أستيقظ عند الفجر، ولا أتوقف عن الشقاوة حتى أغط في النوم مساء، من شدة التعب. حين ينقطع صياحي وجلبتي، يحدث في القصر هرج ومرج. كان ذلك مؤشراً على إصابتي بجراح، فاختبأت إلى حين توقف نزفي، أو تعرضت لرضوض،

فكتمت أنفاسي كي لا أصيح من الألم، أو أقوم بشيء سيء كتمزيق أغطية الأسرة أو تلطيخ الجدران بالدهان. كنت أصعد إلى قمم الأشجار لعمل أعشاش للطيور، أو أتسلق سطح البيت وأقذف حجارة داخل مدخنة الموقد لإخافة الطباخة.

طبيبٌ صديق للعائلة كان يتردد على القصر من حين لآخر. أصعد عربته الواقفة أمام باب القصر، وأشرع بضرب الخيل بالسوط، أو أدفع بحوض الغسيل داخل البحر وأترك نفسي داخله أتأرجح مع موج البحر. أظن أنني كنت أكثر شقاوة من بقية أقراني، لكنني كنت أحظى بمعاملة متميزة عنهم، فأنا يتيمة الأم، وتعنيف اليتيم أمر مذموم عند عائلتنا. كان العقاب الوحيد لي عند قيامي بشقاوة لا تغتفر، هي حبسي وحيدة في الغرفة.

أحد أقاربنا من كبار السن أو كما ندعوه نحن الصغار: "العم ذو اللحية"، كان يطلق علي "ذات أصابع الأولياء"، لأنها لم تخلُ ولا يوماً واحداً من الجروح والضمادات.

لم يكن سهلاً عليّ التعايش والانسجام مع أقراني، فقد أخفت كل الأطفال حتى من كان أكبر مني سناً. لم أعرف كيف أعبر عن مودتي، ولا أن أداعب برقة مثل بقية الأطفال، بل أهجم مثل جرو متوحش، أعض وأخمش وأتصرف بخشونة تدعو إلى الدهشة والذهول وحتى إلى الخوف.

واحد فقط من بين أطفال أقاربي، كنت أشعر نحوه بخجل وضعف لم أدرك كنهه:

كامران ابن خالتي بسيمة. لا يمكن اعتباره طفلاً، فقد كان أكبر منا بسنوات عدة. مهذب ورزين، ولا يميل إلى الاختلاط ببقية الأطفال. يتجول على شاطئ البحر وحيداً، أو يقرأ كتاباً تحت الأشجار.

كان كامران ذو شعر أشقر مموجاً وبشرة بيضاء ناعمة متألقة. كانت بشرته تلمع كمرآة، ولو امتلكت الجرأة للاقتراب منه لرأيت نفسي على صفحة وجهه.

رغم مشاعري الخاصة نحوه، لكنني تشاقيت معه ذات يوم حين كنا نتنزه على شاطئ البحر. خطر ببالي أن أضع حجراً داخل سلة كنت أحملها وتظاهرت بوقوع السلة رغماً عني، على قدمه. ارتفع صراخه من الألم. لا أدري، هل كان الحجر ثقيلاً حقاً، أم أن كامران رقيق جداً كما كان يبدو لي؟ شعرت بالندم لإيذائه، وقررت الهرب والتواري أعلى إحدى شجرات الحديقة. ما كان التوبيخ والتهديد ولا حتى الرجاء ليدفعوني إلى النزول عن الشجرة. في نهاية الأمر، استدعوا البستاني لينزلني رغماً عني عن الشجرة. لكن البستاني تراجع في نهاية الأمر، خوفاً من مواصلتي الصعود إلى غصن قد لا يحتمل وزني، فينكسر وأقع من أعلى الشجرة وأتأذى.

أمضيت تلك الليلة كالطير على غصن الشجرة.

لم تستطيع جدتي المسكينة النوم حتى الصباح، وظلّت تراقبني بقلق، أغط في النوم على غصن الشجرة كطير. عطفها وحنانها وحبها لي تجاوز كل الحدود، رغم ما كنت أسبب لها من إزعاج وقلق تجاوز كل الحدود.

حين فقدتها كنت في التاسعة من عمري. كان أبي في استانبول، في ذلك الحين، في طريقه إلى ألبانيا بعد أن نُقل من طرابلس.

موت جدتي أربكه وأحاره في مصيري. لا يمكن لضابط أرمل أن يصطحب ابنته الفتية من بلد إلى بلد، وبقائي عند خالتي قد لا يكون مرغوباً فيه. يبدو أنه فكّر ملياً قبل اتخاذه لقرارٍ وجده أفضل الحلول. صباح أحد الأيام، صعدنا الباخرة واتجهنا نحو الضفة الغربية من استانبول. بعد أن رست الباخرة عند الجسر، صعدنا عربة وانطلقت بنا في طرقات وانحدارات، وعبرنا الأسواق إلى أن وقفت بنا أمام باب لبناء حجري كبير.

كان ذلك المبنى لمدرسة الراهبات حيث أمضيت عشر سنوات من عمري. أُدخلنا إلى غرفة عند المدخل الرئيسي للمبنى. كانت الغرفة معتمة، ستائرها وأباجوراتها مغلقة.

لابد أن كل شيء قد أُعد واُتفق عليه سابقاً، إذ بعد دقائق قليلة دخلت امرأة موشحة بالسواد وغطاء أبيض غريب على رأسها، ربتت على رأسي وداعبت وجنتي وتمحصتني بنظرات حنونة.

لا أزال أذكر أني أول ما وطأت قدمي أرض المدرسة قمت بشقاوة كعادتي.

بينما كان أبي يتحدث مع رئيسة الراهبات، رحت أتنقل وأتفحص محتويات غرفة الاستقبال. وقعت عيني على زهرية على رف مرتفع، وبينما كنت أتحسس رسوماتها الجميلة الملونة أوقعتها على الأرض فتطايرت شظايا محدثة ضجيجاً عالياً.

وثب أبي بسرعة غاضباً، فأصدر سيفه صليلاً حتى حسبت أنه استله ليهاجمني. أمسكني من ذراعي بانفعال مؤنباً، لكن الراهبة الرئيسة قابلت الأمر بضحكتها الحنونة، ودعته إلى الهدوء وعدم الانفعال.

تابعت شقاوتي نفسها في المدرسة كما كنت في كنف جدتي، وكم من أشياء أخرى غير الزهرية كسرت وأتلفت. لكن يبدو أن للراهبات قلب كقلب الملائكة، وإلا لما احتملن ما كنت أسببه لهن من متاعب.

لا أكف عن الثرثرة والتنقل داخل الصف.

نزول الأدراج وصعودها عندي ليس كزميلاتي باستخدام الدرجات، بل باعتلاء الدرابزين والتزلق فوقه، أو بالحجل على الدرجات.

شجرة باسقة كانت في حديقة المدرسة. أتسلقها في ساعات الاستراحة، وأتنقل من غصن إلى غصن، دون اكتراث لصيحات التحذير أو الوعيد، إلى أن صاحت إحدى المعلمات يوماً: "أنت لست بنتاً، أنت طائر النمنمة!"

منذ ذلك اليوم أصبح الجميع يناديني بـ"طائر النمنمة".

لست أدري كيف علمت عائلتي بلقبي هذا، حتى غدا اسمي الحقيقي "فريدة" كثياب الأعياد لا يستخدم إلا في المناسبات الرسمية.

أعجبني اسم طائر النمنمة وسمح لي بمواصلة الشقاوة. حين يطفح الكيل من شقاوتي، كنت أهز كتفيّ بلا مبالة وأجيب: "ما الذي تأملونه من طائر النمنمة؟"

قسيس بنظارة ولحية صغيرة تتدلى من ذقنه كلحية ماعز، كان يتردد على المدرسة، من حين إلى آخر. ذات يوم، قصصت بالمقص خصلة من

شعري، وألصقتها بالصمغ على ذقني. أخفيتها بكفيّ إلى أن تدير المعلمة وجهها نحو اللوح، أرفع يديّ وأهزّ لحيتي وأقلّد القسيس في حركاته. يضج الصف بالضحك، فتغضب المعلمة وتوبخنا دون أن تعرف السبب. لكن الراهبة الرئيسة ضبطتني متلبسة بالجرم بينما كانت تراقبنا من نافذة تطل على الممر.

هل تصدقون ما حصل؟ أحنيت لها رأسي تحية، ووضعت إصبعي على شفتي كإشارة "صه!"، ثم أرسلت لها بأصابعي، قبلة في الهواء، فابتسمت وهددتني بإصبعها الشاهد واختفت في عتمة الممر.

الراهبة الرئيسة كانت أرفع شخصية في المدرسة وأشدّها انضباطاً، بل إن بقية الراهبات كنّ يرينها كإلهة تمشي على الأرض. رغم ذلك كانت تحمل في صدرها قلباً عطوفاً ورحيماً. ذات يوم، ضبطتني في صالة الطعام، أجمع بقايا الطعام من حاوية النفايات، وأضعها في سلة مهملات أحضرتها من الصف، فصاحت بي بصوت قاسٍ:

-ما الذي تفعلينه يا فريدة؟

رفعت رأسي نحوها وأجبتها ببراءة:

-أإطعام الكلاب عمل سيء يا "ماسور"؟

-عن أي كلاب تتحدثين؟

-الكلاب التي في الخرابة المجاورة للمدرسة... آه يا ماسور لو تعلمين كم فرحوا حين رأوني مساء أمس... شرعوا بالدوران حولي، فصحت بهم كي يصبروا قليلاً. لكنهم أوقعوني أرضاً ليلتهموا ما حملته لهم من بقايا الطعام. تمنّعت وتمسكت بالسلة كي أوزع عليهم الطعام بالتساوي، إلى أن مرّ بائع كعك فأنقذني منهم.

أصغت الراهبة الرئيسة إليّ باهتمام وحدّقت في وجهي، ثم سألتني:

-حسناً، ولكن كيف خرجت من المدرسة؟

أجبت على الفور:

-قفزت من جدار غرفة الغسيل، يا ماسور.

وضعت الراهبة الرئيسة يديها على رأسها بجزع وقالت:

-ألم تتأذي؟

وبالبراءة نفسها:

-لا تقلقي يا ماسور... الجدار واطئ. أتريدين أن أخرج من البوابة الرئيسية؟.. لن يسمح البواب لي بالخروج ثانية، بعد أن خدعته في المرة الأولى، وادعيت أن ماسور تيريز تريده في الحال!.. حينذاك، خرجت من البوابة الرئيسية... أرجوك يا ماسور، لا تخبريه! فالكلاب جائعة جداً الآن...

يبدو أن الراهبات كائنات سماوية. لو كنت فعلت ما فعلت في مدرسة أخرى، لنلت أشد وأقسى العقاب. لكنها ركعت على الأرض لتقرّب وجهها من وجهي، وقالت:

-الرأفة بالحيوان عمل جميل جداً يا صغيرتي، لكن عدم الانضباط ليس تصرفاً مقبولاً أبداً. أعطني السلة، وسأبعث بقايا الطعام مع البواب ليطعم الكلاب في الخرابة.

لا أظن أن أحداً أحب شقاوتي بقدر الراهبة الرئيسة.

الصخور لا تتأثر بالرياح مهما كانت شدتها، والراهبات كذلك واجهن شقاوتي وعدم انضباطي بصلابة الصخور. لا مثيل أبداً لما يحملن في صدورهن من العطف والحنان!

في الواقع، كنت طفلة عصية على الفهم. سعيت لاكتشاف نقاط ضعف معلماتي كي أستغلها بشقاوة في اللهو معهن وإحراجهن.

معلمة الموسيقى الراهبة ماتيلدا، كانت شديدة التديّن ودائمة الركوع أمام تمثال مريم العذراء والدموع في عينيها. كلما مررت من جانبها وهي على هذه الحالة من الخشوع، أشير إلى الذباب الحائم حول التمثال وأقول لها بهدف إزعاجها: "انظري يا ماسور، لقد جاءت الملائكة لزيارة أمنا المقدسة! أما معلمة الرسم فقد كانت شديدة الاهتمام بالنظافة إلى درجة الوسواس. كنت أنتظرها حتى تقترب مني، فأشرع بالتذمر من قلمي الذي لا يكتب وأخضّه بشدة حتى تتلطّخ ياقتها البيضاء بالحبر.

معلمة الحساب كانت تخشى الحشرات بشكل ملفت للنظر. بعد أن عثرت على إحدى الصور الملونة لعقرب في أحد الكتب، قصصتها ثم ألصقتها بالصمغ على ظهر ذبابة ضخمة أمسكت بها في صالة الطعام. عند مطالعة المساء، توجهت إلى الطاولة حيث تجلس متذرعة بالاستفسار عن إحدى المسائل الحسابية، وتركت الذبابة خلسة على طاولتها. وبينما كانت ترد على استفساري، تحركت الذبابة، فبدت في ضوء المصباح الشاحب كعقرب ضخم يتقدم نحوها. ذُعرت المسكينة، وراحت تصيح بهلع شديد، ثم أمسكت بمسطرة كبيرة كانت على طاولتها، وراحت تضربها بشدة حتى التصقت الذبابة بالطاولة، ثم أسندت ظهرها على الحائط، وغطّت وجهها بكفيها وهي تلهث من شدة هول ما ظنته عقرباً حقيقياً.

تلك الليلة، أمضيت بضع سويعات أتقلب في سريري، وقد تكشّف لي سوء ما فعلت. شعرت بخجل وندم شديدين على ما سببته لمعلمتي

من هلع، وأدركت أن فعلتي هذه لن تمر بلا عقاب. لابد أن أُستدعى غداً صباحاً، للتحقيق ومواجهة ما أستحقه من عقوبة.

تراءت لي الراهبة الرئيسة في منامي بوجه عبوس، تعنّفني بغضب وتتوعدني بأشد العقاب.

في اليوم التالي، مر الدرس الأول بهدوء. حين اقترب الدرس الثاني من نهايته، قُرع باب الصف، ودخلت إحدى راهبات الإدارة. بعد أن تحدثت همساً مع المعلمة، أشارت لي بيدها كي أتبعها. يا للمصيبة!

بينما كنت أهم بالخروج أرخيت كتفيّ وتظاهرت بالسعال مخرجة لساني. ضج الصف بالضحك مما دفع بالمعلمة إلى طرق الطاولة بالمسطرة لالتزام الهدوء.

دقائق معدودة ودخلت غرفة الراهبة الرئيسة. يا للدهشة والحيرة! لم يكن وجه الراهبة الرئيسة غاضباً ولا عابساً كما بدا لي في المنام، بل حزيناً وشفتاها ترتعشان وعيناها دامعتان!

أمسكت يدي وضمتني إلى صدرها، ثم نظرت في عينيّ وقالت بصوت حزين:

-فريدة يا صغيرتي... لا تحزني مما سأبلغك به... والدك مريض جداً... بل ربما...

لم تستطع الراهبة الرئيسة إكمال كلامها. في تلك اللحظة سمعت الراهبة التي اصطحبتني تبكي. غطّت وجهها بمنديلها لتمسح دموعها وغادرت الغرفة على عجل.

أدركت ما حصل لأبي على الفور. لم أعرف ماذا أقول. انعقد لساني كما الراهبة الرئيسة. تلفّت حولي، ثم اتجهت نحو النافذة أتابع طيور

السنونو وهي في تتطاير على أغصان الشجرة المطلة على الغرفة.

دبّت الروح فيّ كالطيور التي كنت أتابعها، وقلت:

-أدركت ما حدث لأبي، يا ماسور... لا تحزني... لا يمكننا فعل شيء أمام الموت... هذا قدرنا جميعاً...

ضمتني الراهبة الرئيسة إلى صدرها ثانية، لفترة من الوقت حتى ظننت أنها لن تتركني أبداً.

رغم أنه لم يكن يوم الزيارة، لكن خالاتي جئن لرؤيتي واصطحابي معهن إلى البيت. تمنّعت بشدة متذرعة بقرب الامتحانات.

أمضيت بقية اليوم في حالة شرود. أثناء مطالعة المساء، أسندت رأسي على ذراعيّ على المقعد وغفوت قليلاً، كما أنني لم أشعر برغبة في تناول ما قُدّم لي من طعام للعشاء.

حين استيقظت في الصباح، عدت إلى حالي السابقة كطائر النمنمة.

كنت أمضي العطلة الصيفية كل سنة، في قصر خالتي بسيمة في ضاحية "كوزيتاي".

لم أكن أجد متعة بتمضية الوقت مع أبناء خالتي بسيمة. نجمية، فتاة كثيرة الغنج والدلال ولا تكاد تفارق أمها لحظة واحدة، وأخوها الأكبر كامران كان مثلها أيضاً.

لحسن الحظ، أقام إلى جوارنا، عدد من العائلات المهاجرة من تخوم الدولة بعد اندلاع الحرب. كنت أدعو أطفال هذه العائلات للّعب في حديقة القصر. فرضت نفسي زعيمة عليهم، وتولّيت قيادهم وتوجيههم كما أشاء.

انتشار الأطفال في الحديقة وما يثيرونه من صخب، دعا البستاني إلى طردهم ومنعهم من دخول الحديقة. لم يبالِ الأطفال بهذه المعاملة المشينة، فقلوب الأطفال لا تحمل الحقد والضغينة تجاه من يسيء معاملتهم، وراحوا ينتظرونني خارجها، فأتسلل خلسة وألتقي بهم، فيقابلوني بالفرح والغبطة. أتسكع وإياهم في السهول المجاورة، نقفز فوق أسوار البساتين، ونقطف ما نشاء من فاكهة أشجارها المثمرة.

أعود مع حلول الليل بوجه كالجمر من شدة تعرضي لأشعة الشمس وبجروح منتشرة في أنحاء جسدي وثيابي الممزقة. تعلن خالتي عن خيبة أملها من تصرفاتي الطائشة، وتدعوني للتشبه بابنتها نجمية، الفتاة الهادئة الرزينة. في حين كنت أرى نجمية كقطة كسولة بليدة لا

تكفّ عن التثاؤب. كان كامران يشارك أمه بحمد خصال أخته ورزانتها واستغلالها لأوقات فراغها بالمطالعة.

لا تعنيني تصرفات نجمية، فهي فتاة رقيقة كسولة، ترعرعت في كنف أمها. في الواقع، كنت أرفض في داخلي ما يعتبره الآخرون تربية مثالية للبنات...

لكن كامران، ذلك الشاب الوسيم الذي قارب على العشرين من عمره وقد خطّ شارباه أعلى شفته الرقيقة، بقامته الممشوقة، وقدميه الصغيرتين كقدمي فتاة، كنت أشعر نحوه بالاستياء حين يمشي بخفة أنثوية بحذائه "الشامواه" الرمادي وجوربه الحريري، ويرتدي قميصاً حريرياً صدفي اللون، يطل من ياقته المفتوحة عنقه الأبيض الطويل.

مشاعر غريبة كانت تراودني حين يشرع القريب والبعيد بتعداد خصاله الحميدة.

لا أزال أذكر سعيي الدائم لإيجاد المبررات لدفعه إلى الشجار معي، لتسنح لي الفرصة بالهجوم عليه كقطة متوحشة، وأشد شعره الناعم، وأهدّده بغرز إصبعي في عينيه الخضراوين كعين ثعبان. أمزّق كتبه، أتظاهر بزلل قدمي لأسقطه أرضاً كي أثيره، لكنه كان يقابلني بهدوء يغيظني ويحبط مخططاتي.

ذات مرة، شعرت بسعادة بالغة حين أوقعت حجراً على قدمه. انتظرت أن يصيح بي معنفاً، لكنه نظر في عينيّ وابتسامة تعلو وجهه. كان يرد على تصرفاتي الطائشة بهدوء الإنسان البالغ العاقل ويقول: "ألن تكفّي عن هذه التصرفات الصبيانية، يا فريدة؟"، فأردّ عليه بالصمت بينما أقول في قرارة نفسي:

-وأنتَ، ألن تكفَّ عن الجبن والتصرف كفتاة مغناج تستعرض دلالها أمام القادمات لخطبتها؟!...

لا يمكن لفتاة في الثالثة عشر أو الرابعة عشر من عمرها أن تردّ بفظاظة على ما يقابلها شاب من حسن المعاملة واللطف والتهذيب... كنت أغلق فمي بيدي خشية أن يصدر مني كلام غير مهذب، فأبتعد مسرعة إلى ركن ناءٍ في الحديقة، وداخلي يلعنه ويشتمه.

كان اليوم ماطراً. جلس كامران ونسوة من أقاربنا داخل القصر في صالة الطابق الأرضي، بينما اتخذت لنفسي ركناً متطرفاً، أخيط ما تمزق من قمصاني. لم أتمالك نفسي من الضحك مقهقهة حين شاركهن بالحوار حول ثياب السهرة النسائية وألوانها، لفصل الشتاء القادم.

-لِمَ تضحكين؟ سأل ابن خالتي.

-لَا شيء، جال في ذهني أمر ما، أجبت

-ما هو؟

-لا يمكنني الإفصاح عنه...

-هيا، كفاك دلالاً... على أية حال، فحبة الحمصّ لا تبتل في فمك... ستتكلمين إن عاجلاً أو آجلاً...

-إذن لا تغضب مني... حين دخلتَ بالحوار باهتمام مع السيدات حول ثياب السهرة النسائية، جال في ذهني أن الله كان يريدك بنتاً، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة لأمر ما لا يعرفه أحد سواه... في حين أنا الفتاة، لا أجيد الخياطة، وقد وخزت إصبعي أكثر من مرة...

-حسناً، وماذا بعد؟

-لو بادلنا الله المواقع، لتقدمت لخطبتك على سنة الله ورسوله.

تعالت القهقهات في الصالة. رفعت رأسي لأرى كل العيون تتجه نحوي.

علّقت إحدى الضيفات قائلة:

-لا مانع يمنعك، يا فريدة، يمكنك القيام بذلك.

بُهتُّ، واتسعت عيناي من الدهشة:

-ما الذي ترمين إليه؟ قلت.

-واضح. تحظين بكامران... على أن تتولي تأمين احتياجات البيت، وهو يتولى خياطة ثيابك...

وثبت من حيث أجلس غاضبة. لكن حنقي من نفسي كان أشد. ما كان ينبغي عليّ التفوه بهذا الكلام السخيف، وربما جهلي بفن الخياطة ووخزي لإصبعي، دفعاني لثرثرة غير محسوبة العواقب.

رغم ذلك، لم أتوقف عن الكلام، إذ من طباعي مواصلة الهجوم بدلاً من الدفاع:

-لم لا؟ لكن ذلك ليس في صالح السيد كامران، فموازين أي شجار يقع في البيت لا قدّر الله، لن يرجح في كفته. لابد أنه لم ينسَ بعد، الحجر الذي وقع على قدمه الرقيقة...

صعدت الدرج إلى غرفتي بحدة، استدعت ضحك المدعوات. رغم ذلك، عدت أدراجي وقلت:

-أظن أني تكلمت بما لا يليق بفتاة في الرابعة عشر من عمرها، أرجو منكن قبول اعتذاري...

عاودت الصعود إلى غرفتي بحدة ثانية، أطرقُ خشب الدرجات بكعبيّ، ثم صفقت باب غرفتي بعنف وألقيت نفسي على السرير بغضب. سمعت صوت المدعوات في الصالة يضحكن. لعنهن الله.

ربما لا فرصة لي للشجار مع كامران وشدّ شعره إلا بزواجنا!

قبيل انتهاء العطلة الصيفية وحتى ابتداء امتحانات الإكمال، يعود الصخب والحركة إلى المدرسة، ويتم إعداد الملابس الحريرية البيضاء الطويلة وأكاليل من نسيج "التول" كإكليل العرائس، لزميلاتي اللاتي سيبلغن الرابعة عشر من عمرهن في الربيع. تلك التحضيرات تتم من أجل احتفالات عيد الفصح والعشاء الرباني، ومراسم خطوبتهن على السيد المسيح.

كانت طقوس الخطوبة في غاية الروعة. تجري في ضوء الشموع في الكنيسة ومصاحبة كورال الكنيسة بالتراتيل والعزف على الأورغ، بجو عابق برائحة زهور الربيع والبخور. لكن تلك الفتيات يقمن بخيانة السيد المسيح الوسيم ببشرته بلون شمع العسل وعينيه الزرقاوين، مع فتيان من أعمارهن، أثناء العطلة التي تعقب احتفالات عيد الفصح.

مع العودة إلى المدرسة، تعود تلك الفتيات، وفي جعبتهن ما قدّمه لهن أصدقائهن الشباب من رسائل الغرام والصور والأزهار المجففة والأيقونات.

تمتلئ ساحة المدرسة بمجموعات صغيرة متباعدة في أرجاء الحديقة، يتهامسن ويتأملن صور أصدقائهن، ويستعرضن هداياهن ويقرأن رسائل بعضهن لبعض. كنت الطالبة الوحيدة التي تمضي تلك الفترة وحدها،

لا مغامرات عاطفية تُروى لي ولا صديق لي أتحدث عنه. كن يرين أني فتاة غريبة الطباع، يخشينني أكثر مما يخشين الراهبات، ويتحاشين من بث أسرارهن الخاصة إليّ، فأنا ثرثارة لا تبتل حبة الحمص في فمي كما كان يقول العم ذو اللحية عني. أسرع بنشر خبر رؤيتي لإحدى الزميلات، وهي تتلقى أزهاراً بريئة من أحد الشباب، من بين القضبان الحديدية لسور المدرسة. ربما لأن مثل هذه التصرفات، ما كانت تستهويني.

كانت زميلاتي يخشين من تعليقاتي الساخرة، فلا أزال أذكر سخريتي من ميشيل، رغم أنها أقرب صديقاتي وأكثر طالبات الصف اجتهاداً، حين كنا في صالة المطالعة المسائية. استأذنت ميشيل الراهبة المشرفة لتجلس مع إحدى الطالبات الكسولات في الخلف، بحجة تدريسها تاريخ روما. كنا نعلم جميعاً أن الحديث سيدور حول أحد أصدقائها الشباب. فجأة، سمعنا صوت بكاء وشهيق، اخترق الصمت المطبق على صالة المطالعة. التفتت الراهبة نحو ميشيل وقالت:

-ما الخطب يا ميشيل، لِمَ تبكين؟

خبأت ميشيل وجهها المُبللّ بدموعها بيدها، فأجبت على الفور:

-ميشيل تبكي حزناً لهزيمة أهل قرطاج.

ضجت الصالة بالضحك.

ما أردت قوله إن لزميلاتي كل الحق بالابتعاد عني. لكن بقائي وحيدة، ومعاملتي كفتاة طائشة بدأ يزعجني.

شارفت أعمارنا على الخامسة عشر. معظم أمهاتنا تزوجن في مثل هذا العمر، وجداتنا يخشين علينا من العنوسة، ويهرعن إلى مقام الصحابي أيوب يشعلن الشموع ويتلون الأدعية متضرعات له ليبعث لنا زوجاً مناسباً.

لم تطل قامتي كثيراً، لكن مظاهر الأنوثة بانت على جسدي، وأنوار وألوان جذابة بدأت تشعّ من وجهي، وكان العم ذو اللحية، يقربني من النافذة ويحدّق بعينيه المصابة بقصر نظر شديد، في وجهي ويقول :"ما هذه البشرة يا ابنتي؟ كأنها قطعة من نسيج البركال الفاخر!". رغم ذلك، لم أكن راضية عن جمالي، وكلما نظرت إلى المرآة، أخرج لساني وأحْول عينيّ وأسخر من نفسي.

كانت عطلة عيد الفصح، أحب العطل إلى نفسي. أمضي خلالها أسبوعين في كوزيتاي. تصادف موسم نضوج ثمار الكرز، أحب الفواكه إلى نفسي. أمضي أيام العطلة الأربعة عشر فوق أشجار الكرز في حديقة القصر، ولا يحلّ موعد العودة إلى المدرسة حتى أكون قد التهمت مثل طيور الدوري، ثمار الكرز جميعها.

قبيل ذات مساء، كنت جالسة على إحدى الشجرات المطلة على الشارع، آكل حبات الكرز، ألعب ببذورها وأرشقها بعيداً في الهواء. أصابت إحداها أنف أحد جيراننا بينما كان يمر من أمام حديقتنا.

دُهش الرجل المسن حين تلفّت حوله فلم يرَ أحداً. همّ الرجل بمتابعة مسيره ظناً منه أن البذرة قد أسقطها طير غاب واختفى. رغم خجلي مما فعلت، لكنني لم أتمالك نفسي من الضحك.

حدّق الرجل في الشجرة ليرى فتاة جالسة فوق الشجرة تضحك. قطّب حاجبيه وقال:

-مرحى لك يا ابنتي المحترمة. هل تظنين أن هذا يليق بفتاة بالغة بعمرك؟

شعرت بحرج شديد، وتقلّب لون وجهي البركال من الخجل، وتمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعني. رغم المجازفة باحتمال السقوط عن الشجرة، لكنني أدّيت بكفيّ حركة التوسل والتضرع كما تفعل الراهبات أمام تماثيل مريم العذراء والسيد المسيح، وأحنيت رأسي وقلت:

-أرجو أن تغفر هفوتي هذه يا سيدي. أقسم بالله أنها عن غير عمد. مجرد قلة انتباه يا سيدي...

صدق ظني بانخداع الجار العجوز بحركة الندامة ورعشة صوتي، فهدأ ولان، وبدا أنه فكّر بمقابلة هذه المبادرة اللطيفة بقول نصوح بما يتناسب وعمره:

-ألا تعلمين يا آنستي ما قد يعكس عليك هذا التصرف من ضرر؟

فتحت عيني على سعتها متظاهرة بالدهشة رغم إدراكي ما يرمي إليه:

-لماذا يا سيدي؟ قلت.

نظر إليّ حاجباً الشمس بكفه عن عينيه، وقال ضاحكاً:

-كأن أتردد قبل التقدم لخطبتك لابني.

ضحكت بدوري.

-لا داعي لترددك. لن تخطبني لابنك حتى لو أبديت رزانة أكبر.

-لماذا؟

-مساوئي أكبر من صعود الشجر ورشق بذور الكرز... فأنا لست فتاة غنية... وكما أسمع فالكل يسعى خلف الفتيات الغنيات... ولا أملك ما يكفي من مقومات الجمال... ربما ذلك أشد سوءًا من الفقر...

أمتع كلامي الرجل العجوز، فاسترسل في الحديث:

-لِمَ تظنين أنكِ لست جميلة؟

قطّبت حاجبيّ:

-ماذا تقول؟ ألا أعرف نفسي؟ ألا ينبغي أن تكون الفتاة بقامة ممشوقة وعينين زرقاوين أو خضراوين؟

يبدو أن هذا الرجل العجوز كانت له مغامرات عديدة مع النساء في شبابه:

-آه يا صغيرتي المسكينة. ما زلت صغيرة لتدركي ما هو جمال الروح ولتعرفي جمالك الحقيقي... دعك من هذا الكلام الآن وقلي لي ما اسمك؟

-طائر النمنمة.

-ما هذا الاسم؟

-باردون، هذا ما يطلقونه عليّ في المدرسة... اسمي الحقيقي فريدة. اسمٌ مثلي لا رقيق ولا جميل.

-آنسة فريدة... اسمك جميل مثلك، كوني على ثقة... ليتني أجد فتاة مثلك لابني.

شدّني حديث الرجل لدماثته ورقّة صوته، فتابعت قائلة:

-إذن، لا مانع لديك من رمي له بحبات الكرز؟

-طبعاً... طبعاً. لا شك في ذلك.

-لكن أرجو أن تنتظر قليلاً، سأقدّم لك بعضاً من حبات الكرز. إن قبلتها فذلك يعني قبولك اعتذاري... أعطني قليلاً من الوقت حتى ألتقطها.

بينما كنت أتسلق الأغصان بخفة سنجاب، غطى الجار العجوز عينيه بكفيه وصاح بهلع:

-حذار يا صغيرتي! لن تحملك هذه الأغصان الضعيفة. لا أريد أن أكون سبباً بإصابتك بمكروه يا آنسة فريدة.

كنت أحدّث نفسي غير مبالية بجزعه:

-لا تجزع... لقد اعتدت على الوقوع عن الأشجار... لو كنت قريباً مني لأريتك ما في ذراعيّ من ندب. لا ضير من ندبة جديدة تضاف إلى ميزات جمالي.

-حذار يا بنيتي... ستقعين...

-انتهى الأمر بسلام يا سيدي... لكن كيف سأناولها لك؟ تريّث! وجدت وسيلة مناسبة...

أخرجت منديلي من جيبي وملأته بما جمعته من حبات الكرز ثم عقدته جيداً:

-المنديل نظيف ولم أستخدمه بعد... هيّا استعد لالتقاطه ولا تدعه يسقط على الأرض... واحد... اثنان... ثلاثة...

التقط الجار العجوز صرةّ الكرز بخفّة غير متوقعة.

-الشكر الجزيل يا ابنتي، لكن كيف سأعيد لكِ منديلك؟

-لا بأس... اقبله كهدية مني!

-لماذا؟

-لِمَ لا؟ تبادر إلى ذهني أمر ما... سأعود إلى سكن الطالبات في المدرسةَ بعد بضعة أيام... تلتقي زميلاتي بأصدقائهن خلال العطلة. يروين مغامراتهن لصديقاتهن بعد عودتهن من العطلة. يخفين ذلك عني، وربما يسخرن مني لأنه لا صديق لي مثلهن. ما تبادر إلى ذهني، أن أتظاهر بالشرود عند عودتي إلى المدرسة، أتنحى جانباً وابتسم بحزن كأنّي أحمل

سراً في صدري. سيحاولن كشف سري بسؤالي عما يختلج في صدري. بعد طول تمنع منّي وطول إلحاح منهن، أصر عليهن بالقسم بعدم إفشاء سري، وألفّق حكاية عن مغامرة عشتها خلال العطلة.

-ما هي هذه المغامرة؟

-سأدّعي أني التقيت شاباً طويل القامة أشقر الشعر... بالتأكيد لن أقول أبيض الشعر، فلابد أن شعرك كان أشقر في شبابك... سينتابهن الفضول ويشرعن بطرح الأسئلة. سأقسم أنه يراني جميلة. سأذكر أني قدمت له كرزاً بمنديلي. كلا، هذا ليس رومنسياً... سأقول، قدمت له وردة... ذلك ليس مناسباً أيضاً... لا تقدم الورود بالمناديل. سأكتفي بالقول إنني قدمت له منديلي كتذكار حين افترقنا عند انتهاء العطلة، وهكذا تنتهي حكايتي.

ضحك الجار العجوز ودعاني بالفتاة الشقية، ثم استأذن بالانصراف ملوحاً بكلتا يديه.

حادثة أخرى وقعت نتيجة هوسي بتسلق الأشجار، لا أزال أذكر تبعاتها. ذات ليلة مقمرة من ليالي شهر آب الحارة، استقبلت العائلة جمعاً من الضيوف في حديقة القصر. أرملة في الثلاثين من عمرها تُدعى نِريمان كانت من بين المدعوات. أذكر أنها كانت تتردد على القصر من حين إلى آخر، وتلقى من خالاتي وحتى الخادمات كل الترحيب والإعجاب. كانت لا ترتدي سوى ثياباً سوداء دائماً. كان الجميع يظنون أن ذلك حداداً على زوجها المتوفي منذ أكثر من سنة، وتعبيراً عن مدى وفائها وإخلاصها له. لكنني كنت على يقين بأن الأسود لو لم يكن يليق بمحياها

الأبيض لما استمرت بالحداد ولألقت ثياب الحداد كلها في القمامة في اليوم الأربعين لوفاته.

سعت نِريمان إلى التقرب مني بشتى الوسائل. لكنني لم أشعر بدفء نحوها، بل كنت أنفر منها وأقابل ببرود كل ما تبديه نحوي من مودة...

رغم نفوري منها، لكنني أقرّ بأنها كانت فائقة الجمال، وإن كانت تبالغ في زينتها. كما لاحظت أنها لا تشارك في أحاديث جلسات النسوة إلا لماماً. أما إذا كان في الجلسة رجل، فتتغير حالها ونظراتها وتشارك بالحديث وتطلق الضحكات من آن لآخر.

تردّد هذه الأرملة على القصر زرع الشك في صدري. لم يكن بينها وبين نجمية المدللة حديثاً مشتركاً، ولا مع خالاتي المسنات. إذن، لا مجال للشك من أن ترددها على القصر ليس من أجل سوى ابن خالتي المغفل. لا أظن أن ذلك طمعاً بالزواج منه، فهي أرملة في الثلاثين من عمرها، وهو شاب لم يتجاوز العشرين من عمره بعد، كما أن خالاتي لن يسمحن لهذه الحدأة السخيفة بخطف ابنهن. إذن، فهذه الأرملة لا تسعى إلا لإيقاع ابن خالتي في حبائلها من أجل المتعة والمال فقط...

لقد قلت إن كامران مغفل، لكن ذلك من غيظي من هذه المرأة التي تتظاهر بالوفاء والإخلاص، لكنها في الحقيقة كأم أربع وأربعين تلدغ على حين غفلة.

بدأت أراقب ابن خالتي. يحاول أن يبدو الأمر طبيعياً حين يتحدث معها، لكنه لن يستطيع خداعي...

كانت عيناي تتابعهما خلسة، بينما ألعب مع الأطفال، أو بينما ألعب الحبل وحدي، أو حين أستلقي على العشب، وحتى حين ألعب لعبة

الحظ بورق اللعب...

يكاد ابن خالتي يلصق رأسه برأس المرأة يتحدثان... أحوم حولهما من حين إلى آخر بحجج مختلفة، فيخفضان من صوتهما على الفور، أو يرفعان من صوتهما بحديث عادي. قد تقولون إن الأمر لا يعنيني وليفعلا ما يشاءان، لكن رغم خلافي معه فهو ابن خالتي، ولن أسمح لهذه المرأة المشبوهة أن تفسد أخلاقه...

لنعد إلى حكايتي في تلك الليلة المقمرة من ليالي شهر آب.

جلس الضيوف في فناء القصر، في ضوء مصباح زيت كيروسين، يتحدثون ويضحكون. ضحكات نِريمان الموزونة كنوتة موسيقية أثارت أعصابي، فنهضت من مكاني واختفيت في عتمة الأشجار في ركن بعيد من الحديقة.

اخترت شجرة دلب باسقة تتدلى أغصانها على سور حديقة جيراننا. لقد اعتدت صعودها لعزلتها، والجلوس على أغصانها دون خوف لصلابتها.

تلك الليلة أيضاً، صعدت إلى أحد أغصانها المرتفعة وجلست أتأمل العتمة حولي.

بعد وقت قليل، التقطت أذناي وقع أقدام خفيف، تلاه ضحكات مكتومة. حدّقت نحو مصدر الصوت، وأصخت السمع، فإذا بابن خالتي والأرملة تلك يتقدمان نحو شجرتي كشبحين...

تنبّهت حواسي كلها كصياد يراقب فريسته تقترب منه، وراودني إحساس غير مبرر بالخوف من صدور أية حركة مني تفضح وجودي أعلى الشجرة! لكنهما كانا في حالة هيام عميقة، لا يشعران بما يدور

حولهما، إلى أن توقفا تحت الشجرة.

تعالا إليّ يا عزيزيّ، لابد أن الله قد أوقعكما بين يدي!.. سألقنكما درساً لن تنسياه طوال حياتكما...

في تلك الأثناء، انطلقت زيزان الحصاد بإصدار أصوات منعتني من سماع همسات ابن خالتي للأرملة مغازلاً. شعرت بالغيظ حتى كدت أن أصيح بابن خالتي "أيها التعس! ارفع صوتك قليلاً!"

رحت أرتعش من الغيظ كورقة شجرة حور حين التقطت أذناي بعضاً من كلمات غزله: "نِريمان يا جميلتي، يا ملاكي...".

واصلت بذل جهد كبير كي أحافظ على توازني وأن لا أصدر أية حركة، فسمعت بعضاً من كلام نِريمان: "أرجوك يا كامران، هذا من لطفك...".

بعد أن طال تماسك أيديهما، انتقلا إلى عناق حار، وتشابك شعرهما واختلط. لم أتمالك نفسي من المفاجأة، فانطلقت مني شهقة تبعتها ضحكات متقطّعة حين شاهدت الأرملة تركض بين الأشجار، وتتخبّط ذات اليمين وذات اليسار، لا تعي ماذا تفعل.

بعد أن همّ ابن خالتي بالهرب أيضاً، عاد ثانية إلى أسفل الشجرة خجلاً.

لم أكف عن الضحك لرؤيته يدور حول الشجرة بخبث الثعلب في حكاية "الغراب والثعلب".

بعد أن تجاوز إحساسه بالخجل، رفع رأسه نحوي وقال:

-فريدة، هلا نزلت عن الشجرة يا صغيرتي؟

توقفت عن الضحك، وأجبت بجدية:

-لماذا؟

-أود التحدث معك قليلاً...

-لا شيء عندي لأتحدث به... لا تفسد عليّ خلوتي...

-فريدة، دعك من الاستهزاء!..

-ماذا تقصد؟

-ما المانع من التحدث سوية يا فريدة؟ .إن لم تنزلي عن الشجرة، سأصعد إليك...

كلام مضحك! ابن خالتي الرقيق الذي يشعر بالارتباك ويفكر لدقائق طويلة قبل أن يتجاوز مجرى ضحلاً للمياه خشية من تلوث حذائه، يهدد الآن بتسلق الشجرة غير عابئ بتلوث ثيابه!

لكنه تحوّل هذه الليلة، إلى شقي مشاكس... شرع يتنقل بخفة من غصن إلى غصن صعوداً يتتبعني...

مجرد التفكير بأن أتقابل وابن خالتي وجهاً لوجه فوق الشجرة، كان يبعث في نفسي الغضب والخوف في آن معاً. لابد أن أهجم عليه بضراوة إذا ما نظرت بقرب إلى عينيه الخضراوين كعينيّ ثعبان. أخشى أن أفقأ عينيه وأدفعه إلى الأسفل!

كان لابد من وضع حد لهذا الجنون. توقفت عن الصعود إلى أعلى وصحت به بصوت آمر قاسٍ:

-توقف عن الصعود!

لم يأبه ولم يجب. واصل الصعود ونظر إليّ.

-قلت لك توقف. ستندم إن واصلت الصعود. أنت تعلم جيداً أنني طائر النمنمة، وأن الأشجار مملكتي... ولن أسمح لأحد أن يتجاوز حدودي.

-ما هذا الهراء يا فريدة؟

حقاً كان كلامي سخيفاً!...

بينما تهيأت لمواصلة الصعود، خاطبته بسخرية:

-تعرف جيداً أنني أكن لك احتراماً خاصاً. لن أكون سعيدة إذا ما أجبرتني على إلقائك من أعلى الشجرة. حينئذ سيتبدّل صوتك الرقيق حين كنت تغازل هذه المتصابية، إلى صراخ من الألم.

كنت أضحك وأنا أقلد صوته.

-سترين ما سأفعله!

الخوف جعل منه جسوراً وسريع الحركة. واصل تسلق الأغصان نحوي صعوداً، غير مبالٍ بتهديدي.

شرعنا بلعبة المطاردة فوق الشجرة. أصعد إلى أعلى أكثر كلما اقترب مني. لكن الأغصان أصبحت أضعف من سابقاتها، ولن تحمل أوزاننا. فكرت بالقفز خلف السور أسفل الشجرة، لكنني وصلت إلى مكان مرتفع جداً، وقد تصاب قدمي أو ذراعي بالكسر، فأصرخ من الألم بدلاً من ابن خالتي.

لا مبرر من المواجهة مع ابن خالتي، وينبغي اللجوء إلى المهادنة فسألته:

- ما الذي يدعوك إلى التحدث معي بهذا القدر من الإلحاح؟

شعر ابن خالتي أيضاً بضرورة الكف عن مطاردتي، فقال معاتباً:

-كنت أمزح معك. لكنني في الوقت نفسه، أعرفك جيداً وأخشى من تصرفك الصبياني يا فريدة.

-ما الذي تخشاه من تصرفي الصبياني يا ابن خالتي؟

-نعلم كلانا أنك كثيرة الكلام، ولا تكتمين سراً أبداً...

-لا جديد في الأمر، هذا ما أفعله دائماً، أليس كذلك؟

-لكن ما حدث هذه الليلة، ليس مثل أي أمر آخر...

-بماذا يختلف عن الأمور الأخرى؟

بدا كامران مرهقاً وحزيناً جداً. ما عاد تلوث بنطاله ولا هندامه يعنيه. جلس فوق أحد الأغصان يحاول مازحاً إخفاء ما بدا من حاله وكأنه على وشك البكاء.

شعرت بالشفقة نحوه، فقلت له مواسية:

-لا تقلق. كن على ثقة من عدم حدوث ما تخشاه... هيا... عد سريعاً والتحق بضيفتك... من غير اللائق تركها وحيدة...

-أتعدينني يا فريدة؟

-أعدك...

-هل أثق بك؟

-ينبغي عليك أن تثق بي من الآن فصاعداً... ما عدت طفلة صغيرة...

-فريدة...

-كما أنني لا أعرف ما الذي تخشاه.كنت أجلس وحدي على شجرتي...

-لا أدري، لكن إحساساً في داخلي يدفعني إلى عدم الثقة بوعدك...

-أعني تماماً ما قلته إنني كبرت وما عدت طفلة صغيرة... هيّا يا ابن خالتي العزيز... لا داعي للقلق... الحركات الصبيانية ما عادت تليق بي... ليطمئن قلبك.

بدا خوف كامران يتحوّل إلى دهشة. رفع رأسه ونظره نحوي وقال بإعجاب:

-تبدين فتاة مختلفة عمّا مضى يا فريدة...

شعرت إن لم أضع حداً لحديثنا سيستمر طوال الليل، قلت بغضب مصطنع:

-اختصر... إن لم تكف عن الكلام، سأتراجع عن وعدي.

أخافه تهديدي. نزل عن الشجرة شارداً. بدا كأنه خجل من اتخاذ المسار نفسه الذي اتخذته نريمان، فمشى الهوينى في اتجاه مخالف وغاب في عتمة الحديقة.

-٥-

انقطعت الأرملة عن زيارة القصر، أما كامران، فبدا لا يزال يخشى من افتضاح أمره بزلة من لساني.

كان يحضر لي الهدايا كلما قدِم إلى استانبول. مظلة يابانية مزينة بالصور، مناديل حريرية، جوارب حريرية، مرآة تواليت على شكل قلب، حقيبة يد أنيقة...

ماذا كان هدفه من تقديم كل هذه الهدايا التي تليق بفتاة بالغة وليست طفلة مشاكسة؟ هل هناك هدف آخر سوى إغلاق منقار طائر النمنمة ومنعها من الثرثرة؟

بلغت من العمر كي أشعر بمتعة من اهتمام الآخرين بي، وأن أعجب بكل ما هو جميل.

لكنني لا أدري لماذا كنت لا أظهر أي اهتمام بهدايا كامران.

كنت أسمع عتاباً من خالاتي إذا ما أوقعت مظلتي اليابانية المزينة بالصور في الوحل، أو حين أملأ حقيبة يدي الجلدية الفاخرة بفواكه مبللة:

-فريدة! أهكذا تتعاملين مع الهدايا التي تقدم لك؟

لو شئت الاستفادة من خوف كامران، لكنت أجبرته على تقديم كل ما أريد. لكنني كنت إلى جانب تعلقي بهداياه، كنت أشعر برغبة عامرة بتحطيمها وسحقها تحت قدمي.

لماذا هذا الإحساس بالنقمة والغيظ نحو ابن خالتي؟

حين كانت العطل الصيفية الماضية تقترب من نهايتها مؤذنة باقتراب يوم العودة إلى المدرسة، كنت أصاب بالاكتئاب. على عكس العطلة الصيفية لهذه السنة، فقد كنت أعدّ الأيام للعودة إلى المدرسة.

في أول يوم الأحد بعد عودتنا إلى المدرسة، اصطحبتنا الراهبات للنزهة في محيط حي "كايتهانه". رغم عدم شغف الراهبات بالخروج إلى الشارع والتنزه، لكننا تأخرنا في التجوال ذلك اليوم، حتى هبوط ظلمة المساء.

كنت أتسكع وحدي ببطء خلف البنات، لأدرك بعد مضي وقت طويل، أنهن قد ابتعدن عني كثيراً وغبن عن ناظري. لم يدركن تأخري عنهن، فقد اعتدن على مسيري في المقدمة، دائماً.

لم يفتقدني أحد سوى ميشيل، لأراها فجأة تعود مسرعة نحوي، وتسألني باهتمام:

-لِمَ تسيرين وحدك ببطء يا طائر النمنمة؟

أشَرت إلى قدمي اليمنى المضمدة بمنديل وأجبت:

-جرحت قدمي بينما كنا نلعب قبل قليل...

ميشيل فتاة طيبة. أشفقت على حالي وقالت:

-هل أساعدك؟

-لا أظن أنك قادرة على حملي على ظهرك...

-بالتأكيد لا... لا يمكنني فعل ذلك. لكن أن أمسك ذراعك... أن تسندي ذراعك على كتفي... أن أطوقك من وسطك... سيخفف ذلك من ألمك وأنت تمشين على قدمك الجريحة.

استندت بذراعي على كتفها. في الواقع، شعرت براحة أكثر وبألم أقل.

-ميرسي يا ميشيل، أنت فتاة طيبة جداً.

بعد أن مشينا قليلاً، قالت ميشيل:

-أتعلمين يا فريدة ما الذي ستظنه البنات ونحن نمشي على هذا النحو؟

-ماذا سيظنن؟

-لاشك أن فريدة قد وقعت في الحب، وتبث لوعتها لميشيل...

توقفت على الفور وقلت:

-هل أنت متأكدة مما تقولين؟

-متأكدة.

قلت بصرامة قائد عسكري يصدر أمراً لجنده:

-إذن، دعيني أمشي وحدي.

لم تأبه ميشيل لكلامي:

-أيتها الغبية! هل صدقت كلامي؟

-ولِمَ أكون غبية؟

-لأن الجميع يعلم من تكونين!

-ماذا تقصدين؟

-لا شيء... لم ولن تحاولي التودد إلى أي شاب...

-لماذا؟.. هل تجدينني قبيحة؟

-كلا... لست قبيحة... بل حتى جميلة، لكن السذاجة والغباء لا يمكن الخلاص منها...

-هل أنا هكذا في نظرك؟

-لست وحدي فحسب، بل يراك الجميع هكذا... يقلن إن طائر النمنمة (gourde) في الحب.

لم أكن أعرف ما معنى (gourde)، لكن أظن أن هذه الكلمة الفرنسية ربما تعني يقطين أو قرع أو وباء. لكن مهما كان فلابد أنها تحمل معنى سيئاً... أيقصدن أني شبيهة بثمار القرع؟ يا للهول! لا ضير حين أطلقنَ عليّ طائر النمنمة، أما قرعة، فتلك إهانة كبرى! يجب أن أفعل شيئاً ما كي أتجاوز هذا اللقب.

أسندت رأسي على كتف ميشيل ورمقتها بنظرة حزينة وتبسمت:

-ليظننّ كما يشأنَ...

- ماذا تقصدين يا فريدة؟

توقفت ميشيل وحدقت في عيني بدهشة. هززت رأسي مؤكدة، وتنهّدت طويلاً كي أقنعها بصحة وقوعي في غرام أحد الشباب.

دُهشت وسارعت إلى رسم إشارة الصليب:

-جميل ... رائع... لا أستطيع أن أصدق يا فريدة...

كانت ميشيل المسكينة ترى في العشق سمواً، ويسعدها رؤية اثنين متحابّين.

شعرت بالخزي في داخلي لكذبتي هذه، لكن ما عاد للتراجع مجال.

-أجل يا ميشيل، وقعت في حب شاب.

-أهو حب من طرف واحد، يا طائر النمنمة؟

-بل حب من طرفين يا (grande gourde).

أضفت صفة (ضخمة) على ما نعتتني به قبل قليل، ورددتها إليها.

يبدو أن الكذب سينجيني من لقب جديد كان سيُطلق عليّ، يا لسعادتي بالخلاص من ذلك اللقب!

ضمّتني ميشيل بين ذراعيها بمودة وقالت:

-هيا يا فريدة، اروِ لي كل ما حصل. إذن أنت مغرمة أيضاً! ما أجمل الحب وأروعه! أليس كذلك؟

-جميل جداً...

-من هو؟.. هل وسيمٌ الشاب الذي تحبين؟

-وسيم جداً!

-أين رأيته؟ كيف تعرّفت عليه؟

-...

-هيّا، كفاكِ كتماناً.

وقعت في حيرة شديدة. هل أواصل تصنّع الكتمان؟ وإن لا، ما الذي ينبغي أن ألفّقه عن حكاية غرامي؟ أن أجد شاباً يخطف قلبي، أمر غير سهل...

-هيا يا فريدة... إن لم تخبريني في الحال، فذلك يعني أنك تمزحين.

شعرت بالارتباك. إن أخذت الأمر مجرد مزاح... سأستحق لقب قرعة أو يقطينة... لابد أن أنسج حكاية غرام تدهشها...

أول الأمر، لابد من إيجاد شخصية لحبيبي. لم يخطر ببالي في تلك اللحظة، سوى كامران!..

-أنا وابن خالتي على علاقة غرامية...

- هل ابن خالتك هو الشاب الأشقر الذي رأيته العام الماضي في غرفة الزوار؟

- أجل، هو.

- يا إلهي، كم هو وسيم!

هذه هي ميشيل، فتاة خُلقت من أجل الحب... لم يمرّ كامران على المدرسة سوى مرتين أو ثلاث حتى الآن... لكن ميشيل تلتقط رائحة الشباب كالتقاط القطة لرائحة الكبد. كيف علمت عن كامران وعن مجيئه لزيارتي في العام الماضي؟ هل كانت تراقبنا خلسة، يا ترى ؟

أنارت النجوم صفحة السماء المعتمة. رغم أن الوقت كان خريفاً، لكنه بدا كمساء صيف دافئ عابق برائحة الحصيد.

كنت أرتكز بكل ثقلي على كتفي ميشيل، شعرُنا ووجنتانا متلاصقة، حين شرعت بتلفيق حكايتي مع ابن خالتي:

- كان الحفل يضم جمعاً كبيراً من الضيوف في فناء القصر. الوقت ليلاً وضوء القمر يغمر أرجاء الحديقة. شعرت بالملل فانسحبت بهدوء نحو الحديقة. تبعني ابن خالتي عن قرب وراح يسمعني أحلى الكلام. لكن أرجوك يا ميشيل! لا تطلبي مني تكرار ما اسمعني إياه! تابعنا السير في ضوء القمر من الفناء حتى بركة السباحة، ثم دخلنا في عتمة الأشجار... خرجنا ثانية إلى فسحة مضيئة بنور القمر... ثم تابعنا السير بين الأشجار...

-كم هي واسعة حديقتكم، يا فريدة!

كنت أخشى من زلة لسانٍ تفضح كذبي.

- ليست واسعة جداً، لكننا كنا نمشي الهويني. بعد أن دخلنا بين الأشجار المحيطة بالقصر، وصلنا إلى نهاية الحديقة حتى سورها، إلى شجرة دلب باسقة تطل أغصانها على حديقة الجيران. وقفنا تحتها... اقتربت من السور وحاولت النظر إلى الناحية الأخرى للسور، بينما كان ابن خالتي يفرك يديه وقد بدا عليه الارتباك وقلة الحيلة...

-كيف لاحظت ذلك وأنت تديرين له ظهرك؟

-من ظلاله المنعكسة على السور...

كان ينبغي عليّ مواصلة التمثيل بشكل جيد، كأن يرتعش صوتي وتدمع عيناي...

-فهمت. تابعي يا فريدة... ماذا فعل ابن خالتك بعد ذلك؟

-بعد ذلك... أمسكني من معصمي فجأة...

-يا للرومانسية! ثم ماذا؟

-ثم... دعك يا ميشيل، لن أكمل، لقد تأخرنا عن البنات.

-لن تتوقفي عند الموقف الأشد إثارة...

-زعق غراب من أعلى الشجرة. ارتبكنا وشرعنا بالركض...

أسندت رأسي على صدر ميشيل ورحت في بكاء وشهيق. لا أعلم كم استمر بكائي، لكن لحسن الحظ، أدركت البنات غيابنا، فعدن صائحات يبحثن عنا. ردّت ميشيل على ندائهن:

-ها نحن قادمات. نسير ببطء، قدم طائر النمنمة تؤلمها...

-حقاً يا ميشيل، أبكي من ألم قدمي... لكن يمكنني المشي أسرع.

بعد أن نامت جميع البنات في مهجع المدرسة تلك الليلة، غطيت رأسي باللحاف واسترسلت في البكاء. لم أبكِ لاختلاقي حكاية غرام خيالية، بل لأنني لم أختر سوى كامران كحبيب لي لأثبت لزميلاتي أنني لست (gourde). ألم يبقَ في الدنيا أحد سوى ابن خالتي كامران الذي أكرهه، ليكون شريكاً لي في قصة غرامي؟ في النهاية، قررت أن أخبر ميشيل بالحقيقة حالما أستيقظ في الصباح.

حين استيقظت في الصباح، كان حنقي وخجلي قد زالا تماماً.

لم أجرؤ على قول الحقيقة المخجلة لميشيل بعد أن اختلفت معاملتها لي، وأصبحت فتاة طبيعية بلا عُقدٍ، في نظرها. كما ذاعت حكايتي بين زميلاتي وتغيرت معاملتهن لي نحو الأفضل. بدأت أشعر بإحساس غريب يغمرني، وبتّ مجبرة على الكف عن التصرفات الصبيانية كي أثبت لهن أنني أعيش مرحلة أكثر نضجاً تتناسب وفتاة بلغت سناً لتُحِب وتُحَب.

رغم ما يقال إن الطبع يغلب التطبّع، لكن الشيطان تابع غوايتي، وتابعت تلفيق الحكايات الجديدة لميشيل، كلما خرجنا في الاستراحات، تعانقني وتصغي باهتمام بالغ لحكاياتي.

ذات يوم، خرجنا للنزهة في السهول المجاورة للمدرسة. لم ترغب ميشيل بالخروج، ذلك اليوم. ما إن عدنا إلى المدرسة حتى قابلتنا عند البوابة. أمسكتني من ذراعي وأخذتني إلى الحديقة:

-عندي لك خبر يا فريدة قد يسعدك ويحزنك في آن واحد.

-!!؟؟

-هذا اليوم، جاء ابن خالتك الأشقر إلى المدرسة.

- ...

- لا شك أنه جاء لرؤيتك... ليتك بقيت معي ولم تذهبي إلى السهول.

لم أصدق. لا سبب يدعو كامران لزيارتي! لابد أن ميشيل قد أخطأت.

رغم شكّي، لم أبح بذلك لميشيل. تظاهرت بقناعتي بقولها وأجبتها بخبث:

-لابد أنه لم يستطع مقاومة شوقه لرؤيتي.

-لابد أنك حزينة لأنك كنت خارج المدرسة حين أتى

-أظن ذلك.

داعبت ميشيل وجنتي.

-لا تحزني، سيأتي ثانية لرؤيتك.

-لا أشك في ذلك!

ذلك المساء، استدعتني الراهبة ماتيلد، بعد العشاء. ناولتني علبتيّ حلوى مزدانة بالرسومات، وقد جُمعت معاً بشريط زينة جميل، وقالت:

-أحضرها لكِ ابن خالتك.

لم أكن أشعر براحة نحو الراهبة ماتيلد. لكنني عانقتها وقبّلت وجنتيها على مضض.

إذن ميشيل لم تكن على خطأ. أتى ابن خالتي إلى المدرسة، هذا اليوم. علب الحلوى كانت كافية لتؤكد حكايتي بين زميلاتي. يا لسعادتي!

إحدى علب الحلوى الاثنتين كانت من قطع الفوندان المحشوة، والأخرى من قطع الشوكولاتة المغلفة بالسوليفان. لو استلمت هذه

الحلوى قبل أن تشيع حكاية غرامي وابن خالتي، لكنت خبأتها بعيداً عن الأعين وأكلتها وحدي. لكن الوضع الآن يتطلّب بيّنة ملموسة لتأكيد صدق حكايتي، وهكذا، تناقلت الأيدي علبتي الحلوى أثناء ساعة المطالعة الليلية، لتعود ثانية إليّ فارغة.

أرسلت لي بعضهن إشارات ذات مغزى. أبتسم وأدير وجهي متصنعة الخجل. كم جميل أن أرى نجاح حيلتي!

همست ميشيل في أذني:

-ألا تعلمين أن هذه الحلوى تقدّم كإعلان خطوبة؟

لقد كلّفتني حكاية غرامي الكاذبة غالياً، لكنني كنت مرغمة!

بعد مضي ثلاثة أيام، وبينما كنت منهمكة برسم وتلوين إحدى الخرائط في درس الجغرافيا، دخلت بنت البواب وأبلغت الراهبة بأن ابن خالتي ينتظرني في غرفة الضيوف. كنت في حالة مضحكة وبقع الدهان تملأ يديّ ووجهي بألوان مختلفة.

نظرت بارتباك إلى الراهبة، فقالت:

-هيا يا فريدة، اتركي رسوماتك واذهبي لرؤية ضيفك... لا تدعيه ينتظر!

أترك الخرائط. لا بأس... لكن كيف أواجه ابن خالتي بحالتي هذه؟

أخرجت زميلتي الجالسة إلى جواري، مرآة صغيرة من جيبها ووضعتها أمام وجهي لتمازحني. يا لهول ما رأيت!

كانت وجنتاي وشفتاي مطلية بكل الألوان. لا يمكن إزالة هذه الألوان لا بالمنديل ولا بالماء ولا بالصابون، وإن حاولت إزالتها فالحال ستصبح أكثر سوءاً!

لم يكن يعنيني كيف أبدو أمام كامران وبأية صورة، لكن بالنسبة لزميلاتي فظهوري بهذه الحال أمام خطيبي أغرقهن في الضحك والتغامز. تباً لهن!

رأيت نفسي ثانية، في مرآة كبيرة في الردهة، ففكرت بالهرب ولكن أين؟ ما من مهرب. فتحت باب غرفة الزوار واندفعت داخلة كالعاصفة. كان كامران واقفاً أمام النافذة ينتظرني. حرت بما ينبغي عليّ فعله. هل أقترب منه وأمسك يده النظيفة فألوثها بالطلاء، رغم علمي أن ذلك قد يزعجه؟ أم أقف بعيدة عنه فأبدو كالبلهاء؟

لمحت علباً مغلفة بورق برّاق ملون. أدركت على الفور أنها إحدى هداياه لي. لمعت في ذهني حيلة تشغل انتباهه إلى حالي. أمسكت أطراف مئزري الأسود وانحنيت إجلالاً أمام العلب. لم أغفل عن مسح أصابعي بأطراف مئزري، ثم أرسلت القبلات بيدي في الهواء إلى العلب مستغلة تلك الفرصة لأمسح الطلاء عن شفتي.

اقترب كامران نحوي ضاحكاً وقد أعجبته حركاتي التي قمت بها. كان ينبغي عليّ تملقه بالكلام قليلاً:

-جميل منك هذه الالتفاتة اللطيفة، سيد كامران. تعلم كم أحب الشوكولاتة والفوندان. لكنك تسبب لي الحرج بهذه العطايا. الفوندان كان مميزاً في المرة الماضية. أرجو أن يكون مثلها في هذه العلب أيضاً. تذوب في الفم بلذة طعمها الرائع.

-ستجدين فيها شيئاً أكثر قيمة يا فريدة، قال كامران.

فتحت العلبة بانفعال ولهفة مصطنعة. كتابان بألوان جميلة برّاقة في العلبة، تشبه ما يقدم إلى الأطفال في أعياد الميلاد. هل تكلف ابن خالتي

مشقة المجيء إلى هنا كي يهزأ بي؟.. هل ينبغي أن أردّ له هذه الإهانة بأشد منها؟

تمالكت نفسي وبجدية لا تليق بشفتي المطلية بالألوان:

-تستحق الشكر على هداياك مهما كانت... لكن لابد من لفت نظرك لأمر مهم... أنت أيضاً، كنت طفلاً قبل سنوات، والآن أصبحت شاباً متزناً تشبه أبطال الروايات المصورة. هل تظن أني ما زلت طفلة لم أتغير رغم مرور السنين؟

اتسعت عينا كامران من الدهشة:

-باردون يا فريدة، لم أفهم ماذا تقصدين.

-الأمر واضح جداً. طالما أنت تتقدم في السن، فأنا أيضاً أتقدم في السن، وينبغي أن أعامل كفتاة بلغت الخامسة عشر من عمرها، لا طفلة لا تزال تقرأ حكايات "المجموعة الخضراء".

ظلّ كامران يحدق في وجهي بذهول:

-لم أفهم ما تقصدينه يا فريدة!

أبديت استغرابي من عدم فهمه بحركة من يدي وشفتي. في الحقيقة، أنا أيضاً، لم أفهم ما كنت أرمي إليه! شعرت بالندم من كلامي المبهم، وفكرت بضرورة القيام بشيء ما، يزيل غمامة سوء الفهم التي خيمت علينا.

قطعت شريط العلبة الأخرى. لمعت عيناي حين رأيت فيها قطعاً من الفوندان المحببة إلى نفسي.

انحنى كامران على الفور بحركة وقورة:

-أسعدني جداً سماعك يا فريدة، وأنت تتحدثين عن نفسك كفتاة شابة راشدة. لن أعتذر عن الكتب لأنها كما تريدين وليست كما تظنين.

لست لأغضب من كامران، فقد كان مجيئه وهداياه وحديثه وصوته يمتعني. لكن كي أتحاشى الرد على كلامه، وضعت كفي بوضعية التضرع، ولعبت دور المعجبة المذهولة من كلامه بالنظر إلى عينيه متأملة. بعد أن أنهى كلامه، هززت رأسي كي أرفع شعري المسدل على وجهي، وقلت:

-لم أصغ جيداً لما قلته، يا سيد كامران. لكن الفوندان لذيذة جداً... أقبل هديتك وأقبل اعتذارك. ميرسي جداً.

لم يرق له عدم إصغائي لكلامه، لكنه أخفى امتعاضه وتنهّد وقال بجدية:

-كما تشائين فلا هدايا أطفال بعد الآن. أقدر لك مطلبك. ستكون هدايا خاصة بالشابات.

ركّزت جل اهتمامي على الفوندان. أخرجت قطع الحلوى من العلبة وشرعت بترتيبها حسب ألوانها على جريدة كانت على الطاولة، ورحت أتكلم كلاماً فارغاً عن أصول تناول الفوندان:

-لتناول حلوى الفوندان أصولٌ ينبغي مراعاتها. اكتشفت ذلك بنفسي. أقول ذلك بكل تواضع. لا ضير من تناول القطعة الصفراء قبل القطعة الحمراء. لكن أكل القطعة الخضراء بنكهة النعناع ستُفقد لذة القطعة الصفراء. يا لهذه الحلوى ما ألذّها...

تناولت إحدى القطع وقربتها من شفتي. رحت أتحدث معها بمودة كمن يداعب عصفوراً بين يديه.

مد ابن خالتي يده وقال:

-أعطيها يا فريدة.

نظرت إلى وجهه مداعبة:

-لماذا!

-لآكلها.

-يبدو أني أخطأت بفتح العلبة إلى جوارك. هل ستأكل ما أحضرته لي؟

-هذه فقط!

يا للعجب! ألا يتقزز من التهام ما لامس شفتي؟.. أفكار ضبابية جالت في خاطري!

يبدو أني أمضيت لحظات في شرود وحيرة، إلى أن مدّ ابن خالتي يده محاولاً خطف قطعة الفوندان من بين أصابعي. لكنني كنت أكثر خفة منه، أبعدت يدي ومددت له لساني:

-ترى أنك لا تملك خفة اليد مثلي، قلت مستهزئة.

-أردت أن أبين لكِ كيف تؤكل الفوندان اللذيذة فحسب.

رميت رأسي إلى الخلف قليلاً، أخرجت لساني ثانية، ووضعت قطعة الفوندان فوقه. شرعت بتحريك رأسي ذات اليمين وذات اليسار متلذّذة بذوبان الحلوى. فمي المفتوح منعني من الكلام فشرعت أبيّن لذة الحلوى بحركات من يدي. لم أتمالك نفسي من نظرات ابن خالتي المندهشة فشرعت بالضحك.

ثم تظاهرت بالجدية ومددت علبة الحلوى نحوه:

-يمكنني الآن إكرامك بقطعة منها ما دمت قد تعلمت كيف تؤكل.

أبعد كامران العلبة بحدة مشوبة بالمزاح وقال:

-لا أريد، كليها كلها وحدك.

لم يبقَ ما يمكن الحديث حوله، بعد أن سألته عن أحوال الأهل من قبيل المجاملة، وحملته لهم سلامي. تأبّطت علب الحلوى وتهيأت للمغادرة، سمعت أصواتاً في الغرفة المجاورة لغرفة الزوار. شنّفت أذني كقطة وأصخت السمع مصغية.

باب الغرفة المجاورة والمخصصة للوحات وخرائط المدرسة قد فُتح، ثم صوت صدر كسقوط إحدى اللوحات على الأرض، ثم صوت كقرض الفئران خلف الباب الزجاجي الفاصل بين الغرفتين.

أدرت وجهي نحو الباب بخفة دون أن ألفت نظر ابن خالتي، فرأيت ظل رأس خلف الزجاج المغشى للباب... أدركت على الفور أن ميشيل قد دخلت الغرفة المجاورة كي تراقبنا، بعد أن خدعت الراهبة الغبية بحاجتها إلى إحدى الخرائط.

اختفى الظل. لكنني كنت على يقين من مراقبتها لنا من ثقب المفتاح. ماذا أفعل؟ لابد أنها تنتظر أن ترانا متشابكي الأيدي مثل كل العاشقين. إن غادرت الغرفة دون وداع ابن خالتي كعاشقين، ستكتشف كذبي وتسخر مني وقد تعنفني لخداعها.

خشيتي من اكتشاف ميشيل حقيقة حكاية غرامي جعلني أفكر بالقيام بحيلة مناسبة. قد يكون ذلك تصرفاً مشيناً، لكن ما دمت قد بدأت هذه الكذبة فينبغي عليّ مواصلتها حتى النهاية.

ميشيل، لا تجيد اللغة التركية مثل غالبية زميلاتي في المدرسة، لذا لن تفهم ما يدور من حديث بيني وبين ابن خالتي. المهم في الأمر أن يكون في صوتي وحركاتي ما يشبه صوت وحركات متحابين اثنين... فأسرعت بالقول لكامران:

-كدت أن أنسى، هل حفيد مرضعتك في القصر؟
حفيد المرضعة يتيم يقيم في القصر منذ سنوات.
بدا كامران وقد أدهشه سؤالي:
-بالتأكيد لا يزال في القصر. أين سيذهب؟
-صحيح... أعرف ذلك. لكن... مجرد سؤال. كم أحب هذا الصبي...
تبسم ابن خالتي:
-استغرب من قولك هذا، لم أركِ يوماً تهتمين بأمره...
رفعت ذراعيّ كعاشقة:
-كيف تدّعي ذلك، أرجوك، هذا جنون. المحبة تكمن في القلب... كم أحب هذا الصبي...

كررت كلمة "أحب" وأنا أحني رأسي وأضم يديّ إلى صدري كحركات الممثلة التي أدّت دور غادة الكاميليا على خشبة المسرح، بينما كنت أنظر بطرف عيني إلى الباب الزجاجي.

إن كانت ميشيل تعرف ست كلمات تركية، فمن المؤكد أن ثلاثاً منها ستكون "حب وغرام وعشق"، لكن إن كنت سأنجح بخداع ميشيل، فالأمر لم يكن كذلك بالنسبة لكامران. لقد شرع بالضحك من كلامي وحركاتي:

- ماذا جرى لكِ يا فريدة؟ قال.
ما عاد التراجع ممكناً. أجبت بالحرارة نفسها:
-ماذا أفعل، هو كذلك... أحب ولا شيء سوى الحب. هل توعدني؟ أرجو أن تقدّم لهذا الصغير souvenir باسمي... souvenir d'amour...

كنت أتوق إلى تقديم شيء ما إلى كامران على مرأى من ميشيل. لكن لسوء حظي لم أجد في جيوبي سوى قصاصات ورق قد أعددتها لقذفها على الراهبة العجوز أثناء ساعة المطالعة المسائية، لكنني تداركت الأمر وأمسكت بيدي كامران كأني أهم باحتضانه وقلت:

-تحتضن هذا الصغير نيابة عني وتقبله من وجنتيه وعينيه... عدني أن تفعل ذلك يا كامران.

بدونا كامران وأنا كأننا نحتضن بعضنا بعضاً حتى اختلطت أنفاسنا. ذُهل ابن خالتي المسكين ولم يجد تفسيراً لحماسي هذا.

أديت دوري بنجاح، وحان وقت إسدال الستارة. تركت يديّ كامران واندفعت خارج الغرفة لاهثة. كنت أنتظر أن تلحق ميشيل بي إلى الردهة وتعانقني بحرارة. توقفت حين لم أجدها واستدرت متجهة بهدوء نحو غرفة اللوحات. فتحت الباب بهدوء. يا للمفاجئة! معلم دروس الموسيقى الأب كسافيه العجوز يعتلي أحد الكراسي بساقيه المرتعشتين، ويبحث عن دفاتر النوتة في الرفوف العلوية لإحدى الخزائن...

يا للخزي! بهدلت نفسي أمام كامران ظناً مني أن ميشيل تراقبنا!

نار كانت تستعر في وجهي كأنني مصابة بنوبة حمى. خرجت إلى الحديقة وغمرت وجهي ورأسي بمياه الحنفية.

بينما كنت أتّقد من الحمى وأرتعش والمياه تقطر من شعري ووجهي، تساءلت: إن كان تمثيل العشق يسبب الحمى والارتعاش فكيف يكون الحال إن كان العشق حقيقياً؟!

في تلك السنة، زارني كامران مرات لا تعد ولا تحصى في المدرسة، حتى غدا قلبي يخفق وأتوقع دعوتي إلى غرفة الزوار، كلما فُتح باب الصف أثناء الدرس. كما تنعّمت زميلاتي بكل ما كان يجلبه لي من شوكولاتة وكعك وجاتو.

ماري بيرلانتاجيان، المعروفة بين زميلاتي في الصف بشراهتها إضافة إلى اجتهادها، لم تفلح بإخفاء حسدها وإعجابها بينما كانت تلتهم حلواي بنهم وتقول:

-لاشك أن صديقك شديد العشق لكِ حتى يقدم لك كل هذه الحلوى اللذيذة!

لكن هذه الحكاية بدأت تسبب لي الضجر والتساؤل إن كان وراء كل تلك العطايا ضمان لسكوتي عن مغامرته مع الأرملة نِريمان. هل يظن كامران أنه قادر على خداعي مبرراً كثرة زياراته لي بحجج مختلفة كأن يقول: "جئت لزيارة صديق مريض يقطن قريباً من المدرسة، أو جئت لحضور حفل موسيقي في حديقة "التكسيم"، رغم أنني لم أسأله يوماً عن سبب زياراته المتكررة. إلى أن قال ذات يوم:

-كنت في زيارة لأحد أصدقاء أبي القدامى في حي "نيشانطاشي"... صديق كان عزيزاً جداً على أبي.

لم أتمالك نفسي فباغته بسؤالي:

- ما اسمه؟ وماذا يعمل؟ وما عنوان بيته؟

بحُث ابن خالتي حتى أنه لم يسعه التفكير لاختلاق اسمٍ وعنوان لهذا الرجل. تقلّب لون وجهه وحاول مراوغتي بالضحك قائلاً:

-لِمَ كل هذا الفضول؟ أنتِ لا تعرفينه.

أدركت عدم صدق ادعائه، فقلت:

-سأسأل خالتي عنه في عطلة نهاية الأسبوع.

ازداد وجهه احمراراً وشرع بالتوسل:

-أرجوك، لا تسألي أمي عنه. لا ترغب بزيارتي له!

يا لهذا الأشقر المخادع! أيظن أنه قادر على خداعي؟ أعلم جيداً كيف وماذا يفكر.

نهضت بعصبية، دسست يدي في جيبي وحاولت بصعوبة تمالك نفسي:

-أنت مخطئ إن كنت تظن أني معنية بأصدقائك أو أصدقاء أبيك.

منذ ذلك اليوم، صرت أختلق الأعذار كي لا أقابل كامران في زيارته إلى المدرسة، وأوزع كل هداياه من الحلوى على زميلاتي دون أن أتناول ولا قطعة واحدة منها. الحقيقة كانت جلية، الأرملة تقيم في مكان قريب من المدرسة، ولابد أنهما اتفقا على اللقاء في بيتها منذ ليلة الحادثة في الحديقة. لذا كان يزورني كلما ذهب إلى بيتها.

ليفعلا ما يشاءان من فسق... الأمر لا يعنيني، لكن أغضبني كثيراً أن أكون مطية للهوهما. كنت أشعر بنار تستعر في جسدي كلما يخطر في بالي ما يفعلانه، حتى أنني كنت أدمي شفتي من الضغط عليهما بأسناني كي لا أبكي من شدة حنقي.

لم أحاول سؤال أهلي عن مكان إقامة نريمان، لكن مجرد ذكر اسم تلك المرأة كان يفقدني صوابي.

ذات يوم عطلة بينما كنت في القصر، سمعت إحدى الضيفات تقول لنجمية:

-استلمت رسالة من نريمان قبل يومين. يبدو أنها سعيدة جداً...

كنت أستعد لأغسل الكلب الفينو صغير الحجم، في مياه البركة. حين سمعت ما قالته تلك الضيفة، تركت الكلب على الأرض بهدوء وأصخت السمع من خلف الباب:

كنت أمنع نفسي من السؤال عن أخبار الأرملة، لكنني لم أستطع منع أذني من سماع أخبارها...

تابعت الضيفة كلامها:

-تبدو نريمان سعيدة جداً بزواجها الجديد. ليسعدها الله بهذا الزواج.

كادت نجمية أن تغلق الحديث حين كررت قول المضيفة بحماقة:

-أجل... ليسعدها الله بهذا الزواج!

ما كان هناك من حل سوى التدخل. قلت باستهزاء:

-هل تزوجت السيدة المصون ثانية؟

-من تقصدين؟

-السيدة صاحبة الرسالة، نريمان...

أجابت نجمية بدلاً من الضيفة:

-ألا تدرين؟ لقد مضى على زواجها أكثر من ستة أشهر... لقد تزوجت من مهندس، وتقيم معه في إزمير.

كرّرتُ مثلها ما قالته الضيفة "ليسعدها الله بهذا الزواج"، واحتضنت الكلب واندفعت خارجة إلى الحديقة. ما عاد تحميم الكلب يعنيني، وانطلقت أركض وأقفز في الحديقة وبين أشجارها.

-٧-

في عطلتي الصيفية تلك، قمت برحلة إلى مدينة "تكيرداغ"... أعطاني الله خالات بديلاً عن أمي. خالتي عائشة، تقيم مع زوجها عزيز والي تكيرداغ. تكبرني ابنتها موجغان بثلاث سنوات، كانت الأقرب إلى قلبي من بين كل قريباتي.

لم تكن موجغان على درجة من الجمال، لكن كنت أراها جميلة بطباعها. كنت أرى فيها أختاً كبيرة رغم ضآلة فارق السن بيننا. كانت رزينة وعاقلة بقدر ما كنت شقية وطائشة. لم أرضخ في حياتي لأحد سواها. أستمع لنصائحها دون تذمر أو ملل. هل ذلك من شدة حبي لها، يا ترى؟

كانت موجغان تتردد بين الحين والآخر على استانبول. تقيم في القصر عند خالتي بسيمة عدة أسابيع، وأحياناً عند خالاتي الأخريات.

ذلك الصيف، كتبت خالتي عائشة إلى خالتي بسيمة تدعوني فيها لقضاء عطلتي الصيفية عندها. جاء في رسالتها: "أنا أيضاً خالة فريدة. إن لم تسمحي لفريدة بقضاء عطلتها الصيفية هذه عندنا، صهرها عزيز وأنا وموجغان سنقاطعك مدى حياتنا".

كانت خالتي بسيمة ونجمية تريان في تكيرداغ كأنها نهاية العالم. حدقتا بعيداً وقالتا: "يا إلهي! مستحيل، كيف ستسافر فريدة إلى تكيرداغ؟"

انحنيت أمامها باحترام هازئ وقلت:

-من بعد إذنكم، سأنال شرف إثبات أن لا شيء مستحيل.

معظم زميلاتي كن يتباهين بسفرهن مع أهاليهن في العطلة الصيفية، ويجدن ما يتحدثن به في المدرسة، عما شاهدنه أثناء رحلاتهن. دعوة خالتي عائشة لي لزيارتها في تكيرداغ، ستعطيني الفرصة للحديث عن رحلتي والتباهي مثلهن.

كنت أرغب بالتباهي أمام زميلاتي بحكاية جديدة عن رحلتي الصيفية تلك كي أضيفها إلى حكاية غرامي التي تناقلنها في السنة الماضية. لكن رغبتي كانت بالقيام بمغامرة كمغامرات الفتيات الأمريكيات في الروايات، أحمل حقيبتي على ظهري وأسافر وحدي في البحر على متن سفينة. لكن خالاتي واجهن رغبتي هذه برفض شديد، وأَبَيْنَ سفري دون مرافق يحرسني طوال الرحلة. لم يتركن لي المجال بالاعتراض. ورغم قرارهن بمرافقة حارس لي، لكن ذلك لم يمنعهن من تقديم لائحة من النصائح مثل: "لا تُدَلّي رأسك من ظهر الباخرة إلى البحر مع حلول الظلام، لا تتحدثي مع أحد، لا تنزلي سلالم الباخرة كالمجانين". طعنت هذه النصائح كبريائي، وكأني سأسافر على متن باخرة عابرة للمحيطات متجهة إلى أمريكا لا باخرة صغيرة بحجم الحذاء وجهتها تكيرداغ.

عامان مضيا على آخر لقاء لي مع موجغان. كبرت موجغان وبدت كسيدة في منتصف العمر، تتحدث بكل رزانة ووقار. لكن ذلك لم يؤثّر على الود والتفاهم بيننا، ولا على محبتي لها.

شكّلت خالتي وموجغان صداقات عديدة في تكيرداغ، وشاركتهن تلك الصداقات، خلال إقامتي عندهن. الزيارات والدعوات لا تتوقف، إما دعوات مغلقة داخل البيوت أو دعوات في الهواء الطلق في البساتين.

تعلمت من موجغان أن أكون على درجة مقبولة من الرزانة. ما عدت فتاة صغيرة لأقوم بتصرفات غير لائقة. أحيي المدعوات أو صاحبات الدعوات بكل رزانة وأجيب بلطف وجدية على أسئلتهن وأشاركهن الحديث، رغم عدم قناعتي بهذا النوع من المجاملات.

لا أنكر أنني أمضيت وقتاً ممتعاً، لكنني كنت أشعر بالمتعة أكثر حين أكون وحدي مع موجغان.

كان بيت صهري على تلة مرتفعة تطل على البحر. وجدت لنفسي طريقاً مختصراً للنزول سريعاً إلى شاطئ البحر. لكنه كان خطيراً بالنسبة إلى موجغان. حاولت منعي في البداية، ثم اعتادت عليه. نستلقي لساعات طوال على الرمال. نتبارى برمي الحجارة في الماء، نمشي على امتداد الساحل ونذهب بعيداً، وتردّد صخور الساحل ضحكاتي.

البحر في هذا الموسم، جميل وهادئ، لكنه يبعث على الضجر. تمر ساعات وساعات دون أن نرى في البعيد، شراعاً لمركب أو دخاناً لباخرة. قبيل المساء تبدأ المياه بالتمدد بين صخور الساحل بشكل كبير، لكنني كنت أعي خطورتها.

ذات يوم، مشينا موجغان وأنا، بعيداً حتى لسان صخري داخل البحر. عزمنا على الوصول حتى خليج صغير شكّلته صخور اللسان تراءى لنا من بعيد. لكن بعد أن قطعنا شوطاً طويلاً فوق الصخور، ما كان بالإمكان الوصول إلى الخليج إلا بالخوض في المياه. كعادتي تسعدني كثيراً تلك المغامرات. لكنني كنت أعلم أن لا سبيل لإقناع موجغان بضرورة خلعها لحذائها وجواربها كي نواصل تقدمنا. ما كان أمامي سوى أن أعرض عليها حملها على ظهري. فصاحت مذعورة:

-يا لكِ من مجنونة! هل تظنين أنكِ تستطيعين حملي؟

موجغان المسكينة، ظنت أني لا أقوى على حملها لأنها أكبر عمراً وأطول قامة مني. اقتربت منها بهدوء وخفة، وأمسكتها من وسطها ورفعتها في الهواء:

-دعينا نجرب.

ظنّت موجغان أن الأمر ليس سوى تجربة لبضع خطوات، فحاولت الإفلات من يديّ ضاحكة:

-لا تقومي بحركة جنونية، دعيني. لن تستطيعي حملي.

حين حملتها على ظهري وتابعت السير في الماء بقدمين حافيتين، شرعت بالتخبّط والصياح.

-أنتِ خفيفة كريشة. لكن كفّي عن الحركة، وإلا أوقعتنا معاً. لا تخافي ودعيني أكمل طريقي.

خُطف لون المسكينة من الخوف وأغلقت فمها وعينيها، وتصلبت فوق ظهري بلا حراك.

حين وصلنا إلى نهاية اللسان، فوجئنا بزورق شُدّ إلى اليابسة وإلى جواره ثلاثة صيادين. توقفوا عن تناول طعامهم وشرعوا بالنظر نحونا بدهشة.

خافت موجغان وتمسكت بذراعي بشدة وهمست في أذني:

-أسعيدة أنتِ الآن، بما ورطتنا به؟ ماذا سنفعل الآن؟

أجبتها ضاحكة:

-الصيادون لا يأكلون البشر.

في الواقع، لقد كنا في حال مضحكة. ساقاي مكشوفتان حتى الركبتين، وحذائي وجواربي في يدي.

تهيأت موجغان للفرار كعنكبوت يهرب من أمام مكنسة، في حين لم أجد مبرراً للخوف.

شرعت بطرح أسئلة على الصيادين لمجرد الكلام مثل: "لِمَ غمرت المياه الشاطئ... أين اصطادوا السمك..؟"

أحد الصيادين الثلاثة عجوز ملتحي، والآخران شابان في العشرين من العمر.

بدا الخجل واضحاً على الشابين. رغم أن العجوز قد أجاب على أسئلتي لكنه لم يكن أقل من الشابين ارتباكاً. وحين سألني من أكون، أجبته بعد تلكؤ: "اسمي ماريكا. جئت من استانبول في ضيافة عمي التاجر هنا"، ثم ابتعدت.

أمسكت موجغان بذراعي وسحبتني مسرعة:

-جازكِ الله، ما هذا الذي فعلته؟

-لا أدري... نصحتني خالاتي في استانبول أن لا أتكلم مع الغرباء وأن أكون حذرة في تصرفاتي هنا... كل حركة تؤديها الفتاة قد تفتح باباً للقيل والقال هنا، وقد خشيت أن يظن الصيادون بي سوءًا حين يرون فتاة مسلمة مكشوفة الرأس والساقين...

خلاصة القول، موجغان فتاة خوافة تعمل من الحبة قبة...

-٨-

قبيل المساء، بينما كنت أتجول وموجغان متشابكتي الذراعين، لمحت ضابط خيّالة شاب يحوم حولنا، متظاهراً بتدريب حصانه. كان لا يكفّ عن العدو بحصانه جيئة وذهاباً في طريقنا، كأنه لا يوجد طريق سواها في بلاد الله الواسعة، ليدرب حصانه، بل تمادى بالاقتراب منا وتوجيه بصره نحونا، حتى ظننت أنه سيتوقف ويتحدث معنا.

في يوم آخر، اقترب الشاب نفسه بحصانه من جوارنا، حتى دفعنا إلى الابتعاد خلف الأشجار.

ضحكت وتنحنحت قائلة:

-وصلتني الرسالة يا موجغان!

التفتت موجغان نحوي وقالت:

-ماذا تقصدين يا فريدة؟

-لقد تجاوزت مرحلة الطفولة يا أختي... من الواضح أنكِ وهذا الضابط متعارفان.

ضحكت موجغان:

-أأنا وهذا الضابط؟ يا لكِ من طفلة مجنونة!

-ما العيب في الأمر يا عزيزتي؟

-أتظنين أنه يقصدني بحركاته تلك؟

-لست غبية إلى درجة عدم ملاحظة ذلك.

ضحكت موجغان ثانية بارتباك. ثم تنهدت قائلة:

-لست بفتاة يحوم حولها الشباب... إنه يحوم حولكِ يا صغيرتي...

فتحت عينيّ بدهشة:

-ماذا تقولين يا موجغان؟

-أجل، إنه هنا من أجلك أنتِ... أراه في هذه النواحي قبل مجيئك، لكنه كان يمر دائماً على حصانه ويمضي في طريقه دون أن يعيرني انتباهاً...

خرجنا تلك الليلة بعد العشاء، وتمشّينا نحو البحر.

قالت موجغان:

-ما بكِ يا فريدة صامتة، لا تتكلمين؟

أجبت بعد لحظات صمت:

-لا أكفّ عن التفكير بما قلته صباحاً، أشعر بالاستياء.

دُهشت موجغان:

-ماذا قلت؟

-لست بفتاة تسمح للشباب بالحوم حولها، قلت.

أطلقت موجغان ضحكة قصيرة:

-أعلم ذلك، لكن ليس لكِ دور فيما يجري.

أمسكت يديها وقلت بصوت عميق وعينين مغرورقتين:

-هل تظنين أنكِ غير جميلة يا أختي؟ قلت.

ضحكت ثانية وداعبت وجنتي بصفعة خفيفة:

-لا قبيحة ولا جميلة!.. دعكِ من هذا الكلام... هل تعلمين أنك تثيرين الإعجاب بعد أن كبرتِ؟

وضعت يديّ على كتفيّ موجغان، ولامست أنفها بأنفي كمن سيقبلها:

-وأنا مثلك يا موجغان، لنغلق هذا الموضوع، قلت.

وصلنا إلى حافة التلة الحادة. شرعت بجمع الحجارة ورميها إلى البحر. فعلت موجغان مثلي، لكن المسكينة ضعيفة ولا تجيد رمي الحجارة كما أجيدها.

كانت حجارتي تختفي في الهواء عالياً، ثم تسقط في الماء محدثة وميضاً كهلامية بحر ورشقاً وصوتاً مرتفعان، أما حجارتها فكانت لا تتجاوز أسفل التلة ورمال الشاطئ، فنضحك بحبور.

بحر واسع يلمع في ضياء القمر، يحمل إلهاماً لا حدود له، لفتاتين يافعتين. شعرت موجغان بالتعب، فجلستْ على أقرب صخرة كبيرة بينما ركعتُ عند قدميها. راحت تسألني عن مدرستي وزميلاتي. حدثتها عن ميشيل أعز صديقاتي، ثم وجدت نفسي أسترسل بالحديث دون إرادتي، عن حكاية غرامي الملفقة.

كيف فعلت ذلك واعترفت لموجغان بهذه الحكاية السخيفة؟ لا أدري، لكنني أعلم أني لا أستطيع كتمان أسراري عنها أبداً.

حكايتي مع زميلاتي أشبه بحكاية الذئب والخراف، لكنني شعرت بالحزن والندم على فعلتي تلك. شعرت بالخجل من النظر إلى وجه موجغان. رحت أعبث بأطراف فستانها وأزراره، أضع رأسي على ركبتيها وأنظر بعيداً نحو البحر.

حاولت في بداية الأمر، عدم ذكر اسم بطل حكايتي، لكن لساني زل في نهاية الأمر.

أصغت موجغان لي بكل اهتمام، واكتفت بالتربيت على شعري دون أن تنبس ببنت شفة.

بعد أن وصلت حكايتي إلى نهايتها، وحين أبديت ندمي على كذبي، دُهشت مما قالته موجغان:

-لم تكذبي يا فريدة! أنت تعشقين كامران حقاً.

أطلقت صيحة استنكار وأمسكت بها وألقيتها أرضاً.

-ماذا تقولين يا أختي؟ أأنا عاشقة لذلك الأشقر الخائن؟

حاولت موجغان تخليص نفسها من قبضتي وقالت لاهثة متوسلة:

-اتركيني يا مجنونة! ستمزقين ثيابي. قد يرانا أحد ونحن على هذه الحال. اتركيني بحب الله!

-سأفعل إن تراجعت عما قلته.

-أتراجع، سأفعل ما تريدين، لكن اتركيني...

-تحاولين خداعي...

-لا أخدعك، أعدك...

نهضت موجغان تنفض ثيابها وقالت ضاحكة:

-أنت مجنونة حقاً، يا فريدة.

نهضت بدوري، وبعد أن قلت بارتعاش: "ألا تخافين من الله بهذا الافتراء؟ ما زلتُ صغيرة على التفكير بمثل هذه الأمور"، لم أتمالك نفسي وشرعت بالبكاء.

تلك الليلة، لم أتمكن من النوم من شدة حمى أصابتني. رحت أهذي وأتقلّب في سريري كسمكة وقعت في شباك صياد. حمداً لله على قصر الليل في ذلك الوقت، كما أن موجغان ظلّت إلى جانبي حتى طلوع ضوء الفجر. كنت أعانقها طوال الوقت، أبكي وأقول لها معاتبة: "كيف

تتجرئين على قول ذلك يا موجغان؟".

بدا أنها كانت تخشى ردة فعلي، واكتفت طوال الوقت، بضمّي إلى صدرها والتربيت على شعري. لكن صبرها عيل عند الفجر فصاحت بي موبّخة:

-من قال إن الحب عيب؟ لم تقم القيامة يا مجنونة... ستتزوجان في نهاية الأمر، ذلك أمر طبيعي لا عيب فيه. كفّي عن هذه التصرفات الصبيانية. هيا أغمضي عينيكِ ونامي.

الحزم والجدية في كلام موجغان، جعلاني أهدأ وأستكين. لقد استسلمت قبيل الصبح كعنزة السيد سوغان، بعد صراع طويل مع الذئب في الجبل طوال الليل.

ما كدت استسلم للنوم حتى همست موجغان مستأنفة كلامها بجدية:

-أعتقد أنه يقابلكِ بالشعور نفسه أيضاً.

لم أجد في نفسي القدرة على مواجهتها فاستغرقت في النوم.

دُعينا في اليوم التالي إلى مزرعة أحد الأغنياء المحليين.

لم أشعر بالمتعة والسعادة كما في ذلك اليوم قط. تركت خالتي عائشة وموجغان تثرثران مع الأخريات جوار بركة الماء في المزرعة، وانطلقت بصحبة الصغار نلعب فوق النجيل تارة وفوق الأشجار تارة أخرى. في تلك الأثناء، كدت أن أتأذّى حين حاولت ركوب حصان بلا سرج. خالتي وموجغان لم تتوقفا عن دعوتي بحركات تارة بالأيدي وتارة أخرى بالرأس.

كنت أعلم جيداً ما كانتا تهدفان من تلك الإشارات، لكنني كنت أُسرع لأختفي بين الأشجار.

أجل، كنت أعلم أن فتاة في الخامسة عشر من عمرها تكشف عن شعرها وعن ساقيها، لا تعتني بهندامها وتتحدث برعونة ليست سوى فتاة مسترجلة على حد تعبيرهن، لكنني لا أستطيع كبح نفسي من التصرف على راحتي دون مبالاة بما يقوله الآخرون.

في تلك الأثناء التقيت بموجغان بعيداً عن الأخريات فأمسكتها من ذراعها وقلت:

-ما بك تجالسين هؤلاء السيدات كالعرائس الأرمنيات؟ تعالي نلهو معاً.

غضبت بشدّة وقالت:

-أنت مخلوقة تدعو للحيرة حقاً، أنت أشبه بوحش يا فريدة. هل تذكرين بأية حال كنت في المساء؟ لم تنامي أكثر من ساعتين، ثم نهضت وكأن شيئاً لم يكن، لا تعب ولا إرهاق يبدو عليك. وجهك وضّاح وعيناك تلمعان. لكن انظري إليّ وإلى أية حال أوصلتني إليها.

مسكينة موجغان. في الحقيقة، كانت في حال يرثى لها. مرهقة جداً، وجهها أصفر كشمع العسل وعيناها ناعستان من قلة نومها في الليلة الماضية.

-صدقيني، ما عدت أذكر ما حدث البارحة، قلت واندفعت مبتعدة.

قبيل المساء، آثرنا العودة مشياً على الأقدام بعد أن تأخرت عربتنا عن المجيء. كان الجو لطيفاً والمزرعة ليست بعيدة عن المدينة... مشت خالتي مع جاراتها، تشابكت الأذرع مع موجغان بعد أن عادت لها حيويتها، نتقدمهن بمسافة كبيرة، في طريق حدائق وبساتين على أحد جانبيه، وبحر مضجر ممتد بلا أشرعة ولا دخان على جانبه الآخر.

بدا الخريف قد حل قبل أوانه في البساتين، النباتات الخضراء المتسلقة على الأسوار والأسيجة قد جفّت، والأزهار المختلفة الألوان قد اغبرّت واصفرت وذبلت، وتحت ظلال أشجار البلوط النحيلة المنتشرة في الأرجاء، تتساقط أوراقها الجافة فوق تراب الطريق.

لكن هناك في البعيد، لمحت شجيرات تحمل ثماراً حمراء في عمق بستان شبه مهمل. من المؤكد أنها شجيرات توت العليق وقد خلقها الله من أجل طيور النمنمة.

تركت البحر المضجر وأمسكت موجغان من ذراعها وانطلقت نحو شجيرات توت العليق.

حين تتجاوزنا خالتي ورفيقات دربها بمسيرة السلحفاة، ويصلن إلى نهاية الطريق، نكون قد التقطنا ما شئنا من ثمار العليق.

لكن بطء موجغان يثير أعصابي. تتوقف من حين لآخر خشية على كعب حذائها من التربة المحروثة، وخشية من وخز الأشواك لقدميها، وتتردد من القفز فوق أقنية المياه الضيقة جداً.

في تلك الأثناء، حاول كلب بحجم الكف التعرّض لنا، فارتعدت موجغان وحاولت الهرب وطلب المساعدة، حتى ثمار توت العليق كانت تخشاها. حاولت خطف تلك الثمار من يدي: "ستمرضين... ستصابين

بتلبك معوي". اشتباكنا بالأيدي أدى إلى تلطّخ وجهي وقميصي الأبيض ذي ياقة البحارة الموشاة بخيوط ذهبية، بحبات توت العليق المهروس.

ظننت أننا سنلحق بخالتي ورفيقاتها قبل أن يتجاوزننا، لكن بطء موجغان وخلافنا حول ثمار توت العليق أخّرنا عن اللحاق بهن، وحين غبنا عن أنظارهن أصابهن القلق فعدن أدراجهن بحثاً عنا. في تلك الأثناء، لمحت رجلاً إلى جانبهن، يتقدّم نحونا، فسألت موجغان:

-من هذا الرجل، يا ترى؟ سألت موجغان

-ربما عابر طريق أو أحد القرويين.

-لا أظن ذلك.

كنت لا أظن ذلك أيضاً. بدا مألوفاً لي، رغم صعوبة تمييز ملامحه بسبب لمعان شمس الأصيل وظلال الأشجار الضخمة على جانب الطريق.

بعد قليل، لوّح هذا الرجل بيده لنا، ثم حثّ خطاه متجهاً نحونا. دُهشنا.

-يا للحيرة! يبدو أنه أحد أصدقاء العائلة، قالت موجغان، ثم أضافت بانفعال:

-فريدة! إنه يشبه كامران...

-مستحيل. ما الذي أتى به هنا، قلت.

-إنه هو، والله، إنه هو.

راحت موجغان تركض نحوه، في حين رحت أبطئ بخطواتي وأمشي على مهلي. شعرت بتسارع في دقات قلبي وارتعاش في ركبتيّ.

توقفت إلى جانب الطريق، رفعت قدمي على حجر كبير وانحنيت. حللت رباط حذائي ثم أعدت ربطته ثانية.

حين أصبحنا وجهاً لوجه، قلت بهدوء وبلا مبالاة:

-يا للمفاجأة، كيف أقدمتم على القيام بمثل هذه الرحلة الشاقة؟

لم يجب. نظر وعلى وجهه ابتسامة خجولة ثم مدّ يده.

خبأت يدي خلف ظهري وقلت:

-يداي دبقة وقذرة. التقطت وموجغان بعض الثمار. كيف حال خالاتي ونجمية؟

-يقبلونك من عينيك، يا فريدة.

- ميرسي.

-وجهك محمر جداً، يا فريدة...

- من الشمس.

تدخلت موجغان بالحديث:

- أنت أيضاً، يا كامران.

- من يعلم... ربما تجوّل تحت ضوء القمر دون مظلة، قلت.

ضحكنا ثم تابعنا سيرنا.

شبكت خالتي عائشة وموجغان أيديهما بيدي كامران، بينما تابعت جارات خالتي السير عن بعد، على اعتبار عدم جواز مرافقتهن لرجل غريب. في حين، تقدمت الجميع بالسير مع الأطفال وأذني تسترق السمع للحديث الدائر بين ابن خالتي وخالتي وموجغان.

-هذا الصيف، شعرت بضجر شديد في استانبول، قال.

طرقت كعب حذائي بالأرض بحدة وقلت في قرارة نفسي: "ذلك واضح. تشعر بالضجر بعد أن خُطفت منك تلك المرأة وذهبت إلى مدينة بعيدة".

وتابع:

-ليلة أول أمس، أي في الخامس عشر من هذا الشهر. ذهبت وعدد من الأصدقاء إلى غابة "ألْم داغ". أمضينا ليلة ممتعة جداً. لكنني لا أحتمل حفلات السمر المتعبة. في الصباح، نزلت إلى المدينة وحدي، دون أن أُخبر أحداً. شعور بالضجر كان يغمرني، لذا قررت الابتعاد عن استانبول بضعة أيام. لكن هل أذهبِ إلى "يالوفا"؟ ليس بالوقت المناسب. بورصا؟ شديدة الحرارة كجهنم في هذه الأشهر. ثم خطرت تكيرداغ على بالي فجأة. في الواقع، أنا في شوق شديد إليكم، وهذه فرصة طيبة لرؤيتكم.

استأثر صهري وخالتي بكامران ذلك المساء. جلسوا في الحديقة يتسامرون حتى ساعة متأخرة من الليل. رغم أن موجغان كانت متعبة جداً، لكنها لم تفارقهم. في حين، جلست بعيداً عنهم، ولم أكفّ عن الحركة، أغيب بعض الوقت في البيت تارة، وفي الحديقة الخلفية تارة أخرى.

في تلك الأثناء، اقتربت منهم لسبب لا أذكره. على الفور، أبدى كامران استياءه من تصرفي قائلاً:

-يبدو أن هناك من لا يُحسن معاملة الضيوف!

هززت كتفيّ وقلت ضاحكة:

-يقال إن الضيف لا يحتمل ضيفاً آخر.

انتهزت موجغان فرصة قربي منها فأمسكتني من معصمي كي أجلس إلى جانبهم. تخلّصت من قبضتها، ادعيت شعوري بالنعاس وصعدت إلى غرفتي.

حين دخلت موجغان الغرفة في ساعة متأخرة، كنت في سريري لكن لم أنم بعد. جلست على طرف السرير وحدقت في وجهي. تملكني شعور بالضحك فاستدرت إلى الناحية الأخرى وتظاهرت بالشخير.

أدارت رأسي نحوها وقالت:

-لا تحاولي خداعي. افتحي عينيك.

فتحت عينيّ على سعتها وقلت:

-والله كنت نائمة.

لكننا لم نتمالك أنفسنا وغرقنا في الضحك.

داعبت موجغان وجنتي وقالت:

-صدق ظنّي.

انتصبت بحدةٍ هزّت السرير:

-ماذا تقصدين؟

جفلت:

-لا شيء... لا شيء، قالت، ثم أضافت ضاحكة:

-بحب الله ليس الآن وقت المناكفة، أكاد أموت من شدة التعب، ثم أطفأت المصباح واندست في فراشها.

بعد عدة دقائق، نهضت من سريري وذهبت إلى سريرها. رفعت رأسها عن الوسادة وعانقتها. لكن المسكينة كانت قد غفت، وقالت متوسلة دون أن تفتح عينيها: "دعيني أنام يا فريدة".

-سأدعك تنامين، لكنك لمّحت إلى أمر ما. إن لم تخبريني فلن أستطيع النوم.

رغم العتمة التي تغمر الغرفة وعيناي موجعان المغمضة، خبأت وجهي بين شعرها وهمست في أذنها:

-أفهم أن أفكاراً جنونية تجول في ذهنك... إن أخبرت كامران بما حدثتك عنه سأحملك غصباً عنك وألقي بكلينا في البحر...

-حسناً... حسناً... كما تشائين، أجابت موجغان وغرقت في النوم رغم هزّي لرأسها.

في الواقع، مجيء كامران أفقدني متعة رحلتي. شعوري بالحنق عليه، يزداد يوماً بعد يوم. حين نتقابل وجهاً لوجه أتصرف معه بخشونة، ثم أهرب بعيداً عنه.

لحسن الحظ، اهتم زوج خالتي عزيز به. كان يصطحبه بنزهة طويلة بالعربة أو يصطحبه لزيارة أصدقائه المحليين.

ذات صباح، بينما كان يتهيأ ابن خالتي للخروج بصحبة زوج خالتي، التقيت به أعلى الدرج. أوقفني ثم تلفّت حوله كأنه يخشى أن يسمع أحد كلامه:

-يا لحسن استقبالك لي، يا فريدة، قال.

بينما كنت أفكر بالتسلل عبر الفرجة بينه وبين درابزين الدرج دون ملامسته، أجبت:

-ما السيء في الأمر؟ تمضي الوقت بالنزهة والزيارات.

تبسّم كامران بحزن، رفع بصره نحو السقف وقال:

-يقال إن الضيف لا يحتمل الضيف الآخر، لكن من اللياقة أن لا يسبّب الضيف حرجاً لصاحب البيت. على أية حال، لا أتصرف على هذا النحو...

جليّ أن ابن خالتي قد استاء كثيراً من قولي إن الضيف لا يحتمل الضيف الآخر، ليلة وصوله إلى بيت خالتي. ظلّ يذكّرني بمقولتي تلك كلما التقينا من حين إلى آخر.

-لا داعي للتذمر. تمضي أيامك بالنزهة وصحبة أناس جدد، قلت.

زمّ شفتيه وقال:

-لا أشعر بمتعة بصحبة أولئك الناس.

لم أتمالك نفسي، فقلت باستنكار:

-زوج خالتي يفعل ما بوسعه، أين يجد لك أناساً يمتعونك بصحبتهم؟

أدرك كامران أني أغمز إلى صاحبته الأرملة. مدّ يديه نحوي بانفعال وقال:

-فريدة!

ظلّت يداه ممدودة، في حين تمكنت من مراوغته والابتعاد عنه. هبطت الدرجات قفزاً وأسرعت متجهة نحو الحديقة.

أخيراً، تمكنت موجغان من تحقيق ما ترنو إليه.

ذات صباح، كنت أتجول وموجغان على التل المطل على البحر. طلاوة خريف منعشة كانت تهيمن على الجو إثر هطول المطر ليلاً. الشمس متوارية خلف سحابة صيف. لمعان شاحب يرتعش على سطح البحر الساكن.

في تلك الأثناء، لمحت كامران ماراً في الشارع. يبدو أنه لم يُصطحب لنزهة أو زيارة لسبب ما.

كانت موجغان جالسة على جذع شجرة وبصرها موجهاً نحو البحر، لم تلحظ مروره. استدرت جانباً متظاهرة عدم رؤيته. رغم ذلك، فقد شعرت بتوجهه نحونا. شعرت بارتعاش غريب في جسدي.

-ما الخطب يا فريدة؟ ما بكِ صمتِّ فجأة؟ قالت موجغان.

في تلك الأثناء التفتت موجغان فرأت كامران قد أصبح على بعد بضع خطوات منا. ما عاد بإمكاني التهرب من مواجهته.

بدأ كامران الكلام مع موجغان ممازحاً:

-لم تنسِ حمل مظلتك هذا اليوم أيضاً.

أجابت ضاحكة:

-أجل، لا يزال احتمال هطول المطر قائماً اليوم أيضاً.

تحدث ابن خالتي مطولاً عن استمتاعه كثيراً بمثل هذه الأجواء. لِمَ لا يستمتع وهذه الأجواء تشبه مزاجه المتقلب؟

خالفته موجغان الرأي وقالت بينما كانت تعبث بالمظلة، تفتحها وتغلقها:

-صحيح أن الجو لطيف، لكنه يسبب الضيق قليلاً. كل الأيام القادمة ستكون على هذه الشاكلة، إلى أن يحلّ الشتاء. لا تعلمون كم هو

مضجر الشتاء هنا. لكن والدي قد اعتاد على هذه الأجواء حتى أنه لا يرغب بنقله إلى مكان آخر.

عقّب كامران ممازحاً:

-ربما عليك تقبّل هذه الأجواء. من يعلم، قد تتزوجين من أحد أغنياء هذه المدينة.

أخذت موجغان الأمر على محمل الجد:

-لا قدّر الله، قالت.

في تلك الأثناء، مرّ من قربنا، صياد سمك معصوب الرأس بمنديل أحمر وحافي القدمين. كان الصياد العجوز نفسه الذي التقيناه قبل أيام. أبدى تعرفه عليّ قائلاً:

-لم أركِ منذ فترة، يا ماريكا.

-سنخرج يوماً لصيد السمك معاً، قلت.

مشينا معاً حتى نهاية التلة، وقد أخذنا الحديث. حين عدت إلى جوار موجغان وابن خالتي، كانت تروي له حكاية ماريكا هذه. بعد أن أنهت كلامها، أمسكتني من معصمي وتابعت:

-لست أنا من ستقيم في تكيرداغ. يبدو أن فريدة من ستكمل حياتها هنا. يبدو أن نصيبها في هذه البلاد. ستتزوج من القبطان عيسى ابن صياد السمك. لا تستهينوا بصياد السمك هذا، رجل من أثرى الأثرياء.

ضحك كامران وقال:

-لسنا ممن يعنينا المال حتى لو كان مليونيراً. أليس كذلك، يا فريدة؟ باعتباري ابن خالتك، لن أوافق أبداً.

ما قولكم بردّ كامران السخيف هذا؟ وموجغان العاقلة المؤدبة ماذا دهاها؟ حين تابعت كلامها الجارح:

-الأمر لا يتوقف عند هذا الحد، فنصيب فريدة أهم من ذلك وأعلى شأناً. يبدو أن ضابط خيّالة قد أُعجب بها. يمر قبيل كل مساء، أمام بيتنا ويستعرض مهاراته مؤدياً حركات جريئة وخطيرة على ظهر حصانه كي يخطف قلبها.

أطلق كامران ضحكة طويلة لكنها ليست كسابقتها بل تكشف عن مرارة خفية وقال:

-ليس عندي ما أقوله حول هذا الشخص. القرار قرارها.

هددت موجغان بإصبعي خلسة بما معناه "سأريك لاحقاً ما سأفعله بك!"، وقلت:

-لقد تماديت كثيراً يا موجغان. تعلمين جيداً أنني لا أطيق مثل هذا المزاح.

تجنباً لردة فعلي، توارت خلف كامران وغمزت بعينها قائلة:

-لكنكِ تقولين غير هذا الكلام حين نكون وحدنا.

-كاذبة ومفترية...

وجد كامران في هذا الكلام فرصة سانحة لمعرفة أخباري:

-تستطيعين يا موجغان إخباري بكل شيء. لست غريباً عنكما.

طرقت الأرض بقدمي بحدة:

-يبدو أنه لا مجال من الحديث معكما دون مناكفة. أستودعكما الله، قلت وابتعدت بتوتر متجهة نحو البحر.

-٩-

تابعت سيري، لكنني كنت على يقين أنهما لن يتوقفا عن الخوض في الحديث نفسه. حين وصلت أعلى انحدار التل، رحت أرمي البحر بالحجارة بعصبية. كنت أتظاهر بالانحناء إلى الأرض كي أنظر إليهما خلسة. لم أعرف ماذا أفعل، فكلام موجغان قبل قليل لا يبعث على الاطمئنان. يبدو أنها ماضية بإخبار كامران كل ما رويته لها من أحداث المدرسة.

في البداية، كانا يتحدثان ويضحكان، ثم اتسم حديثهما بالجدية، إلى أن بدت موجغان وكأنها تبحث عن محاور للحديث حين راحت تعبث بمظلتها وترسم بالتراب خطوطاً وأشكالاً مختلفة، بينما وقف كامران أمامها صامتاً كالتمثال. بعد وقت غير طويل، التفت الاثنان ناحيتي وشرعا بالسير نحوي.

أدركت ما يجول في خاطرهما. طرقت أقصر الطرق لهبوط التل كي أبتعد عنهما بسرعة، دون مبالاة بخطورة انحداره الشديد، ليقيني أنهما لن يتمكنا من اتباع مساري نفسه. لحسن حظي أنني تمكنت من النزول بسلام ولم أصب بمكروه.

حين التفت خلفي كانا قد سلكا مساراً بعيداً كي يهبطا التل بأمان. لقد أبعدني تصرفي الجنوني هذا، عنهما لمسافة بعيدة. كما إذا ما شرعت بالركض فلن يتمكن هذان المدللان من اللحاق بي حتى لو امتطيا الأحصنة. لكن ما يقلقني إن ما حاولت الهروب من مواجهتهما أكون

قد أثبتّ صدق ادّعاء موجغان. لذلك آثرت السير بمحاذاة الشاطئ، لكن بخطوات سريعة، مواصلة رمي الحجارة في الماء كي أصل إلى طريق يتسلّقه الماعز صعوداً إلى أعلى التل. عندئذ سيكفّان عن اللحاق بي تلقائياً، فلا طاقة لهما لسلوك هذه الطريق.

لكن حدث ما لم يكن في الحسبان. الصياد العجوز حاملاً مجدافاً ويطارد كلباً شريداً! العجوز يضرب الكلب كلما تمكن منه، والكلب لا يكف عن النباح متألماً.

اضطررت للتوقف في بداية الأمر، خشية أن يكون الكلب مسعوراً. لكن بدا الصياد أشد سعاراً منه. يصيح هائجاً ويضرب بالمجداف يمنة ويساراً دون هدف.

صحت به من بعيد:

-ما الخطب؟ ماذا تريد من هذا الحيوان المسكين؟

توقف العجوز لاهثاً واستند إلى مجدافه، ثم قال بصوت باكٍ:

-سفح القطران المغلي. سينال عقاب فعلته.

أدركت سبب هيجانه. قلب الكلب له صفيحة قطران كان يغليها فوق نار الحطب. جرم عظيم! لكن هذا الكلب المسكين لا يستحق الموت من أجله.

اختبأ الكلب المسكين داخل تجويف صخري ظناً منه أنه سيكون بمأمن في داخله. لكنه أوقع نفسه في مصيدة عرّضته لهجوم مباغت من عدوه ذي المجداف. لو ركض باستقامة على امتداد الشاطئ الرملي أو تسلق التل من طريق الماعز، ما كان العجوز ليستطيع اللحاق به، وكان سينجو من مجدافه.

لو كان لدي متسع من الوقت، لفعلت ما بوسعي لإنقاذ هذا الكلب المسكين. لكن ما باليد حيلة، فمشكلتي أولى. كنت مطاردة مثله.

تابعت سيري بخطوات سريعة ثانية، إلى أن وصلت إلى طريق الماعز وشرعت بتسلق التل.

مع هذا، كنت قلقة من فكرة الهروب. أقف من حين لآخر، وأنظر خلفي خلسة، الأصح، أنظر إلى الأسفل!

توقف كامران وموجغان قرب صفيحة القطران المسفوحة. بديا في نقاش حاد مع العجوز، ثم أخرج ابن خالتي محفظته وناول الصياد بعض النقود. دُهشت حين رمى الصياد مجدافه بفرح، ولوّح لي بيديه.

نجا الكلب أخيراً. العقبى لي! تابعت السير على طريق البيت دون أن أعير انتباهاً لندائهما عليّ من بعيد.

لم أكفّ عن التفكير بما قالته موجغان عني لكامران. أكاد أفقد صوابي من الحنق، ويغلي الدم في عروقي وأقول: "سأنتقم منكِ يا موجغان ولو بعد حين".

كنت منطلقة بسرعة ودون وعي بما حولي، إلى أن ظهر زوج خالتي عزيز أمامي فجأة، ليوقفني ويقول ممازحاً:

-ما هذه الحال يا بنت؟ وجهك أحمر كحبة الشمندر! هل تطاردين أحداً؟

أطلقت ضحكة عصبية وأجبت: "ومن سأطارد هنا؟"، ثم اندفعت راكضة إلى الحديقة الخلفية بعد سماعي صوت الأطفال صادراً من هناك.

الأرجوحة كانت منصوبة على شجرة البلوط الضخمة في الحديقة الخلفية. كنت أجمع أطفال الجيران وألاعبهم على تلك الأرجوحة من

حين إلى آخر. اليوم أيضاً، حضر أصدقائي الصغار من مختلف الأعمار، واجتمعوا عند الشجرة بانتظاري.

يا للفرصة السعيدة! لو دخلت غرفتي وأغلقت بابها، لن يتركني كامران وموجغان وحدي بهدوء. سيصران أن أفتح الباب. لكن لو بقيت في الحديقة ألاعب الأطفال بالأرجوحة، لن يحاولا الاقتراب مني ومناكفتي.

أحاط الأطفال بالأرجوحة يدفع أحدهم الآخر. دعوتهم لالتزام الهدوء وقلت:

-تحلقوا حول الأرجوحة على بعد كافٍ حتى لا تتأذون... سأُلاعبكم بالدور، الواحد تلو الآخر.

حملت أحد الأطفال الصغار واعتليت الأرجوحة. شرعت بالتأرجح ببطء.

لم يمضي وقت طويل حتى ظهر كامران وموجغان ووقفا خلف الأطفال يتابعاني.

كانت موجغان تلهث وقد بدا الإعياء على وجهها. لابد أن ابن خالتي دفعها للركض كي يلحقا بي. "يبدو أن الله يجازيك على فعلتك!"، قلت في داخلي وسارعت حركة الأرجوحة.

بدأ الأطفال بالتذمر والصياح: "كفى! توقفي! نحن أيضاً، نريد أن نلعب. هيا أنزليه". لكنني لم أستمع لهم، وزدت من سرعة الأرجوحة حتى ارتفعنا كثيراً محلقين في الهواء.

نفذ صبر الأطفال وتدافعوا متجاوزين الخط الذي حددته لهم، محاولين إيقافي. شرع كامران وموجغان بصدهم ومنعهم من التقدم، في

حين شرع الطفل المتأرجح معي بالصراخ والبكاء. شعرت بالخوف على الطفل الشقي من الوقوع على الأرض وأن يصاب بمكروه.

ما كان أمامي سوى التوقف، ثم عمدت إلى توبيخ الطفل وأن لا مكان لطفل يخاف من الأرجوحة سوى العودة إلى البيت والجلوس في السرير الهزاز لأخيه الصغير، وأطلت بالكلام كي لا أتيح الفرصة لكامران بالتدخل وقول ما لا يعجبني.

وقع الأطفال في هرج ومرج وتعالى صياحهم:

-أنا أختي فريدة. دوري أختي فريدة. أريد أن أركب الأرجوحة أختي فريدة.

-لا، لن أسمح لأي منكم. أنتم خوّافون.

-أنا لا أخاف يا أختي فريدة. الأرجوحة لا تخيفني. لا نخاف.

سمعت خالتي صياح الأطفال، فأطلت من النافذة:

-فريدة، دعيهم يلعبون يا عزيزتي.

-قول ذلك سهل يا خالتي، لكنك ستعنفينني إن أصابهم مكروه.

-هزّي الأرجوحة ببطء، يا بنيتي.

-كأنك لا تعلمين من هي طائر النمنمة يا خالتي. أبدأ الأرجحة ببطء، ثم لا أستطيع مقاومة وسوسة الشيطان حين يحثني على زيادة سرعتها.

حاولت كسب الوقت بثرثرة ولغو بلا معنى، لكنني شعرت أن ابن خالتي قد اقترب مني ووقف خلفي دون أن أراه. لا شك أنه سيشرع بمناكفتي حالما أكفّ عن الكلام. ماذا أفعل كي أبعده عني؟

في تلك اللحظة، أمسك طفل صغير جداً بتلابيبي. على الفور، حملته من إبطيه ورفعته في الهواء أداعبه. لكن وجه كامران ظهر من خلف الطفل. لم يعد هناك مجال للتراجع. أن أبدو خائفة من مواجهته يمس من كبريائي. أنزلت الطفل ونظرت في عيني كامران:

-هيا يا صغيري، اقترب من أخيك الكبير كامران. هو طفل لطيف مثلك. سيأرجحك برقة. لا تتحرك وإلا ستقع وتوقعه معك.

بينما كنت أمسح الغبار عن يديّ بمنديلي، لم أتوقف عن التحديق في عيني كامران كي يتراجع أمام تهكمي، لكنه لم يأبه وقال:

-لا تكفين عن السخرية أيتها الشقية. سنرى الآن من يتراجع أولاً. سنتأرجح معاً.

خلع معطفه بحركة مفاجئة ورماه بين ذراعي موجغان.

صاحت خالتي من النافذة:

-كامران، بالله عليك! لا تتصرف كالأطفال. لست نداً لها، ستصاب بمكروه.

تراجع الأطفال إلى الخلف وقد أدركوا أنهم على وشك رؤية مشهد مثير للتحدي. لم يبقَ سوانا قرب الأرجوحة.

قال ابن خالتي ضاحكاً:

-ماذا تنتظرين يا فريدة، هل أنت خائفة؟

فقدت جرأتي بالنظر إلى عينيه:

-بالتأكيد لست خائفة، قلت وصعدت الأرجوحة وثباً.

أصدرت الحبال صريراً وتحركت ببطء.

كان لابد لي من التصرف بحذر كي أواجه هذا التحدي. بدأت أغصان الشجرة بالاهتزاز مع تزايد سرعتنا. كلانا كنا نصك أسناننا صامتين كأن الكلام قد يفقدنا توازننا.

بدأت أشعر بالدوار شيئاً فشيئاً. لكن حين دخل رأس كامران بين أوراق الشجرة عالياً وتناثر شعره على وجهه، قلت بتهكم:

-كأني بك تشعر بالندم على عرضك هذا متحدّياً!

ضحك وقال:

-سنرى من سيشعر بالندم أولاً.

أيقظ البريق الأخضر لعينيه بين شعره المتناثر على وجهه رغبة في داخلي، لتلقينه درساً لا ينساه. ثنيت ركبتيّ كي أدفع الأرجوحة للتسارع بجنون. حلّقنا في الهواء وبين أوراق الشجرة ذهاباً وإياباً، وتناثر شعرنا واشتبك، إلى أن تراءى إلى مسمعي صوت خالتي كأنه قادم من حلم نصيح محذرة: "كفى، توقفوا!".

وكرر كامران قولها:

-أترغبين بالتوقف، يا فريدة؟

-ينبغي توجيه هذا السؤال إليك، أجبت.

-لا أشعر برغبة في التوقف خاصة بعدما سمعت أخباراً من موجغان، أسعدتني...

تراخت ركبتاي في الحال، وكادت قبضتي على الحبال تتراخى أيضاً.

تابع كامران:

-عشت على هذا الأمل دائماً. لقد قدمت إلى هنا من أجلك يا فريدة...

-دعنا نتوقف، أكاد أقع، قلت بتوسل.

لكنه لم يدرك شعوري بالتراخي، وقال:

-كلا يا فريدة، لن أدعك قبل سماعي لموافقتك على الزواج مني حتى نقع ونموت معاً.

حين لامست شفتاه جبيني وعيني من خلف شعري المتناثر، لم أعد أقوى على الصمود فتراخت ركبتاي وانزلق ذراعي على الحبال رغم تشابك يديّ. كنت على وشك الوقوع لو لم يحتضني كامران في الحال. لكن هذه الحركة أفقدتنا توازننا وبدأت الأرجوحة بالدوران، فوقعنا معاً على الأرض متدحرجين.

بعد غياب عن الوعي قصير، فتحت عينيّ لأجد نفسي في حضن خالتي، تبلّل وجهي وتقول:

-آه يا بنيتي، هل تشعرين بألم يا عزيزتي؟

-كلا يا خالتي، أجبت.

-لِمَ تبكين إذن؟ عيناك مغرورقتان.

-لَا أدري، يا خالتي.

دفنت رأسي في صدر خالتي وقلت:

-ربما كنت أبكي قبل وقوعي، يا خالتي.

-١٠-

بعد ثلاثة أيام، غادرت مع خالتي عائشة وموجغان إلى استانبول، محملين بعديد سلال الهدايا. كانت خالتي بسيمة ونجمية في استقبالنا في ميناء غالاتا، بعد أن أبرق كامران لأمه يخبرها بقدومنا.

مرّت الأسابيع الأولى من إعلان خطوبتنا وأنا أتحاشى لقاء أحد حتى كامران نفسه، رغم أنه كان يتمنى عليّ الخروج منفردين للتنزه والتحدث معاً كخطيبين. رغم علمي بأنه على حق، لكنني كنت أهرب منه بسرعة حصان مرتعد كلما رأيته قادماً نحوي وأتوارى عن ناظره. لابد أني كنت الخطيبة الأشد فظاظة وجهلاً في العالم!

طلبت من موجغان أن تخبره بالتوقف عن التعامل والتحدث معي مثل كل خطيبين، وأقسمت أن أفسخ خطوبتنا إن لم يلتزم برغبتي. ظلّت موجغان تندسّ إلى جانبي في السرير كما كانت تفعل حين كنا في تكيرداغ.

-أي جنون هذا الذي تفعلينه، يا فريدة؟ أعلم شدة حبك له. أيام الخطوبة هي أجمل الأيام. من يعلم كم هو في شوق ليُسمعك كلاماً جميلاً ويبث لك غرامه وهيامه. كانت تتساءل باستمرار، وتربت شعري بيديها الناعمتين، وتنقل لي ما يرسله معها من كلمات الغزل.

أنكمش في سريري وأقول بتأفف:

-لا أريد... أشعر بالرهبة والخجل... شعور غريب ينتابني لا أستطيع فهمه.

كنت أبكي أحياناً إذا ما أصرّت عليّ بتغيير تصرفاتي، فتتركني وحدي في السرير لأستغرق في النوم على أنغام ما أرسله كامران من كلمات الغزل.

أوصت خالتي بصياغة خاتم خطوبة خصيصاً لي. كان في منتهى الروعة، بحجر كريم ثمين يخلب الأنظار لا يليق بأصابعي دائمة الجروح والقروح.

حين أحضرته من استانبول، دعتني للوقوف قرب النافذة وفاجأتني بتقديمه لي. لمع ببريق رائع حين وجهته نحو ضوء الشمس المتوارية خلف الأشجار. أغمضت عينيّ وتراجعت موارية يدي خلفي، واختبأت خلف الستارة كي لا ترى احمرار وجهي خجلاً. لم تدرك خالتي سبب تصرفي هذا، ودُهشت لعدم عناقي لها تعبيراً عن فرحتي:

-كأنه لم يعجبك، يا فريدة؟ قالت.

أجبت بصوت يخلو من المشاعر:

-جميل جداً، يا خالتي، ميرسي.

بان عليها الانزعاج من نبرة صوتي. مع هذا، بادرت إلى التبسم وقالت:

-هاتِ يدك لنجربه. أعطيتهم قطر خاتمك القديم، أرجو أن يكون مناسباً، لا ضيقاً ولا واسعاً.

عقدت أصابع يدي وخبأتها خلفي، كأن خالتي ستضعه في إصبعي بالإكراه، وقلت:

-مستحيل الآن، يا خالتي. سأضعه لاحقاً...

وكأن خالتي ستسحب يدي قسراً، كنت أعقد أصابعي بعضها ببعض وخبأتها خلف ظهري:

-لا تتصرفي كالأطفال، يا فريدة.

أملت رأسي إلى صدري بعناد، ورحت أنظر إلى أطراف قدميّ.

-سنقيم حفلاً لأقاربنا بعد بضعة أيام. سنعلن خطوبتكما.

خفق قلبي بشدة، وقلت:

-لا أريد. إن كان لابد من ذلك، فليكن بعد مغادرتي إلى المدرسة.

كلام كنت أستحق عليه توبيخاً شديداً، لكن خالتي أظهرت صبراً وسعة صدر، ابتسمت ثم زمّت شفتيها وقالت بهدوء مشوب بالاستهزاء:

-كيف يمكننا فعل ذلك، يا بنيتي؟ هل سنسمي وكيلاً عنك في حفل إعلان الخطوبة؟ قد يتم التوكيل في عقود الزواج، لكن لم يحصل ذلك في إعلان الخطوبة قط.

لم أجد أي رد مقنع لطلبي هذا، فتابعت النظر إلى أطراف قدميّ.

وضعت خالتي إحدى يديها على وسطي، وربتت شعري وجبيني باليد الأخرى كمقدمة لتوبيخ سأتلقاه:

-اسمعيني يا فريدة! لقد حان الوقت لتتعقلي وتكفّي عن التصرفات الصبيانية. أنا، لست خالتك فحسب، أنا أمك أيضاً... قد لا أكون راضية عن بعض تصرفاتك، لكنك الأنسب لكامران من أية بنت غريبة أجهل طباعها... أعلم أنك هوائية. ربما هذه الصفة لطفلة لا تعتبر سيئة، ستكبرين وتصبحين أكثر رزانة وتعقلاً. أمامك أربع سنوات حتى تنهي دراستك وتتزوجي. هذا وقت طويل. أنت فتاة مخطوبة، الآن. لا أدري

إن استطعت إيصال ما أقصده. يجب أن تكوني أكثر جدية ورزانة. يجب أن تكفي عن الحركات الصبيانية والشقاوة والعناد بلا مبرر. تعلمين كامران كم هو رقيق ودمث.

هل يوجد في هذه الكلمات التي ما زالت عالقة في ذهني ما يسيء أو يجرح؟ حتى اليوم لم أجد تفسيراً مقنعاً، لكنني كنت أشعر أنها تراني صغيرة السن بالنسبة لكامران.

ثم أردفت وكأنها تريد معرفة مدى تأثير نصائحها عليّ:

-اتفقنا يا فريدة، أليس كذلك؟ سنقيم حفل الخطوبة بحضور الأقارب وعدد محدود من أقرب أصدقائنا فقط.

تخيّلت نفسي متبهرجة بشعر مصفّف ومظهر على غيرِ ما اعتدت عليه، أجلس إلى جواره إلى طاولة عامرة بالأزهار، وكل النظرات مصوبة نحونا.

شعرت برعشة في أوصالي:

-مستحيل ذلك، يا خالتي، قلت وهرولت نزولاً إلى الطابق الأسفل.

في تلك الأيام، ما عادت موجغان بالنسبة لي أختاً كبيرة فحسب، بل أماً أيضاً. عندما نبقى وحدنا في غرفتنا ليلاً، أطفئ المصباح وأتوسل إليها:

-كنت أرثي لحال الفتيات المخطوبات وأسخر منهن. لقد أصبحت مثلهن الآن. أرجوك لا تدعي أحداً يعاملني كفتاة مخطوبة. أشعر بالخجل وأدعو أن تنشق الأرض وتبتلعني. ما زلت صغيرة، أمامي أربع سنوات. سأكبر وأعتاد حتى ذلك الوقت. لكن أرجوكِ أن لا يعاملني أحد كفتاة مخطوبة الآن.

موجغان:

-سأفعل ما تريدين، لكن عندي شرط واحد، بل شرطان: الأول أن تكفّي عن العراك معي، والثاني أن تقولي وتكرري أمامي إنني أحبه كثيراً.

دفنت وجهي في صدر موجغان، وأشرت برأسي أنني موافقة على شرطيها..

وفت موجغان بوعدها. توقف الجميع عن الحديث أمامي بموضوع خطوبتي، ومن حاول تجاوز حده، كنت ألقّنه الدرس المناسب. لكن ذات يوم، لم أتمالك نفسي فصفعت المتجاوز على فمه. الحمد لله، لم يكن غريباً، بل كان ابن خالتي نفسه... كنت أرى نفسي محقة، لكن لو علمت خالتي بما حصل، لا أحد يعلم ماذا كانت ستفعل بي.

مع مرور الأيام، تغيّر أسلوب التعامل معي وزاد الاهتمام برعايتي، وخُصّص لي غرفة في القصر أكثر سعة وأجمل موقعاً من غرفتي القديمة، واستُبدل السرير والخزانة والستائر وكل ما يخصّني من أثاث بما هو أكثر أبّهة وجمالاً. مع ذلك، لم أشعر بالرضا، ولم أجرؤ على الاعتراض.

ذات يوم، دعينا لحضور عرس ريفي في ناحية "مرديفان كوي". كان عددنا كبيراً لركوب العربة، فقلت على الفور:

-سأركب إلى جانب الحوذي.

ثم صعدت العربة على الفور، إلى جانب الآخرين إثر سماعي لصوت ضحكات سبّبت لي الإحراج والخجل.

كعادتي في الصغر، أذهب إلى المطبخ وأتناول مجفف المشمش خلسة. لكن الطباخ الوغد سخر مني وقال:

-كلي ما تشائين علانية يا آنستي. السرقة لا تليق بمقامك.

ما عدت أجرؤ على اللعب مع الأطفال، رغم أن أحداً لم يبدِ أية ملاحظات بهذا الخصوص. لكنني كنت أتحيّن الفرص كي أصعد فوق الأشجار واختبئ حتى حلول المساء. باختصار، كان كل ما كان يجري حولي يزعجني، لكن كامران كان الأشد إزعاجاً، إذ أمضى الأيام الأخيرة من عطلتي في القصر بملاحقتي وتعقّبي.

ظلّ يتحيّن الفرص عندما أكون وحدي، ويدعوني للخروج في نزهة في العربة. كنت أوافق تحت إصراره الشديد شريطة اصطحاب أحد غير موجغان كي أمضي الوقت بصحبته بعيداً عن كامران. أما سبب اختياري لصحبة أحد غير موجغان، لأنني كنت على ثقة من أنها ستتعمّد تركي وحدي مع كامران طوال النزهة.

ذات يوم، قال كامران لي:

-هل تعلمين يا فريدة، كم تسببين لي من إحباط وغم؟

قلت بدهشة:

-منذ الآن؟

دهشتي دعت كلينا للضحك، ثم أضاف:

-من دواعي سعادتي أن أسمع منك ما قلتيه لموجغان.

رفعت بصري إلى أعلى وتظاهرت بالتفكير كأني لا أذكر ما قلته لموجغان، ثم قلت:

- يبدو أن موجغان لا تخفي عنك شيئاً. لكن ما دار بيننا من حديث، لا يقال أمام أحد.

-وأنا، ماذا عني؟

-لا تفهمني خطأ. أنت رجل رغم مظهرك الأنثوي. ما أقصده أن ما تبوحه فتاة لصديقتها لا تبوحه لرجل.

-لكنني خطيبك!

-عدنا للمناكفة. تعلم أنني لا أحبذ هذا الكلام.

-ألا ترين أني محق بالشعور بالإحباط والغم؟ قد تصفعيني على فمي ثانية، لكن ينبغي أن تعلمي أن ما أكنّه لك من عواطف تختلف عما أكنّه للآخرين.

حينذاك، أدركت أنني لن أستطيع كبح مشاعري تجاهه أيضاً. إن واصلنا الحديث على هذا النحو فقد يرتعش صوتي، أو أقوم بتصرف غير مناسب، لذا آثرت وضع حد لكلامه والهرب خارجة إلى الشارع.

ظننت أنه سيلحق بي. تباطأت ونظرت إلى الخلف، فإذا به قد اكتفى بالجلوس على مقعد تحت إحدى الشجرات.

قلت في قرارة نفسي:

-يبدو أني قد أخطأت بتصرفي هذا.

جال في خاطري لو نظر كامران نحوي في تلك اللحظة، لأدرك شعوري بالندم، وسيسرع نحوي، وما كنت سأبتعد عنه ثانية.

كان كامران يجلس شارداً. أدركت كم أسبب له من حزن شديد، لكنني حاولت طرد ندمي وتبرير فعلتي:

-لن أنسى أيها الأشقر الخائن ما فعلته مع تلك الأرملة في الحديقة. نل جزاءك فأنت من بدأ!

في الأيام الأخيرة من العطلة، حادثة وقعت لي ينبغي عدم تجاهلها. لاحظ أهل البيت ضماداً ضخماً يلف إصبعي:

-جرح صغير لا أهمية له، سيشفى سريعاً، كنت أجيبهم.

انتابت الشكوك خالتي من إصراري على إخفاء سبب الجرح، فقالت:

-لابد أنك ارتكبت شقاوة جسيمة حتى لا تريدين البوح بها. لنستدعي الطبيب ليكشف على الجرح قبل أن يتفاقم ويؤدي إلى ما لا تحمد عقباه.

كانت شكوك خالتي على حق، فذات يوم، طلبت خالتي مني إحضار منديل لها من خزانة غرفتها. لمحت علبة مجوهرات صغيرة بمخمل أزرق في خزانتها. أدركت أنها لخاتم خطوبتي. لم أستطع مقاومة رغبتي بتأمله في إصبعي. لكن تلك الرغبة كلفتني الكثير. الخاتم كان ضيقاً ولم أتمكن من نزعه. اضطربت فحاولت نزعه بالقوة بأسناني. ازداد الأمر سوءًا حين انتفخ إصبعي، ولم يعد بالإمكان نزع الخاتم، رغم محاولاتي الشديدة.

لو أخبرت خالتي بالحقيقة لوجدت لي حلاً، لكن ضبط فعلتي سيمس كبريائي، لذا عمدت إلى تغطية الخاتم في إصبعي بضماد ضخم إلى أن يشفَ إصبعي، فأنزع الخاتم وأعيده إلى مكانه دون أن يكتشف أحد ما فعلته. بعد مضي ثلاثة أيام، حين قررت الاعتراف لخالتي بما فعلته، انزلق

الخاتم بسهولة من إصبعي، فأعدته إلى مكانه وانتهى اضطرابي. أما كيف انزلق الخاتم بسهولة بعد طول عناد، لربما أني قد هزلت في الأيام الماضية بسبب الشعور بالضيق والغم الذي راودني مما حصل.

في اليوم الأخير من العطلة، حين تهيأت للعودة إلى المدرسة، اعترض كامران وقال:

-لا داعي للعجلة، يا فريدة. لِمَ لا تبقين بضعة أيام أخر؟

برّرت رغبتي بالعودة إلى المَدرسة بعناد صبياني، وقلت كطالبة مثالية:

-لقد أكّدت الراهبات علينا بالحضور إلى المدرسة في اليوم الأول للدوام. علينا الانتظام بالدراسة، فأمامنا دروس مكثفة هذه السنة.

هذا الإصرار من طرفي، سبّب لكامران موجة جديدة من الإحباط والحزن.

في اليوم التالي، لم ينبس ببنت شفة طوال اصطحابي على الطريق إلى المدرسة. لكنه في لحظة الوداع قال معاتباً:

-لم أكن آمل منك هذه الرغبة العارمة بالابتعاد عني، يا فريدة!


t.me/soramnqraa

-١١-

لم أكن طالبة مجتهدة ولم أحب المدرسة قط، وزاد موضوع خطوبتي من تراجع أدائي.

كانت علاماتي في الأشهر الثلاثة الأولى سيئة جداً. إن لم أجتهد بما فيه الكفاية، فأنا راسبة في الصف نفسه لا محالة.

مساء يوم إعلان النتائج الأولية، استدعتني الراهبة أليكسي وقالت:

-هل أنت راضية عن نتائجك، يا فريدة؟

هززت رأسي وأجبت على نحو متشائم:

-سيئة، يا ماسور.

-سيئة؟ بل سيئة جداً. ما كانت يوماً بهذا السوء. لقد أملت أن يزداد دافعك للاجتهاد هذه السنة.

-أنت على حق. يفترض أني كبرت بالسن عما كنته في العام الماضي.

-ألهذا السبب فقط؟

أمر يدعو للدهشة! داعبت الراهبة أليكسي وجنتي ضاحكة. شعرت بالحيرة متجنبة النظر إلى عينيها.

عجبي من هؤلاء الراهبات! رغم أنهن لا يعرن الحياة الدنيا أدنى اهتمام ولا يأبهن بها، لكنهن يعلمن أدق تفاصيلها وخباياها. كيف؟ لا أدري، فرغم أني لست فتاة غبية، ورغم معايشتي لهن عشر سنوات، لكنني لم أصل إلى فهمهن.

بينما كنت أفكر بطريقة للخلاص من هذا المأزق، استرسلت الراهبة أليكسي بالكلام:

-أظنك ستصابين بالحرج إذا ما رأى البعض نتائجك هذه.

ثم أثقلت أكثر بالكلام:

-إن لم تجتهدي أكثر، سترسبين هذه السنة. ستجازفين بالتأجيل سنة طويلة أخرى.

يبدو إن لم أبادر برد مناسب لن أنجو من محاولة الراهبة أليكسي حصاري. استجمعت جرأتي وسألت ببراءة مصطنعة:

-أؤجل ماذا؟ يا ماسور؟

أدركت الراهبة أليكسي أنها ستخوض أكثر في حديث لا تراه مناسباً بين الرئيسة وطالبتها. داعبت وجنتي بصفعة ناعمة:

-أنت من يعلم ذلك، أجابت ومشت مبتعدة.

لم تحضر ميشيل إلى المدرسة هذه السنة. حمداً لله، وإلا كانت أجبرتني على التحدث بموضوع خطوبتي طوال السنة، وفاقمت من اضطرابي وتشوّش أفكاري.

حين اختلقت حكاية غرام في العام الماضي، كنت أتصرف بطيش ودون التفات إلى العواقب، لكنني هذه السنة، بعد خطبتي، شعور بالضيق والخوف يغمرني. اختصر الحديث في هذا الموضوع، وأصد الزميلات المباركات بتشكر مقتضب وجاف. لم ينجح من زميلاتي بتجاوز هذا الحاجز الذي نصبته سوى فتاة واحدة، ابنة طبيب أرمني تقيم جوارنا. حتى زياراتي لبيت خالتي خلال العطل الأسبوعية اختصرتها، وأمضيت

معظمها في المدرسة.

لم أستطع تجاوز هذا الرفض الذي يعتمر في داخلي، وما سبّبه من حيرة وتساؤل لخالتي بسيمة ونجمية، في حين ظل كامران مواظباً على زيارتي في المدرسة أسبوعياً في الأشهر الأولى. لم تكن الراهبات يرحبن بهذه الزيارات، وإن كن يوافقن على مضض وبوجه عبوس، ما جعلني أصر على ترك باب غرفة الزوار مفتوحاً، أقف بعيدة عنه، يداي في جيبي وكأني أستحثه على سرعة المغادرة. أدرك كامران عدم قبول الراهبات لمثل هذه الزيارات المتكررة من خطيب إلى خطيبته الطالبة، فاقترح التواصل من خلال الرسائل، لكنني حذرته أن الراهبات قد يُقرئنها لمن يجيد التركية ثم يمزقونها، فتراجع عن هذا المقترح.

لا أزال أذكر الحديث غير الودي الذي دار بيننا ذات يوم، حين أبدى كامران ضيقه من وقوفي بعيدة عنه. أراد إغلاق الباب فصددته وقلت بصوت خفيض:

-أرجوك، يا كامران، العيون تراقبنا في كل مكان!

-لكننا مخطوبان، يا فريدة؟

هززت كتفيّ وأجبت:

-هذه هي المشكلة! أرجو المعذرة، نحن في مدرسة، وزياراتك المتكررة غير مرحب بها. لا أظنك ترغب بسماع كلمة غير مناسبة...

اصفر وجه كامران، وتوقف عن زيارتي في المدرسة، منذ ذلك اليوم.

في الحقيقة، ما فعلته كان مشيناً، لكنني كنت مرغمة، فقد كانت تزعجني نظرات زميلاتي إليّ حين دخولي الصف إثر كل زيارة.

ذات يوم، بعد عودة زميلتي ابنة جارنا الطبيب من العطلة الأسبوعية، قالت:

-يبدو أن السيد كامران سيسافر إلى أوروبا. أتعلمين ذلك؟ .

أصبت بالذهول:

-من أخبرك؟

-أخبرني أبي أن عمه المقيم في مدريد قد دعاه.

أن أقول "لا علم لي" يمس من كبريائي، فقلت:

-أجل، يفكر بزيارة عمه هناك.

-ليست مجرد زيارة، سيعمل كاتباً في السفارة.

-لكنه لن يطيل الإقامة هناك.

قطعت الحديث وابتعدت. والد زميلتي الطبيب صديق قريب من عائلتنا، ولا ينقطع عن زيارتنا. لابد أن ما قاله صحيح. لكن، لَم لم يخبرني أحد بذلك، هل أنا آخر من يعلم؟ عددت الأيام المنصرمة. لم يتصل بي أحد، منذ عشرين يوماً.

تلك الليلة، لم أتوقف عن التفكير بهذا الأمر. شعرت بالعتب على كامران لإخفائه هذا الأمر عني، متناسية ما أبديته له من جفاء لا مبرر. لكن ألسنا خطيبين؟

كان اليوم التالي يوم الخميس. كان الجو لطيفاً، فقررت الراهبات خروجنا في نزهة بعد الظهر. لم أحتمل فكرة انتظاري يوماً طويلاً آخر حتى حلول العطلة الأسبوعية، وقضاء ليلة ليلاء أخرى بهواجس وأفكار مشوشة.

انطلقت من فوري إلى غرفة الراهبة الرئيسة، وطلبت أن تأذن لي بالمغادرة مدعية مرض خالتي.

ذلك اليوم، الشكر لله، أن إحدى الراهبات كانت متوجهة إلى منطقة تقع إلى جوار القصر. أذنت الراهبة الرئيسة لي بالذهاب إلى البيت، شريطة مرافقة تلك الراهبة حتى القصر. حين وصلت القصر حاملة حقيبتي الصغيرة، كان الظلام على وشك الهبوط.

استقبلني كلب القصر بالباب. كلب مسن، شره ومتملق. قطع طريقي ثم نهض على قائمتيه الخلفتين، محاولاً منعي من التقدم بقائمتيه الأماميتين، طمعاً بالحصول على شيء يؤكل. في تلك الأثناء، لمحت كامران قادماً من بين الأشجار. على الفور، ركعت على الأرض وأمسكت قائمتي الكلب كي لا يلوث ثيابي.

فتح الكلب فمه الضخم مدلياً بلسانه كأنه يضحك. رحت أقرصه من أنفه وأربت على رأسه مداعبة، إلى أن أصبح كامران إلى جانبي. تظاهرت بالتفاجئ من رؤيته، ثم قلت:

-انظر إلى هذا الفم، ألا يشبه فم التمساح؟

اكتفى كامران بالنظر إلي وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة حزينة.

تركت الكلب ونفضت ثيابي، وبعد أن مسحت يدي بمنديلي، مددتها لأصافح ابن خالتي:

-بونجور، يا كامران. كيف صحة خالتي؟ عافاها الله.

سأل بدهشة:

-صحة أمي بخير. هل سمعت أنها مريضة؟

-أجل، سمعت أنها متوعكة. قلقت عليها كثيراً، لذلك استأذنت للمجيء لرؤيتها في الحال. لم أستطع الانتظار حتى يوم الأحد.

-من أخبرك ذلك؟

لم تسنح لي الفرصة كي اختلق كذبة مناسبة، فقلت:

-ابنة الدكتور.

-هل هي من قالت ذلك؟

-أجل، حين كنا نثرثر معاً قالت: "لقد استدعوا أبي أمس، ربما خالتكِ متوعكة". لذلك شعرت بالقلق على خالتي.

بدت الدهشة على وجه كامران وقال:

-ربما أخطأت. ربما أحد غيرنا من استدعى والدها. كما أنه لم يزرنا في القصر منذ عدة أيام، على غير عادته.

أردت وضع حد لهذه التساؤلات فقلت على الفور:

-ما يهمني أنها في صحة جيدة. لقد أفرحتني... لابد أنهم في البيت...

حملت حقيبتي لأتجه نحو البيت، لكن كامران أمسك يدي وقال:

-لِمَ العجلة يا فريدة؟ أتودين الهروب مني؟

-لِمَ أهرب منك؟ لكن حذائي يضغط على أصابع قدمي... ألن ندخل سوياً؟

-أجل. لكن دعينا نبقى قليلاً معاً لنتحدث على انفراد. في الداخل لا يمكننا ذلك.

أجبته على نحو ساخر كي أخفي ارتباكي:

-أنت تأمر.

-ميرسي. لنتجول قليلاً في الحديقة، إن كنت ترغبين، قبل أن يرونك هنا.

أخذ حقيبتي من يدي، وأمسك يدي بيده الأخرى كأنه يخشى أن أهرب. سرنا جنباً إلى جنب كما لم نسر هكذا قط، منذ خطوبتنا...

كان قلبي يخفق كقلب عصفور وقع في قبضة صياد. أظن لو أنه ترك يدي ما كنت لأرغب بالابتعاد عنه.

مشينا على هذه الحال حتى نهاية الحديقة دون أن ننبس ببنت شفة. بدا كامران حزيناً. ما الذي جرى خلال الأشهر الثلاثة المنصرمة؟ ما الذي تغير فينا؟ لا أدري، لكنني أدركت في تلك اللحظة، أني وراء هذا الحزن، فشعرت بالندم على كل حماقة صدرت مني تجاهه.

بعد انحسار أشعة شمس الأصيل بحمرتها المرجانية خلف الجبال الجرداء غير البعيدة، ظل المساء دافئاً وهادئاً، رغم أننا كنا في أواسط الشتاء.

هل كانت موافقتي السريعة لمطلب كامران مردها الشعور بالذنب تجاهه؟ لا أدري، لقد حاولت إيجاد كلمات تفرج عنه غمه وحزنه، لكنني عجزت.

حين لم يبقَ أمامنا سوى العودة إلى القصر، قال كامران:

-أيمكننا الجلوس هنا، يا فريدة؟

-كما تريد.

جلس كامران على صخرة دون أن يبدِ اكتراثاً لاتساخ بنطاله، على غير عادته. أمسكته من ذراعه وأنهضته على الفور:

-أنت دائم الاهتمام بأناقتك. لا تجلس على تلك الصخرة. قد تتسخ ثيابك.

خلعت معطفي المدرسي الأزرق الداكن ومددته على الأرض.

-ما الذي تفعلينه، يا فريدة؟ قال.

-لا أريد أن أكون سبباً بإصابتك بالمرض من رطوبة الأرض. من الآن فصاعداً، واجبي رعايتك والاعتناء بشؤونك.

بدا ابن خالتي كأنه لا يصدق ما سمعته أذناه:

-ماذا تقولين، يا فريدة؟ هل أنت من تقولين ذلك؟ تلك أجمل ما سمعته منك من كلمات، منذ خطوبتنا.

أملت رأسي إلى صدري ولم أجب.

أخذ كامران معطفي، وراح يتلمّسه برفق.

-كنت أعدّ الكلام كي أعاتبك يا فريدة. لكنني نسيته تماماً.

أجبت دون رفع بصري:

-لكنني لم أفعل لك شيئاً.

ارتبك خوفاً من ردة فعلٍ فظةٍ من طرفي:

-بلى، يا فريدة. ما تبدينه من نفور تجاهي، حرّك ظنوناً في داخلي وتساؤل إن كانت موجغان غير محقة فيما نقلته لي.

ضحكت بلا رغبة، فسألني كامران بفضول عن سبب ضحكي. لم أرد أن أجيبه في بداية الأمر، ولكن تحت إصراره الشديد، أخفضت بصري وقلت:

-لو كانت موجغان غير محقة لما حصل هذا لنا.

-ماذا تقصدين بـ(هذا)؟ هل تقصدين خطوبتنا؟

هززت رأسي بالموافقة وأنا مغمضة العينين.

-فريدتي!

لا يزال صوته الحنون حين ردد اسمي يتردد في أذني. حين فتحت عيني، لاحظت دمعتين كبيرتين في عينيه وقد بدت كالمسحورة.

-لا تدركين كم أسعدتني في هذه اللحظة، يا فريدة. سأظلّ أذكرها حتى وأنا على فراش الموت. لا تنظري إليّ باستغراب. لا تزالين صغيرة جداً لتدركي ما أشعر به.

أمسكني كامران من معصميّ. استرخيت دون اعتراض، لكنني شهقت باكية.

على طريق العودة إلى وصول القصر، كنت أتنهد وأشهق بين الحين والآخر. لم يجرؤ كامران على مسك يدي ثانية، مع ذلك فقد شعرت بالرضا لأنني طمأنت قلبه:

-أدخل قبلي، سأذهب إلى حوض الماء لأغسل وجهي قليلاً. ينبغي أن لا يروني على هذه الحال.

ثم تظاهرت كأن أمراً ما خطر ببالي فجأة، فسألت كامران:

-هناك نية للسفر إلى أوروبا، أليس كذلك؟

-مجرد فكرة عابرة. على وجه الدقة، هي ليست من أفكاري، بل اقتراح من عمي المقيم في مدريد. من أخبرك؟ أجاب.

بعد تردد قصير، قلت:

-ابنة الدكتور.

-يبدو أن ابنة الدكتور تخبرك أخباراً كثيرة، يا فريدة.

تفحص كامران وجهي بانتباه فأدرت وجهي المحمر من الخجل، فتابع:

-أظن أن حكاية مرض أمي ليست سوى ذريعة!

-...

-قولي الحقيقة، يا فريدة. هل هذا سبب قدومك إلى القصر؟

اقترب مني، وأراد لمس وجهي لكنه تراجع خشية من رد فعلي، رغم أني بدأت بتقبّله. كرر سؤاله ثانية:

-هل ظني صحيح، يا فريدة؟

كنت أعلم أنه سيطير من الفرحة، فهززت رأسي بالموافقة:

-يا لسعادتي... يبدو أن طائر السعد يرفرف بجناحيه فوقي، منذ الأمس!

انحنى نحوي وقد وضع يديه على طرفيّ المقعد حيث أجلس. وجدت نفسي محاصرة من جهاتي الأربع. تراجعت حيث أجلس إلى الخلف منكمشة كالقنفذ ثم سألته دون أن أرفع وجهي الذي يكاد يلامس وجهه:

-ما الذي يقترحه عمك؟

-اقتراحه غير ممكن. يريدني أن أعمل في السفارة إلى جانبه. وجهة نظره أنه من المعيب أن أبقَ عاطلاً بلا عمل. جملة من الأفكار جالت في ذهني، أو ربما فريدة سيسعدها السفر إلى أوروبا بصحبة موظف سفارة. لكني لم أتخذ قراري بعد...

حين أخذ الحوار منحاً جدياً، نهض كامران واضعاً نهاية لحصاري. نهضت بدوري من مكاني على الفور. لكن حديثنا استمر:

-لَمَ قلت إن العرض غير ممكن؟ ألا يسعدك السفر إلى أوروبا؟

-لَيس من هذا القبيل. ما أردت قوله إني لم أعد أستطيع الانفراد بقراراتي. يجب استشارتك حين يكون الأمر متعلقاً بحياتنا المشتركة، أليس كذلك؟

-إذن تستطيع السفر.

-ذلك يعني أنكِ موافقة على مغادرتي لاستانبول، يا فريدة؟

-ما دام الأمر يتعلق بمستقبلك المهني...

-هل تسافرين لو كنتِ مكاني؟

-أظن أني كنت سأسافر. وأظن أنه ينبغي عليك أن تفعل أيضاً.

لابد لي من الاعتراف أن هذه الكلمات خرجت من بين شفتيّ فقط ولم تخرج من قلبي. رغم ذلك فقد كنت أشعر أني على حق، هل يوجد رد آخر لمن يسألني "أأسافر وأتركك؟"

بدا كامران متفاجأً وحزيناً لموافقتي على سفره دون اعتراض أو تردد. خطا بضع خطوات في الغرفة مفكراً، ثم استدار وكرر السؤال نفسه:

-إذن تجدين قبولي لعرض عمي صائباً؟

-أجل.

تنهّد وقال:

-لنفكر ملياً قبل اتخاذ القرار النهائي.

رفرف قلبي حزناً. هل انتهت المشكلة بقوله "نفكر"؟ استأنفت الكلام متصنعة الرزانة في اتخاذ القرارات كما يُطلب مني دائماً:

-لا أرى من داعٍ للتفكير طويلاً. في الحقيقة، عرض عملك مغري جداً. ورحلة قصيرة إلى أوروبا ليست سيئة.

-ليست رحلة، بل وظيفة رسمية. قد تطول يا فريدة؟

-سنة سنتان وحتى أربع سنوات... ستمر بغمضة عين... من المؤكد أنك ستأتي خلالها إلى استانبول...

عدّ هذه السنوات بالأصابع سهل جداً...

بعد شهر واحد، أوصلنا كامران إلى الباخرة في ميناء غالاتا. كان الجميع يباركون لي وقوفي إلى جانب كامران في سفره إلى أوروبا، ما عدا موجغان فقد كتبت لي من تكيرداغ "لم تفعلي صواباً يا فريدة. كان ينبغي عليك منعه من السفر. ستمضيان أجمل سنوات عمركما بعيدين عن بعضكما. هل تظنين أن أربع سنوات ستمضي بسهولة؟"

مع هذا، فقد مضت السنوات الأربع أسرع مما ظنته موجغان.

حين عاد كامران وعمه المتقاعد ليقيما في استانبول بشكل نهائي، كان قد مضى شهر واحد على تخرجي من المدرسة.

حين أتخرج من المدرسة وأحمل وثيقة تخرجي، سأصبح حرة. هذا ما كنت أردده طوال السنوات التي عشتها في المدرسة، أو في "قفص الحمام" كما كنت أدعو بناءها الكئيب.

لكن حين فُتح باب القفص وأصبحت في الشارع بخمار أسود وحذاء بكعب عالٍ، وقامتي قد طالت، ذهلت وبدا لي المستقبل ضبابياً. كما أن الاستعدادات الجارية على قدم وساق للزفاف زادت من شعوري بالضياع وبمستقبل مجهول.

كان القصر يعج بالدهانين والنجارين والخياطين والأقارب القادمين من الضواحي البعيدة لقضاء الليل عندنا. كل فرد كان منهمكاً بما يخصّه من عمل. البعض يُعدّ بطاقات الدعوة، البعض خرج للتسوق وإحضار ما يلزم من حاجيات، والبعض الآخر مشغول بالخياطة وأنا في

حيرة من أمري، كلما حاولت مد يد المساعدة لأحد، أُفسد ما قام به. لذا لم يبقَ أمامي سوى جمع الأطفال واللعب معهم.

كان المطبخ مثل بقية الغرف، في حالة صيانة ودهان. نقل الطبّاخ الجديد كل أوانيه إلى خيمة أُقيمت لهذه الغاية، في الحديقة الخلفية، وصار يُعدّ الطعام في الهواء الطلق.

في إحدى الأمسيات، حين لمحت الطبّاخ يُعدّ الحلوى أمام الخيمة، فكرة شيطانية لمعت في ذهني:

-يا أولاد! اختبئوا خلف الزريبة. إياكم أن تصدروا صوتاً. سأحضر لكم بعض الحلوى، قلت.

لم يمضي وقت طويل حتى عدت إلى الأطفال وبيدي صحناً مليئاً بالحلوى. وزعتها عليهم بالتساوي وطلبت منهم التفرّق والابتعاد، وأخفيت الصحن في الزريبة. لم يخطر ببالي أن الطبّاخ حين يكتشف سرقة حلواه، سيفقد صوابه وينطلق في الحديقة بحثاً عن السارق.

بعد قليل، حصل ما لم يكن بالحسبان. حين اكتشف الطبّاخ سرقة حلواه فقد صوابه، وانطلق في الحديقة بحثاً عن السارق ويصيح: "أقسم بالله أنني سأهشم عظام من قام بهذه الفعلة". أثار الأطفال شبهات الطباخ حين بدا عليهم الخوف، ولم يلتزموا بما قلته، فراحوا يتدافعون ويصرخون. هجم الطبّاخ علينا حاملاً المغرفة الكبيرة كالمجنون، يهدّد ويتوعّد.

اختارني الطباخ الوغد من بين الأطفال لكبر سني، وراح يطاردني. حين علقت قدمه ووقع على الأرض متدحرجاً، ازدادت حدة غضبه. الطبّاخ كان حديث العهد في القصر ولا يعرفني، لذلك كنت أخشى أن

لا يتورع عن ضربي بالمغرفة إذا ما وقعت في قبضته.

لم يكن بإمكاني الاختباء في القصر، فرحت أصرخ وأركض نحو الشارع. لحسن حظي، التقيت بالمدموزيل الخيّاطة والمربية "ديلبير"، وقد خرجتا في جولة ترويحية في الجوار بعد عمل مضنٍ في القصر، منذ الصباح. ما إن وصلت إليهما حتى تمسكت بتلابيبهما واختبأت خلفهما صائحة: "الطبّاخ يلاحقني!".

رفعت المربية ديلبير يدها معترضة طريق الطبّاخ وصاحت به:

-ماذا تفعل يا طبّاخ، هل جننت؟ ما بك تلاحق الست العروس!

رغم أني لم أكن أحب ترديد كلمة عروس، لكنني من شدة خوفي صحت بدوري:

-توقف، يا طبّاخ! أنا العروس!

لم أرَ إنساناً أهوجاً وحاد الطباع مثل هذا الطبّاخ. في بداية الأمر، لم يصدّق قول المربية والمدموزيل، وظلّ يقول: "مستحيل، الست العروس، لا يمكن أن تكون سارقة!"، إلى أن اقتنع فقال: "أحييك يا سيدتي العروس على فعلتك، لقد تسببت بتمزق بنطالي. أريد تعويضي ثمنه!".

لقد وقع الرجل على الأرض فنزف أنفه. حمداً لله لم يذكر ذلك لخالتي حين طالبها بتعويضه ثمن البنطال.

حاولت كتمان تلك الحادثة عن الآخرين، لكن رغم كل محاولاتي شاعت وانتشرت وسبقتني إلى كل مائدة طعام أو جلسة صحبة للأهل، مصحوبة بالهمسات والضحكات.

قبل العرس بثلاثة أيام، بينما كنت ألعب مع الأولاد في الحديقة الخلفية، اندفعت المدموزيل الخيّاطة نحوي والشرر يتطاير من عينيها:

-مدموزيل فريدة، بعد أيام سأدعوك بالمدام. هل أنت راضية بما فعلت؟ منذ أكثر من نصف ساعة وأنا بانتظارك لتجربة فستان الفرح!

ما زاد الأمر سوءًا أن خالتي كانت برفقتها وشاهدة عما يجري. لذا سعيت لاختصار النقاش وقلت:

-باردون مدموزيل، لقد خرجت إلى الحديقة قبل قليل، ولم أسمعك من صخب الأولاد.

نفذ صبر خالتي، وداعبت وجنتي كعادتها كمقدمة للتوبيخ:

-صغيرتي، لم تسمعي من الصخب الذي تحدثينه أنتِ وليس الأولاد. أخشى أن ترتكبي طيشاً ما أمام المدعوين يوم الفرح.

رغم ما كان يبدو عليّ من طيش وعناد دائماً، لكنني ذلك اليوم، كنت أعيش حالة اضطراب شديد وبحاجة إلى الحنان والفهم.

مع هذا، حاولت أن أبدو أكثر هدوء، أمسكت بأطراف فستاني وثنيت ركبتي بانحناءة احترام خفيفة وقلت:

-لا تبتئسي يا خالتي، اصبري قليلاً فلم يبقَ سوى ثلاثة أيام. حينئذ ستحملين اسماً وصفة جديدة غير خالة طائر النمنمة. لقد تمادت طائر النمنمة في دلالها على خالتها، لكن أؤكد لك أن فريدة ستكون أكثر تعقلاً.

دمعت عينا خالتي. قبلت خدي وقالت:

-كنت أمك وسأبقى دائماً، يا فريدتي.

غمرني شعور بالحيوية والحماسة. أمسكت خالتي من وسطها ورفعتها في الهواء وقبّلتها من وجنتيها.

حين انتهت المدموزيل الخيّاطة من اللمسات الأخيرة لفستان زفافي، وحان الوقت لتجربته، شعرت بحرارة شديدة تلفّني من شدة احمراري من الخجل. رجوت من كان بالغرفة من الأولاد بالمغادرة وتوسلت:

-حباً بالله، اتركوني وحدي مع المدموزيل الخيّاطة. لا يمكنني ارتداء الفستان بحضوركم. لا أتخيل كيف سيكون منظر طائر النمنمة بفستان ذي كشاكش!

كنت أهرب من المدموزيل كلما اقتربت والفستان بيدها كي أرتديه. كان جسمي يرتعش حين يصيح الأولاد من خارج الغرفة ويصرون على الدخول لرؤيتي بالفستان.

-لا تستعجلوا، أرجوكم، أمهلوني بضع دقائق وسأناديكم حين أفرغ من ارتدائه.

استندوا على الباب يحاولون فتحه بالقوة مثيرين ضجة وصخباً، وكنت أتشبث بالباب من الداخل وأقاومهم كي لا يفتحوا الباب.

في الوقت نفسه، كانت المدموزيل الخياطة تتوسل إلي كي أثبت في مكاني وأكفّ عن الحركة كي تتمكن من إجراء اللمسات الأخيرة للفستان، لكن دون جدوى، فقد كنت بالباب أحاول صد الأولاد.

صمت ساد فجأة، ثم سمعت طرق حذاء يقترب من الباب ثم صوت كامران يقول:

-افتحي الباب، يا فريدة! ليس ممنوعاً عليّ الدخول، أليس كذلك؟ دعيني أساعدك.

حين سمعت صوته فقدت صوابي وصحت متوسلة:

-لا مانع عندي من دخول الجميع إلا أنت يا كامران! حباً بالله اذهب!

لم يبالِ كامران بتوسلاتي. دفع الباب بكتفه ففُتح على مصراعيه. التقطت من فوري معطفاً وتغطيت به والتجأت إلى إحدى زوايا الغرفة مختبئة.

كادت المدموزيل يغمى عليها من هول المفاجأة وراحت تشدّ شعرها وتصيح:

-لقد أفسدت الفستان يا جميلتي!

أمسك كامران المعطف من طرفه وقال ضاحكاً:

-استسلمي، يا فريدة. أرني الفستان.

لم يصدر مني لا صوت ولا حركة.

انتظر قليلاً ثم تابع:

-أرجوك يا فريدة! لقد عدت إلى البيت للتو. أنا مرهق. أرغب رؤيتك بفستان الزفاف. لا تعانديني وإلا لجأت لاستعمال القوة. سأبدأ العد: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة،... خمسة...

بعد أن تلكأ قليلاً بقول "خمسة"، رفع المعطف عن وجهي. ذُهل وشعر بالخجل من حركته حين رأى وجهي مبللاً بالدموع. دفع كل من كان في الغرفة، بعصبية، ثم أغلق الباب.

انعقد لسان المدموزيل من الدهشة، حتى كامران ظل صامتاً لبرهة من الوقت ثم قال بصوت خجول ومتأثر:

-سامحيني يا فريدة. لم أقصد سوى المزاح. كنت أفكر بسعادتي حين أراك بالفستان، لكنني لم أتوقع أنك ما زلت صغيرة ليسعدك هذا الأمر... ستسامحيني، أليس كذلك؟

أجبته بعد أن غطيت رأسي ثانية بالمعطف:

-لا بأس، لكن عليك الخروج من الغرفة في الحال!

-سأخرج بشرط واحد. سأنتظرك عند الصخرة في نهاية الحديقة. هل تذكرين؟ لقد تصالحنا جوارها قبل أربع سنوات. اليوم، سنفعل الشيء نفسه. هل تعديني؟

بعد تردد قصير:

-حسناً، سآتي. لكن، اخرج الآن.

لم تعد المدموزيل الخياطة تجرؤ على التكلم مع هذه العروس غريبة الأطوار. نزعت عني الفستان دون أن تنبس ببنت شفة. لبست فستاني الوردي القصير ومريولي الأسود المدرسي واندفعت خارجة من الغرفة دون النظر إلى موجغان.

غسلت وجهي بالماء البارد كي يزول احمرار عينيّ وانطلقت نحو الحديقة دون أن يراني أحد.

كان الظلام قد بدأ ينتشر شيئاً فشيئاً حين وصلت إلى الحديقة الخلفية المطلة على المطبخ. ثرثرت قليلاً مع الطبّاخ، ثم اتجهت نحو الباب الخارجي كي أتابع السير إلى جوار سور الحديقة الداخلي حتى المكان المتفق عليه.

-١٣-

لمحت امرأة طويلة القامة بخمار وجلباب أسود تقف بباب الشارع المفتوح. كانت تتلفّت حولها بقلق، وكأنها تتردد في الدخول. على الفور، غيّرت طريقي لأتوارى منها فقد مضى وقت طويل وكامران بانتظاري، ولا أريد أن أجعله ينتظر أكثر. لكن يبدو أنها قد لمحتني فنادت عليّ:

-آنستي! هل تعطيني بعضاً من وقتك؟

ما عاد يجدي التواري. استدرت وعدت أدراجي نحوها:

-تفضلي يا سيدتي! ماذا تريدين؟

-أليس هذا قصر المرحوم سيف الدين باشا؟

-نعم.

-هل تقيمين في هذا القصر؟

-نعم.

-إذن أرجو منك خدمة صغيرة.

-تفضلي.

-أنا أريد مقابلة السيدة الفاضلة فريدة .

ارتددت إلى الخلف قليلاً. السيدة والفاضلة؟ حاولت كتم ضحكة كادت أن تصدر من أعماقي، فلم أعتد على هذه الألقاب. عضضت على شفتيّ وقلت:

-حسناً، تفضلي إلى الداخل. اسألي من في القصر وسينادون لك السيدة فريدة.

دخلت المرأة ذات الجلباب الأسود من باب الحديقة واقتربت مني:

-سعيدة برؤيتك يا صغيرتي! هلّا ساعدتني بالحديث مع السيدة الفاضلة فريدة على انفراد؟ كما أرجوك أن لا تخبري أحداً بلقائنا.

أمعنت النظر في وجهها بدهشة، لكنني لم أتمكن من تمييزها فالظلام قد لفّها ولم تكشف خمارها بعد. بعد تردد لهنيهة قلت:

-سيدتي! أنا فريدة.

تراجعت المرأة إلى الخلف من الارتباك وسألت:

-أأنت السيدة فريدة نفسها التي ستتزوج من السيد كامران؟

-لا يوجد سوى فريدة واحدة في القصر، قلت متبسمة.

تسمّرت المرأة ذات الجلباب الأسود في مكانها وصمتت. قبل قليل، كانت ترغب برؤيتي على انفراد. ماذا دهاها؟ شعرت بفضول فقلت:

-تفضلي يا سيدتي، أستمع إليك.

أمر غريب! لا تزال المرأة صامتة وقد أصابها الوجوم.

وقف نظري على مقعد تحت الأشجار على مقربة منا فقلت:

-دعينا نجلس هناك يا سيدتي، ونتحدث على انفراد كما تشائين.

استمر وجوم المرأة حتى بعد أن جلسنا على المقعد. بعد صمت دام لدقائق، كشفت خمارها بحركة عصبية وكأنها وصلت إلى قرار قطعي بالحديث. بدا أمامي وجه لامرأة في الثلاثين من عمرها، ذات ملامح ذكية وعصبية. بشرة وجهها بدت صفراء رغم العتمة التي كانت تلفّنا.

-آنسة فريدة! أنا هنا في مكان صديقة عزيزة إليّ. حين رضيت بهذا الدور لم أكن أظن أنه بهذا القدر من الصعوبة. رغم أني كنت أصر على رؤيتك قبل قليل، أرغب الآن بالتراجع والعودة من حيث أتيت.

سرت رعشة في جسدي. وخفق قلبي بشدة. لو لم أكن قوية القلب لترددت بسماع ما تريد قوله وآثرت الهرب. تمالكت أعصابي وقلت بهدوء:

-أرى أن تكملي ما أتيت من أجله، يا سيدتي. عليك التحلي بالشجاعة وأخبريني من هي صديقتك. هل سبق وأن تعارفنا؟

-كلا، أقصد لم تتقابلا من قبل. لكنها تعلم أنك خطيبة السيد كامران.

-هل تعرف كامران؟

-.....

لم أعد أحتمل متابعة الحديث، ما كنت سأوقفها لو رغبت بالعودة إلى حيث أتت، رغم فضولي الشديد لمعرفة ما أتت من أجله.

-آنسة فريدة! لابد أنك تتساءلين عن سبب ترددي فجأة بقول ما جئت من أجله. لقد ظننت أنك أكبر سناً، فإذا بك لا تزالين طالبة في المدرسة، لذا أخشى أن أسبب لك الحزن ولا تفهمين ما سأقوله.

شعرت أن إحساس المرأة الغريبة بالشفقة على حالي أصاب كبريائي، فعادت لي كامل قوتي.

نهضت عن المقعد. أسندت ظهري على الشجرة، وعقدت ذراعيّ على صدري وقلت وبصوت هادئ:

-لا داعي للتردد. إن كان أمراً مهماً ما ترغبين قوله، دعك من التردد وتحدثي بكل صراحة.

جرأتي شجّعت المرأة على الكلام:

-هل تحبين السيد كامران كثيراً؟

-هذا الأمر لا يعنيك، يا سيدتي.

-لكن له علاقة بالموضوع، يا آنسة فريدة.

-علينا الحديث بكل صراحة، وإلا لا جدوى من إضاعة وقتي يا سيدتي.

-حسناً، كما تشائين. جئت كي أخبرك أن امرأة أخرى تحب السيد كامران.

-لا غرابة في ذلك، يا سيدتي. كامران شاب كريم الشمائل ما يجعله محط عيون النساء.

أدركت أني أواجه عاصفة غير منتظرة في مساء صيف جميل هادئ، ورغم عديد الأسئلة التي دارت في رأسي، لكنني كنت من القوة بحيث أجابهها دون خوف.

أدركتُ من حركات المرأة العصبية التي بدت عليها من نهوضها باندفاع وشدّها لجلبابها، أن كلامي المشوب بالاستهزاء دفعها لاختصار المقدمات والخوض مباشرة بإيصال ما تريد، فقالت بصوت خالٍ من أية تعابير:

-يبدو أني أقف قبالة فتاة عاقلة وواسعة الإدراك وعلى درجة عالية من الكمال، رغم ما يبدو عليك من صغرٍ في السن. مع ذلك لم يدرك السيد كامران علو شأنك، أو ربما وقع أسير ضعف عابر. ما أريد قوله: صديقتي وكامران التقيا منذ سنتين في أوروبا. لا أدري إن كان ينبغي أن أسهب بالتفاصيل أم لا؟

هززت رأسي:

-ينبغي ذلك كي تثبتي صحة ادعاءك.

-صديقتي تُدعى منوّر. ابنة أحد العاملين السابقين في ديوان السلطان. انتهى زواجها بمن أحبته بالطلاق. غادرت إلى أوروبا للمعالجة إثر إصابتها بمرض عضال. كانت على وشك العودة إلى أرض الوطن بعد تعافيها حين التقت بكامران في سويسرا. لا أدري إن جاء إلى سويسرا بعمل رسمي أم بإجازة. لكنني أعلم أنه مكث ما يقرب من شهرين، في حين كان من المفترض أن يمكث أسبوعاً واحداً فقط. لذلك تعرض لعقوبة لتغيّبه عن عمله.

-هل لي بمعرفة نية صديقتك من إخباري بذلك؟ سألتها.

انتصبت المرأة الغريبة على قدميها بانفعال، وراحت تفرك يديها من فوق القفازات بعصبية واضحة، ثم قالت:

-يصعب قول ذلك. منوّر، تعتبر خصمك الآن!

-استغفر الله.

-هي كذلك، يا آنسة فريدة. لكنها ليست امرأة سيئة أبداً، بل رقيقة المشاعر للغاية. السيد كامران بالنسبة لها ليس مجرد مغامرة عابرة. كانت تأمل الزواج منه. لكن الملامة تقع على كامران، فقد أخفى عنها أن له خطيبة في استانبول. لم أكن لأوافق على القيام بهذا العمل المشين، لولا خشيتي على هذه المرأة رقيقة المشاعر من الموت. على أية حال، هي مريضة.

-كيف يمكن أن أثق بصحة ما تقولين؟

-لِمَ أكذب؟ لن تعيش منوّر طويلاً إن تم زواجكما.

-وَا حسرتاه على المسكينة.

-الأصح وا حسرتاه عليكما الاثنتين.

رفعت يدي في وجهها لأشعرها بأنها تمادت بحديثها معي، ثم قلت:

-لا تدعي تعاطفك معي. أنت لا يهمك سوى أمر صديقتك.

-لا يا آنسة فريدة! صحيح أن منوّر صديقتي منذ سنين، لكنني لا أريد الإساءة إليكِ. أنت فتاة شابة لا ذنب ولا جريرة لك. لذلك أشفق على حالك أيضاً...

لم أحتمل سماع قولها هذا، فقلت بقسوة وغرور:

-لا أسمح لك بذلك. كما أظن أن حديثنا قد وصل إلى نهايته.

كانت المرأة تفتح حقيبتها وتغلقها طوال الوقت كأنها تبحث عن شيء داخلها. حين أعلمتها بوضع نهاية لحديثنا، أخرجت ورقة مغضّنة من حقيبتها.

-آنسة فريدة، أحضرت إحدى رسائل كامران إلى صديقتي لتأكيد صحة أقوالي. لا أدري إن اطلعت عليها قد تسبب لك الأسى. أردت رد الرسالة بحركة من يدي في بداية الأمر، ثم تراجعت خشية الشعور بالندم إن لم أطلع عليها.

-سأعطيك إياها لتقرئينها لاحقاً. ما عادت صديقتي تريد الاحتفاظ بها.

هززت كتفي بالرفض:

-لا حاجة لي بها. لتبقَ لديها كذكرى. لكن لا أمانع من إلقاء نظرة عليها.

ازداد الظلام شدة. ابتعدت عن الأشجار نحو الطريق وقربت الرسالة من عينيّ. لم أجد صعوبة بالقراءة فالخط ليس غريباً عني.

لا أذكر الكثير مما تضمنته الرسالة سوى البادئة الموجهة إلى "زهرتي الذهبية"، ثم حديث عن أول لقاء كيف تم في حديقة الفندق، وكيف نشرت الزهرة الذهبية الضياء في داخله كما تنشر الشمس ضوءها عند الشروق، وعن مشاعر الفرح والسعادة...

لكني لا أدري لِمَ لا تزال الأسطر الأخيرة من الرسالة عالقة في ذهني:

"ظل قلبي خالياً وبحاجة إلى الحب إلى أن ظهرت أمامي بقدك المياس وعينيك ببريقهما الأزرق الخلاب، حينذاك بدت الحياة وردية في عيني..."

حين اقتربت المرأة الغريبة وقالت بصوت مرتعش:

-آنسة فريدة! لقد سبّبت لك الأسى، لكن صدقيني...

انتفضت بغضب وقطعت كلامها على الفور وأعدت لها الرسالة قائلة:

-لا شيء يدعو للأسى. تحصل مثل هذه الأمور. أشكرك لاطلاعي على الحقيقة. أستأذنك الآن، ينبغي أن أذهب.

ابتعدت بعد أن حييتها بحركة من رأسي، لكنها أصرت على متابعة كلامها:

-آنسة فريدة، هلا انتظرت قليلاً؟ ماذا أقول لصديقتي؟

-أخبريها بما حصل، والأيام ستكشف ما سيحصل لاحقاً.

ظلت المرأة الغريبة تناديني، لكنني أسرعت الخطى حتى اختفيت بين الأشجار.

لا أدري كم من الوقت انتظرني كامران عند الصخرة حتى ذهب إلى غرفتي للبحث عني، بعد أن يأس من مجيئي، ليجد الرسالة التي كتبتها له على ورقة من دفتري المدرسي، ليعلم أننا لن نتصالح أبداً. لابد أنه أصيب بالذهول:

"إلى السيد كامران،

لقد علمت بمغامراتك مع الزهرة الذهبية بكل تفاصيلها. لن نلتقي أبداً حتى الموت.

أكرهك.

فريدة".

الفصل الثاني

-١-

-منذ وصلت إلى هنا، تكتبين دون ملل ولا كلل، وتواصلين الليل بالنهار. ما هذا الذي تكتبين لا نهاية له؟ لا أظنه رسالة فالرسائل لا تُكتب في الدفاتر. ولا أظنك تكتبين كتاباً، فلا يكتب الكتب سوى أصحاب اللحى. أما أنت فلست سوى طفلة بطول الإصبع. ماذا تكتبين؟

هذا ما سألني إياه مشرف الفندق العجوز "حجّي كلفا"، حين جاء لزيارتي وتفقد حالي بعد أن أنهى تنظيف ممرات الفندق وهو يغني.

لم أستطع كبح ضحكاتي حين رأيته بزي غريب:

-ما هذا الزي يا حجّي كلفا؟

كان حجّي كلفا يرتدي مئزراً أبيض كل يوم، لكنه ارتدى اليوم قفطاناً فضفاضاً كزي النساء.

-ماذا نفعل؟ ما دمنا نقوم بعمل النساء، فلابد أن نرتدي زي النساء، قال.

كان حجّي كلفا الوحيد من أسمح له بدخول غرفتي، وأتحدث إليه من حين إلى آخر، إضافة إلى جارتي البائسة. كان يشعر بالخجل في الأيام الأولى، ولا يدخل غرفتي قبل أن يقرع الباب ويصيح: "غطي رأسك يا سيدتي المعلمة!" فأمازحه قائلة: "دعك من هذه المراسم يا عزيزي حجّي كلفا".

يزداد عبوس وجهه ويقول:

-لا ينبغي الدخول على النساء دون استئذان.

أدرك حجّي كلفا مع الوقت أني أمازحه، فأصبح يتردد على غرفتي متى رغب بالحديث معي، يقرع الباب ويدخل دون خجل. كما أصبح يتقبّل ضحكي ولا يبالي:

-ما عاد ضحكك المتواصل يغضبني. لابد أنك بحاجة إلى قليل من المرح وأنت تجلسين في هذه الغرفة وحيدة كالعصفور في القفص. لا بأس عليكِ، اضحكي وروّحي عن نفسك، ولا مانع عندي من أن أغني لك أغنية إذا ما رغبت.

ما كان ممكناً أن أفهّم حجّي كلفا ماذا أكتب:

-أكتب مسائل معقدة جداً يا حجّي كلفا. قريباً سأباشر التدريس. لابد من الاستعداد التام لتعليم الأطفال ما ينبغي تعلّمه.

يستند حجّي كلفا على عصاه متخذاً وضعية من يقف أمام عدسة الكاميرا استعداداً لالتقاط صورة له، يجيب وفي عينيه ابتسامة ودودة:

-أتظنين أنك تخدعين طفلاً؟ أتعلمين كم ربيع مر على رأس حجّي كلفا؟ وكم موظف أقام في هذا الفندق؟ اكتبي ما تشائين، لا يهمني. لكن حاولي أن لا تلوثي أصابعك بالحبر، من غير المناسب أن يرى الأطفال أصابع معلمتهم ملوثة بالحبر. أنت تكتبين ما ينبغي عليك كتابته، وأنا أنظف ما ينبغي علي تنظيفه من أرضيات.

عدت إلى طاولتي ثانية بعد مغادرة حجّي كلفا. لكنني ما عدت أشعر برغبة بالكتابة. ظلّت بعض من أقواله تجول في ذهني.

يبدو أن حجّي كلفا على حق، لقد كبرت وسأمارس العمل كمعلمة خلال بضعة أيام، لذا ينبغي عليّ التوقف عن التصرفات الصبيانية. الأمر لا يتوقف عند تلويث أصابعي بالحبر فحسب، بل شفتيّ أيضاً. لا أزال أعيش في أجواء المرحلة الدراسية حين أنكب على كتابة مذكراتي، ولا أحاول التفكير بحياتي العملية القادمة. كما أن قوله إني أعيش وحيدة كعصفور في قفص أثار حنقي، لعلاقة العصفور بطائر النمنمة. لا أحتمل العيش مقيّدة الحرية في الأقفاص، وأريد نسيان كل ما يربطني بالماضي البغيض وغدر الأقرباء. رغم ذلك، فلن تمنعني رغبة نسيان الماضي من مواصلة كتابة مذكراتي.

ذاك المساء، بعدما أخبرتني المرأة الغريبة عن الزهرة الذهبية، التقيت بخالتي في طريقي عائدة إلى غرفتي. حاولت التواري في العتمة، لكنها لمحتني من بعيد فصاحت:

-لِمَ تختبئين يا فريدة؟

وقفت قبالتها صامتة. ما كان بإمكاننا تمييز ملامح وجوه بعضينا من شدة الظلام.

-لِمَ لا تذهبين إلى الحديقة؟

-......

-هل عدنا للشقاوة ثانية؟

شعرت بحمل يضغط على صدري ويقطع أنفاسي.

-خالتي، قلت.

في تلك اللحظة، لو أسمعتني خالتي كلمة لطيفة، لو لامست وجنتي بحنان، لو ربتت على شعري، لكنت سألقي نفسي على صدرها

باكية، ولكنت بحتُ لها بكل أشجاني.

لكنها لم تسطع تميز ما كنت أشعر به من شجن، فأضافت قائلة: "ما الخطب ثانية يا فريدة؟". لقد اعتدت على سؤالها الحاني هذا دائماً حين احتاج إليها. لكن هذا المساء، بدا لي سؤالها وكأنها تعنفني.

-لا شيء يا خالتي، هل تسمحين لي بتقبيلك؟ قلت.

كانت خالتي بمثابة أمي، ولا أرغب بفراقها دون تقبيلها للمرة الأخيرة.

أمسكت يديها وقبلتها من وجنتيها وعينيها.

كانت غرفتي في حالة فوضى عارمة. الثياب مبعثرة في كل الأرجاء. أبواب الخزانة مشرعة والألبسة مدلاة. أعلم أنه مشيناً ترك الغرفة على هذه الحال، لكن لا مجال، فالوقت ضيق ويمر سريعاً. كتبت رسالتي المقتضبة دون إشعال النور خوفاً من مجيء أحد. لملمت على عجل، ما أريد حمله من أشيائي الخاصة، وثيقة تخرجي المدرسية بشريطها الأحمر، أشياء تحمل ذكريات من طفولتي، قرط كذكرى من أمي، بضع مجوهرات وخواتم عادية. وضعت كل ذلك في حقيبة سفري.

ضحكت بحسرة على حالي الشبيهة بهروب أطفال التبني من بيوت ذويهم.

لم أفكر أين سأذهب حتى أصبحت في وسط الشارع. أجل، أين أذهب؟ لو كان الوقت نهاراً لهان الأمر. وقعت في حيرة شديدة. المشكلة تكمن في قضاء هذه الليلة. أين يمكنني تمضية هذه الساعات من الليل حتى الصباح؟ لا يمكنني التجول بحقيبة أمتعتي في محيط القصر حتى

الصباح. بعد قليل، ستُعلن حالة استنفار في القصر. قد لا يستدعون الشرطة خوفاً من الفضيحة، لكنهم سيخرجون إلى محيط القصر بحثاً عني. السفر بالقطار أو الباخرة أو العربة غير مضمون النتائج. سيقتفون أثري سريعاً. لكنني أعلم أن لا قوة تستطيع إرغامي على العودة إلى القصر ثانية. أو ربما قد يظنون أن غيابي عن القصر ليس سوى تصرف صبياني عابر، وسأعود من تلقاء نفسي.

يجب أن أجعلهم يتخلون عن فكرة عودتي إلى القصر ثانية. سأكتب رسالة إلى خالتي غداً، رسالة تجبرهم على نسياني إلى الأبد. لكن... أين سأمضي هذه الليلة؟

في بداية الأمر، تطرق إلى ذهني اللجوء إلى بيت بعض الصديقات المقيمات جوار القصر. من المؤكد أنهم سيرحبون بي ظاهرياً، رغم استهجانهم لهروب فتاة من بيت أهلها، ليلاً. قد أُلفّق سبباً مناسباً، لكنني سأشعر بالاستياء من تبرير فعلتي أمام الغرباء، وسيغيظني الاستماع إلى نصائحهم. حتى لو فعلت ذلك، فمن الطبيعي أن تبدأ عائلتي بالبحث عني في بيوت صديقاتي. لكن، هل تجرؤ عائلات صديقاتي على نفي وجودي عندهم حين تأتي عائلتي في منتصف الليل لتسأل عني بذعر؟

قررت الذهاب إلى المحطة عبر الشوارع الخلفية فالطريق المؤدي إليها غير آمن. مع اشتداد العتمة، بدأت بالشعور بالحيرة وفقدان الجرأة على مواصلة الطريق. فجأة، خطر ببالي الجدة المرضعة. كانت تقيم في بيت أحد أقاربنا قبل ثماني سنوات، وتقيم الآن مع زوجها في حي "سهراي جديد"، ولم تتوقف عن زيارتنا في القصر كلما سنحت لها الفرصة. في العام الماضي، عرّجنا ببيتها، واستضافتنا في حديقة بيتها. علاقتي بها

جيدة فقد كنت أحبها الكثير من ثيابي. لن تخطر ببال أحد، إن أمضيت هذه الليلة في بيتها.

مرّت عربة في الشارع. ترددت بإيقافها. لم أكن أحمل قطعاً نقدية صغيرة، وفي ذلك مجازفة لا أدري عقباها.

لا مفر من الذهاب إلى سهراي جديد سيراً على الأقدام. كنت أتوقف مرتعدة كلما سمعت طرق أقدام أو شاهدت ظلاً متحركاً. من لا يظن الظنون السيئة بامرأة تسير وحيدة في شوارع نائية، في منتصف الليل؟ لكنني لم أصادف في طريقي لا إنساً ولا جناً، حتى سمعت جماعة من السكارى يغنون، ثم لمحتهم قادمين نحوي من بعيد. بوثبة واحدة كنت خلف سور أحد البساتين. بقيت مختبئة خلف السور حتى راح صوت غنائهم يتلاشى. حمداً لله إذ لم يكن في البستان كلب، وإلا كنت قد أوقعت نفسي في ورطة أعظم.

تابعت سيري نحو سهراي جديد، لألمح في طريقي أحد حراس الليل يمشي متكأ على عصاه من التعب. تلفّت حولي بحثاً عن مكان أختبئ فيه عن نظره، لكنه انعطف في أحد الأزقة الجانبية دون أن يراني.

دُهشت المرضعة وزوجها العجوز عندما رأياني. استعدت حكاية الذئب في ذاكرتي أثناء مسيرتي. كنت وعمي عائدين من حي "أوسكودار". انكسرت عجلة عربتنا. لم نجد عربة أخرى في هذه الساعة المتأخرة من الليل. لم يكن أمامنا سوى متابعة طريقنا سيراً على الأقدام. حين لمح عمي ضياء ينبعث من بيتكم، قال عمي بفرح: "فريدة، لا بأس لو قضيت هذه الليلة عند الجدة المرضعة. سترحب بك. وأنا أيضاً، سأمضي هذه الليلة عند صديق لي يقيم قريباً من هنا. نلتقي غداً صباحاً!".

في الحقيقة، حكايتي لم يكن من السهل تمريرها حتى على هؤلاء الناس البسطاء، لكن استضافة بنت الذوات لليلة، كان بالنسبة إليهما شرفاً عظيماً. لم تشك الجدة المرضعة بصحة حكايتي ولا للحظة واحدة، لكنها في الصباح، حين لا تجدني في السرير العابق برائحة الخزامى الذي أعدته خصيصاً لي، ستدرك أن وراء الأكمة ما وراءها، لكن حينذاك يكون العصفور قد طار من العش والقافلة قد غادرت.

تلك الليلة، بعد أن أطفأت مصباح الغرفة التي أعدتها لي الجدة المرضعة، أدمت النظر في العتمة وأعددت خطة بكامل تفاصيلها. حين تسلّمت وثيقة تخرجي بشريطها الأحمر، كنت أظنها عديمة المنفعة وستبقى في إحدى زوايا خزانتي إلى أن تصفرّ ويشحب لون ما خط عليها من كتابة بالفرنسية. تلك الليلة، أدركت أهمية دورها برسم مستقبلي. بفضلها سأصبح معلمة في إحدى مدارس ولايات الأناضول، حيث سأمضي حياتي بين الأطفال بقناعة وسعادة.

قررت البقاء في بيت المربية "غوليسال" في حي السلطان أيوب حتى يحين الوقت المناسب لمغادرتي استانبول. غوليسال كانت مربية أمي.

كانت غوليسال تكنّ محبة عظيمة لأمي، وبعد أن توفيت أمي ظلت على تواصل مع جدتي. كانت تحضر لي ألعاباً من أيوب، في كل زيارة لها إلى القصر. بعد أن توفيت جدتي، انقطعت علاقتها بالقصر، إثر خلاف مع خالاتي لا أدري سببه. باختصار، ليس لدي مكاناً في استانبول أفضل من بيت المربية غوليسال.

دار في ذهني أيضاً أن خالتي بعد استلامها لرسالتي التي سأشرح فيها خيانة كامران لي، لن تفعل شيئاً سوى البكاء. أما ذلك الوضيع، لن يجرؤ على مواجهتي حتى لو تمكّن من معرفة مكاني.

في الصباح الباكر، انطلقت إلى حي السلطان أيوب. كان باب بيت المربية مشرعاً. وقفت أمام الباب أتأملها، غطاء رأسها، حاجبيها المصبوغين بالحنّاء، والقبقاب في قدميها تشطف فناء البيت. نظرت إليّ بعينيها الزرقاوين الشاحبتين بذهول. لم تستطع تمييزي فالخمار كان مسدلاً على وجهي:

-ماذا تريدين يا سيدة؟

قلت متلعثمة:

-مربيتي، ألم تعرفيني؟

نبرة صوتي جعلتها تتردد وتتراجع إلى الخلف وتهتف قائلة:

-بسم الله، بسم الله! اكشفي عن وجهك يا سيدة.

تركت حقيبتي على الأرض المبللة وكشفت خماري.

أطلقت المربية صيحة مخنوقة:

-غوزيدا، غوزيدا! هل عدت يا بنيّتي؟

اندفعت نحوي وعانقتني بأذرع نحيلة عروقها ناتئة. قالت والدموع تنهمر من عينيها:

-آه يا صغيرتي! كم اشتقت إليكِ!

أدركت سبب هذه اللهفة الشديدة، بعد أن تذكرت ما كانت تقوله إحدى صديقات أمي المقربات: "كلما كبرت فريدة تزداد شبهاً بأمها. حتى صوتها، حين أسمعها تتكلم كأني أسمع صوت غوزيدا، فلا أتمالك

نفسي من البكاء".

يبدو أن المربية غولميسال قد ظنّت أن غوزيدا بنفسها، تقف أمامها. لم يحدثني أحد عن أمي قط. ربما ستروي هذه المربية الشركسية لي الكثير عنها.

أتذكر وجه أمي كالخيال. خيال كصورة بهتت معالمها. خيال لا يثير عندي لا حزن ولا لهفة. الحزن واللهفة ضاعا مع الزمن. لكن عندما شعرت أن المربية العجوز صاحت "غوزيدا" بلهفة وراحت تلامس وجنتي، خفق قلبي وشعرت بحنين إلى حضنها، فشاركت المربية بالبكاء وصحت "أمي، حبيبتي!".

سألتها والدموع في عينيّ:

-مربية غولميسال، هل كانت أمي تشبهني كثيراً؟

-إلى درجة كبيرة، يا ابنتي. حين رأيتك، ظننت أنها هي بنفسها تقف أمامي. ليعطيك الله العمر المديد.

ظلّت المربية العجوز تنشج، بينما كانت تخلع عني ثيابي كالأطفال في الغرفة المجاورة للفناء.

لن أنسى حلاوة الساعات الأولى التي أمضيتها في غرفتها الصغيرة ذات الستائر الشيت، طوال حياتي. بعد أن خلعت عني ثيابي، مدّدتني على الديوان، ثم وضعت رأسي على ركبتيها، وراحت تحدثني عن أمي وهي تربت على رأسي وجبيني، منذ ساعة ولادتها حين احتضنتها بقماطها الأزرق حتى يوم سفرها شابة فتية في العشرين من عمرها.

ثم جاء دوري بالحديث، فرويت لها ما مر معي يوماً بيوم. كانت تصغي إليّ مبتسمة، وتطلق تنهيدة حزن بين الحين والآخر. إلى أن رويت

لها سبب مغادرتي القصر وقلت: "لن أعود إلى القصر ثانية حتى مماتي!". انفعلت وقالت: "لقد قمت بعمل صبياني يا فريدة. لا شك أن السيد كامران قد أساء إليك بما ارتكبه من تصرف مشين، لكنه سيدرك فداحة تصرفه وينتظر منك الصفح والغفران".

أجبتها:

-مربية غوليسال، لا يمكنني غفران ما فعله. لا تشغلي بالك بلا طائل! سأبقى عندك بضعة أيام، ثم أغادر بعيداً، إلى مدينة أخرى. سأعمل وأعيل نفسي بعرق جبيني.

اغرورقت عينا المرأة، مسحت على يديّ وقالت:

-لم تُخلق هاتان اليدان لتشقى يا صغيرتي!

-لن أستعمل هاتين اليدين إلا لشدّ آذان الأطفال الأشقياء!

ثم تابعت حديثي عن خطتي بالعمل معلمة في الأناضول، وكيف سأعيش بين الأطفال أدرّسهم وألاعبهم وأعلمهم كيف يعتمدون على أنفسهم. كنت أروي لها كل ذلك ببهجة وسعادة فشاركتني البهجة والسعادة نفسها. وحين طلبت منها أن لا تخبر أحداً بمكاني، نهضت من مكانها وأنزلت عن الحائط مصحفاً مجللاً بحافظة خضراء، وأقسمت أن لا تبوح لأحد بمكاني طوال المدة التي سأقضيها في ضيافتها.

ذلك اليوم، شاركت المربية غوليسال بإنجاز أعمال المنزل حتى المساء. لم يسبق لي أن أعددت طعاماً ولا قليت بيضة. الحال ستتغير من الآن فصاعداً. يجب انتهاز فرصة وجودي عند المربية غوليسال لأتعلم منها كيف أطبخ وأجلي وأغسل وأخيط وأرقع.

خلعت حذائي وجواربي وشرعت بالعمل، دون اكتراث لرفض المربية وصيحات استنكارها. رفعت الماء بالدلو من البئر، وشطفت فناء البيت، وبعد أن أحضرت دفتراً وقلماً، جلسنا على المصطبة لأسجل تعليماتها عن أصول إدارة شؤون المنزل.

كنت أظن أن تنقية الخضار عمل سهل، لكن حين رأت المربية كيف أقوم بتقشير البطاطا صاحت:

-ابنتي، أضعت نصف البطاطا مع القشور!

ركّزت انتباهي وقلت:

-هل هكذا أفضل يا مربية؟ أرجو أن تعلميني الطريقة السليمة. لا أرغب بهدر مالي بلا طائل.

لم أتوقف عن طرح الأسئلة من حين إلى آخر مثل: كم ثمن حبة البطاطا؟ كم سنتيمتراً يجب قطعه من حبة البطاطا؟ كم عدد دلاء الماء اللازمة لتنظيف أرض البيت؟ فتجيبني ضاحكة. وكنت بدوري أشرح لها عن الأساليب الجديدة التي سأتبعها بتعليم الأطفال.

وضعنا طنجرة الطعام على النار، وافترشنا في المطبخ، حصيراً يفوح نظافة.

-آه يا مربيتي، لا أذكر جيداً البلاد العربية حيث قضيت طفولتي، لكنني أعلم أن بلاد الأناضول، حيث سأذهب، جميلة أيضاً. لكن يقال إن رغم فقر أهاليها لكنهم أصحاب مروءة، ولا يترددون من مساعدة بعضهم بعضاً. سأعمل هناك في مدرسة صغيرة. سأجعل منها جنة بزراعتها بكل أنواع الأزهار. سيكون حولي عديد من الأطفال. سأخيط مآزر سوداء للفقراء منهم. لا تضحكي، ستعلمينني الخياطة يا مربيتي!

تضحك المربية أحياناً، وتنصحني أحياناً أخرى متنهدة:
-آه يا بنيتي فريدة! ما تنوين فعله خطأ جسيماً.
الأيام ستكشف من منا على خطأ!

بعد أن أنهينا كل الأشغال، كتبت رسالة نارية إلى خالتي، كان من جملة ما ورد فيها: "أقول لك بكل صراحة، يا خالتي إن كامران لم يعدني بأي شيء في أي يوم من الأيام... لم يكن كامران في نظري سوى شخص مغرور ومدلل وتافه وجبان وبلا مشاعر. طفل عديم الشخصية ويفتقر للحكمة... لم أعجب به قط، وحين وافقت على الزواج منه، لم يكن ذلك سوى حماقة من طائر النمنمة. حمداً لله، أنني أدركت خطأي في اللحظة المناسبة. ينبغي أن تتفهمي أني لست الزوجة المناسبة لابنك بما أحمله عنه من صفات غير حميدة، ولا حل سوى الابتعاد عنكم وقطع كل صلة تربطني بكم جميعاً. أظن أني أخدمكم بذلك وأرد لكم حسن معاملتكم لي طوال السنوات الماضية.

آمل أن تمحوني من ذاكرتكم تماماً، واعتباري ناكرة للجميل وقليلة الأدب إذا ما حاولتم التواصل معي ثانية. طائر النمنمة قد ماتت مثل أمها. لا تحاولوا التواصل وإلا سأرد بحقارة أشد.

أنا الآن في العشرين من عمري، عزة نفسي وكبريائي تمنعني من التنازل عن حقي بالعيش كما أشاء...".

كلما أتذكر ما كتبته في تلك الرسالة أشعر بخجل شديد وأشرع بالبكاء، لكن أحاول تبريرها بأنها كانت الوسيلة الوحيدة لأجبرهم على الكف عن ملاحقتي وإعادتي إلى القصر، وليغضب وليحزن من يشاء.

-٢-

في اليوم التالي، وضعت الرسالة في صندوق البريد، وانطلقت من فوري إلى وزارة المعارف. كان لابد لي من ارتداء جلباب المربية غوليسال الفضفاض وخمارها السميك، فوزارة المعارف لا تنظر بعين الجدية إلى المعلمات السافرات.

حين وصلت إلى باب الوزارة كنت أشعر بالثقة والسعادة، أموري ستسير بكل يسر، سيدخلني حاجب غرفة الوزير. ما إن يرى الوزير وثيقة تخرجي حتى يقول: "أهلاً وسهلاً يا ابنتي. نحن بانتظار أمثالك من الفتيات المتعلمات". سيقوم بتعييني في أجمل مدن الأناضول. لكن، ما إن دخلت من الباب حتى تملكني ارتباك وخوف شديدين.

صالات بمداخل ومخارج وأدراج كالمتاهات، وازدحام شديد بالمراجعين والمراجعات. نظرت حولي بذهول وحيرة شديدين، لا أدري من أسال وأين أذهب؟

لمحت عيني لوحة فوق أحد الأبواب كُتب عليها "مكتب إدارة الوزارة ". لابد أنها غرفة الوزير. حاجب بلباس أنيق ومذهّب، يجلس بجانب الباب، على مقعد وثير من الجلد اللماع، ينظر بتعالٍ كأنه الورير نفسه.

اقتربت منه بوجل:

-أريد رؤية السيد الوزير، قلت.

كان الحاجب يبصق على أصابعه ويبرم شاربه الكستنائي اللون

الكث والطويل. تفحصني بنظرة متعالية وقال بتثاقل:
-ماذا تريدين من السيد الوزير؟
-سأطلب منه أن يعيّنني معلمة في إحدى المدارس، قلت.
زمّ شفتيه محاولاً النظر إلى طرفي شاربه ليرى ما آل إليه، وأجاب:
-لا يُزعج السيد الوزير بمثل هذه الأمور. راجعي دائرة الأصول!
أردت معرفة أين دائرة الأصول. لكنه أدار وجهه جانباً وتابع برم شاربه.
مددت له لساني بخوف من تحت الخمار. إن كان الحاجب على هذه الشاكلة فما حال سيده؟! ما هذه الحال التي وصلت إليها؟ قلت في داخلي.
إلى جوار الدرج، صُفّت عدة دلاء إلى جانب بعضها، ووُضع لوح خشبي طويل فوقها، كمقعد للمراجعين الكثر.
لمحت امرأة مسنة زرقاء العينين، وقد شبكت غطاء رأسها الصوفي الأسود بدبوس أسفل ذقنها. اقتربت منها واستفسرت منها عما ينبغي عمله. أجابت بنظرة حزينة:
-يبدو أنك حديثة العهد بالعمل. ألا تعرفين أحداً في الوزارة؟
-كلا. لكن ما الحاجة إلى ذلك؟
أدركت من جوابها أنها تعمل معلمة في إحدى المدارس:
-ستدركين أهمية ذلك عما قريب. سأرافقك إلى دائرة التعليم الابتدائي. حاولي مقابلة السيد المدير العام.
كان المدير شديد السمرة، بلحية سوداء، ضخم الرأس، وجهه مليء ببثور الجدري، وكث الحاجبين. بدا مشغولاً بالحديث إلى فتاتين تقفان أمام مكتبه.

أخرجت إحدى الفتاتين أوراقاً متغضّنة من حقيبتها، وراحت تضع بيد مرتعشة، الواحدة تلو الأخرى على مكتب المدير.

ألقى المدير نظرة سريعة على تواقيع وأختام الوثائق، ثم قال:

-اذهبي إلى الشعبة وسجلي اسمك.

انسحبت الفتاتان متراجعتين إلى الخلف، وحيّتا المدير بوضع أيديهما على جبتيهما.

-وأنت يا سيدة، ماذا تريدين؟

وجّه المدير هذا السؤال لي، فشعرت بشيء من الارتباك، ورحت أشرح طلبي متلعثمة. قاطعني وقال بصوت صارم:

-المطلوب وظيفة معلمة، أليس كذلك؟ هل قدمت استدعاء بهذا الخصوص؟

ازددت ارتباكاً:

-هل تقصدون وثيقة تخرّجي؟ قلت.

زمّ المدير شفتيه باستخفاف عصبي، وهز رأسه مخاطباً ضيفاً نحيلاً يجلس في الركن:

-أترى حالنا؟ كيف لنا أن لا تثور أعصابنا؟ لا يميزون بين الوثيقة والاستدعاء، ويريدون تعليم الأطفال، ثم يتذمرون من ضآلة الراتب وبُعد المدرسة عن مكان سكناهم.

شعرت بالغرفة تدور بي. نظرت حولي بارتباك، لا أعرف ماذا أجيب.

قال المدير بصوت أشد صرامة:

-ماذا تنتظرين؟ إن كنت لا تعرفين اسألي أحداً يجيد كتابة الاستدعاءات، وقدميها للشعبة!

وبينما كنت في حيرة وذهول أحاول الخروج من الغرفة دون أن أتعثر بالأثاث، تدخّل الرجل الصغير الحجم بالكلام:

-سيدي! هل تتفضلون بالسماح لي بتقديم نصيحة صدوقة للأنسة الفاضلة؟

يا إلهي! ماذا يقول هذا الرجل؟ على النساء أمثالي التوجه إلى مهنة أخرى غير التعليم، ما دمت لا أميز بين الاستدعاء ووثيقة التخرج، لا يمكنني النجاح في مهنة التعليم، ربما يمكنني كسب عيشي من مهنة أخرى كالخياطة مثلاً!

بينما كنت أنزل الدرج وقد اسودّت الدنيا في عينيّ، أمسك أحد ما ذراعي. كدت أن أصيح من شرودي.

-كيف سارت الأمور يا ابنتي؟

التفتّ فإذا بالسيدة ذات العينين الزرقاوين من أمسكت بذراعي. صككت أسناني كي لا أبكي من الغيظ واليأس، ورويت لها ما حصل معي.

قالت بابتسامة رقيقة:

-لذلك سألتك عن معارف لك في الوزارة، يا ابنتي. لكن لا تيأسي. قد نجد فَرَجاً عند أحد معارفي من مدراء الشُعَب. رجل متعاون.

صعدنا الدرج ثانية، أدخلتني المعلمة المسنة، هذه المرة، إلى حجرة صغيرة فُصلت بحاجز زجاجي مغشى، عن صالة الديوان الواسعة.

يبدو أن طالعي اليوم سيئ، ما شاهدته هناك لا يبعث على الأمل. المدير بلحية أحد جانبيها أسود والثاني أشيب. نار تنفث من عينيه. على وشك أن يضرب أحد الخدم.

أمسك فنجان القهوة وقذف به من النافذة، ثم دفع الخادم وطرده من الغرفة.

شددّت صديقتي الجديدة من تلابيبها بهدوء:

-بربك، لنهرب من هنا، قلت.

لم يسنح لنا الوقت بالخروج. رآنا المدير:

-أهلاً وسهلاً بسيدتي المعلمة. أي خير أتى بك إلى هنا؟

ذُهلت من زوال حدة الرجل بهذه السرعة المدهشة! يا لهذه الطباع العجيبة لموظفي هذه الوزارة!

شرحت المعلمة ذات العينين الزرقاوين مشكلتي ببضع كلمات. التفت المدير نحوي وقال بابتسامة لطيفة:

-لا تبتئسي يا ابنتي، تفضلي واجلسي.

لابد من ألف شاهد كي يشهدوا أن هذا الرجل الذي يبدو الآن كحمل وديع، هو نفسه الذي قذف فنجان القهوة من النافذة وعامل الخادم بخشونة ودفعه خارج الغرفة.

-اكشفي عن وجهك يا ابنتي. وي!.. أنت لا تزالين صغيرة. كم عمرك؟

- قاربت من العشرين يا سيدي.

-عجبي! الكن لا يمكنك العمل خارج المدينة. في ذلك مجازفة عظيمة.

-لماذا يا سيدي؟

-الأمر جلي ولا يحتاج للتوضيح يا ابنتي.

كان المدير يتحدث مع المعلمة نعيمة ويشير نحوي ضاحكاً، دون أن يفصح لي ما هي المجازفة بطلبي.

أخيراً، غمز بعينه للمعلمة نعيمة وقال:

-لا يمكنني القول أكثر من ذلك. لا أتدخل في أمور النساء، أترك لكِ التوضيح يا سيدة نعيمة.

هزّ لحيته يميناً ويساراً ثم أضاف وكأنه يحدث نفسه:

-ليتك تدركين كم ستواجهين من سيئين خارج المدينة!

أجبت بحيرة بريئة:

-سيدي، لا أعلم من هم السيئين الذين تتحدث عنهم. لكن ألا يمكنك أن تجد لي مكاناً لا يوجد فيه هؤلاء السيئين؟

صفق المدير ركبتيه براحتيه من شدة الضحك وقال:

-يا للظرافة!

بطبعي المعتاد، إما أن أستلطف المرء أو لا أستلطفه من أول نظرة. لكن هذا الرجل، كسر هذا الشعور، لقد بدأت أستلطفه رغم مشاعري العدائية في نظرتي الأولى. حتى مظهره بلحيته ذات اللونين بدأت باستلطافها: حين يدير وجهه ناحية اليمين، يبدو شاباً وسيماً بلحية سوداء، وحين يدير وجهه ناحية اليسار، يبدو عجوزاً لطيفاً بلحيته البيضاء!

-هل تخرّجت من دار المعلمات هذه السنة، يا ابنتي؟

-كلا يا سيدي، لم أتخرج من دار المعلمات، بل من مدرسة "دام دو سوان".

-ما هي هذه المدرسة؟

أسهبت بالحديث عن تلك المدرسة، ثم ناولته وثيقة تخرّجي. يبدو أنه لا يجيد اللغة الفرنسية، لكنه حاول التستر على جهله بالفرنسية بالنظر إليها مطولاً وتقليبها بين يديه:

-جميل، جيد...

قالت المعلمة نعيمة بتودد:

-أعلم يا عزيزي، أنك لا تتوانى عن تقديم المساعدة للآخرين، أرجو أن تساعدها بتعيينها معلمة في إحدى المدارس.

قطّب المدير حاجبيه مفكراً ومداعباً لحيته:

-جميل جداً، لكن، أظن أن شهادة هذه المدرسة غير معترف بها في الوزارة...

ثم استدرك طارقاً الطاولة بقبضته:

-ابنتي! ستدرّسين اللغة الفرنسية في إحدى المدارس الابتدائية في استانبول. عليكِ مراجعة مديرية معارف استانبول...

قاطعت كلام المدير:

-لا أريد البقاء في استانبول يا سيدي. أنا مضطرة الى للذهاب إلى إحدى ولايات الأناضول.

ردّ مندهشاً:

-يا للعجب! أسمع للمرة الأولى أن معلمة ترغب بالذهاب إلى الأناضول برضاها. بوركت يا ابنتي! نعاني الأمرّين لإقناع معلماتنا كي يعملن خارج استانبول! ما رأيك يا معلمة نعيمة؟

لعب الشك برأس المدير، وسعى لاستنطاقي بدهاء لمعرفة سبب رغبتي تلك، إلى أن استطعت خداع هذا الرجل الطيب أخيراً.

بعد أن نادى المدير من حيث يجلس: "شهاب!"، ظهر شاب نحيل صغير الحجم بالباب الزجاجي الفاصل بين غرفة المدير وصالة الديوان:

-شهاب، اصطحب الآنسة وأعد مسودة استدعاء مناسب، ثم أحضرها لأطلّع عليها.

نظر المدير نحوي بعين الرضا لقيامه بمساعدتي كما أرغب. تمالكت نفسي من الوثب نحوه كي أقبّل لحيته من جانبها الأبيض. أجلسني شهاب أمام طاولة تعج بالأوراق المبعثرة، وراح يكتب أجوبتي على أسئلته. بدا حال هذا الموظف فقيراً من لباسه الرث. كانت عيناه ترمشان من الخجل كلما نظر إلي.

وقف إلى جوار النافذة، كاتبان في أواسط العمر يتابعاننا متهامسين.

-شهاب يا صديقي! لقد أُرهقت جداً اليوم. دعنا نكمل عنك هذا الاستدعاء، قال أحدهما.

كعادتي حين أكون سعيدة، لا أملك نفسي من الثرثرة:

-يبدو أن روح التعاون تهيمن على أجواء هذه الدائرة، قلت.

احمر وجه شهاب، وأحنى رأسه. هل أخطأت بما قلته؟ يبدو ذلك، لأن الرجلين غرقا في الضحك. لم أستطع سماع ما قالاه بوضوح، وإن وصل إلى مسمعي ما قاله أحدهما: "يبدو أن الآنسة المعلمة لمّاحة وشديدة الملاحظة". لم أفهم ماذا كانا يقصدان، لكن ما كان يعنيني سوى استدعائي الذي دخل وخرج عدة مرات إلى غرفة المدير ليعود وقد زُيّن بالحبر الأحمر. أخيراً، كُتب استدعائي بصيغته النهائية.

قال المدير:

-خير إن شاء الله، يا ابنتي. ليكن الله في عونك. سأبذل قصارى جهدي لمساعدتك.

توقف حديثنا هنا، ولم أستطع الاستفسار عما ينبغي عليّ عمله بهذا الاستدعاء، فقد امتلأ مكتبه بالمراجعين. خرجت من مكتبه، وبينما كنت أقلّب نظري على أمل لقاء المعلمة نعيمة وسؤالها عما يجب عمله، لمحت شهاباً واقفاً عند مطلع الدرج.

اقتربت منه، وحين تلاقت عيوننا، أخفض من بصره خجلاً، فسارعت بسؤاله:

-لقد أتعبتك جداً! لكن هلّا أخبرتني ما ينبغي عليّ عمله بهذا الاستدعاء؟

-تعقيب المعاملة أمر صعب، يا أختي الآنسة. أنا على استعداد لمتابعتها نيابة عنك. لا تشغلي بالك، يكفي أن تمرّي على الديوان من حين لآخر.

-متى آتي؟ قلت.

-بعد يومين، أو ثلاثة أيام.

أزعجني قوله أن الأمر قد يحتاج إلى ثلاثة أيام، لكنه في الواقع، استغرق شهراً كاملاً بين الذهاب والإياب. ربما كان سيطول أكثر، لولا جهود شهاب.

لا يقاس المرء بما يقوله ولكن بما يفعله. لن أنسى أبداً ما لمسته من مروءة شهاب وطيبته. كان يتنقّل من غرفة إلى غرفة لينجز معاملة تعييني. كنت أشعر بخجل شديد ولا أعرف كيف أشكره.

ذات يوم، كان الكاتب الصغير يلفّ عنقه برباط صوفي، يسعل كالمخنوق، وصوته قد بُحّ ولا يكاد يُسمع.

-أنت مريض جداً. لمَ أتيت إلى العمل وأنت على هذه الحال؟ قلت.

-لقد توقعت مجيئكَ إلى الوزارة هذا اليوم، قال.

ضحكت دون إرادتي. هل هذا مبرر لقدومه إلى الوزارة؟

-هناك أشغال أخرى عليّ إنجازها. تعلمين فالمدارس قد افتتحت حديثاً.

-حسناً، أين وصلت معاملتي؟

-المعاملة عند المدير العام، الآن. طلب رؤيتك.

كان المدير العام يضع نظارة سوداء على عينيه ليزيد من قباحة وجهه المقطب وشديد التجاعيد، يوقّع أوراقاً رسمية ويرميها على الأرض الواحدة تلو الأخرى، وكاتب بشارب أشيب ينحني على الأرض ويقوم كأنه يصلي، ليلتقطها تباعاً.

-سيدي، طلبتم رؤيتي، قلت.

أجاب بنزق دون أن ينظر نحوي:

-اصبري يا سيدة، ألا ترين أنني مشغول؟

حرّك الكاتب ذو الشارب الأشيب حاجبيه وعينيه، طالباً مني الانتظار. شعرت كأنني أسأت التصرف، فتراجعت إلى الخلف بضع خطوات، وانتظرت جوار القاطع الخشبي.

بعد أن أنهى المدير توقيع كومة من الأوراق، خلع نظارته، ومسحها بالمنديل:

- رُفض استدعاؤك. لم يكمل زوجك ثلاثين سنة خدمة، قال.
- هناك خطأ ما، يا سيدي!
-ألست أنت السيدة حورية؟
-كلا، أنا فريدة يا سيدي.
-فريدة؟ لقد تذكرت. معاملتك رُفضت أيضاً. مدرستك غير معترف بها من قِبل الوزارة الجليلة. لا يمكن تعيينك بهذه الشهادة.
-وماذا سيحصل لي؟
سألت تلقائياً دون إدراك أن لا معنى لقولي هذا. وضع المدير نظارته على عينيه ثانية، وأجاب ساخراً:
-ذلك شأنك أنت. لو أمضي وقتي بالتفكير بما سيحصل لكل مراجع رُفض طلبه، لما أنجزت شيئاً من الأشغال المنوطة بي.
كانت هذه اللحظات من أشد اللحظات العصيبة التي مرت في حياتي. أجل، ماذا سيحصل لي؟ كنت أنتظر أن أجني ثمار اجتهادي لسنوات طوال بحلوها ومرها. ماذا سيحصل لي؟ أين أذهب بعد أن أغلقوا باب الأمل في وجهي؟ الموت عندي أهون من العودة إلى بيت خالتي!
عدت إلى مدير الشعبة كمحاولة أخيرة. صككت أسناني لأحبس الدموع في عينيّ:
-سيدي، قيل لي أن شهادتي المدرسية لا نفع فيها لغايات التعيين. ماذا سأفعل الآن؟ قلت.
يبدو أن نبرة صوتي قد عكست حزني وقلقي الشديدين، ما جعلت المدير يقول بتأثر بالغ:

-ما الذي يمكنني فعله؟ لقد أثنيت على شهادتك المدرسية على متن استدعاءك، لكن لا أحد يقرأ!

تعاطفه معي أعطاني الجرأة على مواصلة الإلحاح:

-سيدي، أنا بحاجة إلى إيجاد عمل أينما يكون. أوافق على العمل في أية قرية لا يرغبها أحد.

كأن المدير قد خطر بباله فكرة ما:

-قفي، يا ابنتي، محاولة أخرى أرجو نجاحها...

رجل ضخم، طويل القامة، كان يقرأ صحيفة إلى جوار النافذة. لم أتبين من ملامحه سوى شعره الأشيب وجانب من لحيته.

ناداه المدير صائحاً:

-سيدي، هلّا تفضلت إلى هنا؟

استدار، ثم تقدم نحونا على مهل.

أشار المدير إليّ بيده وقال:

-أعلم يا سيدي، أنك لا تتوانى عن تقديم المساعدة لمن يحاجة إليها. تخرّجت هذه الصبية من مدرسة فرنسية. أفهم من كلامها أنها ابنة عائلة محترمة، وكما تعلم أن بقاء الحال من المحال إلا على العزيز المتعال. هذه الصبية بحاجة إلى العمل، وهي على استعداد للذهاب إلى أية قرية مهما بعدت عن العاصمة. جماعتنا في الوزارة لا يفقهون. اتخذوا قرارهم بعدم الموافقة على تعيينها. لو تتفضل بشرح حالها لمعالي الوزير، أكون لك من الشاكرين.

كان المدير يحدثه ويتودد إليه ويربت على كتفه. بدا لي مختلفاً عن الآخرين بأناقته وحسن مظهره. لفت نظري أنه بينما كان يصغي للمدير،

كان ينحني قليلاً، ويضع كفه خلف أذنه كي يسمع جيداً.

نظر إليّ بعينين محتقنتين، لكنها حليمة وودودة، وراح يتحدث معي بالفرنسية بصوت مبحوح ويسألني أين تخرجت، وماذا أعمل، وماذا أريد أن أفعل... أخيراً بدا عليه الرضا من أجوبتي. في تلك الأثناء تذكرت قول المربية غوليسال: "مهما طالت عتمة الليل، فلابد للشمس أن تشرق ثانية". رضاه عن أجوبتي جعلني أشعر أنني أمر الآن، بالأيام الخمسة عشر المنيرة، فعاد إليّ مرحي وحبوري المعتادين.

كان مدير الشعبة يستمع إلينا وقد بدا عليه السرور ويقول:

-ماشاء الله، تتحدث الفرنسية بطلاقة! بنت تركية تستحق كل التقدير!

ثم أسمعني كلاماً لم أسمع أجمل منه في حياتي، وحين علمت أن هذا الرجل شاعر مرموق، ازددت إعجاباً به.

خلاصة القول، اصطحبني هذا الرجل إلى غرفة الوزير، وفي أثناء ذلك كان الحجّاب يقفون احتراماً له أثناء مروره، ويسرعون بفتح الأبواب الموصدة. خلال نصف ساعة، صدر كتاب تعييني معلمة للجغرافيا والرسم، في المدرسة الابتدائية في مركز ولاية (ب)!

ذلك المساء، كانت طائر النمنمة تطير من الفرحة أثناء عودتها إلى حي السلطان أيوب. لقد أصبح لها دخلها الخاص، تكسب عيشها بعرق جبينها، تتخذ قراراتها باستقلالية دون الحاجة إلى تعاطف وحماية الآخرين.

بعد مضي ثلاثة أيام، اكتملت جميع معاملاتي الرسمية، وتهيأت للسفر انطلقت بصحبة المربية غوليسال إلى الميناء صباحاً. كان شهاب بانتظارنا في الميناء. لن أنسى مروءة هذا الشاب ما حييت. لقد أعدّ لي كل ما يلزمني في سفري وإقامتي في الفندق الذي سأنزل فيه. لقد جاء ليودعني رغم مرضه الشديد، غير عابئ برطوبة الجو ورياح الميناء الباردة.

حمل حقيبتي وهديته لي حتى قمرتي، وطلب من العاملين على الباخرة الاهتمام برعايتي.

جلسنا صامتين في ركن على سطح الباخرة بانتظار سماع صفارة انطلاقها، فساعات الفراق ثقيلة، أمضتها المربية غوليسال بمتابعة البحر بعينيها الزرقاوين، إلى أن سمعنا صفارة الانطلاق، فشرعت بالبكاء والشهيق قائلة: "لقد ودعت أمك من هنا للمرة الأخيرة من هنا، يا فريدة! لكنها لم تكن وحدها مثلك الآن. أرجو الله أن يجمعنا ثانية بالفرح والسعادة".

رغم وجود شهاب معنا، ما كنت لأتمالك نفسي عن البكاء، فالبحارة في تلك اللحظة، أثاروا صخباً، ودفعوا المربية المسكينة لمغادرة سطح الباخرة ونزول سلمها.

حين مددت يدي لأشكر الكاتب الشاب، شاهدت دموعاً تملأ عينيه وقد اصفر وجهه.

لقد تجرأ على رفع بصره نحوي للمرة الأولى، منذ تعارفنا، وقال:

-يبدو أنك تغادرين ولا تفكرين بالعودة ثانية، يا آنسة فريدة!

رغم أن دقائق الفراق كانت تجثم على صدري بثقلها، لكنني لم

أستطع كتم ابتسامة ظهرت على وجهي:

-هل عندك شك بذلك؟ قلت.

ظل واجماً، ثم سحب يده وانطلق يهبط السلم على عجل.

أحب السفر في البحر. لا أزال أذكر متعة الرحلة في الباخرة عندما كنت في السادسة من عمري بصحبة حسين الحارس الذي كان يعمل عند أبي. متعة خوض المياه الزرقاء تلمع من كل الجهات. لكن رغم عشقي للبحر، لم أشعر برغبة بمتابعة المحيط الأزرق حولي، في ذلك اليوم، الذي أبحر فيه نحو المجهول، فهبطت إلى قمرتي. حين لمحت هدية شهاب المغلفة بعناية، دفعني الفضول لفضّها ومعرفة ما بداخلها: فوندان! الحلوى الأكثر لذة إلى نفسي...

حين تناولت قطعة حلوى من هدية الكاتب الشاب، انهمرت دموعي فجأة. لَمِ بكيت في تلك اللحظة؟ لا أدري، لكن حين شعرت بالحزن والكآبة، عزوت هذا الشعور إلى ذكريات قديمة لتلك الحلوى، فأمسكت بالعلبة ورميتها إلى البحر عبر نافذة قمرتي.

أجل، لا يوجد ما هو أكثر عبثية من هذه الدموع. أفهم ذلك. لكن دموعي لا تزال تنهمر وأنا أكتب هذه السطور، لتبلّل صفحات دفتري. أيعقل أن ذلك مردّه إلى برودة الجو وانهمار المطر الشديد هنا؟ كيف الجو في استانبول الآن؟ هل هناك أمطار كما الحال هنا؟ أم أن حديقة القصر في كوزيتاي تلمع تحت نور القمر؟

كامران!.. أنا، لا أنفر منك وحدك فحسب، بل من كل ما له علاقة بك أيضاً!

-٣-

حين استيقظت هذا الصباح، كان المطر قد توقف بعد هطول متواصل منذ بضعة أيام، والغيوم قد انقشعت، سوى ضباب خفيف يعانق قمة الجبل العالية الظاهرة من النافذة.

كنت قد أغفلت إغلاق النافذة حين استلقيت للنوم ليلة أمس. نسيم الصباح العليل، وأشعة شمس باهتة مرتعشة، كانت تغمر أرجاء الغرفة.

بقائي في غرفة الفندق الصغيرة منذ خمسة أيام، أرخى عليّ الشعور بالضيق والكآبة. حين استيقظت من النوم ليلاً، شعرت ببلل على وجنتي ووسادتي. لابد أنني قد بكيت أثناء نومي! رغم شحوب أشعة الشمس المنتشرة في الغرفة الآن، لكنها أحيت مرحي وأملي ثانية، كحالي في أيام الربيع عند الصباح في مهجع المدرسة.

ما عدت أخشى شيئاً، ولا أنتظر سماع خبر سعيد في هذا اليوم. وثبت من سريري بفرح، ورحت أغسل وجهي ويديّ في مغسلة صغيرة من الطراز القديم داخل غرفتي. كنت أرشق الماء حولي وعلى المرآة فوق المغسلة، كالعصافير حين تغطس رؤوسها في الماء ثم تنفضها.

قُرع الباب بخفة، ثم سمعت حجّي كلفا يقول:

-صباح الخير، يا معلمة. لقد استيقظت مبكراً، اليوم أيضاً.

-بونجور حجّي كلفا. كيف علمت باستيقاظي؟ أجبت.

ضحك حجّي كلفا وقال:

-لقد سمعتكِ تغردين كالعصافير!

بدأت أعتقد أن هناك شبه بيني وبين العصافير.

-هل أحضر لكِ طعام الإفطار؟

-ألا يمكن أن لا أفطر اليوم؟

احتد صوته:

-مستحيل... لا أحب سماع مثل هذا الكلام. حبست نفسك في الغرفة كالمساجين، لا نزهة ولا تسلية، وإن لم تتغذي جيداً... (أخفض حجّي كلفا من صوته كي لا تسمعه جارتي بالغرفة وأضاف) ستصبح حالك كحال جارتك.

أصبحت وحجّي كلفا صديقين متقاربين منذ صباح اليوم الأول لوصولي إلى الفندق. ارتديت ثيابي وخرجت من غرفتي متأبطة حقيبتي، ورحت أهبط الدرج وثباً. كان حجّي كلفا بمئزره الأبيض ينظف نارجيلته إلى جانب البركة، في حديقة الفندق. ما إن رآني حتى صاح بمودة وحميمية:

-خير إن شاء الله، يا آنسة فريدة! لَم استيقظت مبكرة؟ لقد ظننت أنك ستنامين حتى الظهر تعباً من مشقة السفر.

أجبت ضاحكة:

-أيعقل لمعلمة ملتزمة أن تنام حتى الظهر؟

وضع حجّي كلفا نارجيلته جانباً، تخصّر وقال ضاحكاً:

-انظروا لهذه الفتاة الصغيرة! لم ترتح بعد من عناء السفر، وتريد الذهاب إلى المدرسة لتعليم الأطفال.

منذ أن حصلت على كتاب تعييني، قررت أن أكفّ عن الحركات الصبيانية، لكن حين تحدث حجّي كلفا عني كفتاة صغيرة، لم أتمالك

نفسي، فرميت حقيبتي في الهواء كالكرة ثم التقطتها بخفة. حركتي هذه، أبهجت حجّي كلفا فصفّق بيديه وقال ضاحكاً:

-لم أخطئ حين قلت إنك ما زلت فتاة صغيرة!

لا أدري إن كان التعامل بألفة مع مشرف الفندق صواب، لكننا ضحكنا معاً، وكان ذلك بداية لصداقة حميمية بيننا.

لم يسمح حجّي كلفا بذهابي إلى المدرسة دون تناول طعام الإفطار:

-لن أدعك تذهبين إلى المدرسة بمعدة خاوية حتى المساء. سأحضر لك جبناً وحليباً، ولا داعي للعجلة للذهاب إلى المدرسة، فاليوم لا يزال اليوم الأول للدوام.

أجلسني جوار البركة كرهاً. لم يكن سوانا في حديقة الفندق، ثم وجه نداءه إلى صاحب أحد الدكاكين المقابلة للفندق:

-يا أسطة! أحضر حليباً وكعكاً استانبولياً للآنسة المعلمة، على وجه السرعة!

ثم التفت نحوي وقال:

-هذا الحليب مضمون، وليس كحليب استانبول الشبيه بماء النارجيلة. الأسطة يغذي أبقاره على الإجاص صيفاً وشتاء. ستشمين رائحة الإجاص تفوح من الحليب.

ثم استأنف ساخراً:

-حتى الأسطة نفسه تفوح منه رائحة الإجاص!

بينما كنت أتناول الإفطار جوار البركة، كانت النارجيلة تخرخر، وحجّي كلفا يسحب دخانها ثم ينفثه في الهواء. لم يتوقف عن رواية الأحاديث حول البلدة وأهلها وموظفيها ومعلمي المدرسة... يا إلهي!

هذا الرجل يعلم كل شيء، حتى عدد الأطقم التي يملكها كل موظف في البلدة...

-هيا، سأصحبك إلى المدرسة. الأزقة متشابهة وقد تضلّين طريقك، قال ثم تقدمني بقدمه العرجاء. في الحقيقة، كنت سأتوه لو لم يوصلني حتى الباب الخشبي الأخضر لمدرسة مركز الولاية الابتدائية.

بدا لي بناء المدرسة كئيباً، لكن ما كان من بد من النظر إليها بعين الرضا. لكن ما واجهته هناك من إحباطات ما كانت لتثنيني عن عزمي بمواصلة حياتي كما خططت لها.

كان كشك الحارس خالياً. حين عبرت الحديقة التقيت بامرأة بجلباب ضيق من القماش المموج وتغطي وجهها بخمار سميك، وتحمل في يدها حقيبة من الجلد بالية. كانت تتهيأ لمغادرة المدرسة، وحين رأتني قادمة دققت النظر إليّ وسألت:

-ماذا تريدين يا سيدة؟

-أريد مقابلة مديرة المدرسة.

-أنا المديرة. هل يمكنني مساعدتك؟

-حسناً. أنا فريدة، معلمة الجغرافيا والرسم الجديدة. لقد قدمت من استانبول ليلة أمس.

كشفت المديرة خمارها، وتفحصتني من رأسي حتى أخمص قدمي، ثم قالت بارتباك:

-هناك لبس بالأمر، يا ابنتي. أرسلوا لنا معلمة من مدرسة "غالب أوغلو" منذ أسبوع.

أصبت بصدمة أطارت صوابي:

-مستحيل يا سيدتي. أرسلوتني من وزارة المعارف. كتاب تعييني معي في الحقيبة.

-لا حول ولا قوة إلا بالله! دعيني أرى كتاب تعيينك.

قرأت المديرة الكتاب، ثم أعادت قراءته مرة أخرى ودققت بتاريخه، ثم هزّت رأسها وقالت:

-تحدث مثل هذه الأخطاء أحياناً. لقد عينوا كلتيكما في الشاغر نفسه. مسكينة يا حورية!

-من هي حورية ، يا سيدتي؟

-المعلمة التي وصلت من مدينة غالب أوغلو. امرأة طيبة ومسكينة... لم تستطع العيش هناك، فطلبت نقلها إلى هنا. وقعت المسكينة في ورطة كبيرة الآن.

-وماذا عني يا سيدتي؟ ألم أقع في ورطة كبيرة أيضاً؟

-صحيح، كلتاكما في ورطة مشتركة. لا داعي لإخبار السيدة حورية إلى حين الوصول إلى حل مناسب. كنت في طريقي إلى مديرية المعارف. تعالي معي أيضاً، ربما نجد حلاً.

رجل ضخم، كان يقف أمام مكتب المدير، يقول كلاماً كالهذيان بصوت مبحوح. مدير المعارف يستمع إليه، وعيناه مغمضتان كالغافي.

ثم قال بضيق صبر وبطء:

-ماذا يمكنني فعله؟ هم من ارتكبوا هذا الخطأ. لنكتب إلى استانبول، وننتظر ردّهم.

من كان يتكلم مع المدير قبل قليل، ظننته سائق عربة نقل بنطاقه الأحمر أسفل صداره، ليتبين لي لاحقاً أنه كاتب في المديرية:

-تاريخ كتاب تعيين هذه المعلمة أحدث من سابقتها. بناء على ذلك، يجب اعتماد كتابها، قال.

فكّر المدير ملياً، كمن يقوم باستخارة، ثم قال:

-أمر يدعو لحيرة شديدة! عملياً يجب اعتماد التاريخ الأحدث، لكن لم يصدر كتاب بفصل الأخرى من عملها. لا مجال سوى استيضاح رأي الوزارة الجليلة. سيصل ردهم خلال عشرة أيام. أيتها المديرة، عليكِ تدبر الأمر إلى حين وصول الرد.

عدت إلى المدرسة مسرعة من الأزقة المتاهيّة نفسها، متعقبة المديرة ذات الجلباب. ليتني عدت مباشرة إلى الفندق!

حورية ، امرأة في الخامسة والأربعين من عمرها، شديدة السمرة، صغيرة الحجم، وخشنة المظهر. ما إن سمعت بما حدث حتى امتقع وجهها وازداد سواداً، وشخصت عيناها، وانتفخت أوداجها، ثم راحت تزعق وتخرج أصواتاً كصوت مزامير الأطفال وتقول: "يا ويلتاه! أي مصيبة جديدة وقعت على رأسي؟"، ثم وقعت على الأرض مغمياً عليها.

ثار صخب في غرفة المعلمات، وتشاجرت بالأيدي، معلمة عجوز تضع نظارة على عينيها، مع الطالبات المتجمهرات بالباب.

مدّدت المعلمات حورية على الأرض، وشرعن برشق الماء والخل على وجهها ويمسحنه، وكشفن عن صدرها المليء بلدغات البراغيث يدلّكنه، بينما كنت في حيرة شديدة أقف في إحدى زوايا الغرفة.

بعد أن أبعدت المعلمة العجوز الطالبات من الغرفة، وجهت نظرها نحوي من خلف نظارتها وقالت بلؤم:

-يا لرقة مشاعرك! أتضحكين في مثل هذا الموقف؟

في الواقع، لم أستطع تمالك نفسي فضحكت. لكنني كنت أضحك من طالعي السيء وليس من حال حورية.

لم أكن وحدي من يضحك، معلمة شابة بعينين سوداوين حادتين كانت تضحك في سرها. اقتربت مني وقالت بصوت خفيض:

-هي امرأة سيئة الطباع، لذا تزوج زوجها بامرأة أخرى. تتظاهر بالإغماء!

فتحت حورية عينيها، ورفعت رأسها المبلل بالماء، ثم أخرجت صوتاً كانفجار البارود في معدتها متجشئة. حرّكت رأسها يمنة ويسرة ورفعت عقيرتها:

-يا ويلي يا زميلات! ما كل هذه المصائب التي تنهمر على رأسي؟

يقال: "رب كلام يثير الحروب"، وهذا ما حصل حين أردت تلطيف الموقف فسألت حورية إن تحسنت أحوالها. لقد أثرت في وجهي زوبعة من الوقاحة وقلة الأدب انطلقت من حورية، لا يمكن أن تصدر ولا حتى من أكثر النساء سوقية في أكثر الأزقة ابتذالاً.

انكمشت متوارية في إحدى زوايا الغرفة، عرقي يتصبب، وجسمي بارد كالجليد، وأسناني تصطك، وعيناي مغمضتان من شدة الخجل. كلما حاولت المعلمات تهدئتها ازدادت شراسة مطلقة شتائم أشد بذاءة.

طرقت قبضة يدٍ طاولة الوسط بشدة، رقّصت الأكواب والأباريق فوقها، وتردّدت أصواتها منذرة بخطر مفاجئ، أخرس المرأة سليطة

اللسان، ثم ارتفع صوت المعلمة الشابة ذات العينين السوداوين مهدداً:

-ما هذه الإدارة يا مديرة؟ كيف تسمحين لهذه المرأة بالتّطاول على شرف معلمة زميلة؟ هل نحن في مدرسة أم ماذا؟ إن تركتها تنطق بكلمة واحدة أخرى، سأجرجرك في المحاكم قبلها. أين تظن نفسها هذه المرأة؟

ثم ضربت المعلمة ذات العينان السوداوان، الأرض بقدمها وصاحت بالمعلمات موبّخة:

-ألا تخجلن من أنفسكن يا معلمات؟ كيف تسمحن بأن تُهان زميلتكن داخل مدرستكن!؟

همد الصخب في الحال. حين أدركت حورية أنها ستبقى وحيدة، فقدت أعصابها وشرعت بالبكاء. في تلك اللحظة، قُرع جرس الحصة، فحملت المعلمات كتبهن ودفاترهن، وخرجن من باب الغرفة، الواحدة تلو الأخرى.

"انتظرك في غرفتي، يا ابنتي"، قالت المديرة وخرجت...

بعد قليل، بقيت وحدي مع المعلمة التي وقفت إلى جانبي. كان من اللياقة أن أشكرها:

-أشكرك على موقفك النبيل، قلت.

هزّت كتفيها وقالت ضاحكة:

-لا يمكنك وضع حد لهذا النوع من البشر إلا بالعين الحمراء، وإلا تمادوا كما رأيت. نلتقي بعد الدرس.

حين وصلت حتى باب غرفة المديرة، ترددت بالدخول. شعرت بالغثيان من تكرار الحديث بما جرى. قررت الخروج من المدرسة على الفور، وعدت أدراجي إلى الفندق.

ما إن رآني حجّي كلفا حتى لوّح بذراعيه وقال مبتئساً:

-وا أسفاه يا معلمة! لقد ساءني ما جرى لكِ.

لا أدري كيف علم بكل ما جرى بهذه السرعة؟ لقد حذّرني بأن هناك ما يحاك ضدي في الخفاء، وينبغي طلب المساعدة من أحد أصحاب النفوذ في الوزارة، وكان ردّي بأني لا أعرف أحداً سوى الشاعر المسن الذي كانت له اليد الطولى بمساعدتي.

ما إن سمع حجّي كلفا باسمه حتى ابدى فرحاً طفولياً وقال:

-يا لمحاسن الصدف! أعرفه جيداً، كان مدير المدرسة الإعدادية هنا، منذ سنوات. رجل طيب جداً. اكتبي له رسالة ولا تنسي تضمينها سلامي الحار أيضاً.

لم يتوقف حجّي كلفا من التردّد على غرفتي، جاراً قدمه المشلولة، لينقل لي آخر الأخبار، ووقوف المدعي العام إلى جانبي، وطلبه من مهندس البلدية المرور على وزارة المعارف حين سفره إلى استانبول.

يا لغرابة هذه البلدة! لقد انتشر خبر هذه الفضيحة خلال ساعات، وعم أرجاءها. الجميع يتحدثون عنها في مقهى الفندق!

-ما الذي يجري، يا حجّي كلفا؟ قصتي تتناقلها كل الألسن!

حكّ الرجل العجوز مؤخرة رقبته، وقال:

-بلدة بحجم الكف يا عزيزتي! لست في استانبول الواسعة الرائعة، حيث لا أحد يتدخل بشؤون الآخرين. يجب أن تعلمي جيداً أن الناس هنا، لا يتورعون عن تناقل الشائعات حول بعضهم بعضاً. اسمعيني

جيداً، تماسكي ولا تضعفي. لا تتجولي كاشفة الوجه هنا. ليبعث الله لك زوجاً محترماً بمشيئته. لقد وفق الله المعلمة عريفة بزواجها من رئيس محكمة الجزاء. تعيش في نعيم الآن. العقبى عندك، إن شاء الله! العفة والوقار أثمن من جمال المرأة!

مع مرور الأيام، ازدادت ثقة حجّي كلفا بي، وتنامت مشاعر الألفة بيننا. راح يقدم لي الهدايا الصغيرة من أشغال يدوية من صنع زوجته، ويزين بها غرفتي، مثل قطع من الدانتيل توضع تحت كأس الماء، أو مناشف مطرزة، أو مروحة يدوية مشغولة برسومات جميلة...

حين يمضي وقتاً طويلاً في الحديث معي في غرفتي أحياناً، نسمع صوتاً صادراً من الطابق الأرضي لصاحب الفندق معترضاً:

-في أي جهنم، أنت يا حجّي كلفا؟

يقول الرجل العجوز بإيقاع خفيف كأنه يغني:

-يا للسماجة! ليعتق الله حجّي كلفا منك.

ثم يصيح:

-ها أنا قادم! حالما أنهي ما بيدي من شغل.

شكّلتُ صداقة أخرى في الفندق، مع امرأة مسكينة في الخامسة والأربعين من عمرها من مدينة "مناستر"، إضافة إلى صداقتي مع حجّي كلفا. أما متى بدأت هذه الصداقة، فذلك في اليوم الأول لقدومي إلى الفندق، وبينما كنت أرتب أشيائي في الغرفة، شعرت بالباب يُفتح حين سمعت صريره. دخلت الغرفة امرأة بثوب فضفاض من نسيج البفتة الأصفر، ومنديل مزركش من الكريب الأخضر يغطي شعرها. قالت

مع دخولها الغرفة دون استئذان:

-لعطيك الله العافية، يا ابنتي. أهلاً وسهلاً بك هنا.

لم يمنع طليها لوجهها بمختلف مساحيق التجميل، والوشوم التي تملؤه كشقوق جدار متصدع، وتخضيبها لحاجبيها بالكحل بكثافة، إضافة إلى أسنانها شديدة السواد، من أن يبدو كرأس إنسان ميت، مثيرة الرعب في نفسي.

قلت بذهول:

-أشكرك يا سيدتي.

-أين السيدة الوالدة؟

-أي والدة يا سيدتي؟

-السيدة المعلمة... ألست ابنة المعلمة؟

لم أتمالك نفسي، فرحت أضحك ملء شدقي:

-لست ابنة المعلمة، أنا المعلمة نفسها.

انحنت المرأة كأنها تركع، وصفقت ركبتيها براحتيها:

-يا الله! هل أنت المعلمة؟ لم أرَ معلمة فتية وصغيرة الحجم مثلك. ظننت أن المعلمة امرأة مسنة غزا الشيب شعرها!

-ها أنت ترين عكس ظنك يا سيدتي.

-كل شيء ممكن، في هذه الدنيا... نحن، أطفالي وأنا، نقيم في الغرفة المقابلة. بعد أن نام الأطفال، أتيت لأرحب بك... الأطفال، حماهم الله، همٌّ في النهار وراحة في الليل. لكنني أشعر بالكآبة وحدي، بعد نومهم ليلاً. الوحدة لله تعالى وحده، أليس كذلك يا أختي الصغيرة؟ تنتابني الأفكار والهواجس، ولا أتوقف عن التدخين، سيجارة تلو الأخرى

حتى طلوع الصباح. لقد أرسلك الله لي سلواناً لنتحدث ونفضفض.

خاطبتني هذه المرأة بابنتي في بداية الأمر، ثم تحولت إلى مخاطبتي بأختي الصغيرة بعد أن علمت أنني معلمة. أشرت إلى كرسي في ركن الغرفة وقلت لها: "تفضلي بالجلوس"، ثم جلستُ على السرير وشرعتُ بهزّ ساقيّ. انحنت المرأة على الأرض وتربّعت في جلستها عند قدمي، وقالت:

-لا أشعر براحة في الجلوس على الكراسي.

ثم أخرجت علبة تبغ معدنية من جيب ثوبها، وشرعت بلفّ سيجارة غليظة وقدّمتها لي.

-أشكرك، لا أدخن السجائر، قلت.

-لم أكن أدخن كثيراً. لكن كثرة الهموم هذه الأيام، تدفعني إلى التدخين بكثرة، قالت.

جارتي هذه، كما تقول، ابنة لأحد أثرياء مناستر. يملك كروماً وبساتين وقطعاناً من الأبقار. يعيل العديد من العائلات الفقيرة. طلب يدها العديد من رجالات مناستر، لكنها كانت عاشقة لضابط في الجيش ولا تريد سواه. رضخت أمها نتيجة لعنادها ووافقت على زواجها من ذلك الضابط الذي لا يملك شيئاً سوى سيفه. بعد أن غادر أثناء الحرب، انقطعت أخباره، ثم علمت من إحدى صديقاتها أنه بعد انتهاء الحرب، تزوج بامرأة أخرى، وأقام في بلدة (ب). لا تعترض على زواجه الثاني على اعتبار أن الدين يجيز له الزواج بأربع نساء. غادرت مناستر، وجاءت إلى (ب) هنا مع أطفاله. ظنّت أنه إن رأى فلذات كبده سيرقّ قلبه، لكنه رفض استقبالها وأصرّ على عودتها مع الأطفال إلى مناستر، رغم ركوعها

كالكلاب عند قدميه متوسلة، متناسياً كم توسّل ووسّط وجهاء البلد حتى وافق أهلها على زواجه منها.

بعد استماعي إلى قصتها الطويلة الحزينة، لم أحتمل فقلت لها:

-ألا ترين أنك مخطئة بالتشبّث برجل لا يريدك؟ من باعك برخيص بِعيه بأرخص ولا تندمي عليه.

تبسّمت المرأة كأنها ترثي جهالتي وقالت بصوت مرتعش:

-أبكل هذه البساطة يا أختي الصغيرة؟ كان أول رجل خفق له قلبي. سنوات طوال ورأسانا يتشاركان الوسادة نفسها، ثم تقولين انسيه؟!

ثم قالت بيتاً من الشعر بما معناه إن المرء يتخلى عن أمه ولا يتخلى عن حبيبه!

قلت بحدة واستنكار شديدين:

-عقلي لا يستوعب أن تحب امرأة رجلاً خانها!

كشفت عن أسنانها السوداء بابتسامة مصطنعة لكن حزينة وقالت:

-لا تزالين صغيرة على هذه الأمور، يا أختي. لم تعاني بعد هذا العذاب. أبعدك الله عنه.

-أعرف فتاة حين علمت قبل يومين من زفافها، أن خطيبها كان يخونها، رمت خاتمه في وجهه المخادع، وهربت إلى أرض بعيدة، قلت.

-ثم شعرت تلك البنت بالندم، أليس كذلك، يا أختي؟ أرثي لحالها. قلبها يتلوّع من الحسرة الآن. ألم تسمعي كيف يركض المصاب بجرح خطير لمسافة دون أن يشعر بالألم؟ يظن أنه نجا طالما الجرح لا يزال ساخناً. الجرح الساخن لا يؤلم، لكن ما إن يبدأ بالبرودة حتى تبدأ المعاناة. سترين يا أختي، كم ستعاني تلك البنت وتتحسر مع مرور الأيام!

وثبت عن السرير بحنق، ورحت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً كالمجنونة. كان المطر يطرق النافذة بشدة، ونباح مخنوق لكلب قادم من الشارع. تنهدت جارتي بعمق ثم تابعت كلامها:

-أنا الآن كسيرة الجناح في أرض بعيدة عن بلدي، لا حول لي ولا معين. لو كنت في مناستر، لاستطعت إبعاده عن هذه العاهرة...

فتحت عينيّ مندهشة:

-ماذا كنت ستفعلين؟

-عملت ضرّتي سحراً لزوجي هنا في (ب). لكن سحرة مناستر أشدّ براعة ومهارة. ثلاث مجيديات كفيلة بإبعاد زوجي عن تلك المرأة.

ثم شرعت بالحديث بإسهاب حول السحر والسحرة في منطقة روملي:

-هناك ساحر ألباني يدعى عارف خواجة. قادر على تحويل أذن الخنزير إلى منظار عجيب، إذا وضعته المرأة على عينيها وصوّبت نظرها نحو زوجها الداعر، تصبح جميع النساء كالخنزيرات في نظره، فينفر منهن، ولا يرى سوى زوجته كأجمل الجميلات، وإذا ما يغرز دبوساً في قطعة صابون ويقرأ وينفخ عليها، ثم يدفنها في التراب، يتلاشى جميع أعداء المرء حال ذوبان قطعة الصابون تلك، ويتحوّل الدبوس إلى خيط لا يؤذي أحداً.

لم تتوقف المرأة عن لف السجائر وإشعالها طوال حديثها عن السحر وعن الساحر الألباني.

يا له من كلام فارغ يدعو للرثاء! وحكاية ألم الجرح الساخن حين يبرد! أصائب ما تقول؟! هل سألوم نفسي من أجل ذلك الخائن؟ هل

يمكن أن أفكر على هذا النحو؟!

في بداية الأمر كنت أشعر بالتقزز من مبالغة جارتي بزينتها، والكحل المذنب الأسود كقاع المرجل، يحيط بمحجري عينيها الغائرتين، ثم بدأت أشعر بالحزن من أجلها، حين علمت أنها إن تفعل ذلك إلا ظناً منها كوسيلة لاستعادة زوجها، إذ قالت:

-أقتصد بإطعام أطفالي كي أشتري مساحيق الزينة والصباغ والكحل. أتزين كعروس من أجله، لكن بلا جدوى. ألم أقل لك إنها عملت له سحراً؟

منذ ذلك اليوم، حين يصرّ باب غرفتي من حين لآخر، أدرك أن القادم جارتي دون أن أدير رأسي.

-هل أنت مشغولة، يا أختي الصغيرة؟ أيمكنني الدخول؟

كان هذا الصوت يسعدني، فشعوري بالوحدة كان يخنقني. أترك قلمي، وأنشّط أصابعي، وأستعد لسماع حكاية عشق جارتي الولهانة، رغم حفظي لها عن ظهر قلب من كثرة تكرارها.

كان منظر الجبل المرتفع المطل من نافذتي يمتّعني في الأيام الأولى من إقامتي. لكن بدأت أشعر بالضجر منه مع مرور الأيام. ما الجمال في هذا الجبل إن لم يتمكن المرء من تسلّق منحدراته الضبابية، ولم تعبث رياحه بشعره وتلابيبه؟ أيكتفي الماعز بالنظر إلى الصخور الوعرة دون أن يقفز ويتسلّقها؟!

ألا ليت تلك الأيام تعود، عندما كنت أهيم في السهول، أتسلق أسوار البساتين، وأرمي الأشجار الوارفة بالحصى، فتطير العصافير في

الهواء! لقد أردت الإقامة في الأناضول لأنعم بجمال طبيعتها.

أحب الرسم كثيراً منذ طفولتي. كنت أحصل على علامة تامة دائماً في درس الرسم في المدرسة. كم تعرضت إلى التوبيخ والعقاب، لقيامي بالرسم على حيطان القصر والمدرسة وقواعد التماثيل المرمرية بأقلام التلوين المختلفة. لذلك لم أنسَ أن أحضر معي كمية كبيرة من ورق الرسم وعديد أقلام التلوين.

أثناء إقامتي في الفندق، كلما أشعر بالوحدة والملل من الكتابة، أتناول أقلام التلوين وأشرع بالرسم على أوراق الرسم، فأشعر بالمتعة وأنسى وحدتي. رسمت في تلك الفترة صورتين لحجّي كلفا، واحدة بالقلم الفحمي الأسود والأخرى بالألوان.

لا أدري إن نجحت برسمه، لكنه تعرّف من خلالها على نفسه، من الرأس المستدير الأصلع، والشارب الكثيف، والمئزر الأبيض، وكال لي المديح على مهارتي.

كان يمضي وقتاً طويلاً في الأسواق ليشتري لابنته بقايا الأقمشة من الساتان والمخمل والحرير، لتستخدمها في أشغالها اليدوية، وحين شعر بضجري من الوحدة، دعاني إلى بيته. لقد استطاع بفضل إدارة واقتصاد زوجته، أن يبني بيتاً صغيراً دافئاً، طلاه باللون الأخضر بمساعدة أبنائه.

البيت مقام على حافة جرف شديد الانحدار. الجرف سحيق جداً إلى درجة يصاب المرء بالدوار إذا ما حاول النظر إلى أسفل خلف الدرابزين المغطى بمعرشة اللبلاب. لقد أمضيت عدة ساعات ممتعة في هذه الحديقة بصحبة عائلة حجّي كلفا!

"مدام نفيك"، من مدينة سماتيا. بسيطة القلب طيبته. ما إن رأتني حتى عانقتني بحرارة وقالت "دعيني أشم فيك رائحة استانبول يا ابنتي"، ثم لاحظت أنها كلما تطرقنا إلى الحديث عن استانبول، تدمع عيناها ويتحرك صدرها الضخم إلى الأعلى والأسفل وتطلق نفساً عميقاً مثل كير الحداد.

لحجّي كلفا ابن يدعى "ميراد"، في الثاني عشر من عمره، وابنة تدعى "هايغانوش"، في الرابعة عشر من عمرها. الفتاة خجولة وخرقاء، وجنتها بلون الشمندر الأحمر المائل إلى السمرة، ووجهها مليء بحب الشباب، لتبدو وكأنها مصابة بالجدري، وحاجباها كثيفان. الفتى على عكس أخته المكتنزة، هزيل وجاف كالقصبة.

حجّي كلفا، يعطي للعلم أهمية كبيرة، ربما لأنه لا يجيد القراءة ولا الكتابة. يرى أن على الإنسان أن يلمّ بكل شيء في الحياة. أرسل ميراد إلى المدرسة الأرمنية مدة سنتين، ليتعلم ثقافة أصوله، ويدرس حالياً في مدرسة عثمانية منذ سنتين. يخطط حجّي كلفا بتغيير مدرسة الصبي كل سنتين، كي يتقن اللغات الفرنسية والألمانية والإنجليزية والإيطالية حين يبلغ العشرين من عمره.

هذا إذا لم ينسحق هذا الصبي الهزيل كدودة حتى هذا العمر ولم يمت!

-هل لاحظت يا ابنتي كم كنت حكيماً باختياري ميراد اسماً له؟ لقد أمضيت أسبوعاً حتى توصلت إلى هذا الاسم الذي يلائم اللغتين الأرمنية والعثمانية: ميراد بالأرمنية ومراد بالعثمانية!

ثم غمز بعينه ليعطي الإيحاء بحكمته وأضاف:

-حين يغضبني ميراد أو يتصرف بحماقة، أقول له أنت لا ميراد ولا مراد، ما أنت سوى أحمق فاشل!

شاهدت بعضاً من أصول تربية هذا العجوز الأرمني لابنه، حين كنت في زيارتهم. ذنْب الصبي، كان عدم رضاه عمّا أعدّته أمه من طعام. كان حجّي كلفا يؤنّب ويوبّخ كعادته، بضرب ما يحفظه من الأمثال وأبيات الشعر:

-انظروا إلى هذا الأحمق! لم تتجاوز قامته طول الساق، ويحمل طباعاً سيئة. أعطوا الشحاذ خياراً، رفضه بحجة اعوجاجه! وهل تأكل الحمير الخشاف؟ ضع ذلك حلقاً في أذنك! من لا يتأدب بالكلام، يستحق العقاب الجسدي. من أنت حتى ترفض الخبز والنعمة التي وهبك الله؟!

" اعرف حجمك أيها المخلوق،

اعرف حجمك،

إن لم تعرف حجمك أيها المخلوق،

ستنال صفعة على وجهك".

اهتمام حجّي كلفا بالعلم لم يتوقف عند ابنه فحسب، بل كان يهتم بتعليم ابنته هايغانوش أيضاً، وأرسلها إلى المدرسة الكاثوليكية الأرمنية، رغم أن الآخرين ما كان يعنيهم تعليم البنات.

ذات يوم، أراد حجّي كلفا أن أمتحن معرفة ابنته هايغانوش أمام جارته العجوز الأرمنية المقعدة.

كان المنظر مضحكاً جداً، حين وضع كتب ودفاتر البنت في حضني وقال:

-هيا يا هايغانوش! لا تسوّدي وجهي، وإلا ستعلمين ماذا أفعل بالكسالى!

بعد إجاباتها الموفقة على عدد من عمليات الضرب والقسمة، فتحتُ كتاباً مصوراً عن تاريخ الأنبياء، وحين طلبتُ منها الحديث عن عيسى والمعمودية، أخطأت بالشرح، فصححت لها وأعطيتها معلومات مبسّطة عن المعمودية، من خلال معلوماتي في المدرسة.

اتسعت عينا حجّي كلفا وجحظت، ووقف شعر حاجبيه، ولو كان على رأسه شعر لوقف أيضاً. لقد اعتبر معرفتي الواسعة بالمسيحية معجزة! رسم إشارة الصليب وقال: "لست فتاة عادية يا ابنتي! أنت عالمةٌ تُقبّل يدك".

وضع يده على ظهر زوجته ودفعها نحوي بصعوبة لشدة بدانتها، وقال: "قبّلي هذه الفتاة من جبينها نيابة عني!".

لقد أوكل حجّي كلفا هذه المهمة إلى زوجته باعتباره رجلاً ولا يجوز له تقبيل امرأة غريبة.

منذ ذلك اليوم، صار مشرف الغرف العجوز يتحدث عني وعن علمي الواسع أمام كل من يصادفهم، وبات جميع روّاد المقهى يتابعونني بنظراتهم كلما دخلت أو خرجت من الفندق.

وحين أقول له:

-توقف عن الحديث عني، بحب الله، يا حجّي كلفا!

يعترض ويجيب:

-أتعمّد ذلك، يا ابنتي، كي يسمع المسؤولون، فيخجلوا مما فعلوه من أذية لك.

لقد كان في تعرّفي على زوجة حجّي كلفا منفعة لي، فهي تجيد عمل المربيات والحلويات اللذيذة. أعطتني طرق تحضير المربيات، وأضفتها إلى دفتري الخاص بوصفات أطعمة المربية غوليسال. على أية حال فهذه المعرفة أكثر منفعة من معلوماتي حول تاريخ الأنبياء.

أرجو الله أن ييسّر أموري، وأملك بيتاً خاصاً بي. أعمل ما أشاء من المربيات وأحفظها في أوعية زجاجية من كل الألوان، وأصفّها على رفوف مطبخي المزينة بورق ملون ومزركش. آكل ما أريد وقت ما أشاء، دون الحاجة لاستئذان أحداً. أدعو الله أن يعطيني الصحة والعافية.

أجل، أوعية زجاجية من كل الألوان، ما عدا اللون الأخضر، فأنا أكره اللون الأخضر لأنه يذكرني بعيني كامران الخضراء.

أذكر الآن جيداً، يا كامران، أكره عينيك الخضراوين منذ صغري، قبل أن أكرهك على خيانتك لي. هل تذكر كيف كنت أتعمد نثر التراب على وجهك مذ كنت في الثاني عشر من عمري؟ هل تظن أن ذلك مجرد شقاوة أطفال؟ كلا، بل رغبة مني بإيلام عينيك الخضراوين ذات البريق المخادع.

خرجت عن صلب الموضوع ثانية. كنت أنوي تسجيل أحداث هذا اليوم فقط.

أين توقفت؟ شعرت بسعادة صباح هذا اليوم مع إشراقة الشمس أول مرة، منذ وصولي. يظن حجّي كلفا أن سعادتي المفاجأة سببها سماعي لخبر سعيد. أيمكن أن أسمع خبراً يخصني قبله؟ إن مشرف الغرف الغريب هذا، يخبرني بكل ما يخصني من أخبار، بل حتى متى أجوع ومتى

أشعر بالنعاس! لكنه أصرّ بالقول:

-كفاك دلالاً! هذه الضحكات الفرحة ليست من لا شيء. أظن أنك سمعت خبراً أفرحك.

أن أبدو على معرفة بخبر لم يسمع به بعد، أشعرني بالزهو. غمزته بعيني وأجبته ضاحكة مازجة الجد بالمزاح:

-ربما ينبغي عدم إفشاء هذا السر!

ثم انطلقت خارج الفندق. كانت الشمس تسطع ببهاء. عبرت الجسر القريب من الفندق بحذر خشية أن أضل طريقي. ثم صعدت مرتفعاً، وهبطت إلى أرض سهلة، لأعبر جسراً آخر مروراً بأيكة، متابعة التجول إلى أن شعرت بخطر وشيك. عدد من الشبان المشردين راحوا يلاحقونني ويعاكسونني، رغم جلبابي المحتشم وخماري المسدل.

تذكرت نصيحة حجّي كلفا، فشعرت بالخوف واستدرت عائدة.

ما دمت قد خرجت من الفندق، فلا بأس من المرور على دائرة المعارف، رغم يقيني من ردّ رئيس الكتّاب ذي النطاق العريض بعدم وصول أي رد من استانبول بعد.

لكن، ما إن رآني حاجب المدير على الدرج حتى قال: "أحسنت بالمجيء يا معلمة، المدير يريد رؤيتك. كنت على وشك الذهاب إلى الفندق".

يا للعجب! لا يزال المدير يجلس خلف مكتبه المجلل بالجوخ، وقد شمّر عن ساعديه وارخى رباط عنقه، يفكر وعيناه نصف مغمضتين، كأنه يرتاح من تعبه الأبدي.

ما إن رآني حتى تثاءب وتمطط، وشرع بالكلام على مهله:

-ابنتي المعلمة، لم نستلم رداً من الوزارة الجليلة بعد. ما زلت لم أتخذ قراراً بعد، مع ظني أن ردهم لن يكون في صالحك، وسيختارون المعلمة حورية باعتبارها المعلمة الأقدم. لذلك فكرت بحل مناسب لك: ناحية "الزيتون" لا تبعد سوى بضع ساعات عن المركز هنا. مكان هواؤه عليل وماؤه عذب، طبيعته خلابة، وأهاليه قوم على قدر من الخلق والاستقامة. مكان مثل الجنة. المدرسة هناك ملكٌ للوزارة. بذلنا، العام الماضي، جهداً وتفانياً عظيمين لإصلاحها وتجديدها، ونجحنا بإكمال نواقصها ولوازمها المدرسية. للعلم، هناك وحدة سكنية مخصصة لإقامة المعلمات أيضاً. نحن الآن، بحاجة إلى همّة وتفاني معلمة شابة ومتميزة مثلك، للتطوع بالذهاب إلى هناك. في الحقيقة، المكان جيد، بل جيد جداً، أقولها بصدق. صحيح أن الراتب أقل من هنا، لكنها خدمة وطنية مأجورة، بالمقابل، فأسعار اللحم والحليب والبيض وكل شيء أرخص كثيراً من هنا، أي ستتمكنين من توفير الكثير من راتبك. بدوري، سأنسّب برفع راتبك، عند أول فرصة سانحة. سيكون وضعك هناك، أفضل من وضعك في المدرسة الثانوية هنا.

كنت أستمع صامتة لجهلي بأي قرار ينبغي عليّ اتخاذه.

تابع مدير المعارف:

-تقيم في المدرسة، سيدة عجوز محترمة. تعطي الدروس وتتابع شؤون المدرسة. امرأة لا هم لها سوى صلاتها وخلوتها. لكنها لا تعلم بأصول التدريس الحديثة. في حال ذهابك، ستصبح إدارة المدرسة بيدك. وفي حال، لم تعجبك الزيتون، ما عليك سوى الكتابة

إليّ، وسأنقلك إلى مكان آخر برضيك. لكنني على ثقة تامة، أنك بعد إقامتك هناك، لن ترضي بنقلك إلى مكان آخر حتى ولو كان إلى المركز.

الهواء العليل، والطبيعة الجميلة، والأكل والمشرب الرخيص، والأهالي طيبون. كأني في إحدى قرى سويسرا. ماذا يريد المرء أفضل من ذلك؟

خفق قلبي بشدّة، وتراءى أمام ناظري طرقات مشمسة، وحدائق غنّاء، وغابات خضراء.

رغم ذلك، لم أجسر على قول "موافقة". يجب استشارة حجّي كلفا.

-بعد إذنك، يا سيدي، سأعود بعد ساعتين لأعطيك جوابي.

بدا المدير كأنه استيقظ ودبت فيه الحياة:

-الأمر عاجل، يا ابنتي! لا تضيعي هذه الفرصة من يدك! هناك من يرغب بالذهاب إلى هناك، ولا يمكنني الانتظار كثيراً.

-أعطني مهلة لساعة واحدة، إذن، يا سيدي.

ما إن خرجت من غرفة المدير، حتى تقابلت مع شريكتي المعلمة حورية وجهاً لوجه. أطلق علينا مسمى الشريكتين في (ب)، ذلك ما أخبرني به حجّي كلفا! في الحقيقة، لقد شعرت بالخوف من رؤيتها، أشحت بوجهي محاولة التسلل على عجل، لكنها استوقفتني كشحاذة، وأمسكت بتلابيبي، وشرعت بالكلام:

-ابنتي المحترمة، لقد أسأت الأدب معك. بحب الله، سامحيني! كنت في وضع نفسي سيء. أشعر بالأسف الشديد لما بدر مني... لو تعلمين بحالي يا بنيتي، سترثين لي. أرجو أن تسامحيني على سوء أدبي.

أجبت بخوف:

-لا بأس، يا سيدتي. حادثة ومضت.

حاولت الانصراف، لكنها تشبّثت بتلابيبي وأوقفتني، وراحت تشكي من حالها وحال أبنائها الخمسة، ترفع عقيرها بتوسل مقزز. وقعت في حيرة شديدة، ماذا أقول، وماذا أفعل؟

ما زاد الطين بلة، تجمهر كل من سمع صراخها حولنا، من حجّاب الديوان، إلى الكتبة وموزعي الشاي والقهوة بصوانيهم، وأحاطوا بنا.

شعرت بالحرج والخجل، فرحت أتوسل بدوري:

-أرجوك، يا معلمة، اخفضي من صوتك، الكل يحدق فينا.

لكنها، زادت من رفع صوتها، وراحت تشد شعرها، وتقطع أزرار ياقتها، وانحنت لتقبل يديّ وركبتيّ.

جمهرة الفضوليين تتزايد حولنا والصخب يرتفع باضطراد. تذكرت الجموع التي تحتشد حول الباعة في شوارع استانبول وصياحهم يعلنون عن أصناف مبيعاتهم من مواد خارقة لإزالة البقع عن الملابس، أو علاج ناجع للناسور، ثم تصاعدت أصوات مستنكرة ومتعاطفة: "يا للمرأة المسكينة، رفقاً بها يا آنسة!". فجأة، تقدم مني شيخ بعمامة خضراء ولحية بيضاء، وخاطبني قائلاً:

-احترام الكبار وتقديم العون لهم واجب ديني وإنساني، يا ابنتي! لا تقطعي رزق هذه المرأة المحتاجة. ليكن رضا الله ورسوله مبتغاك. سيرزقك العلي القدير من حيث لا تحتسبين.

كنت أرتعش وأقطر عرقاً في آن واحد، حين مرّ صبي المقصف حاملاً صينية أكواب الشاي، وصاح دون أن يتوقف:

-أينما كنتِ يمكنكِ الحصول على لقمة عيشك!

عدد من بين الزحام قهقه ضاحكاً، بينما اندفع الكاتب ذو النطاق الأحمر نحوه، أمسكه من رقبته ودفعه على الدرج، وصاح به معنّفاً:

-اغرب من هنا يا حقير يا عديم الأخلاق!

لم أفهم لِمَ ضحكوا؟ لم يختلف قول الصبي عما قاله الشيخ!

أصبح الوضع لا يحتمل مع مواصلة حورية البكاء دون توقف. لم يكن أمامي من حل لهذه المهزلة سوى أن أقول:

-حسناً، حسناً، ليكن ما تريدين، لكن أرجوك دعيني.

سحبت قدمي من بين يديها بصعوبة، بعد أن جثت على الأرض لتقبيلها، وعدت إلى غرفة المدير.

خلال دقائق، دفعوني إلى توقيع كتاب بالتماس نقل مكان تعييني من مدرسة المركز الابتدائية إلى مدرسة الزيتّون، بناء على طلبي.

انتهت الإجراءات الرسمية في أقل من ساعة، وحمل مدير المعارف كتابي بنفسه، وانطلق إلى قصر الوالي للحصول على توقيعه بالموافقة.

تحتاج المعاملات الرسمية أشهراً لانتقالها من طاولة إلى أخرى في المكتب نفسه، لكنها تُنجز في دقائق إن أرادوا إنجازها!

استقبلني حجّي كلفا بباب الفندق، حين عودتي. قال بفرح وعتاب في آن معاً:

-هل ظننت أن الأخبار لا تصلني؟ مبارك عليك!

-أية أخبار؟

-وصول تثبيت تعيينك، يا عزيزتي...

-أي تثبيت، يا حجّي كلفا؟

-تثبيت تعيينك في مدرسة المركز الابتدائية، يا عزيزتي. لقد سرّحوا حورية من الخدمة.

-غير صحيح، يا حجّي كلفا. كنت عند مدير المعارف قبل قليل. لم أسمع مثل هذا الكلام.

نظر الرجل العجوز إليّ مشككاً وقال:

-كلا، وصل كتاب تثبيتك مساء أمس. سمعته من مصدر موثوق. إذن، فالمدير قد أخفى عنك الحقيقة. لابد أن هناك مؤامرة تحاك ضدك.

رويت كل ما حصل، ساخرة من شك حجّي كلفا غير المبرر. أخرجت كتاب تعييني من حقيبتي ولوّحت به:

-تخيّل يا حجّي كلفا! أنا ذاهبة إلى مكان يشبه سويسرا!

بينما كان حجّي كلفا يستمع إليّ، احمر أنفه الضخم وأصبح بلون عرف الديك، وراح يصفق كفيه ببعضهما:

-ماذا فعلت أيتها الصغيرة، ماذا فعلت؟ لقد خدعوك، أيتها الغشيمة! اذهبي إلى المدير في الحال، وافضحي فعلته!

هززت كتفيّ وأجبته:

-لا داعي للقلق، يا عزيزي حجّي كلفا. الغضب يضرّ بصحتك!

كان الرجل على صواب بالغضب من أجلي. علمنا بتفاصيل المؤامرة قبيل المساء. مدير المعارف إلى جانب حورية. كان قد نسّب بتثبيت حورية في المركز ونقلي إلى مكان آخر، في المذكرة التي رفعها إلى الوزارة. لكن الوزارة رفضت طلبه، وقررت إيقاف حورية عن العمل إلى حين افتتاح مدرسة في مكان آخر في السنوات القادمة.

إثر وصول قرار الوزارة مساء أمس، اجتمع حتى ساعة متأخرة من الليل، كلٌ من مدير المعارف ومديرة المدرسة الابتدائية ومدير المالية بصفته من أقرباء حورية، وأعدوا خطة لخداعي ونقلي إلى قرية الزينّون وتثبيت حورية مكاني.

انتظار حورية لي خارج غرفة المدير، وبكائها وتوسلاتها، وظهور الشيخ ذي اللحية البيضاء، كان من ضمن الخطة المسرحية المعدّة تلك الليلة.

أما ما زعمه مدير المعارف عن شبه قرية الزينّون لقرى سويسرا، تبين أنها مكان ناء بين الجبال لا يصله طير، ولا يمر منه بشر! والشاغر قائم في هذه المدرسة منذ أكثر من سنة، لكن أشد المعلمات حاجة للعمل رفضن الذهاب إلى تلك المدرسة.

عندما علمت بما حصل، لم يستوعب عقلي كيف يمكن لشيخ بعمامة ولحية، أن يكون على هذا القدر من الخِسّة!

هزّ حجّي كلفا رأسه بعصبية، وقال:

-لا تعرفين شيئاً عن الحية النائمة، تلدغ المرء على حين غرة، لا يدرك من أين خرجت، وكيف لدغته.

-لا أشعر بالأسى، فظلم الغرباء أهون بكثير من ظلم الأقارب. سأعرف كيف أسعد أهالي الزينّون، وكيف أبهج قلوبهم.

-٤-

الزينيّون ٢٨ تشرين الأول

وصلت اليوم، إلى الزينيّون قبيل المساء بعربة ذات دولابين. يبدو أن مدير المعارف يقيس المسافات حسب سرعة القطارات. الرحلة التي لا تتجاوز الساعتين حسب زعمه، استمرت من العاشرة صباحاً وحتى المساء. طريق تسلقت العربة خلاله جبالاً بارتفاعات حادة وهبطت أودية بانحدارات مخيفة.

حين جُهّزت العربة لسفري، استعدت عائلة حجّي كلفا للخروج لتوديعي قرب نبع ماء يبعد نصف ساعة عن المدينة. ارتدى جميع أفراد العائلة ثياب الفرح، أو الأصح ثياب الجنازة! تعرّفتُ على حجّي كلفا بصعوبة، بعد أن خلع مئزره الأبيض ونعليه التي تعزف لحناً مميزاً على درجات وممرات وباحة الفندق، وارتدى معطفاً طويلاً من الجوخ الرمادي بياقة مغلقة، وانتعل حذاء مطاطياً كحذاء الأئمة، وغطى طربوش أحمر كبير رأسه الأصلع حتى أذنيه. لم تقلّ قيافة زوجته وهايغانوش وميراد أناقة عن قيافته.

تركت غرفتي الصغيرة بحزن رغم ما أمضيته فيها من ساعات أليمة جداً. لا أزال أذكر قصيدة شعر لأحد الشعراء، من أيام المدرسة. يتحدث عن ارتباط المرء بالناس والمكان حيث يعيش، دون إدراك لأية مشاعر محددة، ويشبّه مشاعر الارتباط هذه بأوتار كمان غير مرئية. لكن حين يفكّر بالابتعاد، يبدأ قلبه بالخفقان، ويحس بمشاعر حميمة نحو ماضيه

بحلوه ومرّه، وتعزف تلك الأوتار ألحاناً شجية. كم كان ذلك الشاعر محقاً بوصفه هذا!

صادف أن غادرت جارتي في الفندق (ب) في اليوم نفسه أيضاً. لكنها غادرتها بظروف مفجعة...

ليلة أمس، دخلت فراشي للنوم بعد أن جهّزت حقيبتي استعداداً للسفر. بعد وقت لا أدري كم طال، صحوت على أصوات تعلو وتخفت، لم أتمكن من تمييزها. فجأة، وقع صخب وضجة وحشرجات وصياح وصفعات في الردهة، اختلطت ببكاء وعويل أطفال. أول ما خطر ببالي، بين الصحوة والنوم، أن حريقاً قد شب في الفندق، لكن من يحاولون إطفاء الحريق لا يضربون بعضهم بعضاً!

قفزت من سريري، وخرجت من باب الغرفة بشعري المنثور وقدميّ الحافيتين، لأفاجئ بضابط ضخم الجثة وكثّ الشاربين، سحب حزامه عن خصره، يضرب جارتي، ويجرها على الأرض، ويركلها بحذائه العسكري بوحشية، والأطفال يصرخون بصوت واحد: "ماما... بابا يحاول قتل أمّي!".

كانت المرأة تئنّ وتتدحرج على الأرض بعد كل ركلة، وبعد كل ضربة حزام يصفر كالثعبان. لكنها تنهض ثانية بعزم شديد لتتشبّث بساقه وتتوسل إليه: "اجعلني عبدة لك، روحي فداك، اقتلني، لكن لا تتركني، لا تطلقني!..".

كنت بملابس النوم، لذلك أغلقت الباب، وعدت إلى فراشي. في الواقع، لم يكن باستطاعتي فعل أي شيء آخر.

استيقظ نزلاء الطابق الأسفل أيضاً. أصوات مختلفة ووقع أقدام انطلقت في الطابق الأسفل، ثم لمعت أنوار المصابيح في الممر، كما لمع رأس حجّي كلفا الأصلع عند مطلع الدرج، بعد أن استيقظ على الجلبة، فصعد إلى مصدر الصوت بالفانلّة والسروال.

صاح مشرف الغرف العجوز بغضب: "ألا تخجل من نفسك؟ لا أسمح بحدوث هذا في فندقي!"، وحين حاول الفصل بينهما، دفعه الضابط بركلة من قدمه على بطنه، فطار المسكين في الهواء ككرة ضخمة وتدحرج حتى باب غرفتي المنفرج، وبقيت فخذاه العاريتان مشرعتين في الهواء. أسرعت بلمح البرق، وأمسكت برأسه كي لا يرتطم بالأرض وإلا كان رأسه الأصلع سينفجر كقرعة، لا قدر الله!

الخوف والذهول ما بين الصحوة والنوم، وما أصاب حورية وحجّي كلفا، كل ذلك اجتمع معاً ليسبّب لي حالة من التوتر والانزعاج.

راح الرجل العجوز يسبّ ويشتم، بينما كان ينهض على قدميه، ويتفقد حاله.

زال شعوري بالخوف والذهول مما يجري، وألقيت نفسي على الفراش، وغرقت في نوبة من الضحك. حاولت كتم ضحكي باللحاف حتى كدت أختنق. ما عاد يعنيني ما يجري خارج الغرفة، ولم أعد إلى وعي حتى انقطعت الأصوات وساد الهدوء في الخارج.

علمت لاحقاً تفاصيل الحادثة:

ضاق الضابط ذرعاً من عشق جارتي الجنوني وملاحقتها له، فقرر إعادتها وأطفالها إلى بيت أهلها بالإكراه. جاءها تلك الليلة، وطلب منها أن تكون جاهزة في الصباح للعودة إلى بلدتها. لم توافق المرأة على طلبه،

وبعد طول إلحاح وتوسل منها، فقد صوابه، وحدث ما حدث من شجار وضرب.

بعد ساعتين أو أكثر، وأثناء محاولتي النوم ثانية، طرق حجّي كلفا بابي بخفة وقال: "يا ابنتي المعلمة، لا امرأة سواك في الفندق. هل يمكنك المساعدة؟ المرأة المسكينة في حالة فقدان للوعي. أرجوك أن تساعديها. لا يمكننا كرجال تقديم المساعدة لها. أخشى أن تموت ونقع في مصيبة أخرى!".

ما إن طلّ وجه حجّي كلفا عليّ من فرجة الباب حتى أصابتني نوبة ضحك ثانية. حاولت أن أقول له: "حمداً لله على سلامتك!"، لكن الكلمات لم تخرج من بين شفتي. نظر حجّي كلفا إليّ بامتعاض، وهزّ رأسه بخجل وقال:

-ألن تكفّي عن الضحك والكركرة! يا لك من شقية!

محاولة إسعاف امرئ مغمي عليه، تجربة لم أمر بها سابقاً. لم أعرف ما ينبغي عمله، لكن المرء حين يقع في المحنة، ينجح بتجاوزها دون تخطيط مسبق. لم يكن في جسم المرأة المسكينة ولا شبر واحد دون جروح نازفة. تصحو قليلاً من إغمائها، ثم تغيب عن الوعي ثانية. أمسّد جسمها وأبللها، وتساعدني ابنتها بصب الماء على وجهها. اختلطت دماؤها بمساحيق زينتها وتصبغ وجهها وصدرها بالكحل. بقيتُ على هذه الحال إلى جانبها حتى استعادت وعيها تماماً، ثم استغرقت في النوم من الإرهاق.

حين استيقظت في الصباح، كانت قد غادرت وأطفالها باكراً، بعد أن أوصت حجّي كلفا بإبلاغي شكرها وسلامها.

ركبنا جميعاً العربة الصغيرة حتى مكان الوداع عند نبع الماء خارج المدينة. كنت أضحك كلما تلاقت عيناي بعينيّ حجّي كلفا، فيدرك سبب ضحكي، ويهزّ رأسه ويبتسم بامتعاض مؤنّباً:

- ألن تكفي عن الضحك والكركرة؟

ثم يوجه كلامه لميراد:

- لقد نلت رفسة شديدة من الضابط البغل على بطني، مزّقت أحشائي، ليلة أمس. نصيحة أب لابنه: يقول المثل "يا داخل بين البصلة وقشرتها لا ينوبك سوى ريحتها". إياك أن تحاول يوماً التدخّل بين الزوج وزوجته!".

حين وصلنا نبع الماء، جدّد حجّي كلفا مياه قارورتين وناولهما لي، ثم شرع بتوجيه توصيات مطولة إلى سائق العربة العجوز، وزودتني زوجته بكعك أعدته خصيصاً لي.

كنت أظن أن هايغانوش لا تأبه بوجودي، لكن بكاءها الحار من أجلي في لحظة الفراق تلك، كان له بالغ الأثر في نفسي، فلم أملك إلا خلع قرطي اللؤلؤي من أذني، وشبكته على أذنيها.

شعر حجّي كلفا بالحرج وقال: "هذا لؤلؤ ثمين يا بنيتي المعلمة! لا داعي لذلك، احتفظي به لنفسك".

ضحكت بمرح: "هذا اللؤلؤ لا يعادل ما همرته ابنتك من لؤلؤ من أجلي!".

أركبني حجّي كلفا العربة ثانية، وبعد أن تنهّد بعمق قال: "في الحقيقة، هذا الفراق أشد إيلاماً من ركلة الأمس!".

أضحكتني كلماته هذه ثانية، فرفع إصبعه وقال: "آه منك يا شقية. تسخرين مني!".

لو لم تتحرك العربة، ولو لم تبدأ الطريق بالزحف تحت عجلاتها، لرأيت دموعي المنهمرة من عينيّ، وأدركت ما أكنه لك من مودة يا عزيزي حجّي كلفا.

قطعت العربة طرقات جبلية وارتفاعات ومنحدرات، تعبر حفراً في سيل جف ماؤه تارة، وتعبر بقاعاً خالية تارة أخرى، مروراً بقرى متباعدة، وبساتين تهتّكت أسيجتها، وعربات مسافرين آخرين تئن عجلاتها من التعب.

اثنان من قوات الدرك أشبه بقطاع الطرق بشاربيهما الكثين، مرا من قربنا وحيّا السائق، محدقين بي.

أذكر قول حجّي كلفا: "الطرق أمينة بمشيئة الله. لكن الحذر واجب! ارخي خمارك، فوجهك ليس من النوع الذي يُكشف أمام أي كان، لا تنسي ذلك!".

كنت كلما رأيت أحداً قادماً من بعيد، أغطي وجهي سريعاً، كما أوصاني حجّي كلفا.

مع انقضاء الساعات تباعاً، يزداد الطريق وحشة وكآبة، وتُردّد صخور الجبال السوداء أصداء الصوت الحزين لأجراس العربة، كأنه أنين امرأة باكية تحاول اللحاق بنا.

المساء يقترب، والشمس تنسحب على مهل لتختبئ خلف القمم العالية، والظلام يرخي سدوله رويداً رويداً، والطريق لا يعرف الانتهاء،

لا قرية في المنظور القريب، ولا حتى شجرة خضراء...

بدأ الخوف ينبعث في داخلي. هل سنصل إلى الزينيّون هذه الليلة؟ أم سنقضي الليل على هذه الجبال الجرداء حتى طلوع الصباح؟

كان سائق العربة يتوقف بين الحين والآخر، ليريح حيواناته، ويتحدث معهم كبشر.

انتهزت فرصة توقفه ثانية، بين كتل صخرية مترامية الأطراف، لأسأله:

- هل لا يزال أمامنا وقت طويل لنصل؟

هزّ رأسه بتثاقل وأجاب:

- بل وصلنا!

لو لم يكن الرجل عجوزاً مسناً، لظننت أنه يمازحني.

- ماذا تقول؟ نحن في أرض خلاء. لا أرى قرية ولا بيتاً واحداً!

بينما كان الرجل العجوز يُنزل حقائبي من العربة، أجاب:

- سنهبط ذلك الدرب الضيق سيراً على الأقدام. لا تبعد الزينيّون أكثر من مسيرة خمس دقائق. لا طريق سالك للعربة.

بدأنا نهبط طريقاً بين الصخور، منحدراً شبه عمودي، أشبه بدرجات المئذنة، ثم بدأت ألمح عدداً من أشجار السرو، تبدو ككتل سوداء في حمرة الأصيل، ثم بدت بضعة بيوت خشبية وأعشاش متباعدة، محاطة بساحات جرداء مسيّجة.

بدت لي الزينيّون، من أول نظرة، كأطلال تحترق، ولا يزال الدخان يتصاعد من أرجائها.

حين التحدث عن القرى، كان يتراءى أمام ناظري بيوت خشبية وأكواخ جميلة، تبعث البهجة إلى النفوس، كتلك البيوت القديمة في البساتين المطلة على البوسفور. لكن ما أراه الآن ليس سوى خرابات سوداء حالكة، آيلة للسقوط.

حين وصلنا جوار طاحونة مهدمة، طلع أمامنا فجأة، رجل عجوز ملتف بشملة وعلى رأسه عمامة، يحاول جرّ بقرة هزيلة برزت عظام قفصها الصدري. ما إن رآنا حتى توقف وراح يتفحصنا بنظراته. تبين لي أنه مختار الزينيّون، من خلال حديث سائق العربة موضحاً له من أكون.

لا يمكن للمختار أن يدرك أني فتاة شابة، لارتدائي جلباباً أسود وخماراً مسدلاً. رغم ذلك، فقد نظر نحوي باستهجان، ثم ناول حبل البقرة إلى صبي بقدمين حافيتين كان إلى جواره، وتقدمنا نحو القرية.

دخلنا أزقة القرية الضيقة. بدت لي البيوت بشكل أكثر وضوحاً. تتألف من غرفة أو غرفتين ترتفع على أربعة أعمدة، ليستخدم أسفلها كإسطبلات للحيوانات، وسلم عمودي للصعود إلى الغرف. الشبابيك متهالكة، وخشبها تعفّن واسود من المطر، ومالت بفعل الرياح. على أية حال، لا يبدو أن لقرية الزينيّون شبيه، لا في الواقع ولا في مخيلتي.

توقفنا أمام باب أحمر لحديقة أُحيطت بسور خشبي. قريةٌ كل شيء فيها أسود حتى أوراق شجرها، بدا لي رؤية باب أحمر من العجائب!

راح المختار يطرق الباب بقبضته، والباب يهتز مع كل طرقة حتى خلت أنه سيقع إن عاجلاً أو آجلاً.

تشجعت وتكلمت للمرة الأولى:

-يبدو أن لا أحداً في الداخل.
هزّ المختار رأسه وأجاب:
-لابد أن السيدة خديجة تؤدي صلاة العشاء. لننتظرها قليلاً.
كان السائق على عجل. ترك الحقائب أمام الباب، وذهب.
جمع المختار أطراف شملته وجلس القرفصاء، بينما جلست على حقيبتي، وبدأنا الكلام.
السيدة خديجة، امرأة متدينة جداً. تنتمي إلى إحدى الطرق الصوفية. تعنى بأحياء القرية وأمواتها. تحي الموالد الدينية، وتردد الأدعية في الأفراح، وتقطر مياه زمزم في فم المرضى ومن في النزع الأخير. تغسل جثامين النساء وتكفّنهن.
يبدو أن المختار قد تعلم في الكتّاب في صغره. بدا أنه انتهز الفرصة لعرض بعض من نصائحه. لا يعارض أساليب التعليم الحديثة، لكنه لا يؤيد إغفال دروس الدين في المدارس الحديثة.
لقد مر العديد من المعلمات على البلدة، لكن لم تكن ولا واحدة منهن على دراية كافية بالقرآن الكريم وأصول الدين. كان راضياً عن أداء السيدة خديجة. لو أترك هذه الدروس لتلك المرأة الصالحة المتعبدة، وأهتم بتعليم الدروس الأخرى كي أنال رضا أهالي القرية.
بينما كنت أصغي لهذه النصائح، وصل إلى مسامعنا وقع نعال داخل البيت. نهضت والمختار على أقدامنا. بعد سماعنا قعقعة مزلاج حديدي، صاح صوت غليظ من خلف الباب:
-من هناك؟
-لا غرباء، يا سيدة خديجة. قدمت المعلمة من (ب).

كانت السيدة خديجة عجوزاً، في السبعين من عمرها، ضخمة الجثة، ووجه طفح، ومحدودبة الظهر قليلاً. غطت شعرها المخضب بالحنّاء بشال يماني، ووضعت على ظهرها "بانشو" داكن اللون. عينان حيويتان بنظرات دافئة ودودة، وأسنان ناصعة البياض تظهر بين تجاعيد وجهها الأسمر القاسي. بينما تحاول تمييز وجهي من خلف الخمار، قالت: " أهلاً وسهلاً بك يا معلمة، تفضلي بالدخول!".

استندت بإحدى يديها على الباب، كأن الخروج من الحديقة إلى الشارع ممنوع، وتناولت حقيبتي باليد الأخرى، ثم أغلقت الباب بالمزلاج وتقدمتني.

عبرت الحديقة خلفها. ما بذله مدير المعارف من جهد وتضحية لصيانة وتجديد بناء المدرسة، كان صنو البيوت الأخرى للقرية. لكن أعمدة الطابق الأرضي لم تتعفن وتسود بعد، وأُغلقت جوانبه الأربعة بألواح خشبية، لتستخدم كقاعة للتدريس.

حين هممت بعبور الباب، أمسكت السيدة خديجة ذراعي، وقالت: "توقفي، يا ابنتي!".

ارتعدت وتراجعت. بعد أن تمتمت بدعاء قصير قالت:

-هيا يا ابنتي، بسملي وادخلي بقدمك اليمنى أولاً.

كان الطابق الأرضي معتماً كزنزانة. أمسكت المرأة العجوز يدي، وعبرت بي ممراً حجرياً ضيقاً، ثم صعدنا درجاً معتماً أيضاً، تتراقص درجاته من القِدَم. الطابق العلوي، غرفة واسعة خربة، ومصاريع نوافذها الخشبية العلوية مغلقة. تلك مفاجأة مدير المعارف الأخرى: وحدة سكن المعلمة!

وضعت السيدة خديجة الحقيبة على الأرض، وأخرجت قنديلاً من كانونٍ في إحدى زوايا الغرفة، يُستخدم كخزانة، ثم أشعلت القنديل:

-لقد علا الغرفةَ الغبارُ. لم يدخلها أحد هذه السنة. أنظفها، صباح الغد، إن شاء الله.

كانت هذه المرأة، المعلمة القديمة في المدرسة. حين جدّدت مديرية المعارف المدرسة، أشفقوا على حالها، وأبقوها في المدرسة براتب شهري مقداره مائتان وخمسون قرشاً، لتعمل كخادمة دائمة، ومعلمة عند الحاجة إليها. وهكذا، فالقرار لي، أشغّلها كيفما أراه مناسباً.

أدركت أن المرأة لا تشعر بالارتياح من قدومي. بطبيعة الحال، فأنا مسؤولة عنها. سعيت بفطنة وبكلام واضح، أن أبين لها أني لا أفكر بالإساءة إليها، ثم ركزت اهتمامي على مكان سكني.

دعامات السقف الخشبية متحدّبة ومسودّة ومتعفّنة من المطر، وتصفيحه قذر وأصابه النخر من القِدَم، كانون متداعي في إحدى الزوايا، وفي الناحية الأخرى، سرير خشبي متقوّس. أهنا، سأمضي بقية حياتي، يا ترى؟

شعرت بضيق في صدري، كأني وقعت في بئر خانق لا هواء فيه، وبرودة تنتشر في أنحاء جسدي.

-عزيزتي السيدة خديجة، ساعديني بفتح إحدى تلك النوافذ، يبدو أني لن أستطيع فتحها وحدي.

لم تكن المرأة العجوز تريدني القيام بأي عمل، لكنها رضخت لطلبي، وتعاونّا على فتح النافذة بصعوبة، لأرى أمامي منظراً اقشعر منه بدني. مقبرةٌ مرعبةٌ بدت أمام ناظري، بحجارة قبورها وشواهدها

المصفوفة جنباً إلى جنب، بضع شجرات سرو، ومستنقع ماء عكر مغطى بأعشاب الديس.

سمعت تنهيدة عميقة للمرأة العجوز:

-ينبغي على المرء أن يألف هذا المكان في حياته، فذات يوم سنذهب جميعنا إليه.

هل قالت عظتها هذه من قبيل الصدفة؟ أم لاحظت ذعري من رؤيتي للمقبرة أسفل نافذتي؟ على أية حال، فقد استجمعت قواي سريعاً، وحاولت إظهار لامبالاة أقرب إلى البهجة:

-إذن، هنا مقبرة على مقربة منا، لم أكن أعلم بذلك.

-أجل، يا ابنتي، هذه مقبرة الزينبّون. أثر باقٍ من زمان بعيد. يدفنون موتاهم في مكان آخر الآن. هنا شيء كالتاريخ. سأذهب لأشعل فانوس زيني بابا، وأعود في الحال.

-من هو زيني بابا، يا سيدة خديجة؟

-ولي من الأولياء، يغيث الملهوف. يرقد هناك، أسفل السروة.

اتجهت السيدة خديجة نحو الدرج متمتمة بعض الأدعية. لم أكن أعرف الخوف من مثل هذه الأمور، لكن في تلك اللحظة، شعرت بالخوف من بقائي وحدي في غرفة عابقة برائحة القبور. حثثت خطاي لألحق بالمرأة العجوز:

-أيمكنني الذهاب معك؟

-بل من المستحسن قدومك، يا ابنتي. زيارتك لزيني بابا يوم وصولك، ستلاقي استحسانه.

دخلنا المقبرة من الباب الخلفي للمدرسة، وتنقّلنا بين الشواهد الحجرية.

كانت خالتي تصحبني لزيارة مقبرة العائلة في رمضان والأعياد، لكن لم أشعر برهبة الموت إلا في مقبرة الزينيّون المعتمة هذه. القبور مصفوفة بانتظام جنباً إلى جنب، كصفوف العسكر. أشكال شواهدها تختلف عما شاهدته في المقابر الأخرى، منتصبة باستقامة، وحجارتها سوداء حالكة، وكتابتها غير مقروءة سوى كلمة "يا رب" على رأس كل شاهدة.

سمعت في طفولتي، حكاية عن أمير صغير، أرسل أعداء أبيه ثلة من العساكر لخطفه. انطلق العسكر نحو مدينة السلطان في مسيرة دامت أشهراً. يختبئون في الكهوف نهاراً، وفي الليل يتقدمون مرتدين أكفاناً سوداء كي لا يراهم أحد. في ليلة هجومهم على القصر، أشفق الله على الأمير الصغير، فحوّلهم إلى حجارة سوداء.

تذكرت تلك الحكاية بينما كنت أتابع بناظري هذه الحجارة السوداء المصفوفة بانتظام عسكري. "هل هذه هي البلدة حيث تحوّل عساكر الموت المخيفون إلى حجارة سوداء؟" جال في خاطري.

-من هم الزينيّون، يا سيدة خديجة؟

-أنا أيضاً، لا أعرف. كانت هذه قريتهم في زمان مضى. لم يبقَ من أثرهم سوى هذه المقابر. هم من الأولياء. زيني بابا أجلّهم كرامة. يجلبون من يتعذّر شفاؤه إلى مقامه، هنا. أعرف امرأة مقعدة، جُلبت على محفّة. نهضت على الفور ومشت على قدميها.

مقام زيني بابا، في نهاية المقبرة، تحت شجرة سرو ضخمة. تشعل السيدة خديجة ثلاثة قناديل كل ليلة. واحد على غصن شجرة السرو، والثاني عند الباب، والثالث عند مقدمة الضريح.

مقام زيني بابا سرداب تحت الأرض. كان قد أقام فيه سبع سنوات دون أن يرى نور الشمس. مات هناك. أقاموا ضريحاً فوق جثمانه، دون أن تلمس جسده الطاهر يد إنس.

بعد أن أشعلت السيدة خديجة اثنين من القناديل الثلاثة، أشارت إلى بضع درجات مؤدية إلى داخل السرداب، وقالت:

-هيا يا ابنتي، لنهبط إلى الأسفل.

شعرت برهبة فترّددت بالنزول. استدارت المرأة نحوي وقالت:

-هيا يا ابنتي. بعد وصولك حتى باب المقام، ستؤثمين إن لم تدخلي. هيا انزلي، واطلبي من زيني بابا ما تتمنّين!..

نزلت الدرجات وقلبي يرتعش كورق أشجار الخريف، وامتلأت أنفاسي برائحة التراب البارد الرطب. هل يشعر الأموات بما شعرته في تلك اللحظة، حين يُنزلون إلى القبر، يا ترى؟

ضريح زيني بابا مغطى بألواح من الصاج المطلي باللون الأخضر. روت السيدة خديجة لي لاحقاً، أن زيني بابا أمضى حياته بالزهد والتعبّد وقراءة القرآن. بعد موته، يرفض تغطية ضريحه بالأقمشة الثمينة والمطرزة، وحين يقوم البعض بوضع أغطية ثمينة فوق ضريحه، تتهتّك وتتمزّق في بضعة أيام.

تمتمت المرأة العجوز أدعية ووضعت زيتاً في قنديل عند رأس الوليّ، ثم استدارت نحوي:

–حين يحين أجلُ أحد أهالي القرية، ينزل عزرائيل عليه السلام ضيفاً عند زيني بابا. حينئذ ينطفئ هذا الضوء تلقائياً. اطلبي الآن، ما تريدين من زيني بابا.

ارتجفت ركبتاي، ولم أعد أقوى على الوقوف على قدميّ. وضعت جبيني الساخن على ضريح زيني بابا الرطب، وشارك قلبي المجروح شفتيّ بالتمتمة: "زيني بابا! أنا لست سوى طائر نمنمة صغيرة وجاهلة. لا تأخذ عليّ جهلي، فأنا لا أعرف ما ينبغي أن أتمناه عليك، ولا أعلم ما يرضيك. كل ما أعلمه أنك اعتكفت هنا سبع سنوات دون أن ترى نور الشمس. هل أنت أيضاً، ابتعدت كرهاً من قسوة وغدر البشر؟ لابد أنك تقت إلى نور الشمس الوضّاح ونسيم الهواء العليل، يوماً خلال تلك السنوات السبع. زيني بابا! أعطني بعضاً مما أعطاه الله لك من هذا الصبر على احتمال الألم، كي أحتمل دون بكاء أو أنين ما أصابني!..".

تركتني السيدة خديجة وحيدة في غرفتي، وانصرفت لتعتزل في مكانها المعتاد للتعبد والتسبيح حتى منتصف الليل. مكان في الطابق الأرضي، لكنه معتم أشبه بالقبو.

لا أزال أكتب هذه الأسطر في ضوء المصباح، منذ ساعتين. أسمع صوتاً قادماً من بعيد كخرير المياه، أو نقراً على السطح، بين الحين والآخر، وأسمع داخل المبنى المتهالك، وقع أقدام حذرة وطقطقة الدرجات الخشبية، وأنفاساً وهمسات في الردهة، فيقشعرّ بدني وأشعر ببرودة تدبّ في أوصالي.

هيا كفاك كتابة، يا طائر النمنمة! أخلدي إلى النوم. لا تخشي شيئاً من هذه الأصوات المتهامسة في منتصف الليل! لن يكون أذاها أشد من أذى "الزهرة الذهبية"

الزينبّون ٢٠ تشرين الثاني

هذا الصباح، أحصيت عدد الأيام التي مضت منذ قدومي إلى الزينبّون: شهر واحد. بدا لي هذا الشهر أطول من عشرة أعوام. لم أكن أشعر برغبة بالكتابة، بل في الحقيقة، كنت خائفة من تدوين الأحداث التي وقعت لي.

مررت في الأيام الأولى بحالة من اليأس والقنوط الشديد. لكنني الآن بدأت أتقبل الأمر الواقع، وأعتاد عليه. لا أنسى ما كانت تردّده الراهبة أليكسي دائماً: "يا بناتي! التحلّي بالصبر، خير علاج للمستعصي من الأمور وما قُدّر للمرء من محن. إذا واجهنا الصعاب بوجه ضحوك ودون شكوى، تغمرنا رحمة سماوية تزيل شعورنا بالألم".

كانت طائر النمنمة تستمع بابتسام لهذه النصيحة. الآن، بدأت بالاقتناع بها دون سخرية. كنت أشعر بالاختناق في أيامي الأولى في الزينبّون وأقول: "لا جدوى من المكابرة! لن أستطيع الاحتمال أكثر". ثم وجدت في نصيحة الراهبة أليكسي الروحانية بلسماً لجراحي. أضحك وأغني وأدندن كي أخدع قلبي ببهجة كاذبة، فيستعيد حيويته ويرتعش كزهرة عطشى صُبّ ماء عليها.

ثم بدأت بالبحث عن السلوى في ما يحيط بي من أشياء. أحنو على ورقة نضرة التقطتها من على الشجرة، أضمّ قطة صغيرة واهنة إلى

صدري، وأدفئها بأنفاسي. أحدّث نفسي على الدوام: "فريدة! كفّي عن الجبن والتراجع. عليكِ التحلّي بالصبر وقوة الإرادة. يجب أن تعلمي أن لا عيش لك إلا بمواجهة قدرك بوجه ضحوك والكفّ عن التذمّر والشكوى".

قد تكون هذه البهجة الكاذبة سريعة الزوال، لكنها تبقى الأمل بالنجاة، كبصيص نور في سرداب عميق، أو زهرة رغم هزالتها، تأمل بالنمو بعناد، بين حجارة جدار متهدّم.

اليوم هو الجمعة، عطلة مدرسية. انقطع المطر بعد هطول متواصل منذ أيام. الخريف يحتفل بأعياده الأخيرة. السلاسل الجبلية البعيدة وتجمعات المياه العشبية، تضحك ابتهاجاً برؤية الشمس... حتى شجرات السرو وحجارة القبور بدت مبتهجة وخلعت عنها كآبتها السوداء. تنفّستُ بعمق، وشعرت بألفة بدأت تتسلل إلى نفسي مع كل ما يحيط بي!

باشرت إعطاء الدروس صباح اليوم التالي لوصولي. سيظل هذا اليوم، حياً في ذاكرتي، ولن يمحه مرور الزمن.

ذلك الصباح، شاهدت بكل وضوح، غرفة الدرس التي أصلحها مدير المعارف بجهد وتفانٍ عظيمين! على أية حال، يبدو أنها كانت إسطبلاً، قبل أن تُغطى أرضيّتها بالخشب، وتحوّلت منافذ تهويتها إلى نوافذ زجاجية. كما غُطّيت جدرانها السوداء الحالكة كمدخنة، بخريطة جغرافية ولوحة لهيكل عظمي، ورسومات لمزرعة وثعبان. يبدو أنها بمثابة إحدى وسائل التعليم الحديث!

مِعلفٌ للحيوانات من بقايا الإسطبل، ظل قائماً أسفل الجدار المواجه للحديقة، لكن أضيف له غطاء خشبي ليُستخدم كصندوق كبير، يضع الأطفال فيه، أطعمتهم وكتبهم وأشياءهم الأخرى، وكما ذكرت السيدة خديجة، فهناك وظيفة أخرى لهذا الصندوق، ألا وهي حبس الطلبة المشاغبين الذين لا يرتدعون بالضرب، حتى أن وهبي الابن الصغير للمختار، قد أمضى معظم أيام دراسته داخل هذا الصندوق. الصبي هذا، كلما تشاقى يدخل من تلقاء نفسه في الصندوق، يستلقي على ظهره ويغلق بابه بنفسه.

سألت بدهشة:

-ألا يعترض المختار على هذا العقاب؟

هزّت السيدة خديجة رأسها بالنفي:

-بل هو راضي أشد الرضا، ويقول: "أحسنت صنعاً، يا سيدة خديجة. كيف خطر هذا الأمر ببالك؟ في بيتنا خزانة شبيهة بتلك. إن شاء الله، سأحبسه داخلها إن أساء التصرف.

-أصول تربية جميل! هل يوجد في المدرسة صبي غيره؟

-أجل، اثنان أو ثلاثة. نرسل الكبار منهم إلى مدرسة الذكور في قرية "غريبلر".

-أين تقع قرية غريبلر؟

-خلف تلك الجبال السوداء.

-ألا يشكل ذلك مشقة على الأطفال، كيف يذهبون إلى هناك ويعودون في المساء، تحت المطر والثلج؟

-معتادون على السير في تلك الطرقات. لا يحتاج معهم الطريق أكثر من ساعة، في الأجواء العادية. لكنهم يواجهون بعض الصعوبة في الأجواء الماطرة والموحلة والثلجية.

-حسناً، لِمَ لا تعلمونهم هنا؟

-أيجتمع الرجل والمرأة في المكان نفسه؟

-وهل نعدّهم من الرجال؟

-بالتأكيد، يا ابنتي، شباب في الثاني عشر والثالثة عشر من عمرهم.

صمتت السيدة خديجة هنيهة، وترددت بقول شيء ما، ثم تشجعت وقالت:

-كما أنه أصبح بوجودك، غير جائز شرعاً أبداً!

-لماذا؟

-لأنك معلمة فتية جداً، يا ابنتي.

يقال عندنا، في استانبول: "المرأة الشريفة تهرب من الديك". لابد أن السيدة خديجة من هذا النوع. أدركت بعبثية نقاش هذا الأمر معها، فقلّبت ناظري بأرجاء الغرفة.

خمسة مقاعد دراسة من الخشب غير المصقول، يصعب تحريكها من ضخامتها، رُكنت في إحدى زوايا الغرفة، كأنها نافلة لا لزوم لها.

-لِمَ وضعتها جانباً، يا سيدة خديجة؟ قلت.

-هذا ليس قراري، بل قرار المعلمة السابقة، يا ابنتي. اعتاد الأطفال الجلوس على الأرض. يصعب عليهم فهم دروسهم جلوساً على شيء مرتفع كالمئذنة. خشيت من مساءلة مديرية المعارف لها، إن تصرّفت بها. يجلس الأطفال على المقاعد عند دخولهم الصف، ثم ينتقلون للجلوس

على الحصير لمتابعة الدروس. للأطفال الأغنياء مراتب خاصة بهم.

طلبت من المرأة العجوز مساعدتي برفع الحصير، وبعد تنظيف أرض الصف، رتّبت المقاعد في وسط الغرفة، لتأخذ الوضع السليم لصف مدرسي.

بدا عدم الرضا على وجه السيدة خديجة، لكنها فعلت ما طلبت منها دون اعتراض. وبينما كنت أسعى لإظهار الغرفة بما يليق بصف مدرسي، ويداي مغبرّتان، بدأت طالباتي بالقدوم الواحدة تلو الأخرى.

يا إلهي! كم كانت قيافتهن رثة ومزرية! عصبن رؤوسهن بأغطية بشرابات، يقرقعن بنعالهن بأقدام عارية بلا جوارب، ويخلعنها عند باب الصف، ثم يدخلن.

فوجئت الطفلات برؤيتي، فوقفن بالباب بخجل. غطت بعضهن وجوههن حين طلبت منهن الدخول، واختبأت أخريات خلف الباب، واضطررت للإمساك بمعاصم بعضهن كي أدخلهن إلى الصف.

كنّا يتقدمن نحوي وقد أغمضن أعينهن، يقبلن يدي بطريقة مضحكة، فأضبط نفسي بصعوبة كي لا أضحك.

كل واحدة من هذه القبل تعزف لحناً مضحكاً، وتترك بللاً خفيفاً على يدي. رحت أوزّع عليهن الكلمات الرقيقة كي أكسب ودّهن، وأسألهن عن أحوالهن، لكنني كنت أواجه بصمت عنيد، ورفض للإجابة على أسئلتي، حتى أسمائهن، كن يفصحن عنها بعد لأيٍ بكثير من الخجل والدلال:

"زهراء، عائشة، زهراء، عائشة، زهراء، عائشة."

يا إلهي! ألا توجد أسماء أخرى غير عائشة وزهراء كي يطلقنها على فتيات هذه القرية! رغم أني لم أكن في أحسن أحوالي، لكن خطرت ببالي أمور مضحكة: كأن أجيب المفتش حين يسألني عن طالباتي "في صفي تسع عائشات وإحدى عشرة زهراء!". أو ربما يكون من الأسهل كي أميز بين البنات أن أجلس العائشات في جهة، وأجلس الزهراوات في الطرف الآخر من الصف. وحين ألاعبهن الكرة في الحديقة، أوزعهن إلى فريقين، فريق العائشات وفريق الزهراوات.

أحب الدعابة، كعادتي دائماً. بدأت بسؤال الفتيات القادمات حديثاً: "ابنتي، هل أنت زهراء أم عائشة؟"، وكنت أحصل على الجواب المتوقع.

فتاة صغيرة بوجه مستدير ومكتنز، كانت أكثر جرأة من قريناتها. رفعت عينيها السوداوين، وسألتني بدهشة: "كيف تعرفين اسمي؟".

أجلست طالباتي على المقاعد الواحدة تلو الأخرى، وحدّدت لهن أماكنهن. كنَّ في حال مضحكة. لم ينجحن في الجلوس على المقاعد على نحو سوي، كأنهن جالسات على غصن شجرة، أو على حافة جدار.

ما إن أبتعد عنهن، حتى يسحبن أرجلهن القذرة ويضعنها تحتهن، كسلحفاة تنكمش داخل دَرَقَتها. ما العمل؟ سيعتدن مع الوقت.

لكن أغرب ما في تلك الفتيات شديدات الخجل واللاتي يغمضن أعينهن حين يقبلن يدي، ولا يتكلمن بتاتاً كالعرائس القرويات الدلوعات، ما إن يفتحن كتبهن حتى يشرعن بالقراءة بصياح وزعيق يصمّ الآذان. شعرت بدوار في رأسي.

سألتُ خديجة:

-هل يرددّن دروسهن بالزعيق دائماً؟ هذا لا يُحتمل؟

نظرت إلى وجهي بحيرة وأجابت:

-بالتأكيد يا ابنتي! هذه مدرسة. هل تقطع البلطة الشجرة من دون صوت؟ كلما رفعن أصواتهن أكثر كلما رسخ الدرس في ذهنهن بعمق أشدّ.

امتلأ الصف بالأطفال، وأصبح الضجيج لا يُحتمل. طرقت بيدي طاولة المعلمة، قطعة الأثاث الجديدة والجميلة الوحيدة في المدرسة. أردت لفت انتباه الطالبات بالتزام الصمت أثناء الدراسة. لكن، لم يتساءل أحد عن سبب طرقي للطاولة فحسب، بل لم يرفع أحد رأسه عن كتابه أيضاً. بدا لي كأن صوت الضجيج ازداد ارتفاعاً، وكأن الصف قد تحول إلى عش دبابير رُجم بالحجارة.

"أعوذ بالله، أبجد، هوّز، حطّي، جيم فوقها فتحة جا، جيم تحتها كسرة جي."

يبدو أني سأُعاني كثيراً حتى أرشد الأطفال إلى الطريق القويم. لكن كنت واثقة من نجاحي في نهاية الأمر.

قلت للسيدة خديجة:

-تولّي التدريس اليوم، على طريقتك المعتادة، يا سيدة خديجة. لن أباشر التدريس قبل أن تلتزم الطالبات بقواعد الصف المدرسي.

نظرت المرأة العجوز بعين ملؤها الخوف والريبة، وقالت:

-ندرّس حسب ما تعلمناه من المعلمات السابقات، يا ابنتي. لم نذهب إلى المدارس، ولم نتعلم ما تعلمتينه.

أدركت لاحقاً ما كانت خديجة تريد إيصاله لي. لقد ظنّت المسكينة أني في صدد امتحان قدراتها. كانت تخشى أن تفقد راتبها الشهري ذا المائتين وخمسين قرشاً...

رغم أن الجو كان دافئاً، إلا أن بعض البنات قد غطين رؤوسهن حتى أخمص أقدامهن. سألت خديجة عن سبب ذلك.

أجابت باستغراب كعادتها عند كل سؤال لي:

-كم أنت غشيمة، يا ابنتي! إنهن فتيات في سن الزواج. ينبغي أن لا يخرجن إلى الشارع حاسرات الرأس والذراعين.

يا إلهي! كيف تُعامل طفلات شاحبات اللون كالديدان ما بين العاشرة إلى الثانية عشر من أعمارهن، كأنهن فتيات بالغات! يبدو أن حظي العاثر قد أوصلني إلى هذا المكان غريب الأطوار.

رغم ذلك، فقد شعرت بالسرور. من يعامل تلك الطفلات كمشروع عرائس، لابد أن أبدو في نظره عجوز عانس، ولن يتعامل معي كفتاة صغيرة.

جاء الصبيان متأخرين إلى المدرسة. يؤدون أعمال البيت كالرجال، يجلبون الماء من البئر، ويحلبون البقر، ويجلبون الحطب من الجبل.

طلبت خديجة من الصبيان الانتظار في الخارج، ثم قالت بخجل:

-يبدو أنكِ نسيتِ غطاء رأسك.

-ما حاجتي إليه الآن؟

-يوجد، من وجهة نظري، وإن كنت لا أتدخّل في شؤونك. لكن، أليس القيام بالتدريس برأس سافر، من المعاصي؟

خجلت من قول "لا أعلم"، وقلت كذباً: "نسيته في الغرفة".

-حسناً يا ابنتي، سأحضر لك شالاً نظيفاً، قالت خديجة.

ذهبت إلى غرفتها وأحضرت شالاً يمانياً أخضر من خزانتها التي أصدرت صريراً حين فتحتها وحين أغلقتها.

لا جدوى من نقاش بعض الأمور، ولابد من قبولها على علّاتها! ألقيت الشال اليماني على شعري، وعقدته أسفل ذقني كقارئات الفأل الغجريات في شوارع استانبول.

انطلقت دون أن يلاحظ أحد، ووقفت أمام إحدى نوافذ الصف، ورحت أتأمل نفسي في زجاجها كأنه مرآة باهتة. كنت قد صممت زياً خاصاً بي كمعلمة، يختلف عن لباس النسوة الأخريات.

تصميمي كان بسيطاً جداً. فستان من الساتان الأسود اللماع حتى ركبتيّ، وحزام عريض حول وسطي، وجيبان صغيران تحت الخصر، للمناديل ودفتر الملاحظات. الياقة عريضة من الكتان الأبيض لكسر اللون الأسود للفستان. لا أحب الشعر الطويل، لكن منذ أن أصبحت معلمة، لم أجد متسعاً من الوقت لقصّه. رغم ذلك، ورغم مضي أكثر من شهر، لا يزال شعري لم يطل ليلامس كتفيّ.

ارتديت ذلك الفستان حين باشرت الدرس الأول. مشطت شعري وغطّيته بالشال الأخضر كي لا يسقط على جبيني. بدا منظري مضحكاً، وقد حاولت كبت ضحكي بزمّ شفتيّ.

سأقدّم طلابي الصبيان الذين من أجلهم غطيت شعري بشال خديجة الأخضر:

الصبي الأول، وهبي الصغير، يمضي الوقت معاقباً في الصندوق كالفأر. في الحقيقة، هو مفعم بالحيوية كالزُغبة. عيناه السوداوان لامعتان كالخرز، ووجهه الماكر الصغير، وذقنه المدببة: أكثر أطفال المدرسة شقاوة...

جعفر آغا: كروي كالخذروف، أسود أفحم، عيناه فاتحا اللون، أسنانه لامعة، وشفتاه حمراء قانية. يكتفي داخل الصف، بعدم الرد على من يدعوه جعفر دون لقبه آغا، لكنه يرميه بالحجارة حين الخروج إلى الشارع.

عاشور: في العاشرة من عمره، أعجف كالهيكل العظمي، وجهه مجدّر وقذر، وأسنانه صغيرة.

أخيراً، الشخصية الأكثر أهمية في الصف: حافظ نوري، في العاشرة من عمره، لكن وجهه مغضن كعجوز في السبعين من عمره. له عنق طويل كغصن شجرة، ومكشوف بسبب خرّاج أسفل فكه، شفي حديثاً. عيناه جاحظتان بلا أهداب، ويضع عصبة على رأسه الشبيه بالبيضة. خلاصة القول، هو مخلوق عجيب كأنه قادم من كوكب آخر.

ذلك الصباح، جلست خديجة إلى جانبها عصاتها الطويلة المقطوعة حديثاً من أشجار المقبرة، وشرعت بدعوة الأطفال الواحد تلو الآخر، ليتلو أمامها ما يحفظه عن ظهر قلب. في الوقت نفسه، يعمّ الصخب والفوضى بين جموع الأطفال الآخرين المنتظرين دورهم.

كانت الراهبة أليكسي، حين نزعجها بصخبنا، تشبك أصابعها الصفراء كالشمع بعضها ببعض، وترفع عينيها الزرقاوين إلى السماء

بطهارة صورة مريم وتقول: "أعطني أمنا، الخلاص من العذاب الامتحان!".

لابد أن اللاتي سببن لكِ العذاب بشقاوتهن في المدرسة وعلى رأسهن طائر النمنمة، قد بدأن يعانين عذاب الصخب المسبب للدوار. يذقن العذاب نفسه. بذلت جهداً مضياً مدة أسبوعين حتى استطعت تعليم الأطفال الدراسة بصمت، والإصغاء لي أثناء إلقاء الدرس.

لقد عانيت في الأيام الأولى، ولم يستجب الأطفال لتعليماتي سريعاً، فقد كان صوتي يبدو ناعماً جداً، بالقياس إلى صوت عصا خديجة التي تصفر كالثعبان حين تلوح بها في الصف، إذ حين يطفح معي الكيل، كنت أنادي خديجة كي تساعدني، فتدخل غرفة الصف كساحرة الحكايات التي تطير في الهواء على مكنستها.

على أية حال، لم يضع جهدي سدى. لقد أفلحت في نهاية الأمر، بإخماد الصخب شيئاً فشيئاً. أصبح الصف أكثر هدوءاً الآن. وبدأ الأطفال بالانصياع لتعليماتي شيئاً فشيئاً. حتى خديجة، التي كانت مقتنعة بالصياح كوسيلة للحفظ، أصبحت تقول لي من حين لآخر: "وفقك الله يا ابنتي، الوضع أكثر راحة الآن". لم يكن هذا مرامي فحسب، بل كنت أسعى لأضفي عليهم حيوية وبهجة، وإن كان ذلك يبدو صعباً.

كآبة سوداء تخيم على الأطفال مثل كآبة بيوت هذه القرية وأزقتها ومقابرها. شفاههم الشاحبة لا تعرف الضحك، عيونهم الشاردة لا تفكر إلا بالموت. حتى أنا، بدأت أفكر مثلهم. في الماضي، كنت أرى الموت على نحو مختلف، أن يعيش المرء حياته، حتى تنفذ قواه بعد خمسين إلى ستين سنة من المرح والركض. حينذاك، يشعر بالحاجة إلى الاسترخاء والنوم.

يتمدد على سرير نظيف ناصع البياض، ثم تغيب ضحكته ويغادر الحياة. كان ذكر الموت أمامي، يوقظ خيالاً بهيجاً في مخيلتي، كعصافير أتت لترتوي من أجران ماء مرمرية بيضاء تلمع تحت أشعة الشمس، تشرب ثم تمضي في سبيلها مبتعدة. في حين، بدأت الآن أتذوق طعمه المر وأتنشّقه في رائحة الصبّار والسرو المحيط بي!

كان لخديجة دوراً كبيراً في هذه الكآبة والبلادة التي تخيّم على الأطفال. لقد تعلمت هذه المسكينة أن وظيفة المعلمة إطفاء أمل الحياة في القلوب. بمناسبة وبغير مناسبة، كانت تضع الصغار وجهاً لوجه مع الموت. تظن أن لوحات العلوم الطبيعية المعلقة على الحائط، أرسلت إلى المدرسة لهذه الغاية فقط:

"هذه الدنيا فانية، لا تدوم لأحد!

اغربي يا دنيا اغربي، هذا زمان الآخرة!"

بعد أن تلقّن الصغار هذه الأدعية المرعبة، تستشهد بلوحة الهيكل العظمي وتقول: "عندما نموت غداً ستتحلل جثثنا، ولا يبقى سوى عظامنا مثل هذه الصورة!" ثم تنتقل إلى شرح ذهول الموت وعذاب القبر.

اللوحات الأخرى بالنسبة للمرأة العجوز، تعبّر عن الغاية نفسها. مثلاً: حين تشرح عن لوحة المزرعة تقول: "الله خلق هذه الخراف ليأكلها عبادي ويعبدوني. عندما تستقر الخراف في بطوننا التي لا تعرف الشبع، هل نؤدي كامل ديننا لله؟ وعند دخولنا التراب غداً، ماذا سنجيب؟ هكذا تتحدث عن الموت وعذاب القبر أمام الأطفال، بلا توقف.

أما لوحة الثعبان، فخديجة ذكرت للأطفال أن هذا الثعبان ليس سوى "شاهمران"، وهو مخلوق رأسه رأس إنسان وجسده جسد ثعبان، يُشفي المرضى الذين يتوسلون إليه بالأدعية طلباً للشفاء من أدوائهم.

كم كنت أحاول إدخال البهجة إلى قلوب هؤلاء الأطفال البؤساء، وأضحكهم. لكن جهدي كان يذهب أدراج الرياح.

وضعتُ برنامجاً يومياً: استراحة مدتها نصف ساعة، بعد كل ساعة درس. أحاول خلالها تعليمهم ألعاباً مسلية وجماعية حماسية. لكن حين لا يُبدون أي استمتاع أو تفاعل مع تلك الألعاب، أتركهم لحالهم المتعذر علاجه، وأتخذ موقعاً منزوياً بعد يأس.

أكثر تسلية للفتيات، أن يتجمعن في إحدى زوايا الحديقة، بوجوههن الشاحبة وعيونهن الزائغة التي تفتقد حيوية الصغار، ويردّدن أدعية وأناشيد مرعبة تتحدث عن الموت، والنعش، وزبانية القبر! تشبهاً بكبار السن من أهالي القرية.

لا أزال أذكر لهوهن بتشييع الجنازة، وولولة وترديد هذه الكلمات التي تقشعر لها الأبدان، بصوت واحد ومرتعش:

"يخطفونك حرامية قطاع طرق،
يرمونك في قبر يباب،
لن تنجُ من الأجل المحتوم."

لعبة الجنازة هذه، هي أكثر الألعاب المحببة إلى الجميع، في استراحة الغداء الطويلة. يلعبونها كمسرحية، ويقوم حافظ نوري وجعفر آغا بأدوارها الرئيسية.

يلعب جعفر آغا دور مريض على وشك الموت. تحيط البنات به ويشرعن بقراءة آيات من القرآن الكريم. تقطر إحداهن ماءً في فمه تشبهاً بماء زمزم. لكن الصبي يظهر بياض عينيه كأنه أسلم الروح. حينذاك، تشرع البنات بالولولة والعويل. يربطن فكه، ثم يحملنه على نعش صُنع من خشب باب مكسور مغطى بقماش أخضر.

أما حافظ نوري، فيقرأ الأذان بصوت حاد كنذير شؤم تقشعر له الأبدان، ويدعو لإقامة صلاة الجنازة. ثم يشرع بتلقين الميت قائلاً: "يا جعفر يا ابن زهراء...". كنت أرى كل ذلك كابوساً أثناء نومي.

حتى هواء هذه البلدة كان يعبق برائحة الموت والأوهام والخوف!

في إحدى الليالي، سمعت عواء بنات آوى على الجبال القريبة. بدأ صوت عوائهن يتعالى، حتى ظننت أنهن يقتربن منا شيئاً فشيئاً. شعرت بخوف شديد، ورعدة في مفاصلي. تركت فراشي وهرولت مسرعة إلى غرفة خديجة. لكن ما إن فتحت باب غرفتها الشبيه بالقبو العفن برائحته، حتى شاهدت منظراً أشد رعباً من عواء بنات آوى البعيد. شاهدت المرأة العجوز متسربلة بلباس أبيض كشبح، تجلس على سجادة صلاة تهتزّ ذات اليمين وذات اليسار، وتتمتم بكلام غير مفهوم، وتبدو كأنها غائبة عن الوعي.

بدأت بالاعتياد على هذه القرية وتستهويني فيها ثلاثة أمور:

أولها، عين الماء أسفل نافذة غرفتي بخرير جريانها الدائم.

ثانيها، وهبي الصغير، الصبي الذي أمضى أيامه في الصندوق معاقباً خلال عهد سلطنة خديجة. لقد أحببت هذا الصبي الشقي، لصفاته المختلفة عن أقرانه، وكلامه الظريف وعفويته، وطريقة لفظه لحرف الكاف...

سلوك وهبي ودي وظريف، لكنه يستخف بي، ولا يبالي حتى حين أوبّخه أو أشد أذنه الرقيقة بلطف.

ذات يوم، حين كنا في الحديقة، كان وهبي يحدق بعينيه الصغيرتين البراقتين متأملاً:

-لِمَ تنظر إلي هكذا، يا وهبي؟ قلت.

أجَاب دون تردد أو خجل:

-أنت فتاة جميلة جداً. سأزوجك من أخي الكبير. تصبحين عروستنا. سيحضر أخي الكبير لك بوابيج وجلابيب وربطات شعر.

قطّبت حاجبيّ للتعبير عن فرط تماديه وقباحة ما قاله:

-كيف تقول هذا الكلام لمعلمتك؟ لو سمع أبوك كلامك هذا للطمك على فمك، قلت.

أجاب الصبي كأنه يرثي سذاجتي:

-لا أتملّقك، ما كنت أقول ذلك لفتاة سواك.

يا إلهي! يا لنضوج هذا الصبي القروي بطول الإصبع!

تابع الكلام باللامبالاة نفسها:

-سأدعوك زوجة أخي الاستانبولية، أقطف لك الكستناء، وسيزين أخي الكبير عنقك بالذهب.

-أليس لك زوجة أخ؟

-أجل، لكنها سوداء، سنعطيها للراعي حسن.

-ما عمل أخيك؟

-دَرَكي.

-ما عمله في الدرك؟

-يقتل قطاع الطرق.

لوهبي سلوك يعجبني أيضاً، خيلائه وعناده. جريء ومتحدي كرجل كبير. حين أواجهه بخطأ في دروسه، يغضب ويرفض تصويب خطأه. وإذا ما أُصرّ عليه للتصويب، يثور ويتمرد. ينظر إليّ باستخفاف ويقول:

-أنت امرأة، عقلك لا يستوعب كل الأمور.

أما ثالثة الثلاثة، فهي فتاة صغيرة يتيمة الأم. أذكر أنها قدمت في اليوم الخامس من مباشرتي التدريس. كانت تجلس على المقعد الأخير في الصف، حين رأيتها أول مرة، شعرت نحوها بمودة وحنان. طفلة بمحيا جميل ملائكي، شعرها أشقر، وبشرتها بيضاء نضرة، وثغرها المبتسم يكشف عن أسنان كحبات اللؤلؤ.

متى جاءت هذه الطفلة؟ ومن هي؟

أشرت بيدي:

-تعالي إليّ، قلت.

وثبت من مكانها بخفة عصفور. مشت نحوي حجلاً، كما كنت أفعل في أيام المدرسة.

بدت الصغيرة فقيرة جداً. قدماها عاريتان، وشعرها متناثر. ترتدي جلباباً مورّداً من القطن بهت لونه، ومَزِقاً يكشف عن بدنها الأبيض البض.

أمسكت يديها الصغيرتين:

-انظري إلى وجهي يا صغيرة، قلت.

حين رفعت رأسها بحياء، لمعت عيناها الزرقاوان بين أهدابها الطويلة.

لم يبكني ما عانيته من صعاب في الزينبّون. لكن، حين رأيت حال هذه الطفلة نصف العارية، وأسنانها الضاحكة داخل ثغرها الأحمر كحبات اللؤلؤ، لو ما تمالكت نفسي، لأجهشت بالبكاء.

داعبت ذقنها بلطف، ووجهت لها السؤال نفسه الذي أسأله لكل الفتيات:

-هل اسمك زهراء أم عائشة، يا صغيرة؟

أجابت بلهجة استانبولية خالصة وصوت ناعم جداً:

-اسمي مؤنسة، يا معلمتي.

-هل تقرئين في هذه المدرسة؟

-نعم، يا معلمتي.

-لكنني لم أركِ في الصف قبل هذا اليوم؟

-لم تدعني أختي الكبيرة، يا معلمتي. كانت لدينا أشغال. سآتي من الآن فصاعدا.

-ألا أم لك؟

-لي أخت كبيرة .

-وماذا عن أمك؟

خفضت الفتاة الصغيرة عينيها إلى الأرض ولم تجب. شعرت كأني نكأت جرحاً دفيناً في قلب الصغيرة دون قصد، فأسرعت بتغيير دفة الحديث بسؤالها:

-هل أنت من كنت تغنين ليلة أمس، يا مؤنسة؟

ليلة أمس الأول، سمعت صوتاً رقيقاً لطفلة تغني في إحدى الحدائق المجاورة. كان غناؤها شجياً ومختلفاً عما أسمعه من أصوات في هذه القرية، حتى أني أسندت رأسي على النافذة وأغمضت عيني، وشعرت كأني في مكان بعيد، في بلد الخيانة التي لا أحب أن أتذكرها.

لم تكن تلك المغنية سوى هذه الطفلة الصغيرة.

هزت مؤنسة رأسها بخجل وقالت:

-كنت أنا، يا معلمتي.

طلبت من الطفلة العودة إلى مكانها، وبدأت الدرس. شعور غريب كان يغمرني. لقد أثّرت هذه الطفلة الصغيرة بي كشمس ربيع ندي، سقطت أشعتها على عش عصافير دُفن تحت الثلج. بدأ طائر النمنمة باستعادة حيويته القديمة شيئاً فشيئاً، بعد أن كان يدفن رأسه تحت جناحه المرتعش من الخوف ومن برودة عشه الكئيب. رحت أتحرك بمرح، وعاد

إلى صوتي تناغمه وإيقاعه الشجي القديم.

ظلت عيناي تتابعها دون إرادتي، أثناء الدرس، وهي تتابعني بنظراتها، وابتسامة عذبة تكشف عن أسنانها اللؤلؤية. شعرت أول مرة، بمحبة الأمومة وكأن شفتي تلامس عينيها الزرقاوين.

ألا ليت كان لي ابنة صغيرة مثلها، تؤنّسني في وحدتي! لكن يا للحسرة! يبدو أن لا قسمة لي في ذلك.

لم أحصل من خديجة على سوى القليل من المعلومات عن مؤنسة. المرأة التي تدعوها بأختها الكبيرة هي زوجة أبيها. كان والدها العجوز موظفاً في الأحراج. يقيم في هذه القرية بعد زواجه الثاني من إحدى نساء هذه القرية. لا دخل لهم سوى الخمسة عشر قرشاً راتبه التقاعدي.

قلت لخديجة:

-لكنها تقول إن حالتهم ليست سيئة جداً. لِمَ لا يعتنون بهذه الصغيرة؟

قطبت المرأة العجوز حاجبيها:

-لتشكر الله على هذا القدر من الرعاية. امرأة غيرها لكانت ألقت بها إلى الشارع.

-لماذا؟

-أم هذه البنت امرأة سيئة، يا ابنتي. ربما قبل خمس سنوات أو أكثر، لا أذكر جيداً. هربت أمها مع ضابط من الدرك. كانت هذه الطفلة المسكينة صغيرة جداً. بعد فترة، هجرها الضابط وذهب إلى بلدة أخرى. بعد أن انتشرت الشائعات حول المرأة، ساقها شباب القرية إلى الجبل، وتركوها هناك. ثم اختفت بعد ذلك.

-كل شيء ممكن الحدوث، يا سيدة خديجة، لكن ما ذنب هذه الطفلة؟

هزّت المرأة العجوز رأسها وقالت بتزمّت ديني:

-ماذا عليهم فعله أكثر من ذلك؟ لا قدرة لهم على إلباس الديباج لابنة امرأة مثلها.

كانت مؤنسة تتغيب عن المدرسة من حين إلى آخر، وحين أسألها عن سبب غيابها، تجيبني بمبررات مثل:

-طلبت أختي الكبيرة مني أن أغسل الملابس، طلبت أختي الكبيرة مني أن أنظف البيت، جمعت حطباً من الجبل لأختي الكبيرة...

كانت زميلات هذه الصغيرة لا يعاملنها بالحسنى. يبتعدن عنها ولا يحدثنها، ويحاولن الإساءة إليها وإيذاءها كلما سنحت لهن الفرصة. ربما يقع عليّ بعضاً من وزرهن. لقد دفعتهن للغيرة منها لمعاملتي الخاصة لها. لم أتحاشَ إظهار محبتي لها، أداعبها وأجالسها في الحديقة.

ذات يوم، سمعت مؤنسة تبكي في حديقة المدرسة، وتقول متوسلة "ماذا فعلت لكنّ، توقفن!". نظرت من النافذة خلسة، فرأيت البنات يملأن أفواههن بالماء ويرشقنها. كانت تبكي وتغطي وجهها وعنقها العاري بيديها، وتحاول الهرب والاختباء منهن، وقد أصابها الهلع.

بدت البنات بنظراتهن القاسية، ككلاب صيد تطارد غزالاً جريحاً. يلاحقنها ويهاجمنها بضراوة، يحمْن حولها ويطلقْن صيحات وحشية كغربان الجيف. يحشرن الطفلة الصغيرة في زاوية تارة، ويوقعنها على الأرض تارة أخرى، وقد امتلأت أفواههن بالماء يرشقن صدرها المكشوف من جلبابها الممزق.

فقدت صوابي، وهرعت راكضة من الغرفة كالمجنونة. وبينما كنت أنزل السلم على عجل، انكسرت إحدى درجاته وانحشرت قدمي. حين وصلت إلى الحديقة، كانت كفّة المعركة قد رجحت لغير صالح البنات. لقد تدخّل وهبي الصغير لإنقاذ مؤنسة. كان صغيراً مثلها، لكنه صلب ومقدام.

لن أنسى شجاعة ومروءة هذا الصبي ذو التسع سنوات. لقد غاص في وحل إلى جانب المياه الجارية من النبع، وراح يخبّط كالإوزة ويمطر البنات المهاجمات لمؤنسة بوابل من مطر طيني. كما كان يطلق صيحات التهديد للبنات، وقد تغطى بالوحل من رأسه حتى أخمص قدميه:

-يا بنات الزناديق، دعن البنت. سأذبحكن جميعكن!

اضطرت البنات إلى الهرب أمام هذا الهجوم، تاركين مؤنسة بحالة نصف إغماء. ضممتها إلى صدري وأخذتها إلى غرفتي.

بينما كنت أضم هذه الصغيرة الجميلة إلى صدري، اغرورقت عيناي وتقطعت أنفاسي، ومشاعر حنان غريبة تدفقت كنبع في داخلي.

كأن هذه المشاعر بالسعادة الداخلية تنتابني من جديد، لكن، متى وأين، يا ترى؟

بينما أكتب ذلك الآن، شعرت بقلبي يتوقف عن الخفقان، ورحت أفكر محدقة إلى البعيد. متى وأين؟ يبدو أن ذلك ذكرى من حلم قديم. كنت أطير في فضاء المجهول، وأسبح في خضم من أوراق الشجر تداعب وجهي وشعري. أين يا ترى؟ كلا، يبدو أن ذلك ليس سوى حلماً، ولا أشعر به إلّا أول مرة.

ذلك اليوم، أهملت طلابي بعض الشيء، وركزت اهتمامي على مؤنسة. نظّفت شعرها الأشقر وجسمها الجميل كزنبقة عصفت بها الرياح.

كادت الطفلة المسكينة أن تختنق من بكاء استمر قرابة عشر دقائق. يا لوعتي، من هذه الدموع!

كانت حبات الدموع المنهمرة على وجه الطفلة الصغيرة، تتسرب إلى أعماق قلبي.

بدأت أكسب شعور الطفلة بالأمان نحوي شيئاً فشيئاً. وبينما كنت أعيد خياطة أحد جلابيبي القديمة بما يتناسب وحجمها، كانت تتقرب مني كقطة صغيرة، وتتابعني بنظرات عينيها الدامعة.

كانت مؤنسة تعيش حياة أكبر من سنها، مثل كل الأطفال الذين يتعرضون لمحن في سن صغيرة. بعض الأمور التي بدأت أعيها حديثاً، كانت مؤنسة قد عايشتها منذ وقت طويل. لقد حُمّلت مسؤولية رعاية أخوتها الصغار الثلاثة. ورغم كل ما تقوم به من عون لأختها الكبيرة، لا تنال رضاها، وتتعرض للضرب المبرح كل يوم.

قبل أسبوع، وقع أصغر أخوتها عن الأرجوحة، بينما كانت تحاول إخراج بقرة الجار إثر دخولها حديقة منزلهم، فقامت أختها الكبيرة بضربها ضرباً مبرحاً، ثم حبستها في الإسطبل، يومين، ولم تقدم لها من الطعام سوى بضع كسرات من الخبز الجاف.

أرتني مؤنسة آثار ما وقع عليها من عقاب جسدي من كدمات وبقع زرقاء تغطي بشرتها البيضاء العاجية.

لم أحتمل هذا المنظر، فقلت:

-ألا يشفق أبوك على حالك؟

ابتسمت، ثم حدقت في وجهي وقالت:

-أجل، يشفق على حالي، وأنا أيضاً، أشفق على حاله، لكن ليس في وسعنا فعل أي شيء...

شعرت بالألم يعتصر قلبي حين تنهّدت ورفعت كفيها الاثنتين بيأس. انهمكت بتزيين مؤنسة بفرح ومحبة كأني ألاعب دمية. حين أريتها زينتها في مرآة يد، احمر وجهها جذلاً. نظرت بشك كأنها تشاهد شخصاً غريباً بشعرها المضفور المزين بشريط وردي، وفستانها القصير الأزرق الداكن، وجواربها السوداء الطويلة.

وصل إلى مسامعي لاحقاً، أن زينة مؤنسة أصبحت محل قيل وقال، في قرية الزينيّون، لعدة أيام. سُرّ البعض من عطفي عليها، لكن أكثرهم لم يكونوا راضين رأى البعض أن ابنة الأم السيئة لا تستحق كل هذا العطف، ورأى البعض أن الزينة إثم، وقد تدفع الطفلة للسير على الطريق السيء لأمها.

لم تفرح الطفلة المسكينة طويلاً بأشرطتها الوردية وفستانها القصير الأزرق الداكن، وجواربها السوداء.

لا أحد يعلم بما فكرت به زوجة أبيها، حين خبأت هذه الملابس في الصندوق، إذ جاءت مؤنسة إلى المدرسة بعد يومين، بجلبابها الممزق نفسه.

ظلت مؤنسة تأتي إلى المدرسة لماماً. غداً، سأسأل وهبي الصغير عن أخبارها، إذ لم تأتِ إلى المدرسة منذ ثلاثة أيام.

الزينتون ٣٠ تشرين الثاني

بدأت أشعر نحو المدرسة بنوع من الألفة يوماً بعد يوم. بعد أن كانت غرفة الصف خراباً، أصبحت نظيفة ومحببة إلى النفس، بعد أن زينتها بأشرطة الزينة الملونة.

في الأيام الأولى، كانت موحشة ومنفرة، وكان الأطفال غير أليفين كالغرباء. يبدون الآن، ودودين وأكثر قرباً. هل أنا من اعتاد عليهم، أم هم تغيروا بفضل جهودي الدؤوبة؟ لا أدري على وجه الدقة، لكن، أظن أن للاثنين أثر في ذلك.

أعمل كثيراً. أكد صباحاً ومساء، لكنني أعمل من أجلي أكثر من أجلهم، كي لا أصاب بالإحباط من الشعور بالوحدة، وكي لا أبقى دون عمل. لا أيأس إذا ما واجهت عثرة. أفرح لسعاي بإحياء متعة العيش في نفوس هؤلاء الأطفال، وتخليص أرواحهم البريئة من النظرة السوداوية للحياة.

يأتي بعض جيراننا في القرية لزيارتي من حين لآخر. هم أيضاً، لا يميلون كثيراً للحديث والمسامرة، أما التندر والضحك فهذه أمور لا يعرفونها أبداً. ربما يخجلون مني قليلاً. في الأيام الأولى، على الرغم من ارتدائي ألبسة بسيطة، لكنني أدركت أنها غير مقبولة منهم. حتى زوجة المختار، لمّحت إلى ذلك أكثر من مرة.

كنت قدر المستطاع، أسايرهم وألاطفهم، وأقدم لهم خدمات عديدة مثل كتابة رسائلهم ومساعدتهم في خياطة ثيابهم. مع الوقت، بدأت أفكارهم حولي تتغير على نحو ودود.

أول أمس، زارتني زوجة المختار ثانية، وحملت لي سلاماً من زوجها. ما قاله المختار: "لم أحملها محمل الجد حين رأيتها أول مرة، لكن الحق يقال، هي سيدة محترمة، وتدير المدرسة بجد وهمة. أنا على استعداد لتقديم أية مساعدة تحتاجها."

من الطبيعي أن أشكره على هذه الالتفاتة.

قابلة القرية، من بين زوّاري الدائمين. تدعى نظيفة مولا. بما أن اسمها لا زهراء ولا عائشة، وثرثارة جداً أيضاً، لذا أظن أنها ليست من سكان القرية الأصليين.

لا أحاول طرح الكثير من تساؤلاتي على هذه المرأة، خشية وصمي بالفضولية الثرثارة، خاصة أنها تخبرني من تلقاء نفسها، بالعديد من التفاصيل المسلية والمثيرة حول أهل القرية. بدت لي أوسع إدراكاً ومعرفة من الآخرين، إذ ذات يوم، رغم أننا كنا وحدنا في الغرفة، همست في أذني، كأنها تخشى أن يسمعها أحد، وقالت كلاماً ينمّ عن التعاطف مع أم مؤنسة. في النهاية، هزّت رأسها بأسى، وقالت:

-الذنب، ذنب زوجها الزنديق. جازاه الله بذنبه! أرجوك يا ابنتي أن لا تقولي ما قلته لأحد. سيرجمونني بالحجارة.

للقابلة ابن يُدعى حافظ. هو من حفظة القرآن. ذهب إلى (ب) في شهر رمضان الماضي. وجد عملاً مربحاً جداً بالتنقل بين القرى كإمام وواعظ. ستزوج ابنها، هذه السنة، إن رزقه الله النصيب.

لا تكفّ المرأة عن كيل المديح لابنها، تغمز بعينها كأنها تعشّمني به، وربما أكون لائقة بشرف الزواج به، إذا ما راعيت قيوده وشروطه. رغم ذلك، فقد كنت أمضي وقتاً مسلياً بصحبتها.

زارتني القابلة ثانية، هذا الصباح. سألتني إن كنت أجيد قراءة المولد في مناسبة زواجٍ ستقام قريباً. يبدو أن أهل هذه القرية، يقرأون المولد في أفراحهم، بدلاً من العزف والغناء.

عضضت شفتي كي لا أضحك:

-أعرف، لكن صوتي ليس جميلاً، قلت.

أبدت القابلة أسفها من حالي. إحدى المعلمات السابقات، كان لها صوتاً جميلاً في قراءة المولد، وكسبت المال الوفير لقاء ذلك. لكن ذلك لم يكن هدفها الرئيسي من زيارتها. لقد جاءت تطلب مني جلباباً قديماً لترتديه عروس فقيرة الحال في حفل زفافها، أثناء جلوسها على منصة العرس، وأن الجارات قد زودنها بحاجات البيت من أواني الطبخ والفرشات. كما أني أعرف العروس، فهي إحدى طالباتي في المدرسة.

دُهشت من قولها إنها إحدى طالباتي:

-لا يوجد بين طالباتي بنت بعمر الزواج. أكبرهن في الثانية عشر من عمرها.

ضحكت نظيفة مولا:

-كم أنت غشيمة، يا ابنتي! أتعتبرين فتاة في الثانية عشر من عمرها، صغيرة؟ ظللت أُدعى بالبنت العانس، إلى أن جلست على منصة العرس، في الخامسة عشر من عمري. صحيح أن العادات القديمة قد تغيّرت، لكن هذه اليتيمة لا معيل لها. سنزوجها للراعي محمد. على الأقل يؤمن لها لقمة العيش.

-من هي هذه البنت؟

-زهراء.

لم أعرفها في الحال، ففي صفي سبع أو ثماني زهراوات. لكن حين عرّفتها القابلة، صُعقت من الدهشة.

زهراء التي ستتزوج من الراعي محمد، مخلوقة عجيبة، وتخيف المرء إن رآها في أحلامه. يمكن وصفها بالمجنونة. صلبة كغصن شجرة الحناء. شعرها أشعث، ووجهها بلا لون كالشمع مليء بالنمش، ولها عينان مخيفتان أسفل جبينها الضيق.

لقد أدركت أن هذه الطفلة مريضة، من أول نظرة. لا تتحدث مع أحد في الصف أبداً، لكن إن تحدثت أو قرأت درسها، ترفع عقيرتها فجأة، على نحو حاد ومخيف.

الأمر الأشد غرابة، فزهراء أكثر طلاب الصف نباهة في الحساب وأقدرهم على الحفظ.

تجلس زهراء في الحديقة بعيداً عن زميلاتها، كما في الصف، ولا تشاركهن بألعاب الجنازة والأدعية. لكنها تلعب وحدها لعبة خاصة بها، أشد غرابة من ألعاب بقية البنات. تقف في وسط الحديقة، وتصيخ السمع كأن أحداً يتحدث إليها، ثم تجحظ عيناها، وتشرع بالدوران حول نفسها، وتخرج أصواتاً غريبة كبقبقة الماء في إبريق الشاي. يتناثر شعرها في الهواء مع ازدياد سرعة دورانها، ويخرج زبد من فمها وهي تصيح بكلام غير مفهوم. لا أدري ما هذا النوع من اللعب، لكنني أرتعش وأرتعد كلما شاهدتها على هذه الحال.

بينما كانت القابلة تحدثني عن هذه البنت وكيف ستصبح عروساً قريباً، كنت أقول في داخلي: "يا للهول! ماذا سيحصل للمسكين الراعي محمد، إذا ما خطر ببال زهراء أن تلعب لعبتها هذه، ليلة عرسها؟"

بعد ذهاب القابلة، اخترت قطعة أخرى من ثيابي القديمة، وشرعت بإعادة خياطتها لتلائم زهراء كعروس. ينبغي مساعدة هذه البنت المسكينة لتبدو بمظهر جميل، كي لا يتركها الراعي محمد ويهرب من أول ليلة.

الزيتون ١ كانون الأول

أقيم حفل زفاف زهراء للنساء، في بيت المختار، ليلة أمس. وعُزفت الطبول والمزامير للراعي محمد في ساحة القرية، كما أقيمت ليلة حناء للعروس، وقُرئ المولد أيضاً.

الملابس التي أهديتها للعروس، بدت كملابس الإفرنج في نظر عجائز القرية. ووصل إلى مسامعي كلام مثل: "الآخرة غداً"، "منكر ونكير"، "أسياخ حامية". بالمقابل، أعجبت الشابات بتلك الملابس، وشعرت بعضهن بالغيرة من العروس.

عند المساء، أعدّت زوجة المختار مائدة طعام شهية، ودار الحديث حول هذا الكرم المفرط بأنه ليس للعروس، بل للتفاخر أمام المعلمة الاستانبولية. بالنتيجة، فقد أمضيت ليلة ممتعة.

قبل تسليم العروس للراعي محمد، أقيمت مراسم مضحكة لتقبيل اليد.

قبّل الشاب القروي الغر الأيادي مغمضاً عينيه. يد المعلمة من جملة الأيادي الواجب تقبيلها في القرية.

مشهد كوميدي حدث أثناء مراسيم تقبيل الأيادي، لن أنساه أبداً. تربّعت النساء بالدور على فراش خاص. زوجة المختار والقابلة على

رأس القائمة، ثم خمس أو ست نساء عجائز، وبما أني لا أجيد التربع مثلهن، فقد جلست على صندوق إلى جوار المدفأة.

بما أن الراعي محمد كان يقبّل الأيادي دون أن يرفع بصره عن الأرض، فلم يتمكن من رؤيتي. حينذاك، قالت القابلة من مكانها: "ابني محمد، قبّل يد المعلمة أيضاً!". تقدم الشاب نحوي بارتباك. مددت يدي، لكن الراعي ما كاد يلمس أصابعي حتى تركها من فوره، ثم نظر بغباء كأنه لم يصدّق أنها يدٌ كالأيادي المألوفة لديه. بدوري وكي أخفي ضحكي قلت: "قبّل يا ولدي".

بعد أن أمسك الشاب المسكين يدي ثانية، أفلتها ثانية ونظر إلى وجهي بخجل وارتباك. ازداد ذهولاً حين رآني في ضوء النار المستعرة في المدفأة، أضحك. لا أذكر رؤيتي لمظهر مضحك أكثر من مظهره ذاك.

بعد انتهاء مراسم تقبيل الأيادي، اصطحبن العريس إلى غرفة العروس. لقد تحولت زهراء إلى بنت جميلة بفضل ثيابها الإفرنجية، وتصفيفي لشعرها وتجميلي لها. لم أرَ وقع ما قمت به على الراعي، إذ حسب العادات هنا، يغطين رأس العروس بكيس من الساتان الأخضر، بدلاً من الخمار التولي.

الزينيّون ١٥ كانون الأول

هذا الصباح، حينما استيقظت، شعرت بحال غير مألوفة. تلفّت حولي، ثم أدركت أن خرير مياه النبع الجارية في الحديقة، قد توقف، بعد أن اعتدت عليه كتهويدة حزينة، في الليل.

نهضت من سريري كي أفتح النافذة. لكن المصاريع الخشبية قاومت بشدة، إلى أن دخل الثلج من فرجتها الضيقة.

لقد تغطّت الزينيّون بالثلج كلياً. يبدو أن هطول الثلج قد بدأ ليلاً.

أخبرتني خديجة أن الثلج هنا ما إن يبدأ بالهطول، لا يتوقف حتى شهر نيسان. منظر جميل جداً. ما كان أسود كئيباً في كل فصول هذه البلدة حتى أوراق أشجارها، أصبح الآن أبيض ناصعاً. يبدو أن شتاء هذه القرية هو ربيعها.

منظر الثلج، أجمل إلى نفسي من أزهار اللوز المتفتحة، واللعب على هذا الغطاء الأبيض الناعم يمتعني أية متعة، ويقدم طرقاً مختلفة للنيل من الذين نبغضهم. خصمي كان يخشى الثلج كثيراً، وكانت متعتي أن أغافله وأملأ ياقة كنزته بالثلج، فيرتعش من البرد وتحمرّ شفتيه.

الزينيّون ١٧ كانون الأول

هطول الثلج بازدياد شديد. الطرق انقطعت، وما عاد باستطاعة معظم الطلاب المجيء إلى المدرسة.

اليوم، كان أشد أيامي حزناً وألماً. حمل طلابي إليّ أخباراً سيئة. ليلة أمس، حاول والد مؤنسة ضربها بالعصا، فهربت خارج البيت من النافذة. لم يأبه أهلها بها، على أمل عودتها من تلقاء نفسها، لعدم قدرتها على الصمود طويلاً تحت هطول الثلج في ظلام الليل. لكن، مضت ساعات طوال دون عودة الطفلة إلى البيت. استنجد أهلها بالجيران، فخرج شباب القرية بأيديهم المشاعل، يبحثون عنها في أرجاء القرية. لكن محاولاتهم باءت بالفشل، ولم يتمكنوا من العثور عليها.

تألم الجميع حتى من كان لا يحب مؤنسة من زميلاتها، ورثين لحالها. استمر البحث عنها حتى مساء اليوم التالي، لكن دون جدوى، بينما واصل المختار ووهبي بنقل الأخبار لي أولاً بأول، لعلمهما بمحبتي لمؤنسة.

بدا وهبي اليوم، أكثر جدياً وقلقاً مثل رجل كبير. أراني كفّيه المزرقّة من شدة البرد جرّاء بحثه عن مؤنسة، قطّب حاجبيه وقال: "اختفت الفتاة المسكينة، أظن أن الذئاب قد أكلتها!".

قبيل المساء، راحت شكوك وهبي بالتنقل على شفاه الكبار. "من غير الممكن، أن تكون الصغيرة قد ذهبت إلى قرية أخرى في هذه العاصفة الثلجية"، "ربما تجمدت من البرد وماتت في مكان ما"، "ربما أكلتها الوحوش!".

هذا اليوم، بعد أن انعدمت الرؤية تماماً بفعل هذه العاصفة الثلجية كدخان أسود، خيّم عليّ يأس وقنوط موحش. شعرت بصدق من كنت أعارض قولهم إن الحياة ظالمة وجائرة.

انقطع نفسي وصوتي، وشعرت كأن نيراناً تشتعل في رأسي. شعرت بحرقة في عينيّ من وهج المصباح، أطفأته ودخلت فراشي مبكرة.

الثلج لا يعرف التوقف في الخارج، ومصاريع النافذة تهتز بفعل العاصفة المجنونة.

من يعلم في أي ظلمة ترقد هذه الطفلة المسكينة مرتعشة كلمعان نور قمر تلاشى، أو أين دُفنت بشعرها الأشقر تحت هذا الثلج..

لا أدري كم من الساعات مضت، فالمرء يفقد حس الزمن في مثل هذه الظروف.

فجأة، سمعت صوتاً، كأن أحداً يقرع الباب المؤدي إلى المقبرة. ليس ذلك سوى بفعل الرياح. كلا، الباب لا يهتزّ بل يُقرع! انتصبت في سريري، وأصخت السمع. كأني أسمع أنيناً لإنسان يختنق في دجى الليل. وثبت من سريري في الحال، ووضعت غطاء الفراش على كتفي، ورحت أهبط عدواً إلى الطابق الأسفل.

كنت أريد الذهاب إلى غرفة خديجة لإيقاظها، لكن يبدو أنها قد سمعت الصوت نفسه، فخرجت إلى الردهة تحمل شمعة تستنير بضوئها.

لم نجسر على فتح الباب، في الحال، بعد أن انقطع الصوت.

صاحت خديجة بصوت خشن أشبه بصوت الرجال: "من بالباب؟"، لكننا لم نتلقَ جواباً. بعد أن كرّرت المرأة العجوز النداء، بالكاد، سمعنا أنيناً خفيفاً خلال هزيز الرياح. صاحت خديجة ثانية: "من أنت؟". لكنني عرفت على الفور، أن صاحبة الصوت ليست سوى مؤنسة، فرفعت مزلاج الباب، وفتحته صائحة: "مؤنسة!".

اندفعت رياح ثلجية من الباب، فانطفأت شمعة المرأة العجوز في الحال، وسقط بين ذراعي جسم ثلجي في وسط الظلمة.

وبينما كانت خديجة منهمكة بإشعال الشمعة، كنت أضم مؤنسة إلى صدري أبكي وأشهق.

يبدو أن قوى مؤنسة قد انهارت تماماً، إذ سقطت بين ذراعي مغمياً عليها. كان وجهها مزرقّاً، شعرها متناثر وثيابها مغطاة بطبقة سميكة من الثلج.

خلعت عن الطفلة ثيابها المبللة، وأرقدتها في سريري، ورحت أدفئ قطع قماش على المدفأة وأفرك بها جسدها، حتى يعود جسمها إلى حرارته العادية. ما إن تسرب الدفء إلى جسم الصغيرة، حتى عادت إلى وعيها،

وكان أول كلام قالته بتوسل "قطعة خبز!". حمداً لله، فقد كان لدينا القليل من الحليب، سخناه وخديجة، ورحنا نشّربه للصغيرة بالملعقة.

مع مرور الوقت، بدأ الاحمرار يعود إلى وجه مؤنسة، واللمعان إلى عينيها، لكنها ظلت بين ذراعي، تتنهّد وتبكي بمرارة، من حين لآخر. هذه الغرفة البائسة والمعتمة، كهيكل سفينة خراب تهتزّ في وسط العاصفة، أصبحت ملاذاً أنيساً ومبهجاً تنيره أضواء حمراء تصدرها الجمرات المشتعلة في المدفأة... شعرت بالخجل من نفسي لما أبديته قبل قليل، من نكران وجحود للحياة.

بدأت الطفلة بالكلام. تلتجئ إلى صدري وذراعاها حول عنقي، وشعرها الأشقر متناثر على كتفي، تنظر في عيني وتجيب بوهن على أسئلتي. مساء أمس، خافت من زوجة أبيها، فهربت واختبأت في مخزن للحبوب في نواحي القرية. دخلت في كومة تبن، فالتبن أفضل وسيلة للدفء في هذا الجو الثلجي. شعرت صباح اليوم بجوع شديد، لكنها آثرت الانتظار حتى حلول الليل، فلو خرجت في النهار سيرونها، ويعيدونها إلى بيت أبيها.

كنت الأمل الوحيد للطفلة المسكينة في محنتها. كانت تواسي نفسها وتقول: "لابد أن معلمتي ستقدم لي خبزاً كي أسكت جوعي".

بعد قليل، اغرورقت العينان اللامعتان للطفلة بالدموع، وغابت حيويتها. لم أجد داعياً للسؤال، فقد استفاق في داخلي الخوف نفسه. كان ينبغي عليّ إعادة مؤنسة إلى بيت أبيها ثانية.

بالأمل أعيش، وأجدّد حياتي، دائماً. وما لم نستطع تحقيقه اليوم، نتابع العيش على أمل أن يتحقق في المستقبل.

قلت لخديجة بصوت منخفض، وكأني أخشى أن أوقظ في مؤنسة حلماً محال تحققه:

-ما دام أهل البنت لا يريدونها بينهم، هل يوافقون أن أتبناها، يا ترى؟ أنا أيضاً وحيدة. أقسم بالله أن أرعاها كأنها ابنتي الحقيقية.

كنت أقف أمام المرأة العجوز أحني عنقي وأمد يدي كالمتوسلة، كأن تحقيق رغبتي المجنونة هذه مرتبط ببضع كلمات ستخرج من بين شفتيها.

حدقت المرأة العجوز في المدفأة، وغرقت في التفكير، ثم هزّت رأسها بتثاقل وقالت:

-العرض ليس سيئاً. نستشير المختار غداً. إذا ما وافق، نرضي والدها، وينقضي الأمر.

لم أسمع عبارة أمل أجمل من كلامها، في حياتي. لم أتمكن من الإجابة، واكتفيت بضم مؤنسة إلى صدري بحنان. راحت الطفلة تبكي وتقبل يدي وتصيح "ماما، ماما!".

بينما أكتب هذه الأسطر، مؤنسة نائمة في سريري، تتنهّد بعمق وتتنفس براحة، والنور الأحمر المتوهج من الجمر المتّقد في المدفأة، يتراقص على شعرها الأشقر.

كم سأكون سعيدة يا ربي، لو أعطوني هذه الطفلة! ستفارقني التعاسة حينها، ولن يخيفني بعد ذلك، لا الليل، ولا العواصف، ولا أي شيء. سأرعاها وأسعدها حتى تكبر. في زمان مضى، انسقت بجنون لإسعاد أطفال آخرين، لكنهم ماتوا ذات مساء، قبل أن يُولدوا. سأكفّ عن الحزن عليهم، إذا ما أعطوني مؤنسة.

شعرت براحة وقد تصالحت مع الحياة. أحب كل شيء ثانية. حتى أنت يا كامران، ما عدت أكرهك، اعتباراً من هذه الليلة، رغم أنك من قتل صغاري ودفنهم في قلبي، ذات مساء.

الزينيّون، ١٨ كانون الأول

هذه الليلة، لم ترَ عيناي النوم، ثانية. ليالي السعداء كليالي المرضى طويلة أيضاً...

في الصباح، انطلقت وخديجة إلى بيت المختار. ظنّ الرجل العجوز، أني قادمة لالتقاط الأخبار عن مؤنسة. راح يواسيني ببعض الكلام:

-لم نعثر عليها بعد، لكن لننتظر، لا يزال عندي أمل بالعثور عليها في مكان ما.

قاطعته، ورويت له ما حدث ليلة البارحة. حين وصلت إلى نهاية حديثي، خفق قلبي، وزاغت عيناي. ضممت يدي وقلت متوسلة:

-أعطوني هذه الطفلة الصغيرة. سأرعاها مثل ابنتي الحقيقية. كما ترى، ستتأذى الطفلة إذا بقيت عندهم.

أغمض المختار عينيه. فكّر هنيهة ممسداً لحيته، ثم قال:

-لا بأس، يا ابنتي. لك عند الله أجر عظيم.

-هل أفهم أنكم ستعطونني مؤنسة؟

-في الواقع، أبوها غير قادر على إعالة أخوتها الآخرين، لذا لن يمانع بالتخلي عنها، إذا ما أعطيناه بضعة قروش.

لا أزال أستغرب كيف لم أجن من الفرحة، في تلك اللحظة! لم أكن أتوقع أن يحصل ما أردت، بكل هذه السهولة. كنت قد فكرت طوال الليل، وأعددت أجوبة مفحمة على ما سيقدمونه من اعتراضات، كي

أستعطفهم وأرقّق قلبهم. كنت على استعداد لتقديم ما تبقى لدي من مجوهرات أمي، لإنقاذ هذه الطفلة البريئة من براثنهم. لكنني حصلت على مؤنسة كدمية حية دون الحاجة للتضحية بأي شيء.

المشكلة أني لست مثل الآخرين، أعبّر بالكلام عن مشاعري بالفرح، بل أتعلق بعنقه وأقبله وأضربه أيضاً. في تلك اللحظة، كاد المختار أن يعيش بعضاً من طرقي بالتعبير عن فرحي، لكنه أنقذ يده المتغضنة سريعاً من بين يدي، مكتفياً بقبلة واحدة.

بعد ساعتين، أتى المختار ووالد مؤنسة إلى المدرسة. كنت أظن والدها قاسياً ومخيفاً، ووجهه قبيح. لكنه كان عجوزاً صغير الحجم، ويبدو عليه الهزال والمرض.

أخبرني أنه وُلد في استانبول، لكنه غادرها منذ أكثر من أربعين سنة، ولم يرها منذ ذلك الوقت. تحدث عن أحيائها كأنه يروي حلماً غاب عن ذهنه بعض من مشاهده.

بدا راضياً بالتخلّي عن مؤنسة لي، على أمل أن تلقى مني عناية أفضل. وعدته أن لا أتوانى عن بذل كل ما أستطيع من أجل إسعاد طفلته، وسأدعها تزوره دائماً.

أنا واثقة أن مدرسة الزينيّون الكئيبة المعتمة، لم تشهد بهجة وفرحاً كما هي الآن. لم تتسع الغرف والأروقة لي ولمؤنسة من شدة سعادتنا. ضحكات توقظ الطيور النائمة على الأسطح، والأسقف تردد صيحات فرحنا.

خلال ساعات، بدت مؤنسة كصغيرة قصر دلوعة. ألبستها فستاناً أحمر كان لي، بعد أن أعدت خياطته ليناسب حجمها، فبدت في غاية الجمال كقطعة حلوى من الفوندان اللذيذة.

رغم أن الثلج قد ودّع شدته السابقة، لكنه لا يزال يهطل دون توقف. قبيل المساء، خرجنا إلى الحديقة، تراكضنا ولعبنا بالثلج بين حجارة القبور، وشاركنا خديجة بإشعال قناديل زيني بابا.

مرحنا ولهونا، أدخل السعادة إلى قلب المرأة العجوز، انفردت أسارير وجهها المقطب، وقالت بابتسامة لطيفة:

- كفى، هيا ادخلا إلى البيت، ستمرضان من البرد.

الشعور بالبرد يختفي مع إشراقة شمس الفرح داخل المرء. هذا المساء، بدت لي السماء من غربها إلى شرقها كشجرة ياسمين باسقة امتدت أغصانها عالياً، وتنثر أزهارها البيضاء على رؤوسنا!

الزينيّون ٣٠ كانون الأول

ربطتني ومؤنسة علاقة حميمة... تشغل هذه البنت الصغيرة كل ساعاتي الباقية بعد الدرس. أسعى لتعليمها كل معارفي. أعلمها اللغة الفرنسية والرسم، وحتى الرقص. لكن تعليمها فنون الرقص، كان يتطلّب إغلاق الأبواب والنوافذ، خشية أن يسمعنا أهل القرية فيرجموننا بالحجارة.

ما أفعله مع مؤنسة كان يضحكني من نفسي في سري وأقول:

-ليكن الله بعون مؤنسة! حذار يا طائر النمنمة، هل تسيرين على خطى حجّي كلفا بتعليم ابنه ميراد؟

تحوّلت مؤنسة، بقدرة قادر، من طفلة قروية فقيرة، إلى طفلة أسرة مدنية أرستقراطية. رقيقة ودمثة في سلوكها وكلامها. دُهشتُ في بداية الأمر، لكن أظن أن أمها ليست وضيعة كما يدّعون.

تحاول الطفلة التعبير عن امتنانها، تمسك يدي وتلامسها بوجنتيها وشفتيها، فأمسك بدوري يديها الرقيقتين وأقبّل أصابعها الواحد تلو الآخر.

تظن هذه الصغيرة، أني قمت بتضحية عظيمة بتبنّيها، في حين، وجودها معي هو أكبر سعادة لي.

تفاجئني هذه الطفلة بأجوبة مثيرة وأكبر من سنها... قلت لها في اليوم الثاني من وصولها:

-مؤنسة، من الأفضل أن تخاطبيني بماما، إذا ما رغبت ذلك.

ابتسمت بعذوبة، ونظرت إلى وجهي:

-أيعقل ذلك، يا أختي؟

-لِمَ لا؟

-أنت صغيرة يا أختي، كيف أناديك ماما؟

شعرت كأنها طعنت غروري، فقلت مهددة بإصبعي:

-يا لك من شقية! لست فتاة صغيرة، بل شابة كبيرة جاوزت العشرين من عمري.

عضّت مؤنسة على لسانها وتبسمت دون أن تجيب. كرّرت قولي:

-ماذا تظنين؟ أنا شابة كبيرة.

زمّت شفتيها، وأجابت كالكبار:

-لست بأكبر مني كثيراً، يا أختي، أربعة عشر إلى خمسة عشر عاماً.

لم أتمالك نفسي، فشرعت بالضحك. تشجعت مؤنسة وقالت:

-أنت بالكاد، في سن الزواج. سأزين شعرك يوم زفافك بأشرطة جميلة مثلك...

أغلقت فم الطفلة بيدي، وقلت:

-إياك أن تكرري هذا الكلام ثانية، وإلّا قطعت لسانك.

لم تكن الفتيات المغرمات بزينتهن يعجبنني، لكنني لم أشعر بالشعور نفسه حين كنت أرى مؤنسة تقف أمام المرآة، تتأمل نفسها وتتزين. لكن أمس، الأمر زاد عن حده، فقد ضبطتها تكحّل عينيها بعود ثقاب متفحم. لا أدري كيف تعلمت وضع "المسكارا" على عينيها؟ لكن الأسوأ من ذلك، أنها ستكبر بعد عدة سنوات، وتغدو شابة فاتنة، وتعشق أحد الشباب، وتتزوجه.

عندما يخطر ببالي ذلك، أبتهج وأحزن في الآن نفسه، مثل كل الأمهات.

جاءتني مؤنسة، يوم أمس بوجه أحمر من الخجل. رجتني أن أصفف شعرها مثل تصفيف شعري.

أسعدني ذلك، فقد كانت مؤنسة بالنسبة لي كدمية ألاعبها وأزينها كما أشاء. أخذت الطفلة إلى حضني، حللت شعرها، وشرعت بتصفيفه كما ترغب.

تناولت مؤنسة المرآة الصغيرة من فوق الرف، وقالت:

-أختي الحبيبة، تعالي لنقف جنباً إلى جنب ونرى صورتنا في المرآة.
كأختين تقفان أمام عدسة الكاميرا بدا رأسانا متلاصقين في المرآة، نضحك ونمد لسانينا لبعضينا.

بدت مؤنسة جميلة كملاك، بعينيها الزرقاوين، وبشرتها البيضاء المصقولة، ووجهها الدقيق الوسيم. لامست أنفي ووجنتي، ثم قالت بحزن:

-لا جدوى يا أختي، لا يمكن أن أبدو بجمالك.

-بل أنت أجمل، يا صغيرتي.

-لا تجامليني يا أختي. لست بجمالك...

ضحكت من لغو الطفلة غير اللائق، ونثرت شعرها بعد أن بذلت جهداً بتصفيفه. لكن لَمَ لا أكتب ما تشعر به ما دام لن يقرأ دفتري سواي: هي تراني أكثر جمالاً مما أراه في نفسي، حتى بدأت أصدّق ما كان يقال لي: "فريدة، أنت لا تعرفين نفسك حق المعرفة، تمتلكين خصالاً لا يمتلكها أحد سواك!".

لا أدري ما أقول. آه من هذه البنت الصغيرة! بينما أسعى لأجعل منها فتاة عاقلة ورزينة، يبدو أنها ستجعلني فتاة مغناجاً مثلها.

الزينيّون ٢٩ كانون الثاني

لم تلمس يدي دفتري منذ شهر. كان لدي أشغال أهم من كتابة مذكراتي. كما أن لا شيء يُكتب في الأيام السعيدة.

منذ شهر، كنت أعيش في سكينة وراحة بال. لسوء حظي، لم يدم ذلك. قبل يومين، أوصلت عربة البريد لي أربع رسائل. ما إن رأيتها حتى

استعرت نيران في داخلي. دون أن أعرف من المرسل وما هو مضمونها، قلت في قرارة نفسي:

-ليتها ضاعت قبل أن تصلني.

لم يخطئ ظني. الخط على المغلف ليس غريباً عني. الرسائل مبعوثة منه. لقد تنقّلت المغلفات من يد إلى أخرى حتى وصلتني. أختام وكتابات زرقاء وحمراء تملأها. قرأت العنوان المكتوب على إحداها:

"إلى المعلمة الأنسة فريدة/ مدرسة (ب) الابتدائية"

غضّنت الرسائل، ورميتها على الرف إلى جوار المدفأة. حين رأتني مؤنسة أقف وقد أسندت رأسي إلى النافذة، وأنظر إلى البعيد بشرود، قالت:

-ما بك، يا أختي؟ وجهك شاحب.

تبسمت محاولة تمالك نفسي:

-لا شيء خطير، يا صغيرتي. أشعر بصداع خفيف. سيزول إذا ما خرجنا إلى الحديقة قليلاً.

في الليل، أمضيت بضع ساعات في سريري، لم يغمض لي جفن، أحدّق في الظلام، مشتتة الفكر. هذا الصفيق الخائن، أية أعذار وتبريرات يريد خداعي بها في رسائله؟ أشعلت المصباح عدة مرات، وتردّدت كثيراً بقراءة رسائله. لكنني نهرت نفسي، ففي قراءتها تسامح يحط من كبريائي.

مر يومان، والرسائل لا تزال في مكانها على الرف، تخنقني وتعصر فؤادي، كأنها تنشر سماً في هواء الغرفة. انتقل شعوري بالكآبة إلى مؤنسة أيضاً. أدركت الصغيرة مصدر شجني، وراحت تنظر بعين الكره والحقد إلى الرسائل.

-أختي! لقد قمت بعمل، لا أعلم إن كان سيسوئك؟

استدرت بحركة لا إرادية، ونظرت نحو الرف المجاور للمدفأة. الرسائل اختفت! شعرت بضيق في صدري من شدة الشجن.

-أين الرسائل؟ قلت بانفعال.

أحنت الطفلة رأسها:

-أحرقتها لأنها سبب حزنك، يا أختي.

صحت بغضب:

-لَمَ فعلت ذلك، يا مؤنسة؟

ارتَعشت الطفلة خوفاً من ردة فعل مني أشد عنفاً. أسندت رأسي على يدي، ورحت أبكي بصمت.

-لا تبكي، يا أختي. لم أحرقها، في الحقيقة. كذبت لأعرف ردة فعلك. ها هي، خذيها.

ربتت الصغيرة على رأسي بإحدى يديها، وناولتني الرسائل بيدها الأخرى.

-خذيها، يا أختي. يبدو أنها من شخص تحبينه.

انتفضت على الفور، وصحت بها:

-يا شقية، ما هذا الهراء؟

-ذلك واضح، يا أختي. ما كنت ستبكين لو أنك لا تحبينه.

خجلت من إدراك هذه الصغيرة لمشاعري ومن دموعي التي سكبتها. قررت وضع حد لهذا الأمر:

-ليتني لم أسمع منك هذا الكلام، يا صغيرتي. لكن، سنحرقها سوياً لأثبت لك أني لا أحب كاتب هذه الرسائل فحسب، بل أكرهه أشد الكره.

كانت الغرفة معتمة، لا ينيرها سوى وهج اتقاد بقايا الحطب في المدفأة. ألقيت إحدى الرسائل في النار. راح المغلف يتلوى مشتعلاً. ما إن تحولت الرسالة الثانية إلى رماد حتى أتبعتها بالرسالة الثالثة.

كانت مؤنسة تضمني بعاطفة غريبة، نتابع احتراق الرسائل الواحدة تلو الأخرى، بصمت، كأننا أمام إنسان على وشك الموت. ما إن حان الوقت لإحراق الرسالة الأخيرة حتى شعرت بحسرة وندم تعتصر قلبي. لكن لا مبرر لاحتفاظي بها بعد أن التهمت النيران سابقاتها. تخلصت منها بإلقائها في النار وكأني أقتطع قطعة من قلبي.

كانت النار قد خبا لهيبها، فلم تشتعل الرسالة الأخيرة سريعاً، وراح الدخان يتصاعد من طرف المغلف، ثم تراخى وانفتح كاشفاً عن ورقة الرسالة بما تتضمنه من كتابة دقيقة. لم أعد أحتمل مرارة الحزن. كأن مؤنسة أدركت ما يغمرني من مشاعر، فانحنت فجأة، وأدخلت يدها في النار، وأنقذت ما تبقى من الرسالة المشتعلة.

لم أجرأ على قراءة الرسالة حتى نامت الطفلة. لم يبقَ سوى هذه الأسطر:

"...شرعت أمي بالبكاء حين نظرت إلى وجهي، في الصباح، فسألتها "ما بك يا أمي؟ لِمَ تبكين؟". اكتفت بالقول "لا شيء. رأيت مناماً". لكن تحت شدة توسلي وإصراري، لم تجد بداً من القول باكية:

"لقد رأيتها في منامي. كنت هائمة في نواحي معتمة، وأسأل كل من أراه "أتعلمون أين تقيم فريدة؟ أخبروني بحب الله!". إلى أن جاءت امرأة ملثمة، أخذت يدي، وأدخلتني في مكان مظلم كالتكيّة، وقالت

"ها هي فريدة، مستلقية هناك. توفيت بعد إصابتها بالخناق". نظرت إليها. كانت عينا بنيّتي مغمضتين، ووجنتاها لم تكن قد شحبت بعد، حينذاك، استيقظت باكية من شدة حزني. يقولون إن رؤية الغائب ميتاً في المنام، تعني عودته قريباً. أليس كذلك، يا بنيّ؟ سأرى فريدة قريباً، أليس كذلك، يا كامران؟".

نقلت لك كلام أمي حرفياً. دعك مني، لكن ألا ترين أنه من الجحود أن تُبكي أمك العجوز؟ لقد بات منام خالتك يرافقني في منامي أيضاً. كلما أغمض عيني أراك في غرفة معتمة، وفي أرض بعيدة، عيناك مغمضتان، وشعرك الحالك، ووجهك النضر..."

بقية الرسالة كانت محترقة، فلم أتمكن من قراءة سوى هذا المقطع الحزين. ها أنت ترى يا كامران، حتى النار أبعدتنا عن بعضنا. لم نعد مجرد شخصين متخاصمين، بل غريبين لا يمكن أن نلتقي ثانية.

الزينيّون، ٥ شباط

في ساعة متأخرة من ليلة أمس، سمعت صوت اندلاع طلقات نارية في منطقة المستنقعات. شعرت بالخوف، لكن مؤنسة لم تضطرب وطمأنتني بقولها:

-أمر عادي، يحدث دائماً. الدرك يلاحقون عصابة من قطاع الطرق.

توقف إطلاق النار نهائياً، بعد أن دام طويلاً لفترات متباعدة. كان ظن مؤنسة صائباً، بعدما انتشرت أخبار هذا الصباح، تؤكد قولها.

تبادل إطلاق النار، وقع بين قوات الدرك وعدد من اللصوص سلبوا عربة البريد. سقط أحد رجال الدرك قتيلاً، وأُصيب آخر بجروح بليغة، أُحضر إلى بيت المسافرين في الزينيّون.

في ساعات الظهيرة الأولى، دخل وهبي الصغير المدرسة لاهثاً. أمسك يدي، وقال:

-معلمتي! ارتدي ملاءتك سريعاً، وتعالي معي. يريدونك في بيت المسافرين، في الحال.

-من يريدني؟

-بابا يقول إن الطبيب يريدك.

بيت المسافرين، خرابة من غرفتين يُصعد إليها بدرج خشبي، لا تحوي سوى سرير متقوّس، يُؤوون إليها من تقطعت بهم الطرق بسبب هبوط الليل، أو الثلج، أو المرض، ويقدمون لهم بعض الطعام ثواباً.

حصان جميل، يقف بباب بيت المسافرين، يضرب الأرض بقوائمه، وينفث خشمه بخاراً من شدة البرد. ربتُّ على رأسه، ثم دخلت بيت المسافرين. مصباح مضاء في الردهة لتبديد ظلمتها.

طبيب عسكري بدين، بمعطف سميك وجزمة ضخمة يجلس على درجات السلم، وبينما يخطّ شيئاً ما على ورقة في يده، يتحدث إلى عدد من الأشخاص يصعب تميز وجوههم. لا يظهر لي سوى أحد جانبي وجهه. شاربه كث أبيض، حاجباه كثان أيضاً، ورقيق المحيا. لكن يا لفظاظته! لا يتوقف عن استخدام كلمات نابية في كلامه. ترددت قليلاً، وفكرت بالعودة على أعقابي.

بعد أن أطلق قهقهة شديدة، أدار رأسه، ليتبعها بكلمة نابية، فوجئ برؤيتي. توقف على الفور، ووجه كلامه إلى أحد الرجال الموجودين في الردهة، بلحية سوداء كثة، ومعطفاً رمادياً:

-حنانيك يا ملازم! لا تأخذ على خاطرك. لقد صدق من لقبك بالخال الدب. لِمَ لم تعلمني بوجود امرأة بيننا، وتركتني أتكلم على هواي؟

ثم توجه نَحوي وقال:

-أرجو قبول معذرتي، يا سيدتي الممرضة. لم ألحظ وجودك هنا. اصعدي إلى الطابق العلوي. لكن انتظريني حتى أنزل. هذا الدرج كالورق، ولن يحملنا معاً. اصعدي الآن، وسأصعد من بعدك.

صعدت السلم وثباً كل درجتين معاً.

تابع الدكتور العجوز ممازحة من دعاه بالملازم

-هذه المعلمة استانبولية يا ملازم. تتساءل كيف عرفت، أليس كذلك؟ آه منك يا ملازم، ما بك تحدق ببلاهة كالخروف؟ عرفت ذلك من صعودها درجات السلم. ألم ترَ كيف كانت تثب كالحجل؟ يمكنني تخمين عمرها أيضاً. هذه المرأة لم تتجاوز الأربعين من عمرها بعد.

يستهويني هذا النوع من الكلام الطائش. ضحكت وقلت في قرارة نفسي:

-ها قد أخطأت في تخمينك، يا دكتور.

بعد دقائق، صعد الطبيب العجوز إلى أعلى والدرج يئن تحت جزمته. شرع بالكلام دون أن ينظر إلى وجهي.

-لدينا جريح كما تعلمين، يا سيدتي. جراحه ليست بليغة، لكنه بحاجة إلى رعاية. أنا مضطر للذهاب بعد قليل. المطلوب، ليس بذي بال، الاهتمام بنظافة ضماده فقط. لكن ما أخشاه هو ثقتهم الضعيفة بالأطباء، وأن يلجئوا إلى علاج العجائز بعد مغادرتي، فيتلوث جرحه ويتفاقم. هل تريدينهم أن يغمروا جرحه بأشياء لا نعلم مخاطرها؟ أنت

متعلمة، ويمكنني توضيح ما يجب عليك فعله. سترعين هذا الرجل حتى يقف على قدميه، لكن ألديك المقدرة على تحمّل ذلك؟

-لا بأس، يا دكتور. أعصابي قوية. لا تخشَ شيئاً، يا سيدي.

-هلّا كشفت عن وجهك؟ قال.

أسلوب كلامه الودود والبعيد عن المجاملة، أشعرني بالاطمئنان إليه، فرفعت خماري بلا مبالاة، وتبسمت قليلاً.

رفع الدكتور العجوز ذراعيه، وغرق في الضحك مقهقهاً، وعلت وجهَه الرقيق الملامح دهشةٌ مضحكة...

-ماذا تفعلين في هذه البلاد؟

أنا من دُهشت، هذه المرة. هل يعرفني هذا الرجل، يا ترى؟ محياه الذي يعطي المرء الإحساس بالأمان والمودة، أعطاني الجرأة أيضاً، إلى ممازحته:

-لا أظن أنك ستدعي معرفتي أيضاً، يا دكتور...

-لا أدعي معرفتك شخصياً، بل صنفك يا ابنتي، صنفك. لسوء الحظ، فهذا الصنف على وشك الانقراض من على وجه الأرض.

-تقصد مثل الماموث، يا سيدي.

ما كان حبيساً في داخلي من نزعة إلى الشقاوة والتهريج، منذ خمسة أشهر، تحرر ثانية وانطلق. مثل ما كانت تقوله الراهبة أليكسي، مهما حاولت كبح رغبتي بالشقاوة، لابد أن أندفع مثل الأطفال فجأة، وأتصرف على سجيتي من تهريج وهزل.

يبدو أن الدكتور كان رجلاً صافي القلب، وذا حنكة. ضحك بالقهقهة الجهورية نفسها وقال:

-هي عكس هذا الفيل الضخم، صغيرة الحجم، مرحة ولطيفة، ولأني عجوز لا أجد حرجاً من القول إنها جميلة وابنة عائلة أرستقراطية... هيا احكي لي، ما الذي أتى بك إلى هذه البلاد؟

بدأت أستشف رقة عميقة وراء القهقهات المجلجلة لهذا الدكتور العسكري وكلامه الخالي من المجاملة.

-أنا معلمة، يا دكتور. أردت العمل من أجل المصلحة العامة، فأرسلوني إلى هذا المكان. أؤدي واجبي أينما كنت.

ظل ينظر ويصغي إلي باهتمام، ثم قال:

-إذن، أتيت إلى هنا خدمة للمصلحة العامة! خدمة للعِلم فقط، أليس كذلك؟

-أجل، هذا ما أسعى إليه.

-أبهذا العمر، وهذا المحيا، وهذه الحال؟ قولي الحقيقة. انظري في عيني. أتظنين أني سأُخدع بهذا الكلام؟

حدق في وجهي مبتسماً بلطف، بعينين بأهداب بيضاء، مدفونتين في وجنتيه الممتلئتين، كأنه يغور في أعماقي، ثم تابع:

-لا، يا ابنتي. ليس هذا هو السبب الحقيقي، ولا حتى ضيق الحال. أنا على يقين أنك تهدفين إلى الابتعاد عن شيء ما. حتى لو سألتك، من أنت، ومن هي عائلتك، وأين تسكنين، لما أجبتني، أليس كذلك؟ ألا ترين كيف أعلم كل شيء؟ أضع إشارة استفهام، لكنني لست معنياً بالذهاب بعيداً. مجرد إشارة إلى الواقع، لا أكثر.

صمت كلانا. بعد أن نظر الدكتور العجوز بعمق مفكراً قال:

-أتسمحين لي بتقديم خدمة صغيرة لك؟ لدي معارف كثر في وزارة المعارف، ويمكنني أن أضمن نقلك إلى مكان أفضل من هذا المكان.

-لا داعي، أشكرك، أنا راضية بمكاني هنا.

هزّ كتفيه ضاحكاً، وقال بصوت ساخر:

-حسن جداً، كما تشائين. لكن، لن تسير الأمور كما نشاء دائماً. سأعطيك عنواني، لتكتبي لي، إذا ما ساءت الأمور واحتجت لأية مساعدة. مجرد خدمة إنسانية.

-أشكرك.

ثم فتح باب إحدى الغرف. رجل ملتحف بمعطف عسكري يغطي وجهه، يرقد على سرير متقوس.

هتف الدكتور:

-كيف حالك يا رجل؟ هل تشعر بالتحسّن؟

كشف الجريح المعطف محاولاً الجلوس.

-لا تتحرك، ابقَ راقداً. أتشعر بألم ما؟

-كلا، الشكر الجزيل. لكن عظمتي الوجنية لا تزال تؤلمني.

ضحك الدكتور:

-آه لأحبتي الدببة! يظن أن ركبته عظمة وجنية، وأن معدته في مقعدته، لكنه لا يهاب الموت، ويرعب أعداءه. يزول يا رجل، سيزول قريباً. اشكر الله، أن تلك الرصاصة لم تنحرف إلى اليسار قليلاً. ألا تريد أن تقف على قدميك معافى، في أسبوع؟ أما إذا كنت تنتهز الفرصة للراحة، فذلك أمر آخر. عليك فعل كل ما تقوله بنتنا هذه، هل فهمت؟ هي طبيبتك اعتباراً من الآن. ستغير ضماد جرحك. لكن إن سمعت

أنك استخدمت علاجات شعبية، فلا تلومنّ إلا نفسك... أقسم بالله أن أعود ثانية، وأقطع لك ساقك.

شرع بحل ضماده. تعامل مع الجرح ببعض العنف، ما جعل الرجل المسكين يصيح: "على رِسلِك يا سيدي!".

-اسكت. عار على رجولتك! رجل ضخم بشارب ولحية، ألا تخجل من التأوه أمام بنت بطول الإصبع؟ ليس هذا بجرح، بل مجرد لعبة. لو أعلم أن ممرضة مثلها سترعاني، لجرحت أحد أطرافي بمثل جرحك البسيط هذا.

الطبيب العجوز والملازم ذو اللحية غادرا القرية، بعد ساعة من الزمن.

قد يكون ما حصل، ليس سوى أمراً عادياً يحدث هنا وهناك. لكنه ترك أثراً غريباً ومثيراً في أعماقي، لم أشعر بمثله حتى الآن.

-٦-

الزينّون، ٢٤ شباط

شاع في القرية أن الصيف سيحل مبكراً، هذه السنة. الأجواء صافية منذ أسبوع، والشمس مشرقة، كأننا في شهر أيار لولا وجود الثلج على قمم الجبال حولنا.

اليوم هو الجمعة. بعد طعام الغداء، انهمكت برسم صورة لمؤنسة بالألوان المائية، في غرفتي. قُرع الباب، فجأة. دخلت خديجة الغرفة وقد وقع غطاء رأسها على عنقها، ويداها وساقاها ترتعش. لم أرها بمثل هذه الحال من الاضطراب والانفعال قط.

-سيدتي المعلمة! رجلان في الطابق الأرضي ينتظرانك. مدير المعارف أحدهما. قدم بهدف التفتيش. اهبطي سريعاً! لا أجيد محادثتهما.

بينما كنت أرتدي ملاءتي على عجل، كنت أضحك في قرارة نفسي. أمر لا يصدّق! كيف لشيخ الكسالى أن يتجشّم كل هذا العناء ويأتي حتى هنا، وهو الذي يتثاقل من تحريك يده في مكتبه في المديرية.

هبطت إلى الطابق الأرضي، فرأيت رجلين، أحدهما طويل القامة للغاية، والآخر قصير القامة للغاية، يقفان بباب الغرفة الصفية. تقدّم الرجل قصير القامة نحوي. كانت الظلمة شديدة، فلم أستطع تمييز ملامح وجهه، ولم ألمح سوى لمعان نظارته أحادية العدسة.

-لابد أنكِ السيدة المعلمة. تشرفنا. أنا مدير المعارف رشيد ناظم. هذا المكان مظلم جداً، أشبه بالإسطبل، وليس بمدرسة.

-الغرفة أشدّ إضاءة، يا سيدي، قلت.

تقدّم بخطوات واسعة، بعزم وسرعة مذهلة لا تتناسب وحجمه الصغير.

بعد أن خطى خطوة واحدة عبر باب الغرفة، توقف وهزّ يده ملوحاً كأنه يلقي خطاباً حماسياً، وقال:

-انظر هناك

(quelle misure, quelle misure!)... (mon cher).

هذا المكان يحتاج إلى ألف شاهدٍ لإثبات أنه مدرسة. يجب أن نكون radicale) كما ترى. لابد أنك توافق على قولي دائماً "إما كل شيء، أو لا شيء قطعياً!".

بدت لي ملامح الرجلين أكثر وضوحاً، في ضوء الغرفة. مدير المعارف في الخمسين من عمره، بعد أن ظننته شاباً متأنقاً. كان حليق الذقن، لا يتوقف عن تحريك حاجبيه وعينيه، ويغضّن وجهه بقصد التلميح لما يقوله.

أما الرجل الآخر، فكان بشارب دقيق ووجه قاسي الملامح، ومحدب الظهر من شدة طول قامته.

استدار مدير المعارف نحوي:

– سيدتي، أقدم لك صديقي السيد ممتاز، مهندس أشغال الولاية.

أجبت من قبيل المجاملة:

-مهندس الأشغال؟ حسن جداً.

كان مدير المعارف يتنقّل قارعاً الأرض بكعبيه كأنه يعاين قدرة تحمّل أرضية الصف، وينقر بعصاه المقاعد واللوحات.

- عزيزي، لدي مشاريع عظيمة. سأهدم كل شيء وأبنيه من جديد، لتكون مؤسسات لائقة جداً. الويل لهم، إن لم يعطوني ما أريد من مخصصات مالية. أتيت بضمانات مؤكدة. صحافة استانبول إلى جانبي كمدفع على أهبة الاستعداد لإطلاق النار. إشارة واحدة مني بام بوم... قصف مذهل. تدرك ما أنوي فعله. إما أن يصبح العالم الذي في هذا الرأس حقيقة واقعة، أو أقدّم استقالتي.

لا شك أن كل تبجحه هذا، ليس إلا جلباً لنظر معلمة قرية متواضعة. أعاد تثبيت نظارته الأحادية، وقال:

-كم عدد طلابك؟

-ثلاث عشرة بنات وأربعة صبية، يا سيدي.

-مدرسة لسبعة عشر طفلاً. ترف زائف. هل ستعاين البناء يا ممتاز؟

-لا داعي، فالوضع واضح للعيان.

بينما كان مدير المعارف يتحدث عن خططه متبجحاً، لاحظت أن المهندس يرمقني بطرف عينه، خلسة. في النهاية، تكلم بلغة فرنسية جد ركيكة كي لا أفهم ما يقوله:

-هيا يا عزيزي، جد لك مبرراً كي تكشف خمارها. محياها يشع نوراً من خلف الخمار. ما الذي أتى بها إلى هنا؟

يبدو أن مدير المعارف لم يكن كما ظننت، فقد بدا منزعجاً من كلام زميله حين أجابه بلغة فرنسية أشد ركاكة منه:

-أرجوك يا عزيزي، نحن في مدرسة. كن جدياً!

شدّ المدير جلده المترهل كالبلاستيك أسفل فكه، وغرق في تفكير عميق. ثم استدار نحوي فجأة، كأنه وصل إلى القرار الناجع:

- سيدتي، سأغلق هذه المدرسة.

قلت بذهول:

-لماذا يا سيدي، هل حصل شيء ما؟

-سيدتي، لا يمكن تربية الأطفال في بناء وضيع كهذا. كما أن عدد الطلبة قليل. سأبذل قصارى جهدي طوال مدة بقائي في الولاية، لتمتلك معظم القرى مدارس رخيصة، لكن صحية وحديثة ومناسبة. يعني التحديث. الآن، إذا سمحت، أعطني بعض المعلومات.

أخرج دفتر ملاحظات من جيب سترته ذات الذيل الطويل، وسجّل ما طلبه مني من معلومات حول المدرسة، ثم قال:

-أما بخصوص عملك، سأنقلك إلى موقع آخر مناسب، بعد صدور قرار إغلاق المدرسة. عليك المجيء إلى (ب) فور استلامك قرار الإغلاق. سنقوم باللازم. ما اسمك، إذا سمحت؟

-فريدة.

-سيدتي، عادة شائعة وجميلة في أوروبا، أن يُذكر اسم الأب إضافة إلى الاسم الشخصي. ذلك أكثر دقة. أنتم المعلمون، يجب عليكم تطبيق هذا التحديث. مثلاً، بدلاً من كتابة "علي خواجة والد ملاحات"، تكتبون "ملاحات علي" على دفاتر قيودكم، وينتهي الأمر. مفهوم يا سيدتي؟ ما اسم والدك؟

-نظام الدين.

-سيدتي، سندعوك فريدة نظام الدين. قد يبدو هذا غير مألوف لك، لكنك ستعتادين عليه مع الوقت. من أين تخرجت؟

ترددت بالإفصاح عن اسم مدرستي. قد يشعر المهندس بالحرج إذا علم أني تخرجت من المدرسة الفرنسية، وأني فهمت ما قاله، فاضطررت للقول: "دراسة خاصة، يا سيدي".

-كما سبق وقلت، حين تأتين إلى (ب) مرّي على مكتبي. سنجد لك مكاناً مناسباً. هيا يا ممتاز، هناك قريتان أخريتان في برنامجنا.

ظل المهندس جالساً على أحد مقاعد الطلبة يأرجح ساقيه النحيلتين الطويلتين، وتواقح ثانية بلغته الفرنسية الركيكة التي لا يُحسد عليها:

-إنها فاتنة الحسن. اذهب ودعني هنا. لابد وأن أجد مبرراً كي تكشف عن وجهها.

ارتبك مدير المعارف، ثم رد عليه بالتركية كي لا تذهب بي الظنون:

-لقد تأخرنا. تكتب تقريرك الفني لاحقاً. هيا تفضل.

مشى المدير متوجاً إلى خارج المدرسة. أدرت ظهري للمهندس كي أغيظه، وتظاهرت بانشغالي.

بينما كان المهندس يعبر الحديقة، أدار رأسه أكثر من مرة. وظل يتابع النظر من خلف السور الخشبي للحديقة حتى ابتعدا.

انتشر الخبر سريعاً في القرية. هرع الأطفال وأمهاتهم إلى المدرسة، رغم أنه كان يوم الجمعة. بدا التأثر عليهم واضحاً لإغلاق المدرسة. أدركت متأخرة أن الأطفال يكنّون مشاعر ود تجاهي كما تجاه المدرسة، من تقبيلهم ليدي باكين.

عصبت خديجة رأسها بعصابة ضخمة، وانسحبت إلى غرفتها. رحت أفكر بغموض وضعي، وما سيحل بي، لكن في الحقيقة، وضع خديجة المسكينة هو الأكثر صعوبة.

قبيل المساء جاءت زوجة المختار والقابلة ثانية. كانتا حزينتين. كانت القابلة الأشد تأثراً، تتنهد وترمقني بنظرات ذات معنى، وتقول:

-أمراً كنت أضمره، لكن جناب الحق لم يشأ.

كان لابد أن أجاملها بحزن مصطنع. نظرت إلى الأرض وأجبتها:

-ليس باليد حيلة، لا اعتراض على مشيئة الله.

باختصار، لقد قلب هذا السيد صغير الحجم ذو النظارة الأحادية، الزينيّون رأساً على عقب، بكلمة واحدة. أصابهم الوجوم لا ينطقون بكلمة، ولا يصدرون أدنى صوت.

رغم قناعتي بأن أية قرية أخرى سيتم تعييني فيها، لن تكون أسوأ من الزينيّون، فلا أسوأ من الزينيّون على وجه البسيطة، لكن الحزن انتقل إليّ أيضاً، باستثناء مؤنسة. كانت تلك الشقية تكاد تطير من الفرح وترفرف كالعصفور وتقول: "متى سنرحل يا أختي، هل سيطول ذلك؟".

الزينيّون، ٣ آذار

غداً نرحل من الزينيّون.

بدت مؤنسة سعيدة في بداية الأمر، لكنها أصيبت بحالة من الاكتئاب منذ أمس، تحدّق في الفراغ، وتجيب بشرود على أسئلتي:

-مؤنسة، إن كنت لا ترغبين بالرحيل معي، ابقِي هنا، قلت.

أجابت على الفور:

-لا قدر الله. ألقي بنفسي في البئر يا أختي.

-هل أنت حزينة لفراقك لإخوتك؟

-كلا، يا أختي.

-إذن، أنت في شوق إلى أبيك.

-لا أكن حباً شديداً لأبي، لكنني أشفق على حاله، يا أختي.

-حسناً، ما هي مشكلتك، إذن؟

-......

كانت تخفض عينيها وتصمت، وإن أصررت عليها، تتصنع الضحك وتعانقني. لكنني لم أكن أصدق فرحها الكاذب. أفهم مؤنسة جيداً، ولا يمكنها خداعي. لا يمكنها إخفاء ظلال الحزن في عينيها البراقة عني. حاولت معها كثيراً، لتفصح لي عن سبب حزنها، لكن جهودي باءت بالفشل.

ذات يوم، علمت ما تخفيه مؤنسة من حزن، بطريق الصدفة. قبيل المساء، اختفت مؤنسة عن ناظري، فجأة، رغم علمها أني بحاجة إلى مساعدتها استعداداً للسفر.

ناديت عليها مرات عديدة، لكنها لم تجبني. فتحت النافذة المطلة على الحديقة وناديت: "مؤنسة، مؤنسة!"، فجاءني صوتها الرقيق من بعيد، من ناحية مقام زيني بابا: "سآتي حالاً، يا أختي!".

حين جاءتني، سألتها عما كانت تفعله في الحديقة وحدها. بدا عليها الاضطراب، وحاولت المراوغة مبدية مبررات لا معنى لها.

أمعنت النظر إلى وجهها. عيناها كانت محمرّة، وآثار دموع جفت لتوها على وجنتيها الشاحبتين. شعرت بالقلق. بدأت بالضغط عليها، لأعرف سبب بكائها. حين أمسكتها من معصميها، خفضت رأسها لتخفي وجهها عني. ظلت صامتة لا تجيب، وشفتاها ترتعشان.

لم أجد بداً من القول إني لن أصحبها معي، إن لم تخبرني بحقيقة الأمر. حينذاك، كفّت عن العناد، وقالت بخجل دون أن ترفع رأسها، كأنها تعترف بذنب عظيم:

-أتت أمي لرؤيتي. علمت بنيّتنا على الرحيل... أرجوكِ يا أختي، لا تغضبي عليّ!

بينما كانت تعترف بهذا الذنب العظيم، كانت ترتعش من رأسها حتى أخمص قدميها، وعيناها تمتلئ بالدموع.

أدركت سبب حزن قلبها الصغير، وتفهّمت جيداً ما ترجوه مني.

ربتُّ على شعرها الذي غطى وجهها، ولامست ذقنها برقة، وقلت بصوت حليم وهادئ:

-ما الداعي لكل ذلك الخوف والبكاء؟ إنها أمك، ومن حقك رؤيتها.

لم تصدق المسكينة ما سمعته أذناها. نظرت إليّ بخوف، تبحث عن مبررات طفولية كي تقنعني بعدم محبتها لهذه المرأة التي لا يذكرها أحد إلا بالسوء واللعنة، رغم قناعتي بأنها تحبها، ولكنها تخفي حبها هذا...

-صغيرتي، سألومك إن كنت لا تحبين أمك. أيكره المرء أمه؟ هيا أسرعي، واطلبي منها أن تعود! أخبريها أني أريد رؤيتها. سأنتظرها في المقبرة.

ضمت مؤنسة يدي تقبلها، ثم انطلقت تركض إلى الحديقة. أعلم أن ما سأفعله تهوراً عظيماً. سيشاع عني كلام سيء، إذا ما علم أهل القرية باتصالي بهذه المرأة، وربما سيُذكر اسمي مصحوباً باللعنات، لكن، لن أبالي...

انتظرتها طويلاً بين الأشجار إلى جوار المقبرة. يبدو أن المرأة المسكينة قد ابتعدت كثيراً، فاضطرت مؤنسة لتجاوز ديس المستنقع لتلحق بها.

أخيراً، ظهرتا من بعيد. كم كان منظر الأم وابنتها حزيناً! تمشيان متباعدتين كأنهما خجلتان، وتتقدمان ببطء كأنهما تخوضان في أرض موحلة. أعددت كلاماً ودوداً ومتعاطفاً لأقوله لهذه المرأة، لكن حين تواجهنا، لم نجد كلتانا ما نقوله.

كانت امرأة طويلة القامة رشيقة القوام. ترتدي جلباباً بالياً ومرقّعاً، وتغطي وجهها بشال يماني أرجواني، وتنتعل حذاء بالياً ومهترأً. شعرت برعشة تسري في جسدي. حاولت أن أخفي انفعالي وأبدو هادئة:

-اكشفي عن وجهك، قلت.

بعد تردد قصير، كشفت عن وجهها. بدت رقيقة الملامح. ما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من العمر. لكن محياها الأصفر بدا واهناً ومنهكاً.

ما يشاع عن مثل هذه النساء تبهرّجهن بشكل ملفت للنظر. لكنني لم أرَ أثراً لزينة أو مساحيق تجميل على وجهها. لكن ما لمس مشاعري شبهها الشديد لمؤنسة، كأن مؤنسة قد كبرت وبلغت هذا العمر...

أمسكتُ الطفلة من كتفيها، بحركة لا إرادية، وقرّبتها مني. كنت أسمع تراتيل أنفاسي، وأحبس الدمع في عيني، والأفكار تتراقص في ذهني. لقد أخذت على عاتقي مهمة صعبة، لكنني سأؤديها على أكمل وجه. سأنشئ مؤنسة تنشئة صالحة، حتى تصبح امرأة جميلة على خلق. هذا أكبر سلواي.

-سيدتي، يبدو أن القدر لم يمنحك الفرصة لتنالي سعادة تنشئة هذه الطفلة الصغيرة على يديك. ماذا نفعل؟ هذه حال الدنيا! لكن ما أريده هو أن يطمئن قلبك. سأرعاها وأنشئها كأنها ابنتي. لن أقصّر نحوها بأي شيء-.

تجرأت المرأة على الكلام للمرة الأولى:

-أعلم يا آنسة، حدثتني مؤنسة عنك... كنت أمرّ لرؤيتها حين تسنح لي الفرصة. جزاك الله كل الخير.

-إذن، كنت ترين مؤنسة؟

شعرت بارتعاش ذراعيّ مؤنسة التي تضم وسطي. ذنب جديد فُضح. إذن، كانت تقابل أمها خفية عني. شعرت بالخجل لأنها كانت تخفي عني لقاءها لأمها.

-لو بقينا هنا، كنت سأدعك ترين ابنتك دائماً. لكننا سنسافر إلى (ب) غداً. لا أعلم أين سأذهب من هناك. لكن ليطمئن قلبك. لا يمكنني القول أني سأكون أماً لها، فلا أحد يحل مقام الأم. لكن سأسعى لأكون أختاً كبيرة محبة لها.

في تلك الأثناء لمحنا رجلاً يخوض في ديس المستنقع. كان والد طالبي جعفر آغا. يتردّد على المستنقع لصيد الإوز البري.

اضطربت أم مؤنسة وقالت:

-سأذهب سريعاً يا سيدتي. يجب أن لا يراني أحد معك.

يبدو أن هذه المرأة المسكينة تتحلى بخصال حميدة. لقد أدركت ذلك من كلامها ومن ردة أفعالها. لقد كان حدسي صائباً، فجمال روح مؤنسة ورقة ملامح وجهها أخذتها من أمها عاثرة الحظ. لقد أثار مشاعري،

ارتباكها واهتمامها كي تجنّبني الإشاعات، لذا قررت إطالة الجلوس معها، كي أشعرها بالأمان على ابنتها، وأظهر لها عدم اهتمامي بالإشاعات:

-لا داعي للعجلة، ابقى قليلاً.

ارتعشت شفتا المرأة المسكينة ونظرت إلى يدي بامتنان عميق، كأنها ترغب بتقبيلها، لكن لم تواتيها الجرأة على لمسي.

جلسنا على جذع شجرة حور هزيلة أطاحتها العاصفة الأخيرة، وأجلسنا مؤنسة بيننا. شعرت المسكينة بضرورة رواية حكايتها لي بصراحة وتفصيل كي تفضفض عن نفسها...

أحداث حياة هذه المرأة كانت عادية شابها جانب حزين. وُلدت في استانبول في حي "رومالي كافاي" من عائلة متواضعة. بعد أن توفي والدها، تبنتها عائلة من "بكيركوي". عاملتها العائلة كأحد أفراد الأسرة دون تمييز. طُلبت يدها أكثر من مرة بعد بلوغها سن الخامسة عشر، والسادسة عشر. كانت ترفض الزواج دائماً وتتذرع بمبررات مختلفة، لأنها كانت تعشق سيد البيت الصغير. سيد البيت الصغير هذا، كان شاباً لم تخط شواربه بعد، وما زال في المدرسة العسكرية. في الحقيقة، لم يكن لديها أدنى أمل بزواجه منها، لعلمه أنها ليست سوى فتاة عادية يتيمة. كان أقصى أملها أن تبقَى في بيت العائلة لترى وجهه وتسمع صوته في نهاية كل أسبوع.

في تلك الأثناء، عُيّن سيد البيت الكبير مديراً للمالية في (ب)، فانتقلت العائلة بكاملها للإقامة هناك، وبقي ابنهم في المدرسة العسكرية في استانبول.

مضت أربعة أشهر في (ب) كأنها أربع سنوات دون أن ترى شابها. كادت أن تجن من شدة الشوق إلى رؤيته. أخيراً جاء السيد الصغير إلى (ب) لقضاء عطلة الصيف...

حدث ما حدث، وعلمت العائلة بما جرى، فجن جنونهم، وقرروا طردها من البيت، وتركها في كنف امرأة عجوز في قرية مجاورة. توفيت أخت مؤنسة الكبيرة في الرابعة من عمرها، بعد إصابتها بالدفتريا، هناك. من كان سيتقدم للزواج من فتاة لديها طفلة؟ أخيراً، وبعد طول معاناة، تزوجها موظف أحراج عجوز. في بداية الأمر، رضيت بقدرها، لكن مع مرور الأيام، تعاظمت تعاستها، وبدأت تشعر بالاختناق، تذبل وتذوى في غرفتها المظلمة الكئيبة.

بينما كانت المرأة المسكينة تروي قصتها، بدا الأسى على عينيها والوهن على جسدها، كأن الأحداث بظلاميتها تتراءى أمام ناظريها.

في ذلك الوقت، فرقة من الدرك جاءت إلى القرية لملاحقة قطاع الطرق، ونصبوا الخيام جوار ديس المستنقع، وأقاموا هناك بضعة أسابيع. شاب من بين الدرك، راح يلاحقها. انساقت المرأة للشيطان في النهاية، فتركت زوجها وطفلتها وهربت مع الضابط...

أثّرت بي هذه القصة كثيراً. كان المساء يقترب. تركت مؤنسة وأمها وحدهما، وسرت الهوينى نحو المدرسة. ربما يرغبان بالتحدث فيما بينهما، ربما يرغبان بالعناق والبكاء، ربما لن يجتمعا بعد هذه اللحظة أبداً، وحسرة الفراق ستبقى جرحاً في قلبهما.

أثناء توجهي نحو المدرسة، كنت أثب فوق حجارة القبور وأفكر بشرود. مؤنسة، لقد أحببتك وأشفقت عليك لأنك وحيدة. الآن، في

هذه الدقيقة، أغبطك. أغار من أمك، وإن كانت أماً بائسة وتعيسة. بينما تغادرين مسقط رأسك، ستحملين معك إلى حيث تغادرين، نظرات أم تفارق ابنتها، ولذة مرّة لدموع الأم على شفتيك، ذكرى في مخيلتك.

(ب)، ٢٠ آذار

هذا الصباح، ذهبت إلى مديرية المعارف، أحمل حقيبة مليئة بما أحضرته معي من أوراق مدرسية من قرية الزينيّون. كان الوقت مبكراً، أبواب المديرية كانت قد فُتحت قبل وصولي بقليل، ولا يزال النعاس ظاهراً في عيون من قدِم من الموظفين، وقد همّوا بشرب القهوة ونفث دخان النراجيل.

رجل ذو لحية سوداء مجعدة وياقة منشاة، كان يجلس مكان رئيس الكتّاب ذي النطاق الأحمر. استفسرت من أحد الفراشين، فأخبرني أن مدير المعارف ورئيس الكتّاب قد استبُدلا، وأن أي استفسار يتعلق بالوظائف يتم من خلال هذا الرجل الملتحي.

اقتربت منه وألقيت التحية. أخبرته بأني معلمة مدرسة الزينيّون التي أغلقت بأمر السيد مدير المعارف، وجئت لأسلّم أوراق المدرسة.

فكر رئيس الكتاب قليلاً، ثم قال:

-ها... صحيح. حسن جداً. انتظري قليلاً في الخارج حتى يأتي السيد المدير.

كان لابد من انتظاري لثلاث ساعات كاملة لحين مجيء المدير، في ردهة المديرية المعتمة الخانقة. العابر لمثل هذه الأماكن المزدحمة بالمراجعين، يمعن النظر إلى الجالسين، وقد يرمي كلمة أو قولاً عابراً.

ارتكزت على إحدى درجات سلم مكسور سُند إلى جوار إحدى النوافذ، أنتظر مجيء المدير.

كانت النافذة تطل على ساحة مدرسة دينية خراب. طالب بسروال أزرق فضفاض يجلس على حافة حوض الوضوء، شمّر عن ذراعيه يقشّر خضاراً، وشجرة دلب باسقة تتلاعب العصافير على بعض من أغصانها، بينما دخل عبر النافذة بعضٌ من أغصانها.

كانت الأفكار تتراقص في ذهني، وقد ارتكز مرفقاي على ركبتيّ، وذقني بين راحتيّ.

صباح أمس، قبيل مغادرتي للزينيّون، جميع طلابي، الصغار والكبار، جاءوا لتوديعي حتى طريق العربة أعلى الجبل الجلمود. لقد أحببتهم، وتعلقت بهم، وأشعر الآن بفراغ كبير لابتعادي عنهم، دون إرادتي. يا لطيبة قلبي! كم آلف من يحيط بي سريعاً! كان صهري العزيز يأخذ يدي بين راحتيه ويقول:

-يا لطيبة قلبك يا ابنتي، تحاولين الوقوف بعيداً عن الغرباء، لكن سرعان ما تألفينهم وتتعلقين بهم.

يبدو أن صهري كان بعيد النظر. كنت أشعر بميل نحو كل هؤلاء الأطفال. أشفق على بؤسهم، جميلهم وقبيحهم عندي سيان. هل كُتب عليّ أن أترك في كل مكان أنفصل عنه، قطعةً من قلبي؟

لقد قبّل الأطفال يدي بالدور، وقدّم لي الراعي محمد وزهراء، جدياً حديث الولادة. تأثرت كثيراً من هدية الرجل... الجدي الصغير كان لا يزال مغمض العينين. تركته لمؤنسة تحتضنه. بدأت أجراس العربة بصوتها الرثائي يتردد في الوادي، ورحنا نبتعد رويداً رويداً عن الزينيّون،

ملوحين بالمناديل للأطفال حتى اختفوا عن ناظرنا بين صخور الجبل السوداء.

حين وقفت العربة بباب الفندق، كان حجّي كلفا في حالة انفعال وغضب.

كان الرجل العجوز يطارد قطاً ضخماً قفز من الباب حاملاً قطعة كبد في فمه. وبينما كان حجّي كلفا يحمل خرطوم النارجيلة ملوحاً به كالسوط يصيح: "توقف يا قط الزنديق، سأسلخ لك جلدك!"، مر بجانب العربة، فناديت: "حجّي كلفا!".

توقف متلفتاً حوله يبحث عمن ناداه، وما إن رآني داخل العربة حتى رفع ذراعيه وصاح في وسط الشارع بأعلى صوته: "سيدتي المعلمة، عيناي الاثنتان!".

بدا على الرجل فرح ما بعده فرح، ثم التفت إلى القطة التي تحاول تسلق جدار خرابة ولا تزال قطعة الكبد في فمها، وصاح بسعادة:

-تصلي بالسلامة، لا تخافي، تسمميها، حلال عليك!

ثم تقدم نحوي. كانت السعادة تغمره حتى أنه لم يلاحظ مؤنسة تتعقبني محتضنة الجدي حتى وصلنا الطابق الثاني للفندق، فسألني:

-من هذه الطفلة، يا معلمة؟

-ابنتي يا حجّي كلفا. ألا تعلم أني تزوجت في الزينبّون، وأنجبت هذه الطفلة؟

داعب حجّي كلفا ذقن مؤنسة وقال:

-صدّقتك! ستتزوجين، إن شاء الله. بنت مثل الوردة، ما شاء الله! لحسن حظي، فغرفتي ذات العصفور الأزرق لا تزال شاغرة.

فرحت كثيراً. في المساء، أصر حجّي كلفا على دعوتي لتناول العشاء في بيته.

حاولت التمنّع، متذرعة بتعبي الشديد، لكن دعوة الرجل العجوز كانت بمثابة أمر لا مجال لرفضه.

-لا أصدق ما تدعينه. سامحك الله، أعلم أنك لن تشعري بالتعب حتى لو سافرت ستة أشهر، سيراً على الأقدام.

كانت الأمور تسير على أحسن ما يرام، ولا شيء يعكر صفوي. لكن، مساء أمس، شعرت بالقلق بعد أن أجريت حسبة لمدخراتي. النتيجة لم تكن كما آمل. أعدت الحسبة مرة أخرى، لكن لسوء حظي، حسبتي كانت صحيحة. لم أتمالك نفسي من الضحك والسخرية من نفسي، رغم شعوري بالأسى. كنت أظن أني استطعت الوقوف على قدمي، وأعيل نفسي من جهدي الخاص. لكن تبين لي أني لم أفعل شيئاً سوى إنفاق معظم مدخراتي.

تذكرت ما قالته المربية غوليسال حين باعت إحدى ماسات أمي، وناولتني ثمنها في كيس صغير، وحذرتني من التصرف بهذا المال إلا عند الحاجة القصوى.

ما قالته المربية غوليسال كان صائباً.

لقد أنفقت الكثير من المال حتى الآن... ولم أحصل على عمل لفترة طويلة. أجور السفر كانت مكلفة. لم آخذ بالحسبان أني لست سوى معلمة فقيرة تعمل في القرى. لم أبخل على أي فقير طلب المساعدة مني، ولم أرد جائعاً أو محتاجاً، وهم كثر...

راتبي الضئيل ما كان ليكفي كل مصاريفي هذه، والأسوأ من ذلك، أوقفوا صرفه لي منذ شهرين.

وهكذا، كلما شعرت بالحاجة لبعض المال، كنت أمد يدي داخل هذا الكيس، وأنفق دون تقدير. بدأت أشعر بتناقص وزن هذا الكيس، لكنني لم أكن أجرؤ على حسبة ما تبقى داخله. إذن، كل ما جنيته في أشهري الخمسة الماضية، لم يسد رمقي، ولا أزال أعيش عالة على مساعدة عائلتي.

بينما كانت هذه الأفكار تتراقص في ذهني، مداعبة أوراق شجرة الدلب المطلة عليّ من النافذة، كان الضحك والبكاء معاً يراوداني. حاولت أن أسلي عن نفسي:

"لا تبتئسي يا طائر النمنمة، حتى لو لم تجني المال الكافي، ألا يكفيك ما انكشف عليك من معرفة لمرارة الحياة وصعوبة كسب لقمة العيش؟ لقد كبرت وأصبحت شابة قادرة على مواجهة الصعاب!".

وبينما كنت غارقة في بحر هذه الأفكار، ماجت الردهة بصخب مرتبك مفاجئ. حاجب عجوز، يحمل معطفاً في يد، وعصا منمقة في اليد الأخرى، كان يهرول نحو غرفة المدير.

بعد دقائق رأيت المدير ذا القامة القصيرة، يصعد الدرج مختالاً، ونظارته الأحادية تلمع. هممت بالدخول خلفه إلى غرفته. الحاجب العجوز الذي كان يحمل المعطف والعصا قبل قليل، صدّني وقال ناهراً:

-توقفي يا سيدة، انتظري حتى يرتاح السيد قليلاً. لِمَ العجلة الآن؟ ألم تنتظري في بطن أمك تسعة أشهر طوال؟

لم أشعر بالضغينة، فقد اعتدت على السير البطيء للمعاملات الرسمية، بل على العكس، رجوته بصوت مستعطف:

-عزيزي بابا، نادني بعد أن يرتشف السيد قهوته. لكن لا تنسَ أن تخبره أن المعلمة التي ينتظرها، قد أتت.

لم يكن مدير المعارف ينتظرني، لكنني ادعيت ذلك، كي لا يستهين الحاجب بأمري. يبدو أن الحياة تعلم المرء بعض الخداع.

بعد بضع دقائق، خرج الحاجب العجوز من الغرفة. لم يتمكن من تمييزي بسبب جلبابي الأسود، فراح يحدث نفسه بصوت مرتفع:

-أين هذه المرأة؟ يا إلهي! وضعتني في موقف حرج أمام المدير. اختفت بعد أن طلبت مني أن أخبره بمجيئها.

-لا تقلق يا بابا، أنا هنا. هل أدخل؟

-هيا ادخلي.

كان المدير جالساً بعظمة خلف مكتبه، وقد خلع طربوشه، وسيجار غليظ بين شفتيه، ورجل مسن يجلس كالمتواري بين ثنايا أريكة لشدة ضآلة حجمه، يتحدث بصوت جهوري لا يتناسب وحجمه.

-عزيزي، عجبي من هذه البلد! يبذرون أموالهم بأمور تافهة، ولا يفكرون بأهمية عمل بطاقات تعريف شخصية. مائة مراجع يقف بالباب يطلب رؤيتي، ولا يستطيع الحاجب أن ينقل أسماءهم بشكل صحيح. ذلك يسبب خلطاً وإرباكاً. أؤيد بشدة إصلاحات بطرس الأكبر الإدارية. يجب مراقبة الحياة الخاصة للموظف العام إضافة إلى حياته الرسمية، مأكله ومشربه، الأماكن التي يتردد إليها في أوقات فراغه، وحتى ملبسه. لقد عمّمت على المعلمين بضرورة حلاقة ذقونهم مرة كل يومين على الأكثر، وعدم ارتداء بناطيل غير مكوية، وقمصاناً من دون ياقة منشّاة، وسأعزل كل من لا يلتزم بتعليماتي. أمس، دخلت

إحدى المدارس في مهمة تفتيشية. حين تقابلت ومعلم المدرسة، تظاهرت بعدم تعرّفي عليه، وقلت له "اذهب وأخبر المعلم بمجيء مدير المعارف" فأجابني:

-أنا المعلم، يا سيدي.

- لا أظن ذلك. لابد أنك فراش المدرسة. مظهرك ليس بمظهر معلم. لو أصادف معلماً مرتدياً على هذا النحو، لجذبته من ذراعه وألقيت به إلى الشارع.

جمد الرجل في مكانه. دخلت دون أن أبالي به. سأعود ثانية إلى المدرسة غداً. إن رأيته لا يزال بالمظهر نفسه، سأعزله في الحال.

كنت انتظر المدير حتى يسكت، كي أبدأ كلامي، لكن يبدو أن لا نية له بالسكوت، وظل يتابع التهديد والوعيد بحماس:

-نعم يا عزيزي، منذ فترة وجيزة عممت على المدارس بوجوب قيام المعلمين والمعلمات بطباعة بطاقات تعريف شخصية، وأن المراجعات لمقامنا لا تُقبل دون تلك البطاقة. لكن يبدو أن لا حياة لمن تنادي!

ثم استدار نحوي فجأة وتابع كلامه:

-أنا على استعداد للدخول في رهان أن هذه العلمة قد استلمت التعميم، لكنها لا تزال تراجعني دون بطاقة تعريف. علاوة على ذلك، طلبت من الحاجب إخباري "السيدة التي تنتظرونها قد أتت!". الأغنية نفسها. من؟ أية سيدة؟ أذات الرداء الأحمر؟!

جمدت في مكاني من شدة الارتباك. إذن، كل هذا الهمز واللمز كان موجهاً ضدي، لأني طلبت الدخول دون بطاقة تعريف!

بعد طول تردد قلت:

-لم أتلقَ أي كتاب بهذا الخصوص، يا سيدي.

-كيف ذلك؟ أين تعملين؟

-في مدرسة الزينيّون. لقد أمرتم بإغلاقها حين زرتموها الأسبوع الماضي.

رفع مدير المعارف أحد حاجبيه مفكراً:

-ها، تذكرت. ماذا فعلت، هل انتهت المعاملة؟

-تم ما أمرتم به، يا سيدي، وأحضرت جميع الأوراق كما طلبتم.

-حسناً، سلميها لرئيس الكتاب كي يدققها.

دام تحقيق رئيس الكتّاب العجوز ذي الياقة القذرة، معي أكثر من ساعتين. يدقق مراراً وتكراراً الأوراق ويقول: "سندات المتفرقات، الأوراق الثبوتية، المراسلات الرسمية، نسخ البيانات..."، ويسأل عن أمور لم أفهم غالبيتها، ويعترض على المضابط التي أحضرتها من الهيئة. وحين أرتبك وأقع في حيرة، يلوي شفته ويقول "هذا شكلي يا معلمة!"... إلى أن كاد يدفعني إلى البكاء حين ألغى وصلاً مالياً بذريعة خطأ في طابع الواردات.

لم يقف عند هذا الحد، بل راح يسائلني عن سند مالي بقيمة مائتين وخمسين قرشاً حُرّر قبل سنوات، لإحدى المعلمات لإصلاح سقف المدرسة، ويقول محتداً: "أين هذا السند؟ أين فواتير صرفه؟ إن لم تبرزينها ستحولين إلى المحكمة!".

-على رسلك يا سيدي، لم يمضِ على تعييني في تلك المدرسة سوى نصف سنة.

حاولت إقناعه أن لا علاقة لي بما جرى في المدرسة قبل تعييني، لكن دون جدوى. أخيراً، حمل كافة الأوراق، ودخل غرفة المدير بعد أن قال:

-حسبي الله ونعم الوكيل. لا أقبل هذا التسيّب يا سيدتي. هذه الأخطاء تدفع بي إلى الجنون.

كاتبان كانا معنا في الغرفة نفسها. أحدهما يعتمر عمامة، والآخر شاب لم يخط شارباه بعد. كان كل منهما يجلس خلف مكتبه متظاهران بالعمل، وكأن حديثي ورئيس الكتّاب لا يعنيهما.

ما إن خرج رئيس الكتّاب من الغرفة باندفاع واحتداد، حتى وثب الكاتبان عن مقعديهما، واندفعا نحو باب غرفة المدير. وضعا أذنيهما على الباب وأصغيا السمع.

يبدو أن رئيس الكتّاب لم يتوقّع أن يتلقّى توبيخاً من المدير. بعد دقيقتين، ارتفع صياح من غرفة المدير، لم نسمعه وحدنا فحسب، بل كل من كان يمر من الشارع أيضاً. طبطب الكاتب المعمّم على زميله الشاب وقال:

-لينصرك الله أيها السيد المدير. لا يحجّم عديم الدين سوى عديم الإيمان!

كان مدير المعارف يصيح برئيس الكتّاب:

-لقد بدأت أشعر بالضجر منك. ما هذا العقل المتحجر، ما هذا الرأس العفن؟ الحق كل الحق مع المرأة حين قالت لك أنها لا تستطيع أن تخلق لك سنداً مضى عليه سنوات عدة. إن كان عقلك غير قادر على الاستيعاب، اذهب من هنا. ليسّر الله طريقاً آخر لك. ليكن في علمك، إن لا تذهب برضاك، سأعزلك بنفسي. قدّم استقالتك وسأوافق عليها

في الحال. لست رجلاً إن لم تقدّم استقالتك.

يا إلهي! قلبي يكاد أن يتوقف من هول ما يجري. وجّهت كلامي إلى الكاتبين:

-آه يا سادة، يبدو أني سبب هذه المشكلة دون رغبتي. سأذهب. لا أريد أن يراني بعد ما جرى له بسببي. قد يُسمعني كلاماً يزعجني.

كان الكاتب المعمم يرقص طرباً:

-أمر عادي يا أختي، عادي جداً! لا تبالي. هذا الحقير يستحق ما جرى له. هذا الكلب ابن الكلب، لا يهنأ له بال حتى يوقفه عند حده من هو أشد منه وقاحة. بارك الله فيك. سيخمده هذا التقريع بضعة أيام، ويهدأ بالنا أيضاً.

ما إن انقطع الصوت حتى هرول الكاتبان كل إلى مكتبه. تمتم الكاتب المعمم:

-صدق من قال: لا يحجّم عديم الدين سوى عديم الإيمان.

عاد رئيس الكتّاب وقدماه حتى لحيته ترتعش. نظر بإحدى عينيه، دون أن يدير رأسه كالإوزة، يرمق الكاتبين، وقد تظاهرا بالانهماك في أعمالهما بهدوء وسكينة. جلس في مكانه يتمتم بهدوء، لكنه لم يقوَ على متابعة عمله. بعد أن تأفّف مرات عدة، راح يتكلم بصوت منخفض:

-هذا الحقير، لا يزال جاهلاً بالمعاملات الرسمية، رغم أنه شغل وظائف عدة حتى بلغ الخمسين من عمره. بعد أن يغادرنا إلى جهنم عن قريب، ستقع نتائج جهالته على رأسنا. ماذا سيجري لنا إذا ما حط أحد المفتشين فوق رؤوسنا، ووقعت هذه المعاملة بين يديه؟ ألن يقول لنا: "يا مغفلين برأس حمار! أين الأوراق التي تثبت الجهة التي صُرف لها المائتين

والخمسين قرشاً؟ ما نفع أعينكم إن كانت لا ترى هذه المخالفة؟". من المؤكد أنه لن يكتفِي بالكلام، بل سيحوّلنا جميعاً إلى المحكمة. أموال خزينة الدولة لا يمكن العبث بها، حتى لو متنا، ستحصّل هذه الأموال من أولادنا وأحفادنا حتى بعد مضيّ مائة سنة.

كان الكاتبان يرفعان رأسيهما عن أوراقهما، ويتظاهران بالإصغاء واحترام ما كان يصدر منه من كلام ووعيد.

وجد رئيس الكتّاب أن الأجواء مواتية للسؤال:

-هل سمعتما ما كان يهذر به هذا السفيه؟

رفع الكاتب المعمم رأسه وقال بدهشة:

-خير إن شاء الله، سمعنا أصواتاً، لكن أكنت أنت؟

-بعضه كان لي، الغبي يظن نفسه عالماً.

-لا تبتئس يا سيدي. لا علم له بالإجراءات الرسمية. لولاك يا عالي المقام لاختلط الحابل بالنابل في هذه الدائرة خلال ثلاثة أيام.

يا إلهي، يا لهول هذا النفاق! هذا الكاتب المعمم كان قبل قليل، يرقص فرحاً مثل الأطفال حين تعرّض رئيس الكتّاب للتحقير.

مع ذلك، فقد صدق الكاتب المعمم في كلامه. رئيس الكتّاب لان وبدا هادئاً على نحو لا يُوصف، بعد أن مر بعاصفة التوبيخ تلك.

أشعل سيجارة، ونفث دخانها حوله، ثم قال:

- لا تبالِ يا رجل. هل هناك من خدم الدولة ودعوا له الله ليباركه؟

ثم استلم مني الأوراق بكل يسر ودون أدنى تأخير.

بعدذلك، قرّرتُ الدخول ثانية عند مدير المعارف لأستفسر عن مكان عملي الجديد. غشاوة كانت على عينيّ ورجفة في ركبتيّ من شدة الإرهاق.

كان المدير مهتماً بأمر آخر. يأمر الخدم بنزق، ليمسحوا الغبار عن أثاث الغرفة، يغيّر مواقع الصور على الجدران، ويعاين من حين لآخر، شعره وربطة عنقه، بمرآة يد صغيرة.

السيد العجوز كان لا يزال يجلس في الركن نفسه. من خلال الحديث الذي دار بينهما، أدركت سبب اهتمام المدير بترتيب غرفته: أقيم مساء أمس، حفل على شرف صحفي فرنسي يدعى بيير فور، في دار الوالي، وهناك، تعرّف مدير المعارف على الصحفي وزوجته. بيير فور رجل مثير للانتباه. يرغب الرجل البقاء بضعة أيام في (ب)، ليكتب في صحيفته سلسلة مقالات بعنوان "بضعة أيام في (ب) الخضراء.

كان المدير يتحدث بحماس:

-وعدني الزوج والزوجة بزيارتي في مكتبي، اليوم في الساعة الثالثة. سآخذهم في جولة لزيارة مدارسنا. في الحقيقة، لا يوجد ولا مدرسة واحدة يمكننا أن نتباهى بها أمام الأوروبيين. لكن لابد من تصرفي بسياسة. على أية حال، آمل أن نحظى بمقالة لصالحنا. الشكر لله، أن هذه الزيارة تتمّ بوجودي، ولو جرت في زمن سَلَفي، لأوقعنا في موقف حرج أمام الأوروبيين.

كنت لا أزال قرب الباب، أنتظر جوار الحاجز الخشبي، حين قال على عجل:

- ماذا يوجد ثانية، يا سيدة؟

-أكملت المعاملة، يا سيدي.

-حسن جداً، أشكرك.

-!!!

-أشكرك، بإمكانك الذهاب.

-كنتم ستصدرون قراراً آخر. وظيفة بديلة لي.

-صحيح، لكن لا شاغر عندي حالياً. سنفعل شيئاً في حال حصول شاغر. سجّلي اسمك في الديوان.

كان مدير المعارف يتحدث على نحو عجول وقطعي، منتظراً خروجي على الفور.

"في حال حصول شاغر!"

سمعت هذا الكلام مرات عديدة في وزارة المعارف في استانبول، وأعلم جيداً ما يعني. صوت المدير النزق، أحيا التمرد الذي أحمله في داخلي. بعد أن خطوت نحو الباب خارجة، تراءى طيف مؤنسة تلاعب جديها الصغير تنتظرني في غرفتنا في الفندق. أجل، ما عدت الآن، فريدة القديمة. أنا الآن، قد أصبحت أماً وأحمل مهاماً ثقيلة على عاتقي.

في تلك اللحظة، استدرت ثانية. أملت رأسي إلى صدري، كفقيرة تمدّ يدها للمارة من حولها في الشارع تحت المطر، وقلت بصوت استجدائي مرتبك:

-سيدي، أشعر بالخجل أن أقول إني في وضع حرج، ولا مجال أمامي للانتظار. إن لم تجدوا لي عملاً في الحال...

لم أعد قادرة على متابعة كلامي. ضاق صدري من الخجل واليأس، واغرورقت عيناي.

أجاب بالنبرة العصبية النزقة نفسها:

-قلت لك يا سيدة، لا شاغر عمل عندي الآن، سوى في مدرسة في قرية "تشادرلي". لكن لا أتحمل عاقبة ذهابك إلى هناك. يقال إنه مكان

سيء للغاية. لا مبنى خاص للمدرسة ولا مكان لإقامة المعلمة هناك. يُستخدم مقهى القرية لتدريس الأطفال. إن شئت أعيّنك هناك في الحال، أو لا خيار آخر لك سوى الانتظار.

-.......

-هيا، يا سيدتي، أنتظر جوابك.

على أية حال، لقد سمعت سابقاً عن تشادرلي: قرية أسوأ من الزينيّون! لكن القبول بها، سيكون أفضل من الضياع هنا بالانتظار لأشهر دون دخل.

أملت رأسي إلى صدري، وقلت بصوت كالهمس: "لا بأس، أنا مجبرة على القبول".

لكن المدير لم يسمع ردّي، فالباب قد فُتح في تلك اللحظة، وانطلق صوت من الخارج يصيح: "لقد أتوا!".

انطلق المدير نحو الباب، بينما كان يشدّ أزرار سترته، لم يبقَ أمامي سوى المغادرة بخيبتي. لكنني سمعته يقول بالفرنسية "تفضلوا بالدخول".

تقدمت شابة بمعطف سميك، ما إن رأيت وجهها حتى انطلقت مني صيحة اندهاش خافتة، دون إرادتي. زوجة الصحافي ليست سوى كريستيان فاريز، إحدى صديقاتي القديمات في المدرسة الفرنسية.

لقد سافرت كريستيان مع عائلتها إلى فرنسا، في إحدى العطل، وتزوجت من أحد أبناء عمومتها المحرر في إحدى الصحف هناك، ولم تعد إلى استانبول ثانية.

لقد تغيّرت صديقتي خلال بضع سنوات، على نحو لا يُصدّق. بدت امرأة في منتهى الأناقة. ما إن سمعت صوتي حتى التفتت نحوي. لقد عرفتني في الحال، رغم الخمار الذي يغطي وجهي.

-طائر النمنمة، يا طائر النمنمة الصغيرة! أنت هنا، يا لهذه الصدفة السعيدة!

كنت الأقرب إلى قلب كريستيان بين كل صديقاتنا. أمسكت يدي وجذبتني إلى وسط الغرفة. رفعت طرف خماري وراحت تقبّلني من وجنتي.

كنت أدير ظهري لزوجها ولمدير المعارف، لذا لم ألحظ مدى دهشتهما من هذا الموقف. كما تعمدت دفن وجهي في كتف صديقتي، كي لا يلحظا عينيّ الدامعتين.

-آه يا طائر النمنمة، من الممكن أن يخطر ببالي أي شيء إلا أن أقابلك هنا في جلباب أسود تقليدي تركي، وعينين مغرورقتين.

بدأت أتمالك نفسي شيئاً فشيئاً. حاولت إسدال خماري، لكنها أوقفتني وأدارتني نحو زوجها وقالت:

-بيير، أعرّفك بطائر النمنمة.

بيير فور، رجل طويل القامة، أشقر وجميل الطلعة. لكنه متهور قليلاً، أو ربما هكذا رأيته مقارنة بمن حولي من الناس المتزمتين. قبّل الصحافي يدي، وراح يتحدث كأننا نعرف بعضنا منذ سنين:

-مدموزيل، أنا سعيد جداً. هل تعلمين؟ كانت كريستيان تحدثني عنك دائماً. لسنا غرباء أبداً... كنت سأعرف أنك طائر النمنمة دون أن تعرفني كريستيان بك. لكم صورة مشتركة مع صديقات ومعلمات

المدرسة، أسندت فيها ذقنك على كتف كريستيان. ألا ترين أني أعرفك جيداً؟

نسيت كريستيان وزوجها وجود مدير المعارف تماماً واستغرقا في التحدث إليّ. في خضم الحديث هذا، أدرت رأسي بحركة لا إرادية فشاهدت منظراً، لو كنت في مكان آخر لضحكت مقهقهة. مدير المعارف وعدد من الضيوف تحلقوا حولنا، قد فغروا أفواههم مندهشين من قدرتي على التحدث بالفرنسية بطلاقة، كقرويين يتابعون ساحراً خلب عقولهم ببراعته.

الأشد طرافة في هذا المشهد، كان وجود مهندس الأشغال طويل القامة الذي سبق وأن أتى إلى الزينيّون! لقد علمت لاحقاً أن هذا المهندس يعمل مرافقاً للضيوف. لقد حقّق هذا الرجل مراده، ورأى وجهي دون خمار. أظن أنه سيشعر بالحرج حين يتذكر ما قاله لمدير المعارف عني في القرية.

على أية حال، ما حدث قد حدث. رؤية صديقتي لي بهذا المظهر البائس، جرح كبريائي. وكي لا أضيف ذلاً معنوياً إلى مظهري البائس، تابعت حديثي بحبور وبصوت مرتفع وغاية في الجرأة.

أخيراً رأى مدير المعارف أن يضع حداً لهذا الموقف. بادر إلى الانحناء بقامته القصيرة على نحو مضحك، وقال مشيراً إلى الأرائك:

-أرجو أن تجلسوا وترتاحوا.

وهكذا، وجب عليّ الذهاب. قلت لكريستيان بصوت منخفض:

-أرجو المعذرة فأنا مضطرة للذهاب.

لكنها تشبثت بي كصمغ شجر الصنوبر وأصرّت على بقائي. لاحظ مدير المعارف إصرار صديقتي. فاجأني هذا الرجل الذي أساء معاملتي قبل قليل، حين انحنى أمامي باحترام عميق ودعاني إلى الجلوس:

-أرجوك يا سيدتي، تفضلي بالجلوس.

جلست إذ لم يبقَ لي عذر. أما كريستيان فلم يستوعب عقلها بعد وجودي هنا وبهذا الجلباب المتواضع أيضاً. قالت لزوجها:

-أريدك أن تعلم يا بيير، أن فريدة فتاة رائعة، وأنها ابنة لأكثر عائلات استانبول رقياً وأصالة، وأن ذكائها مبهر، وذات شخصية جميلة... لكن رؤيتي لها هنا، يذهلني!

مديح صديقتي لي أسعدني وأخجلني في آن واحد.

كانت عيناي تتلاقى وعينا مدير المعارف، من حين لآخر. لا يزال الرجل في حيرة مما يرى ويسمع. أما مهندس الأشغال غير المحترم! فقد اختبئ في إحدى زوايا الغرفة دون أن تكفّ عيناه عن محاصرتي.

كنت أتجنب النظر نحوه، لكن نظرات عينيه نحوي كانت تسبب لي الإزعاج كذبابة تحوم حول وجهي تقززني دون أن أراها.

كان لابد من تبرير ما أنا عليه من حال كي أجيب على تساؤلات كريستيان:

-لا شيء يدعو إلى الدهشة والحيرة. لكل امرئ طموح يروم تحقيقه. أنا أيضاً، أطمح أن أكون معلمة منذ صغري، أن أعلّم أطفال المناطق النائية عن طيبة خاطر. أنا راضية بحياتي، وما أقوم به ليس مجرد مغامرة خطيرة مثل القيام برحلة حول العالم بمركب شراعي. يدهشني عدم اقتناعك بعقلانية ما أقوم به.

وقال مسيو بيير بحذلقة وصوت واثق:

-أنا أفهمك جيداً، يا مدموزيل، وكريستيان أيضاً، تفهم تطلعات روحك السامية. لكنها فوجئت بحال لم تكن تألفها. لكن محصلة الأمر، هي أن جيلاً جديداً من الشابات اللاتي تلقّين تربية غربية عالية في استانبول قد نشأ. لقد تحررن مثل بيير لوتي، من نزعة التزمّت عند الجيل السابق. فضّلن العمل على العيش في الأوهام الزائفة، وتركن رفاه وهناء العيش في استانبول، وأتين إلى الأناضول لإيقاظه من غفلته. كم هو جميل وسامي نكران الذات هذا! سأجعل منه موضوعاً مثيراً لإحدى مقالاتي، وسأذكر اسمك مدموزيل فريدة طائر النمنمة، من بعد إذنك، كأنموذج مثالي عن صحوة الأتراك.

قلت بانفعال:

-كريستيان، إن سمحتي لزوجك بذكر اسمي في الصحيفة، اعتبري أن صداقتنا قد انتهت.

فهم بيير فور رغبتي بعدم ذكر اسمي، على نحو خاطئ:

-هذا التواضع أيضاً سامي جداً، يا مدموزيل. النزول عند رغبة شابة متفانية مثلك واجب. هل يمكنني سؤالك عن اسم البلد والمدرسة التي تعملين بها؟

ألم أقل ما حدث قد حدث! استدرت نحو مدير المعارف، وخاطبته بالتركية:

-ما اسم قرية المدرسة التي اخترتها لي؟ أظن أن اسمها تشادرلي...

فتح بيير فور دفتر ملاحظاته وقال:

-تمهلي، تمهلي. ماذا قلتِ؟ تشايرلا أم تشانرلي يا مدموزيل؟ إذا سنحت لنا الفرصة غداً، سنزورك بين طلابك، في قريتك الجميلة خلال جولتنا في الولاية.

احمر وجه مدير المعارف. نهض من مكانه وقال:

-مدموزيل فريدة تصرّ على العمل في القرية. لكنني على قناعة تامة أنها قادرة على تقديم خدمات أجلّ بتدريسها اللغة الفرنسية في دار المعلمات في مركز الولاية.

نظرت إليه بحيرة واستغراب، فاستأنف بالتركية موضحاً:

-لم تخبريني بأنك تجيدين الفرنسية وخريجة المدرسة الفرنسية. الوضع اختلف تماماً. سأرفع توصية إلى الوزارة لتعيينك معلمة اللغة الفرنسية في دار المعلمات، وستعملين مساعدة لحين صدور قرار تعيينك. تباشرين عملك غداً صباحاً، ما رأيك؟

ألا أعلم أن ظلام الليل مهما طال فلابد للشمس أن تشرق ثانية؟

مر طيف مؤنسة أمام عيني ثانية. لكن طيفها لم يكن كالسابق طفلة فقيرة تلاعب جديها الصغير في غرفة الفندق، بل طفلة ميسورة الحال تلعب في حديقة منزل محاط بالزهور.

قبيل فراقنا، أخذتني كريستيان جانباً:

-فريدة، أذكر أنك كنت مخطوبة، ألم تتزوجا؟

-......

-لا تجيبين، أين خطيبك الآن؟

أملت رأسي إلى صدري، وقلت بكل هدوء:

-فقدناه الخريف الماضي.

تأثرت كريستيان كثيراً:

-كيف يا فريدة، أصحيح ما تقولين؟ آه، مسكينة أنت يا طائر النمنمة!... فهمت الآن أي ريح رمتك هنا.

كانت يداها الممسكتان بمعصمي ترتعشان بشدة:

-فريدة، كنت تحبينه كثيراً، أليس كذلك؟ لا تخفي يا صغيرتي، كنت تتهربين من الاعتراف بحبك، لكن جميعنا كنا نعلم ذلك.

بدت كريستيان وكأنها تتابع حلماً بعيداً، عيناها شاردتان، وصوتها يرتعش:

-كنت على حق، كان جديراً بمحبتك. كان يأتي لرؤيتك مراراً، وأذكر أنه مختلف عن الآخرين. وا حسرتاه! أحزن من أجلك كثيراً، يا فريدة. أظن أن لا مصيبة أكبر من أن تعيش الفتاة موت خطيبها الذي تحب.

حين قالت "أحزن من أجلك كثيراً، يا فريدة. أظن أن لا مصيبة أكبر من أن تعيش الفتاة موت خطيبها الذي تحب!"، خفضت نظري إلى الأرض، ثم أغمضت عينيّ وقلت: "صحيح، أنت على حق". ماذا كان يمكنني قول غير ذلك، في هذا الموقف؟ لكنني كذبت عليك يا كريستيان.

أعرف مصائب فتيات أشد من هذه. ليست كل فتاة عاشت موت خطيبها الذي تحب جديرة بالرثاء كما تظنين، يا كريستيان. قد تجد تلك الفتاة عزاء بالعيش مع خطيبها في مخيلتها وفي قلبها... وربما بعد مرور أشهر أو سنوات، حين تجلس وحيدة ليلاً، في غرفة باردة ومعتمة، في بلاد

الغربة، تستعيد نظرات عينيّ خطيبها في مخيلتها التي لم تكن ترى سواها. لكنني أفتقد هذا العزاء، يا كريستيان!..

(ب)، ٩ آذار

بدأت التدريس في دار المعلمات في (ب)، صباح هذا اليوم. يبدو أني سأكون سعيدة في هذا المكان الجديد. لكن لا يمكنني إنكار سعادتي في الزينيّون.

النظرة الأولى للزملاء الجدد، توحي بالاطمئنان. طالباتي بمثل عمري، بل ربما، بعضهن أكبر مني سناً، متزنات وعاقلات.

أما مدير الدار، السيد رجب، رجل معمم قريب للقلب. حين وصلت المدرسة، أدخلتني المعاونة إلى غرفة المدير، وطلبت مني انتظار عودته من المديرية.

أمضيت ما يقرب من نصف ساعة في انتظاره، أتأمل حديقة الاستراحة من النافذة تارة، وأحاول قراءة ما كتب بخطوط متشابكة على لوحات معلقة على الحائط، تارة أخرى.

حين وصل، كانت ثيابه تقطر ماء من شدة عاصفة رعدية واجهها في طريق عودته.

ما إن رآني في الغرفة حتى قال:

-أهلا وسهلاً، يا ابنتي. وصلني قرار تعيينك من المديرية، قبل قليل. ليباركنا الله جميعاً.

لحية شابت أطرافها تحيط بوجهه المكوّر ووجنتيه الحمراوين

كالتفاح، وحَوَلٌ في عينين تنظر في كل الاتجاهات...

نظر إلى ثيابه التي تقطر منها المياه وقال:

-كيف نسيت المظلة، لعنة الله على هذا الحظ العاثر! آفة النسيان أوصلتني إلى هذه الحال، إذ يقال إن عثرات الرؤوس التي بلا عقل تعاني منها الأرجل، لكن ثيابي التي تعاني، هذه المرة. أرجو المعذرة يا ابنتي، سأجفف ثيابي.

حين شرع بخلع معطفه، نهضت على قدميّ. هممت بالخروج قائلة:

-سيدي، لا أريد إزعاجكم، سأعود بعد قليل.

أشار بيده يأمرني بالجلوس ثانية وقال:

-لا داعي يا ابنتي، أنا مثل والدك، لا تكليف بيننا.

كان يرتدي ملبساً من الساتان الأصفر بخطوط طولية بنفسجية اللون، إذا نظرت إلى ياقته فهو قميص، وإذا نظرت إلى جيبه فهو صدارة.

سحب كرسياً وجلس إلى جوار المدفأة. وجّه نعلي حذائه الجلدي الضخم المزين بالمسامير على شكل حدوة الحصان، وشرع بالتحدث معي. لصوته رنين عجيب كقرع المعادن، ويلفظ حرف (ك) مثل (ج) المصرية.

-أنتِ لا تزالين صغيرة، يا ابنتي. (ما إن أسمع هذه الكلمة في أي مكان حتى أشعر بالانزعاج.) لقد سارت أموركِ أمس بكل سهولة ويسر! لكن المحافظة على الوظيفة أكثر صعوبة من الحصول عليها. عليكِ العمل في ضوء ذلك. أعامل المعلمات كأنهن بناتي. لكن الجدية مطلوبة. لقد ارتكبت إحداهن في الماضي القريب، خطأً لا يغتفر، للأسف، أنهيت خدماتها وطردتها دون أن أستشير مدير المعارف. أليس كذلك، يا سيدة

شهنازة؟ أثُبتِ عن فتح فمك؟

السيدة شهنازة كانت مساعدة مدير المدرسة. امرأة في منتصف العمر، هزيلة وشاحبة الوجه. لا تفتح فمها إلا للسعال. لاحظت منذ قليل، أنها تريد الكلام. ردّت بعصبية:

-أجل، أجل، هذا ما حصل.

ثم أضافت كأنها لا تريد إضاعة الفرصة للكلام:

-لم أتمكن من إقناع الحمالين بأقل من مجيديّتين. ماذا نفعل؟

وثب المدير من مكانه، وقد تصاعد البخار من نعليّ حذائه المبلل القريب من المدفأة كأنه يحترق:

-يا للأوغاد. سأضع الجِلْس على ظهري، وأحمل أشيائي بنفسي. أفعل ذلك. أنا رجل مختل العقل. اذهبي وقولي لهم ذلك.

ثم استدار نحوي وقال:

-هل ترين عيني الحولاوين؟ يعلم الله أني لا أستبدلهما بألف ليرة. أرى بهما في كل الاتجاهات، ولا تخفى عليّ خافية. ما أريد قوله، يجب عليكِ أن تكوني متسامحة ومستقيمة وخلوقة. يجب أن تؤدّي الواجب المناط إليكِ دون أدنى تقصير، ويجب أن يتحلّى مظهرك الخارجي بما يتناسب ووقار مهنة التعليم. السيدة المساعدة، ما قولك؟ هل حانت ساعة الدرس؟

-نعم يا سيدي، لقد دخلت الطالبات الصف.

وجه المدير كلامه إليّ بنبرة مشددة:

-هيا يا ابنتي، كي أعرّفك بطالباتك. لكن اذهبي واغسلي وجهك،

قبل كل شيء.

بدا صوت المدير نزقاً، ما أدهشني وأزعجني أيضاً. ما الذي لوّث وجهي، يا ترى؟

نظرت إلى مساعدة المدير، فلاحظت دهشتها مثلي.

-هل وجهي ملوث يا سيدي؟ قلت.

-ابنتي، بعض النساء يهوين الزينة بالفطرة، لكن لا يُسمح للمعلمات بدخول الصف بوجوه مزينة. اليوم، أنبّهك أبوياً.

قلت بانذهال:

-لكن لا مساحيق تجميل على وجهي، يا سيدي المدير! لست من اللاتي يهوين التزين قطعياً.

نظر المدير رجب إلى وجهي وقال باستهجان:

-ما تراه العين أصدق مما تسمعه الأذن!

فجأة، أدركت سبب ظنونه، فلم أتمالك نفسي من الضحك، وقلت:

-سيدي المدير، أنا أيضاً، أشكو من هذه الألوان، لكنها عطية من الله، ولا مجال لإزالتها، لا بالماء ولا بغيره.

ضحكت المساعدة أيضاً وقالت:

-هذا هو لون بشرة الآنسة الطبيعي يا سيدي.

سرت موجة الضحك إلى المدير أيضاً. لكن ضحكاته كانت مختلفة. كانت كل (ها، ها، ها) يطلقها، تصدر على نحو متقطع، كطفل دخل المدرسة حديثاً، ويحاول نطق أحرف الهجاء.

-يا للأمر العجاب، أعطية من الله ها، أعطية من الله ها؟ الله يعطي

ما يشاء. هل رأيت وجهاً براقاً مثل هذا الوجه من قبل، يا مساعدة؟ هل أرضعتك أمك مربى الورد بدلاً من الحليب، يا ابنتي؟ سبحان الله!

على أية حال، فالسيد رجب رجل ظريف جداً، وسرعان ما توافق ومزاجي.

ارتدى المدير معطفه والبخار لا يزال يتصاعد منه، استعداداً لاصطحابي إلى غرفة الصف. ما إن لمحتُ طالباتي من إحدى نوافذ الصف المطلة على الممر حتى خفق قلبي بشدّة. يا إلهي! ما هذا الزحام؟ ربما يضم الصف خمسين طالبة بمثل عمري تقريباً. شعرت بالذوبان أمام هذا الكم الهائل من العيون المسلطة نظراتها عليّ.

لو غادر المدير الصف، وتركني وحدي في تلك اللحظة، لوقعت في موقف حرج، وارتجّ عليّ. لكن، ليباركه الله، فهو يمتلك أسلوباً شيقاً في حديثه، يشدّ من أمامه، فينصت له.

-اصعدي إلى المنصة، يا ابنتي!

بعد أن أصعدني المنصة، استرسل في الحديث في مواضيع شتى إلى أن قال: "لقد أخذ الأوروبيون علوم الطب والكيمياء والفلك والرياضيات عن العرب، لماذا نحن نيام ولا نسعى لأخذ العلوم الحديثة عن الأوروبيين؟ الدخول إلى خزائن العلم والمعرفة الغربية مكسب مشروع. لكن هذه الغنائم لا يُظفر بها لا بالبندقية ولا بالمدفع، ولكن بتعلم اللغة الفرنسية.

ازداد حماس المدير، فصاح بصوته الزنان مشيراً إليّ:

-مفاتيح المعرفة لتلك البلاد، بيد هذه البنت صغيرة الحجم. الجلال

ليس بالمظهر بل بالجوهر. علمها واسع، ما شاء الله! لا تتركنها، تشبّثن بها، اعصرنها كحبة الليمون لتأخذن العلم من فيها.

شعرت أن عاصفة من الضحك ستهب. غمرني حرج شديد. ساعدني يا إلهي! لا أريد أن يُستخفّ بي. تجرأت للمرة الأولى، على النظر إلى الطالبات مباشرة. كن يتبسمن. وهكذا، أول نظراتنا المتبادلة كانت تبسماً وودوداً. أظن أن النظرات المتبسمة تلك، حببتنا ببعضنا منذ تلك اللحظة.

ارتفاع وتيرة الضحك في الصف، لفت انتباه المدير، فطرق المنصة بقبضة يده. تفحّص الصف بنظرات مخيفة من عينيه التي لا يستبدلها بألف ليرة، ثم صاح بالبنات:

-ما هذا يا بنات؟ أركبناه على الحمار فمدّ يده في الخرج! هيا، توقفن عن الضحك وأغلقن أفواهكن سريعاً. ما بكنّ تفتررن عن أسنانكن كرؤوس الخراف المطبوخة؟

لم تبالِ البنات بما قاله، في حين أثار في نفسي خوفاً أكثر مما أثار في نفوسهن. دام حديثه خمس عشرة دقيقة. وحين يشتد الضحك، يطرق المدير المنصة بقبضة يده ويهدد بوعيد يشوبه المزاح: "لَمَ تفتررن عن أسنانكن؟ سأحضر الكموّشة في الحال!". إلى أن أنهى كلامَه بالقول: "لا تتركنها، تشبّثن بها، واعصرنها كحبة الليمون. عار عليكن إن لم تأخذن عنها علمها من فيها، وليكن زقوماً ما أكلتنّ من خبز أمهاتكن وآبائكن والدولة والشعب!"، ثم خرج من الصف.

لم أتوقع أن لحظة بقائي وحدي وجهاً لوجه مع الطالبات، ستكون

بهذه الدرجة من الصعوبة. طائر النمنمة الثرثارة التي لا تتوقف عن الكلام من الصباح إلى المساء، قد تحولتُ إلى بلبلٍ أكل توتاً. تعطلت لغة الكلام ولم أجد ما أقول. لم أتمالك نفسي فضحكت من موقفي هذا، على نحو لا إرادي. الشكر لله! لقد ظنّت طالباتي أني لا أزال أضحك مما قاله المدير. نظرن إليّ ثم شرعن بالضحك. استعدت جرأتي في تلك اللحظة، تمالكت قواي وشرعت بالكلام:

-يا آنسات، سأشعر بالفخر إن استطعت نفعكن بما أملك من يسير المعرفة باللغة الفرنسية.

وهكذا، انفك السحر وانطلق لساني، ورحت أتكلم دون ارتباك. شعرت أن مشاعراً من الدفء والألفة تجاهي قد بدأت عند بناتي. كنت أشعر بالسعادة حين أخاطب تلك البنات الكبيرات "بناتي". ما كان ضحكهن من حين لآخر، يزعجني، لكن خشيتي من نظرات المدير رجب التي تساوي أكثر من ألف ليرة، إذا ما لمحهن من نافذة الصف يضحكن، دفعتني إلى توجيه تنبيه لهن:

-يا بنات، يجب أن لا تتجاوز ضحكاتكن حدود الابتسام. على أية حال، لا أملك ذلك الشيء التي دعاه المدير بالكمّوشة. لكن، سآخذ على خاطري.

خلاصة القول، مرّ أول درس لي على نحو جيد..

حين خرجنا من الصف، تقدمت إحدى بناتي مني وقالت إن "الكمّوشة" مجرد كلمة يقولها المدير بدلاً من قوله "كمّاشة"، كتهديد على سبيل المزاح، لخلع أسنان من تضحك من البنات.

(ب)، ٢٨ آذار

أحببت بناتي كثيراً، وهنّ أحببنني أيضاً، وتعلقن بي كثيراً، ولا يتركنني حتى في ساعات الاستراحة. أما زميلاتي في التدريس، فهنّ أيضاً لسن سيئات. من كانت علاقتي معهن يشوبها البرود، ليس بالضرورة أنهن يتهامسن حولي، كلما أخذن إحدى زوايا الغرفة. رغم ذلك، فهذا أمر طبيعي، فداخل البيت الواحد قد لا يكون التآلف سائداً بين جميع أفراد العائلة.

نزيهة ووصفية الاستانبوليتان، شدّتا إعجابي أكثر من بقية زميلاتي. لا تفترقان أبداً عن بعضيهما. لكن المساعدة شهنازة، حذرتني من إقامة صداقة معهما، دون أن توضح السبب! هناك معلمتان أخريتان كنت أعرفهما سابقاً. المرأة الأولى، طويلة القامة بعينين سوداوين حادتين، هي من دافعت عني في مدرسة المركز الابتدائية، وتشغل يوماً واحداً في الأسبوع هنا. زميلتنا هذه هي الوحيدة التي لا تخشى نظرات المدير، بل على العكس، المدير رجب من يخشاها. يعدّل ياقة ردائه الأزرق ويتمتم: "يا لها من امرأة مشاكسة! ألا من حل للتخلص منها؟ سامحني يا الله، سأجد حلّاً!".

المعلمة الأخرى، عجوز بنظارة سميكة وأسنان بارزة. التقينا قديماً، في القطار. كانت معلمة في محيط "غوزتبه".

دقّقت في ملامح وجهي كأنها تعرفت عليّ، وقالت:

-يا الله! يا لهذا الشبه الغريب. ذات يوم، قابلت طالبة مدرسة شقية في القطار. كانت تشبهكِ إلى درجة كبيرة... لكن أظن أنها كانت فرنسية. لقد قامت بشقاوات مضحكة، أضحكت كل من كان في عربة القطار.

نظرت إليها وقلت:

-ربما. يخلق من الشبه أربعين!

كان في المدرسة، عدد من المعلمين أيضاً. العجوز زاهد معلم دروس الدين. العقيد المتقاعد عمر معلم الجغرافيا، أشيب في منتصف العمر. معلم الخط لا أعرف اسمه. أخيراً، الشيخ يوسف المعلم، معلم الموسيقى، الرجل الأكثر أهمية، ليس في المدرسة فحسب، بل في (ب) قاطبة. كان يوسف المعلم شيخاً مولوياً. جاء وأخوه إلى (ب) قبل عدة سنوات، ويعيشان وحدهما في بيت صغير بهدوء. يُقال إن هذا البيت الصغير أشبه بمتحف موسيقي، يحوي كل أنواع الآلات الموسيقية والوترية. في الواقع، الشيخ المعلم، ملحن مشهور، له عديد من المقطوعات الموسيقية، لا يتمالك سامعها نفسه من البكاء. رأيته، للمرة الأولى، في يوم ماطر وبارد. كنت قد خرجت مع طالباتي إلى حديقة المدرسة، في ساعة الاستراحة، بذريعة تعليمهن لعبة بالكرة حديثة. لعبت معهن وأمضيت وقتاً ممتعاً. حين عدت إلى الغرفة، كان مئزري الأسود مبللاً من المطر. هذا المئزر الذي ابتدعته لاقى رواجاً في المدرسة، خاصة بين طالباتي. اعترض المدير على لونه: "لا يليق اللون الأسود على جماعة المسلمين، لِمَ لا تستبدلنّه باللون الأخضر؟". لم يبالِ أحد باعتراضه لأن التلوث والبقع لا تظهر على اللون الأسود!

مدفأة ضخمة من القيشاني، كانت تتّقد في غرفة المعلمين. اتخذت مكاناً بين المدفأة والحائط، دسست يدي في جيبي مئزري، بانتظار أن تجف ثيابي. فُتح الباب، ودخل رجل نحيف طويل القامة في الخامسة والثلاثين من عمره، يرتدي طقماً غربياً. رغم زيه هذا، أدركت أنه الشيخ يوسف المعلم، من خلال الحفاوة التي قوبل بها من زملائي. أحاطوا به باشّين،

وخلعوا عنه معطفه. تواريت خلف أنبوب المدفأة، ورحت أتابعه. بدا ودوداً ولطيفاً بلحيته الشقراء الدقيقة، لكن الوهن الظاهر على وجهه الأبيض الشاحب، يكشف عن مرض من الأمراض الخطيرة المؤدية إلى الموت. أما عيناه الزرقاوان فقد ذكرتني بصور السيد المسيح المبتسم بحزن في ممرات المدرسة المعتمة. كان حديثه ممتعاً لا يُمل منه، لكن صوته العذب تشوبه أنّة شكوى! تلك الشكوى الخفية في أنّة الأطفال المرضى! كان يشكو لمن حوله، من المطر الذي لا يعرف التوقف، وانتظاره الأجواء المشرقة بلهفة. في تلك الأثناء، تلاقت عيوننا. صغّر عينيه وضمّ أجفانه ليراني على نحو أفضل في العتمة المطبقة حيث أقف، ثم سأل:

-من هذه الآنسة، أهي من طالباتنا؟

استدار زملائي نحوي، بينما قالت وصفية ضاحكة:

-نرجو المعذرة يا سيدي. لقد غفلنا عن تقديمها لك، زميلتنا الآنسة فريدة، معلمة اللغة الفرنسية الجديدة.

أحنيت رأسي محيّية من حيث أقف، وقلت:

-تشرفت بالتعرّف إلى ملحننا الكبير.

يشعر الفنانون بالخجل أمام الإطراء. شاب احمرار خفيف بشرته البيضاء. فرك كفّيه ببعضهما وحنى رأسه:

-لا أظن أني قدمت أثراً استحق عليه صفة الملحن. إن كان هناك من تميز في بعض أعمالي، فذلك ليس سوى تعبير موسيقي للروحانية الأصيلة التي يحملها شعر بعض من شعرائنا الكبار أمثال حامد وفكرت.

خلاصة القول، هذا هو يوسف المعلم الذي أحببته كأخ كبير.

(ب)، ٧ نيسان

أخيراً، حققت أجمل أحلامي. منذ أمس، أصبح عندي بيت صغير جميل وقشيب. وجده حجّي كلفا لي، على بعد بضع دقائق من بيتهم. ليباركه الله. بيتنا البهيج، يتألف من ثلاث غرف صغيرة وحديقة، والأجمل ما في الأمر، أننا استاجرناه مؤثثاً.

كنت ومؤنسة فرحتين جداً. قمنا سوياً بتنظيفه وترتيب أشيائنا. تضاحكنا وتراكضنا حتى لم نعد قادرتين على فتح عيوننا من شدة التعب والنعاس...

مؤنسة المسكينة، كانت تتأمل أرجاء البيت، لا تصدق عينيها كأنها ترى نفسها في قصر فخم. أما "مظلوم"، ذلك الاسم الذي أطلقناه على الجدي هدية الراعي محمد، فقد أقلقنا كثيراً. لقد تسلل من باب المطبخ إلى الحديقة حتى حافة منحدر حاد بارتفاع مئذنة، وكاد أن ينزلق ويهوي إلى جدول الماء أسفله. لحسن الحظ، فهذه المخلوقات، تملك قدرة تتفوق بها على البشر في تسلق المناطق الوعرة. على أية حال، فقد عانينا كثيراً حتى تمكنّا من إعادته إلى البيت.

خلاصة القول، لقد كنا سعيدتين جداً ببيتنا، ولم تتوقف مؤنسة عن معاينة القيشاني الأزرق لأرض الفناء، وصور الأزهار التي تزين جدرانه.

لكن، عند كل حلول للمساء وهبوط للظلام، نشعر بالكآبة، حين نرى الجيران ينتظرون عودة الآباء والأخوة إلى بيوتهم، محملين بالأكياس المليئة بما لذ وطاب من المأكولات، بينما نحن لا ننتظر عودة أحد.

يا لجمال ربيع هذه البلدة وروعته! اللون الأخضر اليانع يغمر أرجائها. تتفتح أزهار من مختلف الألوان في حديقتي، وتتسلق المتعرشات نوافذ غرفتي، ويكتسي المنحدر العمودي الذي تشرف عليه

حديقتنا، بخضار يتموّج فيبدو كشلال زمردي، وأزهار الدحنون التي تعم أرجائه كأنها جراح حديثة تدمي فراغ أيامي. أتراكض مع مؤنسة في هذه الحديقة ونلعب الحبل، وحين أشعر بالتعب، أمارس هوايتي بالرسم التي أيقظها من جديد، جمال الطبيعة هذه، بينما تتمدد مؤنسة مع جديها فوق النجيل. قبل أيام، كنت منهمكة برسم مؤنسة بالألوان المائية. لو توقفت البنت الشقية عن الحراك لأنهيت رسمها سريعاً. لكنها كانت منزعجة من الجلوس بلا حراك، وعلى رأسها إكليل من الأزهار البرية وبين ذراعيها جديها.

حين يهيج مظلوم ويضرب بقوائمه الطويلة الرفيعة، تقول مؤنسة: "أختي، والله أحاول أن أثبت في مكاني، لكن مظلوم لا يتوقف عن الحركة. ماذا أفعل؟"، ثم تنطلق مبتعدة. أغضب وأهددها بإصبعي:

-أتظنين أن لا علم لي بشقاوتك؟ تثيرين الجدي عمداً كي يهيج.

دروسي تسير على ما يرام، والمدير ممتن من أدائي في المدرسة. لكن ضحكي الدائم لا يروق له، فيقول: "سأحضر الكمّوشة لك أيضاً!". أتظاهر بالامتعاض وأقول: "الأمر ليس بيدي يا سيدي المدير. قِصَر شفتي العلوية تبديني كأني اضحك رغم جدّيتي!".

المدير مولع بتعلم اللغات، عثر على كتاب يتعلم منه بنفسه، ويسألني من حين لآخر، عن معاني بعض الكلمات، ويكتبها بقلم الرصاص، على حاشية الكتاب.

توطدت علاقتي مع الشيخ يوسف المعلم. أنا معجبة بهذا المريض الحزين اللطيف، وبصوته الشجي... قبل عشرة أيام، اضطررت للذهاب إلى صالة في المدرسة، يُركن فيها كل ما لا يستعمل من أشياء

وكراكيب، بحثاً عن إحدى اللوحات الإيضاحية. كانت الأباجورات مغلقة والصالة شبه معتمة. بينما كنت أقلبّ النظر في أرجاء الغرفة، رأيت في أحدى الزوايا أورغ تعلوه طبقة كثيفة من الغبار. خفق قلبي بحنين جميل وحزين إلى أيام طفولتي السعيدة مع الترانيم الدينية المصحوبة بعزف الأورغ. اتجهت نحوه ووقفت أمامه بارتعاش، كأنني في حضرة قبر صديق منسي. في تلك اللحظة نسيت نفسي، أين أنا؟ ولِمَ أنا هنا؟ تجاوزت تردّدي، ووضعت إصبعي على أحد مفاتيحه. أصدَر الأورغ صوتاً عميقاً ومهيباً كأنه يصدر من قلب حزين. يا للروعة!

دون وعي بما أفعل، سحبت كرسياً قريباً مني وجلست إلى الأورغ، ورحت أعزف إحدى أحب الترانيم إلى نفسي. ما إن استجاب الأورغ إليّ بأنينه، حتى رحت أحلق في فضاء الأحلام، ولاحت ممرات مدرستي المعتمة تتراقص أمام ناظري، صديقاتي يعبرن الممرات زرافات ووحدانا، بمآزرهن السوداء وشعرهن القصير. استرسلت كلية مع أيامي وأحلامي الماضية، لا أعي منذ متى، ولا أين أنا، ولا ماذا أعزف.

سمعت آه دفينة من خلفي، كحفيف ورق الشجر تصارع ريحاً. شعرت برعشة، فالتفت خلفي، وإذ بالملامح الشقراء للشيخ يوسف المعلم تبدو كالظلال في عتمة الصالة. كان يستمع إليّ وقد أحنى رأسه مستنداً إلى خزانة مكسورة، وحزن وقور في عينيه الزرقاوين.

-تابعي يا بنيتي، تابعي، أرجوك، قال.

لم أجب. أملت رأسي إلى الأورغ وتابعت عزفي حتى جفت دموعي المنهمرة من عينيّ، ثم توقفت ولهاث متعب ومنهك يطبق على صدري.

-كم تملكين من حس موسيقي مرهف وقلب عاطفي، يا معلمة

فريدة! تدهشني هذه الملكة من الشجن السرمدي رغم روحك المرحة.

أجبت محاولة أن أبدو خالية البال:

-هذا نوع من التراتيل الدينية، تدعى "كانتيك". في الأصل، هي ترانيم رثائية يا سيدي. أقصد أنها هي الحزينة وليس أنا.

يبدو أن يوسف المعلم، لم يصدق ما قلت. هزّ رأسه برفق وقال:

-لا يمكنني الادعاء أني عليم بكل فنون الموسيقى، لكنني لا أخطئ بمعرفة الملحن أو العازف من خلال تناغم المعزوفة. الأصابع كالأصوات لها ترددها الخاص، يعكس ما في القلب من شجن. هل تتفضلين بإعطائي النوتات الموسيقية لتراتيل الكانتيك تلك؟

-لا أجيد قراءة النوتة، يا سيدي. ما أعزفه تعلمته عن طريق السماع فقط.

-لا بأس. ربما تتلطفين بعزفها في يوم آخر، كي أنقلها نوتة على دفتري. بالمناسبة، أحب اقتناء الآلات الموسيقية، وقد اشتريت مؤخراً، أورغ لراهب عجوز توفي، وأضفته إلى مجموعتي. أرغب بعزف تلك المقطوعات الموسيقية.

خرجنا من الصالة نتحادث. قبيل افتراقنا، وعدني الشيخ المعلم:

-لدي بعض المقطوعات الشجية القريبة إلى قلبي. لم أعزفها لأحد قط. أنا على ثقة أن لا أحد سيفهم عمقها. سأعزفها لك يوماً ما. أيمكنني ذلك يا آنستي؟

هذه الحادثة، متّنت صداقتي مع الشيخ المعلم. لم أسمع بعد تلك المقطوعات، لكنني أتوقع أنها معزوفات جميلة جداً، فملكة هذا الشيخ المريض الحساس، قادرة على إنطاق الخشب. قبل أيام، أحضرت إحدى الطالبات عوداً ليقوم بمعاينته، قبل أن تشتريه. ما إن لامس أوتار العود

بأطراف أصابعه حتى شعرت أن هذه الأصابع الرقيقة لا تلامس الأوتار فحسب، بل تلامس أعماق قلبي أيضاً.

(ب)، ٥ أيار

أمس، قمت بتصرف طائش، أخشى أن يُفضح. أعلم أني لم أحسن التصرف، شيء ما في داخلي، دفعني إليه. في العادة، تناوب إحدى المعلمات في المدرسة ليلة واحدة كل أسبوع. أمس، كانت مناوبتي الليلية. حين كنت والمساعدة شهنازة نتفقّد المدرسة، وجدنا أن مصباح الغاز في أحد الصفوف، لا يعمل. المساعدة، تمتلك الخبرة بإصلاح أية أعطال، لذا صعدت إلى كرسي لتصلح المصباح. في تلك الأثناء، دخلت الفرّاشة العجوز، تحمل رسالة واتجهت نحو طالبة تجلس على أحد المقاعد الخلفية. ما إن مدت الرسالة لتناولها إلى تلك الطالبة حتى صاحت المساعدة من حيث تقف:

-توقفي، يا عائشة! ما هذا؟

-رسالة لجميلة، تُركت عند البواب.

-هاتها. كم مرة نبّهتك بأن تسلّمي رسائل الطالبات إليّ أولاً. يا لك من امرأة بلا عقل!

في تلك اللحظة، اندفعت جميلة من مكانها وخطفت الرسالة من يد الفرّاشة.

دون أن تفقد المساعدة هدوءها، قالت:

-تعالي هنا، يا جميلة.

لكن جميلة لم تتحرك من مكانها.

-أقول لك، تعالي هنا يا جميلة، لِمَ لا تطيعين؟

كان صوت المرأة الهزيلة الآمر صارماً حتى أنا شعرت برعشة في أوصالي. في تلك الأثناء، لو طارت ذبابة لُسمع حفيف جناحيها من شدة السكون الذي خيّم على الصف.

اتجهت جميلة نحونا بتثاقل، وقد أمالت رأسها إلى صدرها. شابة جميلة في السادسة عشر، أو السابعة عشر من عمرها. لاحظت أنها دائمة الشرود حزينة، في الصف وفي الحديقة، وتجنح إلى الانعزال بعيداً عن زميلاتها.

ما إن رأيت وجه الفتاة عن قرب، حين وقفت أمامنا حانية الرأس، بدا شاحباً جداً، كأن الدم قد توقف عن التدفق إليه، شفتاها صفراوان، وجفناها يرتعشان، حتى أدركت أنها شديدة الحزن والتأثر.

-جميلة، أعطني تلك الرسالة!

-......

طرقت المساعدة الأرض بقدمها، بنفاذ صبر:

-هيا، ماذا تنتظرين؟

-لماذا، يا مساعدة شهنازة، لماذا؟

كلمة "لماذا" هذه كانت تعكس تمرد يائس. مدّت المساعدة يدها بحركة عنيفة، لوت معصم البنت والتقطت الرسالة.

-هيا، عودي إلى مكانك، الآن!

بعد أن مرّرت المساعدة شهنازة نظرها على المغلف، تقطّب حاجباها. لكنها استدركت على الفور، وخاطبت الطالبات بهدوء مصطنع لتخفي الهيجان الذي في داخلها:

-الرسالة من أخ جميلة المقيم في سوريا... لكن عقاباً لها، لن أعطيها

الرسالة حتى الغد، لعدم انصياعها لكلامي.

بعد أن كانت أعناق الطالبات مشرئبة، أمانينها الى كتبهن، ثانية. بينما كنت أخرج والمساعدة ألقيت نظرة على الصف. بعض الفتيات في الصفوف الخلفية، قد قرّبن رؤوسهن يتهامسن. أما جميلة، فقد خبّأت رأسها على المقعد، وكتفاها يرتجفان.

حين انطلقنا في الممر قلت للمساعدة:

-كان عقابك قاسياً. كيف ستحتمل الصبر حتى الغد؟

-لا تقلقي يا ابنتي. تعلم جيداً أنها لن تقرأ هذه الرسالة أبداً.

-لماذا، يا مساعدة شهنازة، ألن تعطيها رسالة أخيها؟

-كلا، يا ابنتي.

-لماذا؟

-لأنها ليست من أخيها.

خفضت المساعدة صوتها أكثر وتابعت الكلام:

-جميلة هذه، ابنة رجل ثري جداً. أحبت ضابطاً شاباً في الجيش، هذه السنة. رفض والدها هذا الضابط، وتدبّر شأنه من خلال نفوذه، وأبعده إلى "باندرما"، ووضع ابنته تحت المراقبة، في البيت والمدرسة. نحاول هنا، معالجة البنت شيئاً فشيئاً. لكن الحالة النفسية للمسكينة، تتأزم من حين لآخر. هذه هي الرسالة الثالثة التي أضبطها.

واصلنا السير نتحدث حتى وصلنا إلى غرفة المساعدة. رفعت المساعدة شهنازة غطاء المدفأة، بحركة عنيفة، غضّنت الرسالة، وألقتها داخل المدفأة.

الوقت يقترب من منتصف الليل. لا أزال لا أستطيع النوم على السرير المخصص للمعلمات المناوبات. في نهاية الأمر، قررت أن أتصرف بما يمليه عليّ قلبي. ابتدعت حجة لأبعث الفرّاشة إلى الطابق الأرضي، وذهبت إلى غرفة المساعدة. ضوء القمر الباهت كان يتسلل من النافذة المرفوعة ستارتها. رفعت غطاء المدفأة بارتعاش كلصوص الليل، وأخرجت الرسالة المغضّنة المبعوثة لجميلة المسكينة، من بين كومة أوراق ممزقة.

في مناوباتي الليلية، وبعد أن تستغرق جميع الطالبات بالنوم، أشعر بمتعة شديدة، بالتجول في الممرات الخالية ومهاجع النوم الهادئة المعتمة. أغطي بنتاً كشفت غطاءها، وأخرى مريضة تسعل، أتفقد حرارتها، وأتساءل عن سبب ابتسامة ارتسمت على شفة أخرى نائمة وقد تناثر شعرها الكستنائي على وجهها.

أمشي على أطراف قدمي بقلب مرتعش كي لا أوقظ الفتيات من أحلامهن، والنائمات في سكون، في هذا المهجع المعتم.

تلك الليلة، حين وجدت سرير جميلة، كانت المسكينة قد غفلت للتو. أدركت ذلك من قطرات دمع على أهدابها لم تجف بعد.

انحنيت نحوها بهدوء:

-أيتها البنت الصغيرة المحظوظة، كم ستكونين سعيدة حين تجدين رسالة محبوبك في جيب مئزرك! ستتساءلين أية جنيّة طيبة أحضرت لي رسالتي ووضعتها في جيبي؟ جميلة، هي ليست جنية، بل إحدى سيئات الحظ، المجبرة على حرق قطعة من فؤادها مع حرقها لكل رسالة تصلها من إنسان تكرهه...

(ب)، ٢٠ أيار

أمس، توقفنا عن تقديم الدروس. ستبدأ الامتحانات، بعد ثلاثة أيام. اليوم، تحتفل بنات مدارس (ب) بعيد أيار. يقام الحفل على ضفاف جدول، على بعد ساعة من المدينة. لا أجد متعة بمثل هذه الصحبة المزدحمة. قررت عدم المشاركة، وتمضية اليوم في حديقتي. لكن مؤنسة بدأت بالنشيج بعد أن رأت بنات المدارس يمررن أمام البيت يغنين. في تلك الأثناء، وبينما كنت أحاول مواساة مؤنسة، قُرع الباب. وصفية زميلتي في المدرسة مع عدد من طالبات الصف الأخير بالباب. لابد أن وصفية قد أتت بأمر من المدير لاصطحابي. كان المدير رجب يصيح بغضب:

-لا عذر لها! لقد أعددت خروفاً محشياً وحلاوة، خصيصاً من أجلها. لا أقبل أي عذر، مستحيل!

أما طالباتي، فقد أتين لدعوتي باسم طالبات الصف الأخير:

"دودة القز"، هو اسمي الجديد. طائر النمنمة انتهى، لكن الأسوأ في الأمر، أن طالباتي الكبيرات لا يتحاشين من قول "دودة القز" أمامي. في الواقع، ذلك يجرح كبريائي ووقاري كمعلمة. مع ذلك، لو انحصر ذلك الاسم داخل المدرسة لهان الأمر، لكن قبل أيام، حين كنت أمر أمام أحد المقاهي، تاجر حرير ثري فظ، يرتدي ملابس يبدو عليها مظاهر ثرائه، قال بصوت مرتفع: "أملك ثمانية بساتين توت، لتكن هذه البساتين الثمانية قرباناً لمثل دودة القز هذه!". شعرت بحرج شديد، وتمنيت لو أن الأرض تنشق وتبتلعني. منذ ذلك الحين، ما عدت أمر من ذلك الشارع أبداً. بتُّ في موقف حرجٍ، إن أصررت على عدم الذهاب، سيتندرن بالقول: "دودة القز تظهر دلالاً!". لذلك، لم أجد بداً من ارتداء جلبابي والذهاب معهن.

بارتداء الطالبات الصغيرات ثياباً بيضاء، بدت ضفة النهر كحقل من أزهار الأقحوان. أعداد طالبات مدراس هذه البلدة هائلة! وأفواج من طلاب المدارس كانت تتقدم في طرق متعرجة كالثعابين، بين الحدائق الغنّاء، ينشدون الأناشيد الوطنية دون توقف.

انسحب جميع المعلمين إلى الغابة المطلة على الضفة المقابلة للنهر، ولم يبقَ بيننا سوى المدير رجب بلباسه الأزرق، يتنقّل بمظلته السوداء الكبيرة، ويصدر الأوامر للطباخين لإعداد الطعام. أما المعلمات والطالبات الكبيرات، استطعن بعد جهد جهيد إقناع المدير بإلقاء ملاءتهن والتنزه برؤوس مكشوفة، ثم غافلنه وتسللن إلى حيث يجلس الرجال.

لا أدري لِمَ لم أشعر بالغبطة، هذا اليوم. لم يشعرني المرح الجنوني والسعادة لمئاتِ البنات سوى بالشرود والحزن والضجر. عدد من بنات مدرسة ابتدائية ينشدن الأناشيد الحماسية مصحوبة بالموسيقى في جهة، وعدد آخر يتدافعن ويتصايحن، يلعبن بالكرة أو يلعبن لعبة (طاق طاق طاقية) في جهة أخرى، وعديد من الكبار والصغار اجتمعوا في ركن بعيد، يقرأون الشعر أو يصفقون لطفل يلقي خطبة حماسية. أما مؤنسة الشقية، فقد ابتعدت عني واختفت بين الزحام.

بعيداً، بين أشجار الكستناء، أراجيح أقامها عدد من المعلمين الشباب والطلاب الكبار، وتنانير من كل لون، تتموج بين أوراق الشجر، وصيحات وقهقهات تصدح في الأجواء.

ابتعدت بهدوء من وسط هذا الزحام، وجلست في ظل صخرة ضخمة على ضفة مجرى مياه عميق، أقطف الأزهار الذابلة حولي،

وأرميها في الماء، وأفكر بشرود.

فجأة، سمعت صوتاً رقيقاً من خلفي، يصيح: "وجدتها... دودة القز هنا!".

كن يبحثن عني كي أشاركهن بركوب الأراجيح. لم تصغِ لا زميلاتي ولا طالباتي لتذرعي بالتعب وعدم إجادتي للتأرجح، واصطَحبنني رغماً عني. أصرت المعلمة مروة -المعلمة ذات العينين السوداوين الحادتين التي سبق ووقفت إلى جانبي في مدرسة المركز الابتدائية- على التأرجح سوياً. ركبنا إحدى الأراجيح، لكن ذراعاي كانتا ترتعشان، وركبتاي ترتجفان كأنها لا تقوى على حمل جسمي. في نهاية الأمر تخلّت مروة المسكينة عن رغبتها وقالت:

-عبثاً، يا دودتي... تهابين من التأرجح. لقد شحبت وجنتاك. أخشى أن تقعي.

شاركنا المدير طعام الغداء.

لاحظ المدير تعكر مزاجي، فراح يقول بين الفينة والأخرى: "يا للبنت المعاكسة! لِمَ لا تضحكين الآن؟ تضحكين حين يجب أن لا تضحكي، وتعبسين حين ينبغي أن تضحكي!". لم يفارق الرجل ظلي بعد الأكل، وأصرّ أن يُعدّ لي الشاي بنفسه، في سماور شاي أحضره معه من المدرسة. لوّح أحد المعلمين لي بيده من بعيد لآتي إليه:

-لقد استدعينا الشيخ يوسف المعلم، وأعددنا له طنبور، ليعزف لنا بعضاً من ألحانه بعيداً عن هذا الزحام. حاولي التخلص من هذا الثرثار، وتعالي إلى هناك، قال.

في الحقيقة، هذه الفرصة الجميلة لا يمكنني أن أفوّتها. أعشق

موسيقى يوسف المعلم بكل جوارحي. لم يأتِ هذا الملحن إلى المدرسة منذ وقت طويل، لمرضه العضال.

كنا نتابع تطور حالته الصحية، إلى أن علمنا أنها في تحسنٍ منذ يومين، ويرغب بالمشاركة في حفل المدرسة هذا اليوم.

قامت المعلمات باصطحاب يوسف المعلم بعيداً عن المعلمين، وانطلقنا كمجموعة على طريق ضيق على ضفة النهر، بعيداً عن أعين الآخرين. بدا الشيخ المعلم حيوياً ومبتهجاً، ويضحك ممن خشين عليه من التعب لطول الطريق، ويقول: "أشعر اليوم بنشاط وحيوية، ولن يتعبني طول الطريق حتى لو كان سرمدي".

همست إحدى الزميلات في أذني، أن بعضة المعلمين قد اكرموا الشيخ المعلم بضعة أقداح من عرقٍ يشربونه خلسة. ربما ذلك مبعث حيوية وابتهاج يوسف المعلم.

وصلنا إلى طاحونة مائية خراب، بعد مسير دام خمس عشرة دقيقة على الطريق النهري. في هذا المكان المدعو بالشلالات، يضيق الوادي كمضيق صخري عميق جداً، تجري فيه المياه بلمعان يعكس أشعة شمس الأصيل بصعوبة.

لا يمكن لأحد أن يسمع أصواتنا من هذا المكان النائي. أجلسن الشيخ يوسف المعلم تحت شجرة جوز وارفة الظل، وناولنه الطنبور، بينما جلستُ بعيداً على صخرة تجري المياه حولها مزبدة. لم يتركنني الزميلات بهدوء ثانية، وأرغمنني على الجلوس أمام الملحن قائلات:

–من غير اللائق أن تجلسي بعيداً، يجب أن تجلسي هنا!

صدح الطنبور. لن تغيب هذه الموسيقى عن مسمعي طوال عمري!

جلست الزميلات على النجيل. كانت شفاه الجميع حتى العاتيات منهن، ترتعش رغبة بالبكاء، وعيونهن مغرورقة.

همست في أذن وصفية وقد لامس شعرها الأشقر كتفي:

-لقد سمعت عزف الشيخ المعلم في المدرسة، للمرة الأولى. لا جدال، فقد كان جميلاً جداً، لكن ليس مثل روعته الآن.

أجابت وصفية بعينين واهتين وابتسامة غامضة:

-أجل، لأن يوسف المعلم، لم يكن سعيداً في حياته بهذه الدرجة، ولم يكن محظوظاً في يوم من الأيام، مثل هذا اليوم.

-لماذا؟ سألتُ.

نظرت إلى وجهي بعينين متفحصتين، ثم أسندت رأسها على كتفي ثانية، وقالت:

-اصمتي، دعينا نسمع.

كان الشيخ يعزف طوال الوقت أغنياته القديمة. لم يسبق لي أن سمعتها من قبل. كان قلبي يخفق مع نهاية كل عزف له، ليبدأ بأخرى، بعينين نصف مغمضتين، وتعرّق ندي على صدغيه الشاحبين.

لم تفارق عيناي تلك العينين نصف المغمضتين. في تلك الأثناء، انسابت قطرات دمع على وجنتيه الشاحبتين. فجأة، خفق قلبي، لقد أُنهك هذا الرجل المريض. انتهزت فرصة انتهائه من إحدى الأغنيات، وقلت:

-تبدو متعباً. ألمّ بك شيء ما؟ ألا ترتاح قليلاً؟

لم يجب. نظر إليّ بعمق، بعيني طفل بريء، من بين أهدابه الدامعة،

ثم أسند رأسه ثانية على الطنبور وشرع يغني أغنية أخرى:

"لا تجبرني يا من ملكت فؤادي، عن فضح ما في قلبي من نار مستعرة."

ما إن أنهى يوسف المعلم أغنيته تلك، حتى انحنى رأسه على الطنبور، وراح في شبه غيبوبة. انتابت المعلمات حالة من الذهول، فصحت: "نحن السبب في ذلك، لقد أرهقناه كثيراً!"، ثم وثبت على صخرة، لأبلل منديلي بمياه النهر. حين عدت إليه مع منديلي المبلل، فتح عينيه. لم تكن سوى حالة إغماء بسيطة، بل مجرد دوار رأس، فقلت:

-لقد أقلقتنا عليك، يا سيدي.

أجاب بابتسامة شاحبة:

-لا شيء خطير، يحصل ذلك أحياناً.

شعرت بغرابة في نظرات زميلاتي إليّ، وفي حديثهن همساً فيما بينهن.

في طريق العودة، كنت ووصفية في المؤخرة.

-حال الشيخ المعلم غريبة، كأنه يحمل حزناً عظيماً في أعماقه، قلت.

تفحصت زميلتي وجهي بعينين تحملان تلك النظرات السابقة ذات المغزى كما قبل قليل:

-هل حقاً لا تعلمين، يا فريدة؟ لا تغضبي، لا يمكنني أن أصدق ذلك. هل حقاً لا تعلمين شيئاً؟

حدّقت وصفية فيّ بنظرات غريبة.

-هل هناك من مبرر لادعائي بجهلي؟ قلت.

لم تصدق ثانية:

-كيف لا يمكنك معرفة شيء يعرفه جميع أهالي (ب)؟
ابتسمت أمام هذا الشك الفارغ، هززت كتفيّ وقلت:
-الكل يعلمون أني أعيش وحدي ولا أختلط بأحد في (ب). لا تعنيني أمور الآخرين.
أمسكت زميلتي يديّ وقالت:
-يوسف المعلم، يعشقك بجنون، يا فريدة.
غطيت وجهي براحتيّ بحركة عفوية. لا يزال الصخب المرح للأطفال ولعبهم مستمراً على ضفة النهر. ابتعدت عن زميلاتي خلسة، وانعطفت إلى طريق ضيق بين الحدائق عائدة إلى البيت، وحدي.

(ب)، ٢٥ تموز

امتدت أشهر الصيف طويلاً، وارتفعت درجات الحرارة على نحو لا يُحتمل. اصفرّت كل النباتات وغاب عنها لونها الأخضر. في البعيد، تغطت قمم الجبال الخضراء بلون شاحب رَمِض، لتبدو تحت أشعة الشمس التي تزيغ البصر، ككومة رماد هائلة لا حياة فيها. أشعر بالملل وبضيق في صدري كأني على وشك الموت اختناقاً. البلد خالية تماماً. عاد الطلاب إلى أماكن سكناهم، وغادرها عدد كبير من المعلمين لقضاء أشهر العطلة، في أماكن أخرى. تبعث لي نزيهة ووصفية رسائل من استانبول من حين لآخر. استانبول جميلة هذا الصيف. لم تتوقفا عن وصف بحورها وجزرها، وتسعيان إلى البقاء هناك بشتى السبل.
في الواقع، أنا أيضاً، لا أرغب في البقاء هنا. قصة الشيخ يوسف أزعجتني كثيراً. بتُّ أخجل من التجول في البلدة. أنتظر بدء العام

الدراسي كي أطلب نقلي إلى بلدة أخرى. أريد الذهاب إلى مكان أعيش فيه حياة هادئة لا يزعجني أحد، حتى لو كان أكثر بعداً وأشد سوءًا.

(ب)، ٥ آب

أشارك في زواج إحدى طالباتي للمرة الثانية، منذ أن أصبحت معلمة. لكن العروس الثانية لم تكن كسابقتها زهراء المسكينة. هذه الليلة، وفي مثل هذه الساعة، لن تضع جميلة رأسها على وسادتها، لتنام بأهداب دامعة، بل ستضع رأسها الجميل على صدر الضابط الشاب، وتنام سعيدة إلى جانب من تحب. لقد صمدا على عشقهما، إلى أن رضخ أهلهما، ووافقوا على زواجهما.

لقد زيّنتُ جميلة مثلما زينت زهراء سابقاً. أعتذر عن الذهاب إلى الحفلات، وأية أماكن مزدحمة، منذ وقت طويل. لكن جميلة أتت إلى بيتي لدعوتي، قبّلت يدي ورجتني أن أحضر حفل زفافها. هل عرفت ما فعلته من أجلها، في عتمة تلك الليلة؟ لا أدري، لكنني كنت أول من أخبرته بموافقة أبويها على زواجها. أظنها تعلم ما قمت به تلك الليلة.

نعم، زينت جميلة بنفسي، وشبكت طرحتها بنفسي. من عادات هذا البلد أن يُشبك في شعر الفتيات خيط من ثياب العروس، لجلب الحظ السعيد. رغم ممانعتي بشدة، لم أستطع منع أم جميلة من شبك قطعة خيط صغيرة في شعري.

رغبت برؤية الضابط. إن لم أرَ جميلة بين ذراعيه لن أتأكد من سعادتها. لكنني لم أتمكن من رؤيتهما معاً، فقد اضطررت إلى العودة إلى بيتي مبكرة.

مثلما يحدث في كل مكان، هنا أيضاً، رأيت كل النساء يختلسن إليّ النظر، ويتهامسن، وتتناقل شفاههن كلمة "دودة القز". زوجة رئيس

البلدية كانت من بين المدعوات. هي امرأة بدينة، مكسية بالألماس والذهب. تفحصتني بنظراتها، ثم قالت لمن إلى جانبها بصوت أستطيع سماعه:

-دودة القز هذه، تخلب العقول، حقاً. لا غرابة أن رجلنا واله بها.

عندئذ، لم أعد أستطيع البقاء هنا. استأذنت من أم جميلة، بحجة مرضي وشعوري بالتعب. أشارت المرأة العجوز إلى عدد من زميلاتي المعلمات اللاتي يقفن إلى جوار العروس الصغيرة، وقالت:

-معلمات جميلة يقدمن لها النصح، ألن تقولي لها شيئاً أيضاً، يا بنيتي المعلمة؟

قابلت هذه الرغبة البريئة بابتسامة، وأخذت طالبتي جانباً وقلت:

-جميلة، طلبت أمك مني تقديم النصح لك، بصفتي معلمتك. أنت أفضل من يقدم النصح إلى نفسك. لكن، خذي مني هذه النصيحة يا صغيرتي. إن جاءتك امرأة غريبة، قبل وصول الضابط، وأرادت أن تفشي لك سراً ما، حذار أن تصغي إليها، يا بنيتي، ابتعدي عن تلك المرأة، وادفني رأسك الجميل في صدر الضابط الذي تحبين.

من يعلم، أي ذهول أصاب جميلة من هذا الكلام! ولِمَ لا تصاب بالذهول؟ أنا أيضاً، أشعر بالحيرة وأسأل نفسي لِمَ قلت هذا الكَلام؟

(ب)، ٢٧ آب

هذا المساء، دعونا حجّي كلفا وعائلته لتناول العشاء في حديقتنا

الصغيرة. اشترينا بضعة فوانيس ورقية، من بائع جوّال، وزينّا بها أغصاناً لشجرة لوز تمتد فوق المائدة.

حين رآها حجّي كلفا امتلأ سروراً، وقال:

-يا للروعة! هذه ليست ضيافة، بل احتفالاً بالعيد الوطني.

-حجّي كلفا، هذه الليلة أحتفل بعيدي الخاص، قلت.

نعم، كانت هذه الليلة احتفالاً بحريتي. لقد مضى عام كامل منذ أن تحررت طائر النمنمة من قفصها. عام كامل، ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً. ما أطول هذه المدة!

كنت أشعر بالبهجة. أتحدث وأضحك بلا توقف. أهرّج حتى كادت زوجة حجّي كلفا أن تختنق من الضحك، ويصبح وجه هايغانوش السمين المتلئ بالحبوب كلون الفوانيس الحمراء المعلقة على الأغصان. أما حجّي كلفا، فكان يضرب ركبتيه بيديه ويقول ضاحكاً:

- هل أكلت عشبة اللسان، يا ابنتي؟

جلسنا في الحديقة حتى ساعة متأخرة من الليل، وحين غادرونا، قدّمت فانوساً لكل من ميراد وهايغانوش. كانت مؤنسة نائمة على الكرسي منذ بداية جلستنا، بعد أن غلبها النعاس. أوصلتها إلى سريرها وجلست وحدي في الحديقة.

كانت ليلة هادئة، سماؤها تتلألأ بالنجوم، الأنوار مطفأة في البيوت المقابلة للسور، والجبل يرتفع حتى السماء ككتلة ظلال مخيفة.

أسندت معصميّ وجبيني على الحديد البارد لدرابزين السور. لا صوت ولا حياة حولي سوى خرير ماء الجدول في قاع الهاوية، لم يجف

رغم ارتفاع درجات الحرارة، وانعكاس لنور النجوم على سطحه.

شارفت شمعات الفوانيس على الذوبان. بدأت بهجتي تختفي مع تلاشي ضياء الشمعات الملون، وظلام يائس يتسلل إلى أعماقي.

عام طويل بأيامه المعتمة والمضيئة، مرّ في مخيلتي يوماً بيوم. يا إلهي، ما أطوله من عام!

أملك بنية قوية وقدرة على تحمّل الجفاء والمعاناة والمحن. قد أعيش من أربعين إلى خمسين سنة أخرى. قد أحتفل بالذكرى الخمسينية لهذا النصر المثير للشفقة. يا إلهي، كم هي طويلة هذه الحياة!

قد لا تكون مؤنسة إلى جانبي، وسيكسو الشيب رأسي. أن أصبر، أن أشعر بالأمل، شيء جميل. أنا راضية عن ذلك، لكن لماذا؟ وبانتظار ماذا؟

لم أتمالك نفسي من البكاء أكثر من مرة، خلال هذه السنة. لكن لم أبكِ بحرقة كهذه الليلة قط. كانت عيناي من تبكي سابقاً، لكن هذه الليلة، قلبي من كان يبكي.

(ب)، ١ تشرين الأول

مضى أسبوعان على بدء الدراسة. عادت معظم زميلاتي المعلمات إلى (ب). سعت وصفية للبقاء في استانبول، لكنها اضطرت للعودة إلى عملها في (ب) لعدم توفر شاغر لها في مدارس استانبول. أما نزيهة فقد حالفها الحظ من حيث لا تدري. لقد تعرفتا على ضابط على شاطئ البوسفور، ورافقهما حتى حي فاتح، واتفق مع وصفية على اللقاء ثانية في أحد المتنزهات. لسوء حظ وصفية، زارها ضيوف في يوم الموعد المتفق عليه. توسلت وصفية لنزيهة للقاء الضابط والاعتذار منه لانشغالها وقالت:

-عزيزتي نزيهة، أرجوك أن تذهبي لمقابلة الضابط، وتعتذري نيابة عني. ولا تنسي أن تحدّدي موعداً آخر للقائنا.

حين مرّت نزيهة مساء على بيت وصفية، أخبرتها بأن الشاب لم يحضر في الموعد. لكنها لاحظت اضطراباً على صديقتها. بعد عدة أيام أدركت وصفية خيانة صديقتها لها. لقد أعجب الضابط بنزيهة، وأعلنا خطبتهما بعد أسبوع.

ظلت وصفية تبدي حزنها واستياءها من خيانة أعز صديقاتها إليها، ولا تتوقف عن التنهد والشكوى من وحدتها هنا:

-آه يا فريدة، ما أجمل أن نكون صديقتين. لكن ماذا أقول لك؟ رغم أنك مرحة وطيبة وقريبة من القلب، لكنك لا تعيشين حياتك.

يتدفق النشاط والبهجة في المدرسة، كحال الأعشاش حين تخرج الأفراخ من البيض. كما أن المطر الشديد الذي هطل قبل أيام، مصحوباً بالبرق والرعد، نفض عني ما سببه لي قيظ الصيف من حزن وسأم من العيش. كم شعرت بالنشاط والبهجة...

(ب)، ١٧ تشرين الأول

هطول الأمطار مستمر بغزارة منذ عشرة أيام. في الأيام الأولى، ابتهجت الأزهار مثلي وانتعشت، وعادت النضارة إليها، ثم أحنت رؤوسها تحت وابل المطر المنهمر بلا توقف في الحديقة مرتعشة كأنها تقول: "كفى!".

عند عودتي من المدرسة هذا المساء، كنت مبللة من رأسي حتى أخمص قدمي. التصق جلبابي على بدني وخماري التصق على وجهي. كان

منظري يثير ضحك كل من رآني. وجه مؤنسة كان شاحباً قليلاً، هذا المساء. أرقدتها في فراشها مبكراً، بالإكراه، خشية من إصابتها بالزكام، وأعددت لها مغلي الزيزفون. تذمرت البنت الشقية في فراشها، وإن سرّها اهتمامي بها:

-أختي، أيؤذي البرد الإنسان؟ هل نسيت أنني أمضيت الليل في التبّان في السنة الماضية؟

هذه الليلة، لم أشعر برغبة بالنوم. بعد أن نامت مؤنسة، أخذت كتاباً وتمددت على الديوان. رحت أستمع لصوت جريان المطر في المزاريب كأنها أغنية حزينة لا تنتهي منذ خمسة عشر يوماً. لا أدري كم مر من الوقت، حين سمعت الباب يُقرع بإلحاح. من القادم في مثل هذه الساعة؟

لم أجرؤ على فتح الباب. نظرت من مشربية غرفة الضيوف. لمحت امرأة طويلة القامة، في الضوء المنبعث من فانوس تحمله في عتمة الليل، تحاول الاحتماء من المطر أسفل المشربية، وترتعش وسط المياه الجارية في الشارع.

-من بالباب؟ ناديت.

أجابت بصوت مرتعش:

-افتحوا، أتيت لمقابلة الآنسة فريدة.

حين فتحت الباب كانت ترتجف. منذ تلك الليلة، وأنا أتشاءم من النساء الغريبات. إذا ما سأل أحد عني في مثل هذا الوقت، يتبادر إلى ذهني أني سأتلقى خبراً سيئاً. رفعت ضيفة الوقت غير المناسب، الفانوس لترى وجهي. لاحظت شحوب وجهها وحزناً عميقاً في عينيها الزرقاوين.

-هل تسمحين لي بالدخول، يا معلمتي؟

هذا المحيا وهذا الصوت، أعطياني شعوراً بالأمان. قلت: "تفضلي"، دون أن أرى حاجة للسؤال من تكون ولَم مجيئها. فتحت باب غرفة الضيوف. تلفّتت المرأة حولها ولم تحاول الجَلوس، كأنها تخشى أن تبلل الغرفة.

قالت لمجرد الكلام:

-يا لهذا المطر الغزير، يربك المرء!

دققت بملامح وجهها. كان بادياً من حالتها أنها أتت لغرض غير الاحتماء من المطر. أدركت أنها ما زالت مترددة بالإفصاح عن سبب مجيئها، فآثرت أن أتريّث بسؤالها.

بعد أن طال صمتها، قررت أن أسألها: "من حضرتك يا سيدتي؟". أحنت رأسها كأنها خائفة مني وأجابت:

-آنسة فريدة، لست بغريبة عنك. في الواقع، لم نلتقِ حتى الآن، لكنني أسمع عنك كثيراً.

صمتت قليلاً، ثم استجمعت قواها وأضافت:

-أنا أخت زميل لكِ. معلم الموسيقى في مدرستكم، الشيخ يوسف المعلم.

فجأة صعد قلبي إلى حلقي. لكن ما كان ينبغي أن أظهر ارتباكي: يجب أن أبدو متماسكة، ولا أدعها تلاحظ اضطرابي:

-فرصة سعيدة يا سيدتي، تشرفت بلقائك. أرجو الله أن ينعم على الشيخ المعلم بالصحة والعافية.

ربما كلامي ما كان مناسباً لقوله في هذه الساعة، لكن ماذا كان ينبغي أن أقول غير ذلك؟

صمتت، لم تجد ما تجيب به. وجّهتُ نظري إلى الأرض كي لا تتلاقى نظراتنا، ثم سمعت شهقة خفيفة. انتظرت وقد أحنيت رأسي كأني راضخة لواقع لا يمكن تفاديه.

ضغطت على صدرها كي تحبس بكاءها، وقالت:

-أخي يصارع الموت هذه الليلة. لقد ساءت حالته فجأة، عند المساء، وغاب عن الوعي. لن يطلع عليه الصباح.

لم أجب. ماذا يمكنني أن أقول؟

-آنستي، يوسف أصغر مني بثلاثة أعوام، لكنني أعتبره كولدي. كان يوسف طفلاً صغيراً حين تُوفيت أمنا. لم أكن في سن كبيرة أيضاً. رغم ذلك، كنت له أماً. رهنت عمري له. حين أصبحت أرملة كنت في عمرك تقريباً. كنت أستطيع الزواج ثانية، لكنني رفضت كي لا يبقى يوسف وحيداً. لكنه سيتركني الآن، وحيدة ويغادر. لا تلوميني لما أقوله لك يا آنستي، ولا تستهجني إزعاجي لك في مثل هذه الساعة. لا تغضبي ولا تطرديني لما سأتوسله منك...

انقطع صوتها وانهارت على الأرض. حاولت الإمساك بها ظناً مني أنها أغمي عليها، لكنها تشبثت بركبتي تقبلهما باكية بحرقة.

خلّصت نفسي منها بحركة سريعة، وحاولت أن أبدو هادئة:

- أدرك لوعتك، يا سيدتي، لكن أخبريني كيف يمكن أن أساعدك، قلت.

شعّ نور أمل في عيني المرأة الزرقاوين المنتفختين من فرط البكاء، وحاولت منع رجفان صدرها بيدها:

-منذ عشر سنوات ويوسف يعاني من المرض. حاولت كثيراً كي يشفى من هذا المرض اللعين، لكن بلا جدوى. كان المرض ينهش أخي ويضنيه. ثم حدث ما حدث حين رآك. في الحقيقة، هو رجل رقيق المشاعر. لقد بدأ يذوي ويذوب..

لم استطع كبح صيحة استنكار أصدرتها عند قولها هذا.

-سيدتي، أقسم أني لم أفعل شيئاً لأخيك. في الواقع، أنا لست سوى كليمة أيضاً، قلت.

-ابنتي، لا تستائي إن قلت إنه ربما لديك من محبين. أقسم أني لا أقصد الذم بقولي، فلست امرأة قاسية القلب. لكن يوسف أخي، وقد عشت مع موسيقاه منذ عشر سنوات. لا أحملك المسؤولية، فلا علاقة لك بمرضه. لكن ما يحزنني أن أراه يذوب كالشمعة في سريره. كل ما أرجوه أن يموت سعيداً. لا أقصد ملامتك بإخبارك أنه حين يغيب عن الوعي، يرتعش جفناه، ويردد اسمك بابتسامة رقيقة على شفتيه الذابلتين. لم يسبق له أن أفصح لي عن سبب شجنه حتى أمس، حين أمسك يدي وقبّل أصابعي متوسلاً كطفل: "دعيني أراها للمرة الأخيرة يا أختي!". كنت على استعداد لبذل أي شيء من أجل يوسف، لكن ما طلبه كان عصياً على التنفيذ. شعرت أن قلبي يتقطع من عجزي عن تلبية طلبه. مسحت جبينه وقلت: "ستتحسن صحتك يا يوسف، وتراها ثانية"... صمت هذا المريض وأغمض عينيه بيأس، ثم أدار رأسه إلى الناحية الأخرى بملامة. لا يمكنني أن أصف لك شعور الحزن الذي ألمّ بي في تلك اللحظة... هذا المساء، أغمض عينيه تماماً حتى شعرت أنه لن يفتحهما ثانية. لقد كرّست حياتي وسعادتي من أجله، ولم أتوانَ

لحظة واحدة، عن فعل أي شيء من أجله. من الصعب أن أصف لك ألمي حين رأيته يغمض عينيه بحسرة دون أن أساعده برؤية ما يحنّ إليه للمرة الأخيرة. إن تفعلي ذلك، ستنالين أجراً عند الله كإعطاء جرعة ماء لشفاهِ روحها على وشك مغادرة جسدها.

ما عادت قادرة على متابعة كلامها. شهقت وغطت وجهها بتلابيبها كالأطفال.

سأظل أتذكر ما حدث هذه الليلة كالحلم. عبرنا عدة أزقة ضيقة ومعتمة تحت المطر، أتعقب ضوء فانوسها الباهت، لا أدرك ولا أسمع شيئاً كورقة شجر وقعت في سيل تنجرف بلا إرادة.

أدخلتني غرفة عالية وواسعة تغمرها ظلال هنا وهناك. طنابير، وأعواد، وكمانات معلقة على الجدران، وأشياء أخرى تربض على الأرفف. كان الملحن ينازع النفس الأخير على سرير حديدي واسع، في إحدى زوايا هذه الغرفة المليئة بالآلات الموسيقية. اقتربت منه على أطراف قدميّ. سكونة الموت مخيّمة على وجهه الأصفر كالشمع، والعتمة الحالكة تغطي تجاويف عينيه المغمضتين.

لكن، بعض من الحياة ما زالت تلوح بين شفتيه المنفرجتين عن أسنان ناصعة البياض.

المرأة التي كانت يائسة ومنهارة قبل قليل، أبدت بتحقيقها أمنية المحتضر الأخيرة، هدوءاً وصلابة مثيرة للدهشة. يا إلهي، يبدو أن المحبة والحنان تصنع المعجزات! وضعت يدها على جبين المريض كأم توقظ طفلها ليذهب إلى المدرسة وقالت:

-يوسف، يا بنيّ، انظر، لقد جاءت زميلتك المعلمة فريدة لتطمئن

عليك. افتح عينيك، يا يوسف.

بدا المريض لا يسمع ولا يرى، كأنه لن يفتح عينيه ثانية قبل موته، ما جعل المرأة المسكينة تفقد صلابتها وهدوءها وشرعت بالبكاء، ثم قالت بصوت مخنوق:

-يوسف، يا بنيّ، افتح عينيك، إن متّ دون رؤيتها سأعاني كثيراً.

كاد قلبي ينفطر من الحزن، وساقاي ترتجفان من ثقل هبط على جسدي. استندت على شيء في العتمة كالطاولة قرب السرير. شعرت برعشة حين تبين لي أنه ليس سوى أورغ. حدثني قلبي في الحال أن المعجزة التي ستفتح عيني هذا المسكين ليست سوى هذا الأورغ. قد يكون ما فكرت به عملاً شائناً، أو ربما إثماً. لكن هذا الأورغ شدّني إليه كما تشدّ الهاوية من يقف إلى حافتها. باندفاع لا إرادي، دست دواسة الأورغ بقدمي، ومررت إصبعي على المفاتيح.

أنّ الأورغ بحزن كقلب مكلوم. اهتزت السازات المعلقة على الجدران بظلالها الممتدة حتى الزوايا المعتمة للغرفة، متأوهة.

هل ذلك حقيقة، أم محض خيال من الدموع التي تملأ عينيّ؟ لست أدري. ربما خُيّل لي ذلك، حتى المريض فتح عينيه للمرة الأخيرة، على صوت الأورغ.

دفنت أخته وجهها في الوسادة، وراحت تشهق وتنتحب.

انحنيت فوق الميت كمن يؤدي طقوساً مقدسة، ومررت شفتي على عينيه المحدقتين بأواخر خيالات مرتعشة. ....

أكانت أول قبلة لي، توديعاً لعينين منطفئتين لميت!

(ب)، ٢ تشرين الثاني

هذا المساء، أمضي آخر ليلة لي في بيتي في (ب)... أغادر غداً باكراً. بعدما حدث لم أعد راغبة في البقاء هنا. أصبحت مضغة في فم الجميع. يتناقلون الشكوك حولي، ويلاحقونني في طريقي أثناء الذهاب إلى المدرسة والعودة منها. غطيت وجهي بخمارين كي لا يميزونني، لكن دون جدوى، بل راحوا يسمعونني كلاماً جارحاً:

-هل هذه دودة القز؟ يا للشيخ المسكين!

بتّ أخجل من الحديث مع زميلاتي، وأشعر باحمرار وجهي عند دخولي الصف.

لم أكن لأحتمل هذا طويلاً. ذهبت إلى مدير المعارف ورجوته نقلي إلى بلدة أخرى. لم يعترض ووافق في الحال. يبدو أنه على علم بما يدور حولي من إشاعات. لكنه تردد، فلا مكان آخر مناسب لمؤهلاتي. أكدت على رغبتي بمكان بعيد ولا يعنيني لا الراتب ولا المدرسة.

قبل يومين، استلمت قرار نقلي إلى مدرسة (ج) الإعدادية...

مسكينة أنت يا طائر النمنمة! تحوّلت إلى ورقة من أوراق أشجار الخريف تعصف بك الرياح في كل اتجاه.

القسم الثالث



-١-

(ج)، ٢٣ نيسان

اليوم عيد الخضر والياس. وحدي في البيت، بل وحدي في البلدة أيضاً. البيوت خالية، والأسواق مغلقة. ذهب جميع أهل البلدة باكراً، حاملين سلالهم لأكل لحم الخراف في غابة الصفصاف. شحاذ مقعد دائم الجلوس عند زاوية الشارع، امتطى ظهر حمّال، وانضم إلى الجموع المتجهة إلى الغابة للمشاركة بالاحتفال.

أكثر ما أضحكني، منظر الكلاب الماكرة التي التقطت أنوفها رائحة الطعام في سلال المتنزهين، فسارت خلف الجموع متعقبة الرائحة.

بعثت مؤنسة مع زوجة جارنا الحافظ قربان، إمام الفوج العسكري. ألّحت كثيراً كي أذهب معها، لكنني عصبت رأسي وقلت: "أشعر بالتوعّك قليلاً، إن تحسنت حالتي سألحق بكم".

لم أكن صادقة بادعائي المرض، بل على العكس كنت اليوم، بأحسن حال وفي منتهى البهجة. أما عدم رغبتي بالذهاب، فمرده إلى فقداني الشعور بالمتعة من الأماكن المزدحمة بالناس.

ما إن بقيت وحدي في البيت، حتى نزعت العصبة عن رأسي، ورحت أغني وأصفر وأقوم بشؤون المنزل كربة بيت. أشعر بالمتعة بالعمل كربة بيت، بعد العمل كالرجال في المدرسة، طوال الوقت.

بعد أن أنهيت عملي المنزلي، حان وقت الاعتناء بطيوري. نظّفت أقفاصها، وجدّدت مياه شربها، وأخرجتها إلى الحديقة كي تتشمّس.

أملك نصف دزينة من الطيور. لقد اضطررت لإهداء الجدي مظلوم إلى ميراد ابن حجّي كلفا. حزنت مؤنسة وبكت كثيراً، لذلك أخذت لها هذه الطيور. مع الوقت، تعلّقت بهذه الطيور وأحبّتها. لكن لا أمان لهذه الطيور الصغيرة من قطة الجيران الشقراء. كلما أخرجت الأقفاص إلى الحديقة، تأتي وتربض قبالتها. قطة هادئة ولطيفة، بالمظهر. تنظر إلى الطيور بعينيها الخضراوين برقة، وترعش فكها مصدرة أصواتاً رقيقة كأنها تغازلها. أخرجت أحد الطيور من القفص، وقرّبته من وجهها لأرى ما ستفعله. تموّج الفراء الأشقر للقطة الشريرة كأن ريحاً هبّت حولها، والتمع شرر من عينيها الخضراوين، وأخرجت مخالبها من قائمتيها الناعمتين، استعداداً للوثوب على الطير.

ضمّ الفرخ المسكين عنقه وارتعش جناحاه داخل كفي... أمسكت القطة من رأسها بيدي الأخرى وقلت:

-من يرى جمال هاتين العينين الخضراوين الغدارتين، يظن أنك أحد ملائكة السماء. بينما لا تفكرين إلا بالتهام هذا المسكين، أليس كذلك؟ انظري، سأنتقم منك على طريقتي.

أرخيت كفي. رفرف الطير المسكين جناحيه، كأنه لا يصدق أنه أصبح حراً طليقاً. تردد، ثم زقزق بفرح وانطلق مرتفعاً في الهواء. قرّبت وجهي من عيني القطة الخضراوين التي تتابع الطير بيأس وحيرة، ضحكت وقلت بسخرية:

-ما بكِ، هل التهمت الطير، أيتها الشقراء الشريرة؟

فرح عميق غمر داخلي، كأن الطير الصغير لم ينتقم من هذه القطة

الشقراء فحسب، بل من كل المخلوقات الشقراء الشريرة.

لكن شكوى الطيور الأخرى أفقدتني بهجتي. هل اشتكت الطيور حقاً، أم خُيّل لي ذلك؟ لا أدري. قال المساكين: "لِمَ لا تطلقين سراحنا وتسعدينا مثل صديقنا؟". استجبت لرغبة قلبي الشديدة، كعادتي دائماً، وتوجهت نحو الأقفاص.

كنت أنوي فتح كل الأقفاص وتحريرها جميعاً، لكن مؤنسة خطرت ببالي فجأة. أسندت خدي على أسلاك أحد الأقفاص:

-جميل أن أحرركِ جميعاً، لكن ماذا سأقول لمؤنسة، تلك الشقراء المشاكسة؟ ما العمل يا صغار؟ لِمَ يستبد بنا الشقر الغدارون دائماً، ولا نستطيع الفكاك من أسرهم؟

ابتعدت عن الطيور لأهتم بنفسي. كلما كان الجو مشمساً، أغسل شعري بالماء البارد دائماً، وأشعر بمتعة بتركه يجف ببطء تحت أشعة الشمس.

فعلت الشيء نفسه ثانية هذا اليوم، ثم صعدت فوق شجرة الخوخ المقابلة للأقفاص، ونثرت شعري المبلل لتجففه أنسام الربيع المنعشة. لقد طال شعري كثيراً حتى وصل إلى وسطي. يُعتبر الشعر القصير عيباً ونقيصة في (ب)، وغزارة الشعر نوعاً من الكرامات. لذا كنت أخجل من ذلك أمام زميلاتي. بعد أن استشرت الكثيرين بمن فيهم حجّي كلفا، أصبح شعري غزيراً بفضل علاجاتهم.

الأقفاص كانت مقابل شجرة الخوخ، والطيور تغرد، عيونها تلمع كالخرز تحت أشعة الشمس. أصفر كتغريدها وأتأرجح على غصن

الشجرة بمرح. في تلك الأثناء، وقعت عيني على نافذة البيت المجاور لنا. يا لهول ما رأيت! جارنا الحافظ قربان إمام الفوج العسكري، يتابعني بنظرات من عينين مستديرتين تساقطت أهدابها، وتلمع كقنديلين علّقا على وجهه الربيل. لو كان لباسي مناسباً لما ارتبكت، قميصي كان يكشف عن صدري، وقدماي عاريتان. غطيت صدري بشعري الكثيف، وقفزت من فوري عن الشجرة. حمداً لله، لم أكن على غصن مرتفع. في تلك اللحظة وصل إلى مسامعي من يصيح فزعاً: "يا رب يا حفيظ!". رغم أني من وقعت على الأرض لكن جاري الحافظ قربان من صرخ.

لا يمكنني تمالك نفسي من الضحك حين أذكر اسم الحافظ قربان هذا. هو إمام للفوج العسكري، في الخمسين من عمره، ويقال إنه ثري جداً. زوجته لا تزال شابة، ولم تبلغ الثلاثين من عمرها. من أصل شركسي، جميلة كالوردة وعيناها كحيلتان. علاقتي معها جيدة جداً، وقد اصطحبت مؤنسة للنزهة هذا اليوم. لا أطفال لديها، وتحب صغيرتي الشقية كابنتها. لكن ما حدث اليوم أطار بهجتي. شعرت بالخجل من إمام الفوج العسكري. من يعلم، كم عابني؟ بينما أكتب هذه الأسطر الآن، أشعر بحرارة تلفح وجهي، واحمراري خجلاً. آه، يا ربي! لقد أصبحت معلمة ولا أزال أتصرف بطيش. لم يتوقف المدير رجب عن القول: "ليعطيك الله الصحة وطول العمر، لكنك لا تكفين عن الهزل والتهريج. لابد أنك ستُضحكين الإمام حين يلقّنك في القبر!".

برنامجي لبعد ظهر هذا اليوم، كان كتابة مذكراتي عن الستة أشهر التي مضت على مجيئي هنا. وقفت أمام نافذتي المطلة على الجدار الحصن

الواقع بين الساحل والمضيق. لقد اخترت هذا البيت من أجل إطلالة هذه النافذة فقط، فلا شيء آخر يتميز به.

لقد قبلت أول مكان عُرض عليّ فوراً، كي أبتعد عن (ب). لم يعنيني إن كنت سأعجب به أم لا، ولا بانخفاض راتبي الشهري. لكن لحسن حظي، فالمكان جيد للغاية. بلدة عسكرية جميلة وهادئة. ما من عائلة تقيم في هذه البلدة إلا وأحد أفرادها إما ضابط في الجيش أو جندي... حتى أن بعض المعلمين إما أئمة طابور أو مفتو فوج عسكري. لا ترى سوى رجالاً يتجولون بالزي العسكري، حتى جاري الحافظ قربان يرتدي الزي العسكري مع عمامته، ويتقلد سيفاً أحياناً.

تعجبني نساء (ج) كثيراً. ودودات وصادقات وسعيدات بحياتهن ونشيطات. وكما يحببن العمل يحببن الفرح والمرح أيضاً. لا يمر أسبوع من دون حفل. مناسبات الاحتفال لا حصر لها، وليالي الحناء تستمر أسبوعاً كاملاً. ذلك يعني أنهم يلهون كل ليلة تقريباً.

في البداية، كنت أندهش كيف يتدبرون مصاريف كل هذه المناسبات، ثم اتضح لي الأمر، مع الوقت.

تملك كل امرأة لباس سهرة فاخر مخصص لارتدائه في المناسبات لعدة سنوات. ثم ينتقل هذا اللباس إلى الابنة. لهوهن ومصاريف احتفالاتهن غير مبالغ فيها. فرقتهن الموسيقية عبارة عن عجوز أرمنية تعزف الهارمونيكا، مقابل مبلغ زهيد أو هدية رمزية.

صحيح أن حفلاتهن غير مبالغ فيها، لكن يكفيهن الشعور بالرضا والجذل. ليتني وُلدت بينهن، وحبذا لو أخضب أصابعي وكفيّ بالحناء

بلونه التمري ذات يوم! على أية حال، لنتطرق إلى موضوع آخر.

سرعان ما أظهرت جاراتي مشاعر المودة تجاهي. لكنهن عاتبات على قلة اختلاطي بهن ومشاركتهن مناسباتهن. كي لا يبدو تصرفي هذا تعالياً أو غطرسة، كنت أتفانى في تلبية طلباتهن، وأبذل جهدي بتعليم بناتهن في المدرسة، وأساعدهن بطيبة خاطر.

أكثر ما استهواني من الأمكنة هي غابة الصفصاف الواقعة على ضفة النهر. كنت أفضل الذهاب إليها مع مؤنسة، أثناء العودة من المدرسة مساء، حين تكون شبه خاوية من المتنزهين. في الواقع، غابة الصفصاف هذه تضم أشجار الدلب إضافة إلى أشجار الصفصاف. من يعلم كم قرناً عمر هذه الغابة؟ قُلّمت الأغصان السفلية للأشجار وتعانقت أغصانها العلوية بكثافة بحيث تبدو مع أواخر أشعة الشمس قبيل حلول المساء، كقبة لا متناهية الأطراف، محمولة على جذوع الصفصاف. على الضفة الأخرى للنهر، تصطف البساتين بأسيجتها الشائكة وطرقها الضيقة المخنوقة بالظلال. حين أتأمل هذه الطرق من ضفة النهر المقابلة، تبدو لي كأنها متاهات تؤدي إلى عالم آخر مختلف وخارق للخيال.

يقيم أثرياء البلدة في حي يدعى "قمة المرضى". اسم الحي لا يتناسب وواقعه، فهو حي أكثر الناس رفاه وهناء. عُرض عليّ استئجار بيت هناك، أول قدومي إلى البلدة، لكن إيجاره كان مرتفعاً بالنسبة لدخلي الذي قلّ عما كان عليه في (ب)، وينبغي عليّ الاقتصاد والعيش في بيت أصغر وأقل إيجاراً. مع ذلك، بيتي الحالي ليس بالسيء، فموقعه حيوي

ونشط بحوانيته ومقاهيه، وقد مر في الصباح، كل أهالي (ج) في ذهابهم إلى غابة الصفصاف من أمام بيتي. لكنني فوجئت بعودة بعضهم مبكراً. قبل قليل، وقف ضابط كان متجهاً إلى غابة الصفصاف، مع جماعة من الضباط عائدين من الغابة، وقال:

-لِمَ أنتم عائدون الآن؟ انتهت فترة مناوبتي قبل قليل، وها أنا في طريقي إلى الغابة الآن.

ضابط مسن، معطفه مفتوح دائماً من شدة بدانته، مألوف لناظري، أجاب:

-ارجع، لا تتعب نفسك. غابة الصفصاف لا نكهة لها اليوم. لقد بحثنا كثيراً، لكننا لم نعثر على حلوى الورد!

يبدو أن عساكر هذه البلدة يحبون حلوى الورد كثيراً. يتجول صغيرهم وكبيرهم ولا يتردد على شفاههم سوى حلوى الورد. يبدو أن هذا نوع من الحلوى لا أعرفه. لكن البحث عن حلوى الورد في نزهة يوم الخضر وإلياس، والأسى لعدم وجوده، أمر لا يليق إلا بالأطفال!

أذكر أني سمعت تردد كلمة حلوى الورد على أفواه الصغار والكبار أكثر من مرة، في الشارع.

قبيل ذات مساء كنت أعود من المدرسة. مر أمامي عدد من الشباب بثياب رثة. أراد أحدهم إكرام زميله الذي تمنّع قائلاً:

-لا يمكنني، لقد أكلت للتو. لا أستطيع أكل أي شيء.

فقال آخر بعد أن هز كتفيه:

-ألا تستطيع أكل أي شيء؟ وماذا لو كان حلوى الورد؟ أتمانع

أيضاً؟

لان الشاب في الحال، وابتسم حتى بانت أسنانه وأجاب:

-حلوى الورد؟ لا أمانع أبداً.

كما سمعت حديثاً دار بين عدد من روّاد أحد المقاهي وفتى مرحاً فقيراً يعتاش من نقل المياه إلى الحي:

-متى سنحتفل بزواجك يا سليمان؟

-متى تشاؤون، أنا جاهز.

-كيف ستتدبر أمرك، يا سليمان؟

-أدهن حلوى الورد على خبزي الجاف وآكله. أطلب من الله ان يصبرني على بلوتي.

يتكرّر هذا المزاح كل يوم تقريباً. لكن ما زاد الأمر غرابة، أن جارنا الحافظ قربان، قبل ثلاثة أيام، أمسك مؤنسة أمام البيت، قبّلها من وجنتيها رغم ممانعتها، وقال:

-أوه، تعبقين برائحة حلوى الورد الجميلة.

ازدادت الحركة في الشارع بعودة الجموع من غابة الصفصاف. ضحكة رقيقة وصلت إلى مسامعي من بعيد. لقد عادت مؤنسة! مضت الأربع ساعات على ذهاب البنت الشقية كأنها أربعة أشهر..

٢٣ نيسان (بعد ساعتين)

علمت ما هي حلوى الورد. حين ذكرت مؤنسة مرضي لبعض المعلمات اللاتي التقينها في غابة الصفصاف، قلقن من أجلي، فمررن على بيتي في طريق عودتهن، للاطمئنان على صحتي.

أصدرت على دخولهن لبضع دقائق. قلت لإحداهن على سبيل

المزاح: "هل وجدتم حلوى الورد؟ لقد سمعت الضباط أثناء عبورهم الشارع، يتذمرون من عدم عثورهم على حلوى الورد!".

أجابت زميلتي ضاحكة:

-تعلمين جيداً، أننا حُرمنا منها أيضاً!..

-لماذا؟

-لأنكِ لم تأتي!

نظرتُ إلى وجهها بدهشة، محاولة الضحك:

-وما علاقتي بذلك؟ قلت.

ضجّت المعلمات بالضحك. نظرت زميلتي إليّ، وقالت بتردد:

-أصحيح لا تعلمين؟

-لا أعلم ماذا؟

-فريدتي المسكينة، كم أنت ساذجة! لقد أطلق رجال (ج) عليكِ اسم حلوى الورد للون بشرتك الوردي الجميل.

تأتأت من الارتباك:

-كيف؟ أنا؟ إذن أولاد الشوارع يقصدونني بقولهم أدهنها على الخبز وآكلها... يا للفضيحة!

خبأت وجهي بكلتا يدي من شدة خجلي. يا إلهي! لقد أصبحت على لسان أهل هذه البلدة، يا للعيب!

رفعت زميلتي يدي عن وجهي غصباً، وقالت بجدية يخالطها المزاح:

-لا شيء يدعو للحزن. يجب أن تشعري بالسرور، إذ خلبت رجال البلدة لبّهم. أي امرأة أخرى نالت هذه السعادة؟

في الحقيقة، إن معشر الرجال مخلوقات سيئة. يسببون لي الإزعاج في كل مكان أذهب إليه. بأي وجه سأظهر بين الناس، وكيف سأنظر في وجوه جاراتي، يا ربي؟

(ج)، ١ أيار

قبل قليل، قُرع الباب، بينما كنت في الطابق الأعلى، أصحّح وظائف طالباتي. نادت مؤنسة من الطابق الأرضي:

-ضيفة بالباب، يا أختي.

امرأة بملاءة سوداء تتجول في الباحة. غطاء وجهها منعني من تمييز ملامحها. سألت بتردّد:

-من أنت يا سيدتي؟

جاءني الرد بضحكة رقيقة، ووثبت الضيفة كالقطة على عنقي. لم تكن الضيفة سوى مؤنسة الشقية. الملاءة الطويلة جعلها تبدو كفتاة كبيرة. أمسكتني من وسطي، ودارت بي في فناء البيت تقبّلني من وجنتي وعنقي. لقد كبرت صغيرتي في هاتين السنتين، وتفتّحت كوردة جميلة ورقيقة، بقامة هيفاء تقارب من طول قامتي. يبدو أن المرء لا يلاحظ التغيير الذي يطرأ على القريب منه دائماً.

حالها هذه تستدعي شعوري بالفرح، لكنني شعرت بالحزن. لاحظت مؤنسة ذلك:

-ماذا جرى يا أختي؟ لم أقصد سوى ممازحتك. أرجو أن لا أكون قد أغضبتك.

نظرت إلى وجه الطفلة المسكينة باستياء كأنها ارتكبت ذنباً وقلت:

-مؤنسة، لا يمكن أن أبقيك إلى جانبي طوال حياتي. أراك تحلمين دائماً بأن تصبحي عروساً. أفهمك جيداً يا بنيتي، سيأتي يوم، وتذهبين وتتركينني وحدي. .

اغرورقت عيناي كأني أعيش ألم تلك الوحدة في هذه اللحظة. حالي ونظراتي كانت تتوسل مؤنسة كي تواسيني بكلمة ترد حزني. لكن البنت الغدارة زمّت شفتيها، وقالت:

-ماذا نفعل يا أختي، هذه هي الحياة.

-ستتركينني إذن، لتتزوجي من غريب؟

لم تجب مؤنسة، ضحكت فقط. لكن يا لها من ضحكة! تحبه اللئيمة أكثر مني منذ الآن.

تحولت بكلامي على نحو مختلف عما كان قبل قليل:

-أمامك وقت طويل حتى تبلغين العشرين من عمرك كي تصبحي عروساً.

-أليس عمر العشرين كثيراً يا أختي؟

-لا بأس، تسعة عشر. هيا لا أمانع إن كان ثمانية عشر. تضحكين ولا تجيبين. تضحكين بخبث كأنك ستقررين وحدك. مستحيل أن أوافق قبل الثامنة عشر.

كانت الشقية تضحك وتلهو بمساومتي. لولا الخجل لبكيت منتحبة. كل الشقر غدارون وغير أوفياء. جميعهم يسببون الحزن بطرق مختلفة.

(ج)، ١٠ أيار

إحدى طالبات المدرسة، ابنة لأحد الباشوات الأثرياء، في الثالثة

عشر من عمرها تقريباً. فتاة متغطرسة، بأسنان نخرتها السوسة، قزمة، يتراجع نموها كلما قطعت شوطاً من العمر. أدعوها بالسيدةناديدة تندّراً، حتى أصبح الجميع في المدرسة يدعونها كذلك. تقيم في أكثر القصور أبهة في حي "قمة المرضى". تحضر إلى المدرسة بعربة والدها الباشا الفارهة، برفقة عسكري بشارب كثيف ومعقوف كقرني كبش.

لا أظن أن هذه الفتاة تأتي إلى المدرسة من أجل الدراسة، بل من أجل التباهي أمام زميلاتها الفقيرات ومعلماتها أيضاً. تتعامل مع زميلاتها كجوارٍ لها، والمعلمات يعتبرن تحمّل دلالها وغطرستها واجباً. من حين لآخر، تدعو أمها المعلمات لقصرها وتولم لهن. لا تتوقف زميلاتي المسكينات عن التحدث بانبهار عما يرونه من أبهة وبذخ في القصر، وما ترتديه سيدات القصر، وما يُقدم لهن من أصناف الطعام. أرثي لحال زميلاتي من جهة، وأشعر بالتقزز من جهة أخرى. أدركت أن عائلة عبد الرحيم باشا ليست سوى عائلة محدثة النعمة، وما يظهرونه من أبهة وبذخ ليس سوى رثاء الناس.

حاولت زميلاتي اصطحابي معهن أكثر من مرة، فأحمرّ من الغضب كأنني تعرضت لتحقير، وأهزّ كتفي ازدراء.

رغم أني لا أشعر بالحرج من ربط أحذية الأطفال الفقراء، أو تنظيفها من الوحل، لكنني لا أعير هذه البنت المتغطرسة أي اهتمام، ولا أتوانى عن تعنيفها إذا ما تطلب الأمر. لكنها على العكس من ذلك، تحترمني أكثر من بقية المعلمات، ولا تفارق ظلّي.

قبيل ظهر هذا اليوم، وقفت عربة ببابي. يا للمفاجأة! كانت عربة عبد الرحيم باشا الفارهة. ترجّل المرافق العسكري ذو الشارب الكثّ،

وفتح باب العربة لطالبتي ناديدة. تقدمت نحو بيتي بعظمة الأميرات، وحولها أطفال الحي يتراكضون. امتلأت نوافذ بيوت الحي برؤوس النسوة. الجميع في حالة ذهول.

جاءت ناديدة لدعوتي إلى قصرهم:

-معلمتي الفاضلة، والدي الباشا ووالدتي وأنا نرجو تشرفينا بحضورك. ننتظر قدومك بالعربة التي خُصّصت تحت إمرتك.

أدركت نيتهم على الفور. يظنون أنهم سيبهرونني بأبهتهم وبذخهم. أول ما تبادر إلى ذهني، أن أعيد ابنتهم والعسكري والعربة الفارهة، مع بضع كلمات شكر باردة. لكن حب المجابهة والتحدي عاد وسيطر على حواسي بتحجيم محدثي النعمة المغرورين...

رأيت في استانبول، من هو أعلى بكثير من أمثال هؤلاء الباشوات، حتى أني كنت أناكدهم. كان نزع أقنعتهم المزيفة، وكشف حقيقتهم القبيحة وعظمتهم الكاذبة وتفاهتهم، أكبر تسلية لطائر النمنمة. لست أدري، فأنا هكذا خُلقت! لست فتاة سيئة، فأنا احب صغار القوم والناس العاديين، لكنني قاسية جداً مع المدّعين المتفاخرين بثروة أو بعظمة مصطنعة.

كان من حقي أن أقوم بشقاوة صبيانية بعد أن أمضيت سنتين كسيدة رزينة.

تعمّدت ارتداء ملابس بسيطة لكنها في غاية الأناقة. لحسن حظي، كان عمي قد أحضر لي ثوباً أزرق داكن اللون، من باريس. كما تعمّدت ترك ناديدة تنتظر لفترة طويلة في الصالة. حين كنت في (ب)، رأيت صورة لتصفيفة شعر في إحدى المجلات الأوروبية، أعجبتني كثيراً، فقصصتها

واحتفظت بها. اليوم جاء الوقت المناسب لاستخدامها. علّقت الصورة على طرف المرآة، وشرعت أصفف شعري على شاكلتها بمهارة. صحيح أن هذه التصفيفة غير مألوفة ولمن هن أكبر مني سناً، لكنها مثيرة للانتباه، وهذا ما يعنيني، فأنا اليوم كممثلة أعمد إلى إثارة انتباه النسوة السوقيات المتظاهرات بالعظمة.

لم أترك ناديدة تنتظر حتى أزين نفسي فحسب، بل تركتها تنتظر أيضاً كي أتأمل تلك الشابة المبتسمة في مرآتها في غرفتها المعتمة ذات الأثاث الفقير. كنت أنظر إليها بخجل كأني لست أنا من أشاهدها في المرآة. لمَ لا أعترف بكل شيء مادام لن يقرأ مذكراتي أحد سواي؟ وجدتها جميلة، وكلما دققت أكثر وجدت أنها تملك جمالاً يخلب النظر. لكن العينان، ليست عينا طائر النمنمة العسلية البراقة كنجم تشع بهجة ومرحاً كما عهدتها في استانبول. بل عينان تعكسان ألماً أسود من أثر ليالٍ بيضاء، من الشعور بالوحدة والخدر والحرمان من النوم. هاتان العينان، إن لم تبتسما ستظهران عذاباً عميقاً دفيناً. أما إذا بدأتا بالضحك ستشعّان بلمعان وبريق ينشر فرحاً وبهجة.

كم هي رقيقة ملامح هذا الوجه! تنتاب المرء رغبة شديدة بالبكاء أمام الأشياء الجميلة.

ما كنت أراه دميماً بدا لي جذاباً الآن. كان زوج خالتي الذي في تكيرداغ يقول: "حاجباك يا فريدة، يشبهان كلامك. ينسابان بجمال ورقّة ثم ينحرفان عن مسارهما!". كلامه صحيح يبدآن بالانسياب بجمال ورقة، ثم ينتشران بكثافة جذابة حتى الصدغين...

كما أن قِصر شفتي العلوية، يكشف عن أسناني ليرسم على وجهي

ابتسامة رقيقة، كقول المدير رجب في (ب) إني سأقضي حياتي ضاحكة حتى حين أدفن في قبري.

كانت ناديدة تتعمّد طرق الأرض بحذائها، لكنني لم أبالِ بحركاتها، وتابعت تأمل الشابة في المرآة.

كم شعرت بالضيق والغضب حين أُطلق عليّ اسم دودة القز في (ب)، وحلوى الورد في (ج). لكنني الآن، لا أشعر بالحرج من هذه الألقاب بعد رؤيتي نفسي في المرآة، تلك الشابة النضرة بجمالها المشع كنور الأصيل، وأزهار نيسان بلمعانها الندي. تلفّت حولي حيناً من الوقت، كأني أخشى أن يراني أحد، ثم اقتربت من المرآة كي أقبل عيني ووجنتي وذقني بنفسي. كان قلبي يرف كعصفور، وشفتاي ترتعشان من لذة ندية.

لكن للأسف، فهذه المرايا من اختراع الإنسان، ومهما يحاول المرء فلن يستطيع تقبيل شعره أو عينيه، وسيبقى بعيداً عن شفتيه وفمه...

ما هذا الهرف!.. كانت الراهبة أليكسي تقول: "ملابس القسيس تجعل روح المرء قسيساً!". وهل يعقل أن تصفيف المرأة لشعرها كالغانيات يجعل منها غانية؟ أليس هذا الهرف لا يليق بمعلمة مدرسة؟

كان من حقي أن أقوم بشقاوة صبيانية بعد أن أمضيت سنتين كسيدة رزينة.

حين رأيت سيدات القصر يقمن بحركات مضحكة كالممثلات المبتدئات، ضحكت في سري وقلت: "تريّثن قليلاً، وسترينَ العجب!".

ذُهلت جميع الحاضرات كما سيدات القصر الكبيرات منهن والصغيرات من اكتفائي بتحيتهن تحية عادية دون تكلّف، ودون انحناء مع مسك طرف ثوبي. رحن ينظرن بعضهن إلى بعض. ما أظن أنها المربية، ليست سوى امرأة يونانية عادية قدمت من حي البي أوغلو في استانبول، أمسكت نظارتها الذهبية وتفحصتني من رأسي حتى أخمص قدمي.

الثقة الكبيرة في سلوكي وحركاتي وكلامي بلا تكلف، جعلت صالة القصر كسفينة تعرضت لعاصفة قلبت عاليها سافلها. هذه الصالة، مُلئت بأشياء مختلفة غالية الثمن، تنافرها يعكس أنها لم تقتنَ عن متعة أو أصالة ولكن لعرضها تباهياً، فبدت وكأنها مجرد معروضات في واجهة أحد المتاجر. أما سيدات القصر فبدوْنَ كدمى بلا روح، عُرضن للاستمتاع بإذهال نساء (ج) المسكينات الغشيمات.

بسطت هيمنتي على أجواء صالة القصر بجرأتي غير المقيدة والشقية، حتى بدت صاحبات القصر كالضيات الغشيمات. تابعت لعب هذه الكوميديا الفظة المضحكة، دون تكلف، مع حرصي على عدم كشف لعبتي هذه. جعلتهن يدركن عدم إعجابي بكل ما حولي من مظاهر بذخ ومن حديثهن أيضاً، وأن يشعرن بألم مدى تفاهتهن. حاولت البنت الكبرى للباشا أن تريني بعض اللوحات الفنية، فأجبتها بكلام لطيف باطنه أن لا قيمة لهذه اللوحات. لمحت عيني قطعة هي الفنية الوحيدة بين كل الموجود، فلم أتردد من القول: "لِمَ وُضعت هذه التحفة الجميلة في ركن مهمل؟". خلاصة القول، لم أبدِ أي إعجاب بمظاهر أبهتهن المزيفة، بل سعيت لاستهجان كل شيء أمامي. أما على مائدة الطعام، فقد سعيت إلى تجريحهن بقسوة... هذا اليوم، على هذه المائدة الغنية بكل أصناف

الطعام وأطايبه، انتقمت لكل شخص توقفت اللقمة في حلقه، ولكل ضيف تصبب عرقاً حين لم يفلح باستخدام الشوكة والسكين، ولكل سيء حظ اضطر لرد طبق لجهله كيف يُؤكل. كنت واثقة من نفسي ومن قدراتي حتى أن سيدات القصر لم يستطعن منع أنفسهن من اختلاس النظر إلي، في حين، كانت نظراتي إليهن ترعش الشوكة في أيديهن، وتوقف اللقمة في حلوقهن، وتربك شربهن للماء. أما تلك الغانية القادمة من حي البي أوغلو في استانبول، المدعية الأصالة، والمتفاخرة بلغتها الفرنسية المضحكة أمام تلك النساء الجاهلات، فقد جعلتها تندم على مجيئها إلى الدنيا.

افترضت أننا زميلتا مهنة، باعتباري معلمة وهي مربية، فحاولت الدخول معي في نقاش مهني، لكنني أحبطت خطتها، وحين كشفت عجزها، حاولت الخلاص قائلة: "يصعب عليّ أن أوضّح فكرتي باللغة التركية"، فأجبتها بالفرنسية: "لا بأس يا مدموزيل، يمكننا التحدث بالفرنسية". حين حاولت التحدث بالفرنسية، بتّ أسخر من لغتها الفرنسية. باختصار، اختفت معلمة الابتدائية الصغيرة والعادية، ووُلدت من جديد، طائر النمنمة الشقية المتحدثة البارعة، التي أبكت معلمات "دام دو سوان" بمشاكساتها وشقاواتها. وحين دار الحوار حول فن السلوك المهذب والتصرفات الراقية، عجزت عن مواصلة الكلام، فأرادت أن تضعني في خانة "كش ملك" بقولها: "لقد شاهدت عدداً من المناسبات والحفلات الرسمية. شاهدت ذلك بأم عيني!". حينئذ نظرت إليها مبتسمة باستخفاف مغرور وقلت:

-المشاهدة وحدها لا تكفي، فالسلوك المهذب والتصرفات الراقية،

يجب أن تنبع من أعماق الإنسان دون تكلّف أو تصنّع.

أعترف أن هجومي هذا لم يكن مؤدباً، فقد تصببت المرأة عرقاً من شدة التوتر، وغادرت مسرعة، متذرعة بحلول موعد تدريس ابن أحد الباشوات.

أصبحت سيدات القصر كالخراف، وبانت وجوههن الحقيقية بعد نزع أقنعة الغرور والزينة القبيحة. لكنني اكتشفت أنهن لسن سيئات في داخلهن. عندئذ، استعدت شخصيتي كمعلمة مدرسة ابتدائية عادية تعرضت لضيم.

دعتني سيدات القصر برجاء حميم لزيارتهن دائماً. لكنني أجبت: "تسعدني زيارتكن من حين لآخر، لكن لا أحب أن تحوم الشكوك حولي كأني أنتظر منكن شيئاً".

كانت سيدة القصر ترغب بشدة معرفة أصلي وفصلي.

-ابنة عائلة محترمة وقورة، جار عليها الزمان، أجبت.

-بنيّتي، بجمالك وخصالك المتميزين، يمكنك الزواج بأفضل عريس.

-قد يطلب يدي رجل بصفات حميدة، يا سيدتي. لكنني أفضل أن أعيل نفسي بعرق جبيني. العمل ليس عيباً.

-ما قولك لو عُرض عليك الزواج من شاب متميز من عائلة متميزة؟

-من الطبيعي أن أشعر بامتنان لنيلي هذا الشرف، لكن أظن أني لن أوافق.

لم تكن دعوتي إلى قصرهن لمجرد إبهاري بأبهتهن وبيع عظمتهن لي. هذا ما أدركته لاحقاً.

اصطحبتني الابنة الكبيرة للباشا لتريني حديقتهن. حديقتهن تشبه صالتهن تماماً. زُرع فيها بضع شجيرات صنوبر لتبدو كغابة صغيرة بالإضافة إلى ألف صنف وصنف من الأزهار، والنجيل، والأُصُص لأشتال مختلفة، توزعت جميعها دون تنسيق أو حس جمالي...

لكن كي أروي ما حدث في الحديقة، لابد من العودة إلى اثني عشر يوماً مضى.

تعرّض سياج الحقل المجاور لحديقة مدرستنا لعبث الصبية، حتى أصبح الحقل والحديقة كوحدة واحدة. منذ فترة، يعزق عدد من العمال الفقراء الأرض ورؤوسهم معصوبة بمناديل حمراء. كنت أتابع عملهم عن قرب في ساعات الاستراحة. كانوا جميعاً مسنين سوى شاباً واحداً جلب انتباهي لصغر سنه بالنسبة للآخرين واختلاف ملامحه ولون بشرته عنهم، ولا تبدو عليه مظاهر الشقاء. كنت أتجنّب الاقتراب منه، لكنه تجرأ يوماً، واقترب يرجو أن أبعث بإحدى الطالبات لتحضر له ماء ليروي عطشه من شدة الحر.

لا تعجبني النساء اللاتي يهربن من الرجال، لذلك لم أشعر بالحرج، وبحسّ المعلمة قلت له: "حسناً يا بني، انتظر قليلاً ريثما أستدعي إحداهن".

قلت في سري: "يبدو أنه من عائلة أصيلة، لكن الزمان جار عليه!". الغريب في الأمر، أنه بدا جريئاً في تصرفه، لكن خجولاً في حديثه.

يرتبك وتختلط كلماته، ويسأل أسئلة غريبة: "جاء إلى هنا مؤخراً، هل تكاليف الحياة رخيصة هنا، هل الشتاء بارد جداً، هل يتوفر الإجاص والتفاح؟"...

كنت أبتسم بينما كان يشرب الماء، وأقول في سري: "يبدو أن هذا المسكين مصاب بلوثة في عقله!"، وأعدت قول الشيء نفسه أمام ما شاهدته من مهزلة بين أشجار الصنوبر في غابة الباشا المصطنعة. ربما هذه الحادثة توضّح ما أصابني من حيرة ودهشة.

لقد التقيت بين تلك الأشجار الصنوبرية مع ذلك العامل الفقير الهيئة ثانية، لكن بزي ضابط أركان حرب. كان كل شيء فيه يلمع، من قصّة شعره العسكرية القصيرة جداً إلى سيفه وأزراره وأوسمته وياقته وحتى وجهه وأسنانه. كان يقف بين شجيرات الصنوبر، أنفه شامخ، وقامته منتصبة، وأصابعه متشابكة، عيناه الجريئتان تلمعان، وأسفل شاربه الدقيق، شفتان تكشفان عن أسنان لامعة، كأنه في وضعية للتصوير أمام عدسة الكاميرا، أو كأنه بذلك الزي وتلك الوقفة آخذاً وضعية "استعد!" ينتظر أمراً من قائده ليشهر سيفه!

مع هذا، فقد أدركت على الفور أن هناك من أعطى للضابط أمر "استعد!".

نريمة، الابنة الكبرى للباشا:

-آ! إحسان، أأنت هنا؟ متى أتيت؟ قالت بدهشة.

لكن تلك المرأة لم تكن تجيد التمثيل، فقد كان جلياً أن دهشتها مصطنعة.

يبدو أننا على وشك لعب كوميديا هزلية في ديكور أوبرالي ساخر. لكن لماذا؟ سأصل إلى جواب ذلك لاحقاً. أما الآن، فينبغي أن أحافظ على هدوئي وجرأتي، وأن لا أُظهر أي شيء من ظنوني.

على أية حال، يبدو أن هذه العائلة تحب إعداد المفاجآت. لكنني دائمة مستعدة للتحدي. ليفعلوا ما يشاؤون. لن أظهر أي اندهاش، ولن أفسد وقاري وهدوئي.

قالت نريمة:

-آنسة فريدة، أنت استانبولية مثلنا. أظن أن لا مانع لديك من تقديم عمي الموقر وأخي في الرضاعة إحسان، أليس كذلك؟

أجبت بفتور:

-أجل، بكل سرور.

قدمت نفسي على الفور دون أن أتيح لها فرصة للكلام:

-فريدة نظام الدين. من صغار الضباط في جيش وزارة المعارف...

لم يستطع الضابط الشاب أن يحافظ على هدوئه الوقور والجريء. كيف لم تُبهت معلمة ابتدائية متواضعة من رؤية شاب يسطع مثل الشمس، جميل ومهيب كالأمراء في حكايات الجن، وسبق لها أن رأته بلباس رث كعامل، قبل بضعة أيام؟

أجل، على العكس، هو من ذُهل. ارتبك ولم يستطع مراعاة أصول التحية المدنية، كما سبق وتعلمناها في المدرسة وأعطيت الكثير من الاهتمام والعناية على مدى سنوات طوال، بل حاول رفع يده نحو جبينه كتحية عسكرية، لكنه أنزلها سريعاً من منتصف الطريق، حين رأى يدي ممدودة نحوه. أمسك يدي، لكن حين لمس القفاز في يدي، عاد وسحب يده كأنه

التقط جمرة، أحرقت كفّه، وبدت عليه حيرة شديدة...

تحدثت بلا مبالاة عدة دقائق، كان أثناءها يخفض عينيه خجلاً كلما التقت عيوننا. يبدو أنه يتذكر طلبه مني شربة ماء وهو بلباس العمال. لكنني كنت أتابع حديثي كأني أراه أول مرة.

بعد قليل، وبينما كنت ونريمة في طريقنا عائدتين إلى القصر، نظرت إليّ بتردد ثم قالت:

-آنسة فريدة، ها قد تعرّفت على إحسان.

أدركت من كلامها أنها على علم بما حدث في المدرسة:

-أجل، قلت.

-أرى أنه ينبغي عليّ أن أخبرك بما حصل. لقد تراهن إحسان مع أصدقائه. هكذا هم الشباب، أمر عادي.

لم أتمالك نفسي من زم شفتيّ بدهشة:

-ما علاقتي بذلك؟

ضحكت نريمة لتواري خجلها واحمرار وجهها:

-لقد رآك بعض أصدقاء إحسان الضباط أثناء عودتك من المدرسة. حدثوه عن جمالك. نحن استانبوليون، من الطبيعي أن لا نعتبر ذلك إهانة، على عكس الأهالي هنا، أليس كذلك، يا جميلتي؟ راهنهم إحسان بأنه سيجد فرصة ما لمقابلتك وجهاً لوجه. قرّر أن يرتدي لباس العمال ذلك اليوم، كي يتمكن من التحدث معك. وهكذا كسب الرهان. أمر مدهش، أليس كذلك؟

لم أجبها. أدركت نريمة عدم أهمية الأمر بالنسبة لي، من صمتي وردّة فعلي الباردة.

تابعن لعب المشهد الأخير من هذه الكوميديا الغريبة في صالة الطابق العلوي للقصر. وصل خبر لقائي لإحسان، إلى أعلى قبل وصولنا بكثير. بدا ذلك واضحاً على كل الوجوه.

بحركة من إصبع سيدة القصر الكبيرة ، لم يبقَ في الصالة سوانا ونريمة.

بعد تردد قليل بدأت السيدة الكبيرة الكلام:

-كيف وجدت إحسان، يا ابنتي؟

أجبت بكل بساطة:

-يبدو أنه شاب جيد، يا سيدتي.

هي:

-ووسيم أيضاً، ودراسته عالية. لقد رُقّيت رتبته وعُيّن في بيروت.

-أمر جيد! في الحقيقة، شاب جميل ولطيف، وعلى درجة عالية من العلم، يبدو أنه كامل من جميع النواحي، كما تقولين.

نظرت الأم والبنت إلى بعضهما. أدهشهما قولي وسرّهما في الوقت نفسه.

قالت السيدة ضاحكة برقة:

-ليرضى الله عنك، يا ابنتي! لقد يسّرت لنا الأمر. أنا أم إحسان بالرضاعة، كبر على يديّ مثل ولدي. ابنتي فريدة، لا يصح طرح هذا الموضوع مع الفتاة مباشرة، لكنك، ما شاء الله! فتاة عاقلة ومؤدبة، لذا أريدك لإحسان على سنة الله ورسوله. لقد أعجب بك كثيراً، وما دمت قد أعجبت به أيضاً، ستكونان سعيدين في حياتكما بمشيئة الله. تطلبان إجازة لمدة شهر، ونقيم فرحكما هنا، ثم تغادران إلى بيروت معاً.

كان حدسي صائباً، حين توقعت أن نهاية المطاف ستؤول على هذا النحو. في الحقيقة ما يحدث يدعو إلى الضحك. لا أدري لَمِ عرض الزواج هذا وفي بلد غريب، يسبب لي كل هذا الحزن؟ رغم ذلك لَم أظهر لا حزناً ولا فرحاً أيضاً:

-سيدتي، هذا شرف كبير لي. أشكرك والسيد إحسان من كل قلبي. لكن ذلك غير ممكن، قلت.

دُهشت السيدة الكبيرة:

-لَمِ يا ابنتي؟ ألم تقولي قبل قليل، إنه أعجبك وترينه وسيماً!

أجَبت ضاحكة:

-سيدتي، أكرر ثانية، السيد إحسان شاب وسيم وجدير بالتقدير، لكن أيمكن أن أكون على هذا القدر من الصراحة لو كان الزواج في نيتي؟ ألا يبدو أن هذا مبالغة في التحرر من قبل فتاة في سن الزواج؟

نظرت الأم وابنتها إلى بعضهما ثانية، وساد صمت قصير، ثم أمسكت نريمة يديّ وقالت:

-آنسة فريدة! أرجو أن لا يكون هذا الجواب نهائياً، إحسان سيتأثر كثيراً.

-أكرر ثانية، السيد إحسان، شاب وسيم جداً، يستطيع الزواج بمن يريد.

-صحيح، لكنه يريدك أنت. كان واجباً عليّ أن أخبرك بقصة رهانه مع أصدقائه. أيعقل أن تقابليه بهذا الرد، يا جميلتي؟ المسكين، منذ عشرة أيام وهو يردد أن الموت أهون عليه من التخلي عنك.

أدركت أن نريمة تحاول إطالة الحوار بهذا الموضوع كي تتمكن من

إقناعي بكياسة. لذا اختصرت الحوار بأن قراري قطعي، واستأذنت بالخروج.

بدت نريمة حزينة جداً، وقالت لأمها بيأس:

-أمي الغالية، أنتِ أخبري إحسان. لا يمكنني أن أخبره بنفسي. لم يخطر بباله قط، أن فريدة سترفضه. سيحزن كثيراً.

آه من هؤلاء الرجال! يحملون جميعهم التيه بالنفس والغرور نفسه، كأن الشمس تشرق من أجلهم فقط. نحن النساء نحمل قلباً مثلهم أيضاً، يحب ويكره، لكنهم لا يحاولون أن يفهموا ذلك.

حين أوصلتني عربة الباشا إلى بيتي، كانت مؤنسة عند الجيران. أردت تأمل نفسي مرة أخرى، قبل أن أخلع ثيابي. كانت الغرفة قد غرقت في العتمة. ميّزت نفسي في المرآة بصعوبة بالغة، كضوء قمر باهت يسقط على الجدار. لا أدري كيف حصلت لعبة الألوان هذه. تنورتي القصيرة الزرقاء الداكنة بدت من الحرير الأبيض.

غطيت وجهي بيديّ. في هذه اللحظة دخلت مؤنسة إلى الغرفة:

-أختي!

مددت يديّ نحوها كأنني أطلب منها الغوث. بدلاً من قولي "مؤنسة"، خرج من بين شفتيّ اسم خصمي الذي أمقته.

(ج)، ٦ أيار

يبدو أن باب عروض الزواج قد انفتح هذا الأسبوع. لقد بتّ بطلة

لكوميديا جديدة، اليوم، قبل أن أنسى ما حدث في كوميديا الأمس. لكن كوميديا اليوم أشد مدعاة للضحك من سابقتها ليوم أمس، وتدعو إلى التمرد والاستنكار.

كوميديا اليوم أرويها على النحو التالي: غرفة الضيوف في بيتنا، هي خشبة المسرح. الضيفة، هي زوجة الحافظ قربان، ترتدي ملاءتها الحريرية الفاخرة المخصصة للمناسبات، وتحيط عنقها بسلسلة من المخمّسيّات الذهبية. تتصرف بغرابة، وتبدو كأنها قد بكت قبل مجيئها. نشرع بالحديث.

أنا: "يبدو أنك ذاهبة إلى إحدى الحفلات."

هي: "كلا يا أختي، أتيت لرؤيتك."

أنا: "كم أنت متألقة بهذه الزينة اليوم. أمن أجلي أنا؟"

هي: "نعم، من أجلك يا أختي."

أنا: (ممازحة) "إذن، جئت تحملين عرضاً للزواج؟"

هي: (دهشة ساذجة تظهر على عينيها) "كيف عرفت؟"

أنا: (بذهول) "ماذا، هل حقاً جئت من أجل ذلك؟"

هي: (متنهدة) "نعم، يا أختي!"

أنا: "من يكون؟"

هي: (كأنها تتحدث بأمر عادي جداً) "زوجي."

أعجبتني قدرة هذه المرأة الساذجة على المزاح دون أن يظهر ذلك على ملامح وجهها. ضحكت ملء شدقيّ. لكنها لم تشاركني الضحك، بل اغرورقت عيناها!

هي: "زوجي يريدك يا أختي. أراد أن يطلقني كي يتزوج بك.

توسلت إليه أن لا يطلقني ولا اعتراض لي على زواجه منك، وسأقوم بإعداد الطعام لكما وخدمتكما. ارأفي بحالي يا أختي!

أنا: "الحافظ قربان هذا، أواثق من الزواج مني إن طلقك؟"

هي: (بتبجح ساذج) "بالتأكيد! يقول إنه على استعداد لدفع خمسين مخمسية ذهبية، عداً ونقداً."

أنا: "اطمئني يا جارتي المسكينة، لن يحصل هذا أبداً حتى لو انطبقت السماء على الأرض."

تلهج المرأة المسكينة بالدعاء، وتسدل الستارة.

(ج)، ١٥ أيار

هذا المساء، أثناء العطلة المدرسية، نادتني المديرة إلى غرفتها، وقالت بوجه عبوس:

-آنسة فريدة، ابنتي، أنا مسرورة جداً من جدك ونشاطك، لكن لي عليك مأخذ واحد: لا تزالين تظنين أنك في استانبول. يقال إن الجمال بليّة. أنت جميلة لكنك قليلة الخبرة ووحيدة في هذه البلدة، لذا عليك أن تكوني أكثر حذراً في تصرفاتك. لقد بدر منك بعض التصرفات الطائشة. لا ترتبكي يا ابنتي، ليس عيباً ولكن قلة خبرة. صحيح أن هذه البلدة ليست منغلقة تماماً، وتستطيع النساء التجول متزيّنات، ومعلماتنا أيضاً، لكن ما يراه البعض أمراً عادياً، قد لا يراه البعض الآخر على النحو نفسه. شبابك وجمالك يا ابنتي، يجذب كل من يراك من الرجال. الشائعات تنتشر سريعاً في هذه البلدة، وأنا أيضاً يصلني كل ما يدور في هذه البلدة. لا أحد في هذه البلدة من لا يعرفك أو لا يتحدث عنك، من ضباط الثكنة

إلى عمال المقاهي وحتى الطلاب كبار السن في المدرسة الثانوية.

قد تتساءلين لِمَ أقول لك ذلك وبأي حق. عندي سببان يا بنيتي: الأول، أنت فتاة عَديمة الخبرة بالحياة، لكنك طيبة جداً، بكل صدق. لقد أصبحنا قادرين على معرفة معادن البشر، لذلك أردت أن أنصحك كأمك أو أختك. أما السبب الثاني فهو مصلحة المدرسة، يا ابنتي، أليس كذلك؟

تابعت المديرة حديثها بتردّد دون أن تنظر إلى وجهي:

-المدرسة مكان مقدس مثل الجامع. أهم وظيفة لنا أن نبقيها بعيدة عن الشائعات، والافتراء، وكل ما يشين سمعتها. أليس كذلك؟ مع هذا فقد وقعنا في المحظور. ألم تلاحظي أن غالبية الرجال باتوا يتجمهرون أمام باب المدرسة مساء كل يوم؟ ربما لم تلاحظي ذلك، لكنني أعرف سبب مجيء الآباء لاصطحاب بناتهم، والأخوة لاصطحاب أخواتهم. غاية الجميع رؤيتك! قبل أيام قمتِ بجدل شعر إحدى طالباتنا الفقيرات بشريط لكِ. لا أدري كيف وصل الخبر إلى ضابط وقح، فأعطى الطفلة بعض النقود مقابل الشريط، وشبكه على ياقته، وراح يتندر أمام أصدقائه ويقول: "لقد أصبحت باشا الباشوات بعد أن نلت وساماً رفيعاً من حلوى الورد!".

كما أخبرني محمد البواب، أمس، بحادثة أزعجتني:

أوقف أحد السكارى أصدقاءه أمام سور المدرسة، بعد خروجهم من إحدى الحانات ليلة أول أمس، وصاح بهم: "لقد رأيت حلوى الورد تلمس هذا الحجر. هيا بنا نقبل هذا الحجر ونتلمّسه تيمناً!". ألا ترين يا ابنتي أن هذا أمر مشين في حقك وحق المدرسة؟ لم يقف الأمر عند هذه

الحادثة، بل قيامك بالتحدث مع الضابط إحسان في حديقة عبد الرحيم باشا، كان تصرفاً طائشاً. لو وافقت على عرض أمه، لانتهى الأمر، ولم يعتبر تصرفاً غير حكيم. لكن اجتماعك بشاب، ثم رفضك لعرض زواج مناسب، جلب الانتباه وفتح باب الإشاعات: "ما دامت قد رفضت الزواج بشاب مثل الضابط إحسان، فلابد أنها تحب شاباً آخر! لكن من هو يا ترى؟".

استمعت إلى المديرة دون أن أجيب أو يبدر مني أي اعتراض. في البداية، كانت المديرة تخشى من ردة فعل عنيفة مني، لكن بعد صمتي، غلبها الشك، ثم قالت بعد تردد:

-ما ردك على ما ذكرته لك، يا معلمة فريدة؟

صدرت مني تنهيدة خفيفة، ثم أجبت:

-ما قلته صحيح يا مديرة. لقد أدركت ذلك مع الوقت. يحزنني مغادرة هذه البلدة الجميلة، لكن لا حل آخر! إن كنت تريدين مساعدتي، فاطلبي نقلي إلى مكان آخر، لكن أرجوك لا تذكري أني صرت مضغة في أفواه أهالي البلدة. اذكري ما تشائين، قولي غير قديرة، أو جاهلة، أو مشاكسة ولا تلتزم بالتعليمات. لن أغضب، فتلك أكبر خدمة يمكن أن تؤديها لي.

غرقت المديرة في التفكير، وظلت صامتة. استدرت نحو النافذة كي لا أظهر الدموع التي ترقرقت في عينيّ. رحت أتابع الجبال التي بدت قممها في الأفق كدخان يتصاعد في زرقة سماء المساء.

بدأت طائر النمنمة تشتم رائحة الغربة من هذه الجبال من جديد. رائحة الغربة! كلمة لا تعني شيئاً لمن لم يعشها بروحه! طرق الغربة مشبّعة

بالأحزان، تضيق وتضيق، وتطول وتطول بلا نهاية، وأجراس العربات تبكي وعجلاتها تئن بحزن.

إلى متى يا ربي، ولماذا؟ وأي أمل أسعى إليه خلف هذا العذاب؟

(ج)، ٥ حزيران

أصابني شقاء طيوري، وبقيت حبيسة مثلها طوال أشهر العطلة الصيفية. قالت إن قرار نقلي لن يصدر قبل شهر أيلول. قررت أن لا أخرج إلى الشارع إلا للضرورة القصوى، كي ينساني أهل البلدة. ما عادت جاراتي يزرنني كالسابق. ربما يخشين من الإشاعات. وأنا بدوري لم أعد أتحدث مع أحد سوى سيدة كبيرة شديدة الشبه بخالتي، حتى صوتها فيه شبه قريب من صوت خالتي. ذات يوم قلت لها بخجل:

-هلّا خاطبتني باسمي فريدة، ولا داعي لمخاطبتي بالمعلمة فريدة، يا عزيزتي؟

تردّدت جارتي قليلاً، لكنها لم تردّ رغبتي. حين تتحدث معي، كنت أغمض عينيّ، فأشعر وكأني في حديقة كوزيتاي... بات يصدر مني كلام لا معنى له! يبدو أني بدأت أعاني من حالة عصبية، وأشعر بعدم اتزان في كلامي وتصرفاتي. أضحك دون مبرر، وأتعارك مع مؤنسة كالأطفال، وأصفر للطيور. لكن فرحي كان متقلباً مثل حزني، وغير قادرة على ضبط مشاعري.

أثناء قدومي إلى هنا إلى (ج)، في الباخرة ليلاً، طار النوم من عيني. أحد الركاب كان يستند إلى درابزين الباخرة، يحدق في ظلمة الماء ويردد

أغنية حزينة: "هام قلبي بهواك وتاه".

ظلّت كلمات هذه الأغنية راسخة في ذاكرتي، منذ سماعي لها تلك الليلة. بعد مضيّ أشهر، بينما كنت في حديقتي ذات يوم نيساني، والأزهار قد بدأت بالتفتّح، رحت أردّد تلك الأغنية. يبدو أن العقل الباطني للإنسان عصي على الفهم! كيف ولماذا حفظت كلمات وألحان هذه الأغنية لمجرد سماعها مرة واحدة؟ بقيت هذه الأغنية تتردد على شفتي كلما سقيت الطيور، أو تابعت البحر من نافذتي. عند مساء أمس، وبينما كنت أردد: "هام قلبي بهواك وتاه"، شرعت بالبكاء، لا أدري لماذا؟ لكن يبدو أني أعاني من حالة عصبية ما.

قررت أن لا أردد هذه الأغنية ثانية.

(ج)، ٢٠ حزيران

نظمية، هي إحدى زميلاتي المعلمات. فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها، جميلة ومرحة وتحب المزاح، وحديثها ممتع. إجادتها العزف على العود، أعطاها مكانة خاصة في حفلات العائلات الميسورة، لكنها لم تكن تحظى بالمحبة نفسها لدى زميلاتها المعلمات، ولا يذكرنها بالخير في الحديث حولها.

لا أعلم لماذا، لكن ربما لا يعجبهن زيّها المتحرر نوعاً ما، أو ربما يحسدنها لمهارتها في العزف ولمكانتها لدى تلك العائلات.

أخبرتني نظمية أن ضابطاً ميسور الحال تقدم لخطبتها، لكن عائلته لم توافق على هذا الارتباط، فبقيت علاقتهما سرية، وأكدت عليّ أن يبقى

هذا الأمر سراً بيننا.

يوم أمس، بينما كنت أعاني من ضجر وملل شديدين، زارتني نظمية في البيت.

-فريدة، جئت كي أنقل إليك تحيات خالة (فريدون) ودعوتها لحضور حفل تقيمه في بستانها في ضاحية "سوباشي".

-كيف أقبل دعوة أحد لا أعرفه، وأذهب إلى مكان أجهله؟ قلت.

أجابت نظمية وفي عينيها نظرة لائمة:

-أغريبة خالة خطيبي؟ كما أني أريد أن أعرّفك على خطيبي، لتحكمي على حسن اختياري، عن قرب. لن أذهب إن لم تأتي معي.

حاولت بشتى الأعذار أن أبرر عدم رغبتي بالذهاب، لكنها أصرّت ولم تتراجع. في الواقع، أعذاري كانت طفولية، كما أن نظمية داهية، وقادرة على إقناع المرء بكلامها المعسول!

من كثرة ما توسلت، ما عاد بإمكاني رفض طلبها. لكن ما لفت نظري، أن نظمية قطبت حاجبيها حين شرعت بإلباس مؤنسة، وقالت:

-هل ستصطحبين الصغيرة؟

-بالتأكيد، كيف أترك مؤنسة وحدها في البيت؟ أهناك من مانع؟ سألت.

-كلا، لا شيء، لكنك تتركينها وحدها في البيت أحياناً...

-أجل، لكن لم أتركها وحدها حتى ساعة متأخرة من الليل قط.

صحيح أني ما عدت قليلة الخبرة بالناس، وحياتي تمضي في الغربة منذ سنين، عشت خلالها أحداثاً مختلفة، وسمعت قصصاً عديدة، لكنني

لا أدري كيف استطاعت نظمية في دقائق من غفلتي، أن تخدعني ولم آخذ الحيطة ولم تنتابني الشكوك من كلامها؟

قد يكون الضجر والملل، ورغبتي في الخروج من سجن البيت أفقدني التفكير الصائب.

عربة مغلقة صغيرة بأربعة عجلات، عبرت بنا إلى الضفة الأخرى للنهر. وصلنا إلى بستان ناءٍ بعد مضي ما يزيد عن نصف ساعة، قطعنا خلالها طرقاً ضيقة مغطاة بأوراق الأشجار، وعبرنا من أماكن جميلة جداً، وصادفنا قطيعاً من الأغنام، يسقيها راعي عجوز، يملأ حوضاً حجرياً واسعاً بالماء من بئر أحد البساتين باستخدام مضخة يدوية، وصغار الماعز تتدافع بقرونها الصغيرة حول الحوض، فتذكرت ومؤنسة جدينا مظلوم.

طلبنا التوقف قليلاً، ونزلنا من العربة. أمسكنا جدياً صغيراً وقبلناه والدموع تملأ عيوننا. في تلك اللحظة، فكرت بشرائه من الراعي، لكن كيف أفعل ونحن على وشك ترك هذه البلدة قريباً؟ ألا تكفيني همومي حتى أشتري هماً جديداً آخر؟

أخيراً، وصلنا إلى القصر. كان بناء قديماً محاطاً بعرائش خضراء مرتفعة، وسط بستان مترامي الأطراف.

خالة فريدون امرأة مسنة بدينة. في الحقيقة، لم أجد لا ملابسها ولا زينتها ولا تبرجها لائقاً بامرأة عجوز. صبغت شعرها باللون الأشقر، ووشمت صدغها برسم زهرة، وطلت وجنتيها بالأحمر. في الواقع، كانت تبدو في مظهرها كعجيبة من العجائب!

أوصلتنا هذه المرأة إلى غرفة في الطابق العلوي، وخلعتْ عني ملاءتي. ثم، قبلت وجنتي بلا مبالاة كأنها تتشممها:

-أسعدني التعرف بك، يا ابنتي الألماسة. حقاً كحلوى الورد! تتوق النفس إلى تناوله بلهفة، قالت.

شعرت بانزعاج شديد. لكنني حاولت عدم إظهار انزعاجي. يبدو أنها من السفيهات اللاتي يهذرن بلا لباقة.

تركتنا وحدي مع مؤنسة في الغرفة وقتاً من الزمن. بدأت الشمس بالمغيب، وخبا ضياء الأصيل بين أوراق المعرشات. شعرت بتوتر غريب في داخلي وبدأت بالتوجس من عواقب سيئة، فحاولت مشاغلة أفكاري بالمزاح مع مؤنسة.

أصوات متداخلة لنساء ورجال وقهقهات وصيحات، ودوزان نشاز لكمان، بدأت تتصاعد في الحديقة.

أطللت برأسي من النافذة. الأوراق الكثيفة للمعرشات كانت تحجب الرؤية.

أخيراً، بدأت أصوات ووقع أقدام تصدر قادمة على الدرج. فُتح الباب. دخلت صاحبة البيت تحمل مصباحاً ضخماً.

-ابنتي الألماسة، لقد تركناك وحدك في العتمة، بقصد أن تتمتعي بجمال الحديقة عند الأصيل.

بينما كانت المرأة العجوز تضبط فتيل المصباح، وتتحدث عن روعة جمال الحديقة في الليالي المقمرة، دخلت نظمية. لمحت خلفها، بالباب رجلين طويلي القامة بلباس عسكري. كنت حاسرة الرأس، فتراجعت على الفور، وحاولت تغطية شعري بذراعي.

ضحكت نظمية وقالت:

- آه يا حلوتي، أصبحت فتاة ريفية! ارفعي ذراعيك ولا داعي

للحذر من خطيبي.

بدا أنها على حق، فلا داعي للفزع، فقد دخل الضابطان بشيء من التردد. قدّمت نظمية أحدهما:

- فريدون خطيبي، الآنسة فريدة صديقتي. من حسن طالعي أن اسميّ من أحبها متشابهان.

حين كنت طفلة، كانت جدتي تشتري علب ثقاب تحمل رسماً لمحارب يوناني أجعد الشعر، شاربه مفتول وأحدب الظهر، وتغطي إحدى عينيه خصلة من شعره. فريدون هذا، كأنه ذلك الجندي وقد وثب أمامي من على تلك العلبة! ضاعت يدي داخل كفه القوية، ضغطها وهزّها بشدة:

-سيدتي، أقدم لكم شكرنا وامتناننا، لقد شرفت جلستنا، قال. ثم قدّم الضابط الواقف خلفه.

-إذا سمحت، أقدم لك صديقي المخلص ورجل الخير: الضابط برهان الدين. ضابط يختلف عن غيره من الرجال، وهو الابن الأصغر لعائلة سولاكزاده العريقة...

هذا السيد الصغير لعائلة سولاكزاده، رجل تجاوز الخامسة والأربعين من عمره. بعض من شعره وشاربيه خطه الشيب. بدا من مظهره وسلوكه وأسلوب كلامه أنه ابن عائلة نبيلة، على عكس فريدون. محياه وشعره الأبيض، أبعد الوقع السيء الذي قدمه به صديقه. كأنه منَحَني بعضاً من الشعور بالأمان.

بدا كلام برهان الدين بسيطاً وواضحاً، حيّاني من بعيد بإيماءة لطيفة برأسه، وانحنى باحترام:

-خادمك برهان الدين. سيدي، كان هذا البستان من أقرب أملاك والدي المرحوم إلى قلبه. كان يردّد دائماً: "هذا المكان ذو يمن وبركة. أسعد أيامي قضيتها في هذا البستان!". حين علمت بتواضعك وتشريفك لنا بزيارتنا هنا، تأكد لي ما كان يردده المرحوم حول هذا البستان.

أفترض أن هذا الكلام نوع من التملق، لكن ما علاقة هذا الرجل بدعوتي؟

نظرت إلى نظمية بحيرة بانتظار توضيح ما، لكنها تحاشت النظر إليّ. كنت أظن حتى تلك اللحظة، أن المرأة العجوز هي صاحبة البيت. في تلك الأثناء، أمسكت تلك المرأة يد مؤنسة واصطحبتها خارج الغرفة.

جلسنا في الغرفة نتحدث، أكثر من نصف ساعة. الأصح، هم كانوا يتحدثون، ولم يفسحوا لي المجال للحديث فحسب، بل ولا حتى لفهم ما يدور بينهم من حديث. شعرت وكأن مخلباً حديدياً ينغرز في قلبي. ضاق نفسي، وشُلّ تفكيري. لا أسمع شيئاً ولا أفكر بشيء، أتضاءل وأنكمش في زاويتي بخوف حيوان صغير فقد الإدراك، إثر تعرضه لهجوم مباغت في وكره.

في الطابق الأرضي، صاحَب عزف على الكمان أصوات غليظة وأخرى حادة ردّدت أغاني عاطفية.

جلست نظمية وخطيبها جنباً إلى جنب، على أريكة. حين اقتربا من بعضهما إلى حد الالتصاق، أدرت لهما ظهري. يا لهما من وضيعين لا يخجلان، كأنهما يلعبان أحد مشاهد العشق الرخيص في فيلم مبتذل، دون حياء أو خجل من وجودنا معهما...

قبل قليل، أحضرت المرأة البدينة صينية عليها عدة زجاجات

وأطباق من المأكولات المختلفة، ووضعتها على الطاولة، بينما برهان الدين يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ويديه في جيبيه. كان يدير ظهره ويقف أمام الطاولة، من حين لآخر.

في تلك الأثناء، وقف الضابط أمامي وانحنى قليلاً:

-هل تتفضلين بالقبول، يا آنستي؟

رفعت عيني بحيرة. رأيته يمدّ قدحاً صغيراً يلمع في داخله مشروب أحمر ياقوتي. رفضت بإشارة من رأسي، ثم قلت بغاية الهدوء:

-لا أريد.

انحنى أكثر حتى لفح نفسه الساخن وجهي:

-لا ضرر منه، يا آنسة. من أجود أنواع الليكور. أليس كذلك يا نظمية؟

أومأت نظمية برأسها:

-لا تصر يا برهان الدين، فريدة في بيتها هنا. تفعل ما يحلو لها.

حتى هذه اللحظة، برهان الدين، بشعره الذي بدأ بالمشيب، ووجهه البشوش ودماثته أعطاني أماناً مبهماً. ماذا سيحل بي يا ربي؟ وكيف سأتخلص من هذه الورطة؟

بدأت إضاءة الغرفة تخبو شيئاً فشيئاً، وشرارات كانت تتطاير أمام عيني داخل هذه العتمة. أصوات الآلات الموسيقية كانت تصم أذني كهدير البحر.

-ابنتي الألماسة، حان وقت الطعام، الضيوف بانتظارك على المائدة.

ما إن سمعت المرأة البدينة تقول ذلك حتى قلت في قرارة نفسي:

"جاء الفرج!"، ثم قلت:

-شكراً، أشعر بالتوعك قليلاً، سأبقى هنا.

حينذاك، اقتربت نظمية مني:

-فريدتي، لا غرباء بينهم، أصدقاء لفريدون وبرهان الدين. سيكون تصرفاً غير لائق إن لم تأتي. لقد جاءوا من أجلك.

تمسّكت بطرف الأريكة، محاولة تخليص معصمي من يد نظمية. لم أجد كلاماً للخلاص منهم. ضغطتِ على أسناني كي لا أفقد أعصابي فأضربهم.

برهان الدين:

-من الواجب أن ننفذ ما تأمره ضيفتنا وما تريده. انزلوا إلى الضيوف، وأخبروهم أن الآنسة فريدة متوعكة قليلاً. سيدة بينّاز، أحضري لنا ما نأكله هنا. من واجبي أن لا أترك ضيفتي وحدها.

كدت أجن، في تلك اللحظة. أأبقى وحدي مع برهان الدين في الغرفة، ونأكل سوياً؟!

وثبت من مكاني دون وعي، وصحت بشدة:

-حسناً، ليكن ما تريدون.

هبطت نظمية وخطيبها الدرج أمامنا، متشابكي الأذرع. كان برهان الدين يتعقبني بخطوة إلى الخلف.

في نهاية الردهة المعتمة، فُتح باب. بريق يخطف البصر حرق عينيّ فجأة. خطوت بضع خطوات مترنحة داخل سيل من ضياء يشع من الثريات المعلقة في السقف. مرايا ضخمة على الجدران تعطي أعماقاً للصالة لا حدود لها، تلمع وتبرق بانعكاسات ضياء الثريات كمشاعل

تركض في طريق طويل إلى ما لانهاية. وجوه وعيون لا حصر لها، نساء ورجال بملامح مختلفة وضبابية كما في الأحلام. ثم انطلق تصفيق حاد مخيف. أصوات تزداد عمقاً وتشوشاً ترافق ضجيج الموسيقى، وتصيح كرياح هادرة: "يعيش الضابط برهان الدين، تعيش حلوى الورد، تعيش حلوى الورد، حلوى الورد."

حين فتحت عينيّ، وجدت نفسي بين ذراعي مؤنسة. كانت صغيرتي تصيح: "أختي" باكية وتمسح وجهها بوجهي، وتقبل شعري المبلل وعينيّ المحترقتين من الكولونيا. كل طرف مني كان يقطر ماء. شعرت وكأن غابة من العيون حولي تحدق فيّ. أول ردة فعل صدرت مني، كان تغطية صدري المكشوف بذراعي.

صوت لم أميّز صاحبه:

-اخرجوا، أرجوكم، اخرجوا. كان يصيح. جهدت كي أنهض من مكاني، لكن يد أمسكتني من كتفي:

-لا تخافي يا ابنتي، لا شيء خطير، لا تخافي، قال.

نظرت من بين أهدابي إلى وجه المتحدث. كان ذلك الضابط المسن، ذو المعطف المفتوح دائماً من شدة بدانته. نظر إليّ ثم التفت إلى من حوله:

-حقاً إن هذه المسكينة ليست سوى طفلة صغيرة، قال.

ركعت نظمية على ركبتيها تمسد معصمي، وتقول: "فريدتي، أعدت إلى وعيك؟ لقد فقدنا عقلنا من خوفنا عليك!".

أدرت وجهي إلى الناحية الأخرى كي لا أرى وجهها، وأغمضت عينيّ.

ما علمته لاحقاً، أني فقدت وعي أكثر من ربع ساعة. بعد أن أنشقوني كولونيا وقطعة من الصوف المحترق بلا جدوى، قرروا استدعاء طبيب، وأعدوا عربة البستان لإحضاره.

بعد أن استعدت وعي، أصررت على الذهاب إلى البلدة، في تلك العربة، وإلا لن أتردد بالذهاب سيراً على الأقدام، رغم أن الوقت كان ليلاً. لم يجدوا بدّاً من الإذعان لطلبي. ارتدى الضابط البدين معطفه، وجلس إلى جوار الحوذي.

بينما كنت أهم بالصعود إلى العربة، اقترب برهان الدين مني بخجل، ودون أن يجرؤ على النظر إلى وجهي، قال:

-آنسة فريدة، لقد أسأت الظن بنا. كوني واثقة أن لا نية سيئة لنا تجاهك. كل ما أردناه إكرامك والاحتفاء بك. لم نتوقع أن تصدر ردة الفعل القاسية هذه من آنسة تلقت تربية خاصة في استانبول، ولم ترَ بأساً من التحدث مع أحد أصدقائنا. أكرر تأكيدي على أننا لا نحمل نية سيئة تجاهك، وأرجو منك قبول اعتذاري لما سببته لك من حزن.

غطست العربة في عتمات طرق الجبل الضيقة. أغمضت عينيّ، وانكمشت في زاوية العربة أرتعش كأنني أصبت بالبرد. بدأت أطياف ذكريات قديمة تتجسد في مخيلتي. ليلة هربي من قصر كوزيناي، دون التفكير بعواقب هذا التصرف، وتجوالي حائرة في طرقات معتمة ليلة زفافي...

تدخل أغصان شجر العتم برائحته النفاذة الحادة من نافذة العربة، من حين لآخر، تلامس وجهي وعينيّ فتوقظني من أحلامي.

أسندت مؤنسة رأسها على النافذة الأخرى للعربة. سمعتها تطلق تنهيدة عميقة فقلت بهدوء:

-مؤنسة، ألم تنامي؟

لم تجب، وأحنت رأسها أكثر. لاحظت أن صغيرتي تبكي وتحاول إخفاء دموعها مثل الكبار. أمسكت يديها:

-ما بك، يا ابنتي؟

أخذت رأسي بين يديها، ومالت إلى أذني وقالت بحكمة إنسان عانى وخبر:

-أختي، لقد بكيت وخفت كثيراً هذه الليلة. في تلك اللحظة، أدركت مقصدهم من دعوتك إلى هناك. أختي. عديني أن لا نذهب إلى مثل تلك الأماكن ثانية. ليحميك الله! مثل أمي... ماذا سيحل بي عندئذ؟

آه يا إلهي! يا للمذلة ويا للعار! لم أجرؤ على النظر إلى وجه الطفلة من خجلي كأني امرأة ساقطة.

وضعت رأسي على ركبتيها الصغيرتين، وبكيت بصمت مثل طفل يبكي في حضن أمه حتى وصلنا البيت.

ذهبت إلى بيت المديرة باكراً مع أول شروق للشمس. ذُهلت المرأة العجوز، حين رأتني في هذه الساعة المبكرة من الصباح، عيناي منتفختان من البكاء ووجهي أصفر:

-خير إن شاء الله. معلمة فريدة، ماذا حصل يا ابنتي؟ لم أركِ على هذه الحال قط. هل أنت مريضة؟ قالت.

كانت هذه السيدة بجديتها الهادئة ووجهها العبوس، تخيفني دائماً، وتمنعني من أن أسرّ إليها ما يجول في داخلي. لكن في ذلك الوقت، وفي هذا البلد الغريب، لم يكن لي سواها كي أفضي إليها همومي. وظيفتي ومهنتي كانت تجبرني على هذا أيضاً. رويت لها بخجل وارتعاش ما حدث ليلة الأمس بكل تفاصيله. أصغت بصمت، قاطبة حاجبيها. حين أكملت كلامي، أملت رأسي ونظرت إليها بعينين دامعتين بانتظار جواب منها وقلت:

-سيدتي المديرة، أنت أكبر مني سناً. خبرتك في الحياة أوسع بكثير من خبرتي. أرشديني، بحب الله! هل اعتبر امرأة سيئة بعد الذي حصل؟

سؤالي هذا، حرّك مشاعر وانفعال المديرة على نحو لم أكن أتوقعه. أمسكتني من ذقني ورفعت رأسي، ونظرت في عينيّ عن قرب. لم تكن نظراتها تعكس صرامة المديرة كما عهدتها، بل نظرات حنان أم محبة ومتفهّمة. داعبت ذقني ويديّ، وقالت بصوت مرتعش ودود:

-فريدة، لم أدرك حتى اليوم، ما تحملين في داخلك من براءة وعفة. يا للأسف! كان يجب أن أحتضنك وأحميك. آه من نظمية تلك! ابنتي، كنت على علم بكل ما يدور حولها وأدركه تماماً. لكن يا لسوء هذه الدنيا، لا يمكنك البوح بكل ما تعلمينه رغم أنك على حق! نظمية فتاة سيئة. حاولت وسعيت كي أخلّص مدرستي من رذائلها، لكن بلا جدوى. لا يمكن نقلها من هنا. يقف خلفها داعمون بلا حدود، من المتصرف إلى قائد الدرك إلى أئمة الجيش. إن نُقلت نظمية من هذه البلدة، من سيداهن زوجات كبار رجال الدولة؟ من ستعزف على العود في الليالي الحمراء التي يقيمها رجال الدولة هؤلاء؟ ومن سترقص لهم أيضاً؟ كيف

سيتمكن ذلك الفاسق برهان الدين بما ورثه من مال وفير، من النيل من الفتيات البريئات والطاهرات والجميلات أمثالك؟ فريدة، أدرك تماماً ما أعدّوه لك من مكيدة. برهان الدين هذا ليس سوى عجوز ماجن، أغوى بما ورثه من مال، الكثير من الفتيات البريئات والطاهرات، وأنفق الكثير من المال لأذية العائلات العفيفة. النيل من فتاة شابة يتحدث كل أهالي (ج) عن جمالها، ليست سوى مسألة مباهاة، بالنسبة إليه.

يظن أنه ينال شرفاً بأمره الضباط الصغار بتحيته بسيوفهم في شوارع البلدة، أو كشفه لخمار فتاة عابرة مسكينة، أو اصطحابها إلى عالمه الماجن، وقيام زبانيته الداعرين بالهتاف بحياته.

وحين سمع بعدم تحرّجك من الحديث إلى الضابط إحسان، دفع بنظمية للإيقاع بك. من يعلم ما وعد نظمية مقابل لعبتها القذرة هذه. لكن اشكري الله يا ابنتي على نجاتك مما كانوا يحيكونه ضدك! رغم ذلك، فأرى أن لا مجال لك سوى ترك هذه البلدة، فخلال يوم أو يومين سينتشر خبر ما حدث على كل لسان. يجب أن تغادري على أول باخرة. ألديك مكان لتذهبي إليه، أقارب أو معارف يا فريدة؟

-لا أحد لي، يا مديرتي.

-إذن، اذهبي إلى إزمير. لدي صديقان هناك، معلم مدرسة، والآخر رئيس الكتّاب في مديرية المعارف. سأعطيك لهما رسالتيّ توصية، ليؤّمنا لكِ عملاً في إحدى المدارس. أنا على ثقة أنهما سيبذلان ما في وسعهما لمساعدتك.

أدهشتني مشاعرها النبيلة هذه. التصقت بها مثل قطة صغيرة أُنقذت من الموت تحت المطر والثلج، ومسحت وجنتيّ بيديها التي كانت

تداعب شعري، وقبلتها.

تنهدت المرأة العجوز، وتابعت:

-لن تتمكني من الذهاب إلى بيتك وأنت على هذه الحال، يا فريدة. كما أفضل بقاءك هنا حتى مغادرتك البلدة. هيا يا ابنتي، اصعدي لتنامي قليلاً، وسأحضر ومؤنسة أشياءك إلى هنا.

نمت واستيقظت في غرفة المديرة العلوية مراراً حتى حل المساء. كلما فتحت عينيّ، كانت المرأة العجوز تقترب مني، وتضع يدها على جبيني، وتداعب شعري المجدول إلى جديلتين على طريقة بنات (ج)، وتسألني:

-هل أنت مريضة، يا فريدة؟ هل تشعرين بألم ما؟

لم أكن أشعر بأي ألم، ولم أكن مريضة، لكنني لم أكن راغبة بمغادرة الفراش بدلال طفلة صغيرة، يسعدها اهتمام ومحبة من حولها. شعرت كأني استعيد محبة الأم التي افتقدتها في سن صغيرة.

باخرة برنسيبيزا ماريو، ٢ تموز

تلففت بمعطفي اتقاء من الريح، وجلست على سطح الباخرة حتى اختفى القمر خلف السحاب. كان سطح الباخرة خالياً من الركاب، سوى رجل طويل القامة، ظل منذ المساء يسند ذراعيه على الدرابزين الحديدي، في مواجهة الريح، ويصفر ألحاناً حزينة. كنت أعرف البحر وأعشقه كأنه كائن حي يضحك ويبكي ويتحدث ويستمع ويغضب أحياناً. لكنه بدا لي في هذه الليلة، موحشاً وشاسعاً لا نهاية له، كأنه يعكس ما أشعر به من وحدة لا نهاية لها.

نزلت إلى قمرتي، أرتعش كأن رطوبة الليل قد اخترقت عظامي. كانت مؤنسة نائمة على سريرها المعلق. شرعت بكتابة مذكراتي في

دفتري، وأصغي لاهتزازاتٍ تتردد من الأعماق البعيدة كأنها دقات لقلب هذه الوحدة اللامتناهية.

صباح هذا اليوم، أوصلتني مديرتي حتى الميناء. لم أودع أحداً سوى جارتي التي تشبه خالتي، كي أسمعها تردد اسمي "فريدة" للمرة الأخيرة وأنا مغمضة العينين.

كما تركنا الجدي مظلوم في (ب)، اضطررنا لترك طيورنا في (ج). عهدت بها إلى المديرة، ورجوتها أن تعنى بها، تطعمها وتسقيها.

قالت المديرة:

-ما دمت تحبينها كثيراً، أطلقيها، تنالي أجراً عند الله.

تبسمت بحزن وقلت:

-كلا، يا مديرتي، كنت أظن أن ذلك خير لها، كما تظنين الآن. لكنني توصلت إلى عكس ذلك. الطيور مخلوقات مسكينة بلا عقل، لا تدرك مصلحتها. تعيش في أوهام شتى، توقاً إلى الحرية والهروب من أقفاصها. لكن، أتظنين أنها أكثر سعادة خارج تلك الأقفاص؟ كلا، وألف كلا، بعد أن اعتادت على العيش داخل أقفاص آمنة، ستقضي ليالي الحرية على غصن شجرة، تدفن رأسها تحت أجنحتها خائفة ومتحسرة على أمان أقفاصها. يجب غلق الطيور داخل أقفاص من أجل أمانها بالإكراه، ورغماً عنها.

لامست المرأة العجوز وجنتي وقالت:

-فريدة، أنت فتاة عصية على الفهم. أيبكي المرء من أجل أمر لا

أهمية له؟

استقل الباخرة عدد من الركاب من (ج). وصل إلى مسمعي حديث دار بين اثنين من الضباط الركاب:

-كان إحسان سيغادر إلى بيروت، قبل أربعة أيام. طلبت منه تأجيل سفره كي نسافر معاً. لقد سببت للمسكين أذية دون قصد مني. لو سافر قبل أربعة أيام لما حدث له ما حدث.

الضابط الأكبر سناً:

-في الحقيقة، كانت حادثة مؤسفة. لم يكن إحسان حاد الطباع، لكنني لا أعلم كيف حصلت تلك الحادثة؟ أتعرف تفاصيلها؟

-لقد رأيت ما حدث بأم عيني. حين كنا في نادي البلدية أمس، وكان برهان الدين يلعب البلياردو، دخل إحسان واتجه نحوه. أخذه جانباً، ودار بينهما حديث، بدا هادئاً ثم اشتد. فجأة، لكَمَ إحسان برهان الدين لكمة شديدة، فحاول برهان الدين سحب مسدسه، لكن إحسان كان أسرع منه بسحب مسدسه. لو لم يهرع الحاضرون بسرعة، دمٌ كان سيراق. غداً، تبدأ محاكمة إحسان أمام المحكمة العسكرية.

-لو أحد منا قام بهذا العمل، لكانت عاقبته وخيمة. لكن أظن أن إحسان من أقارب الباشا.

-أظن أنه ابن أخت زوجته وابنها بالرضاعة.

-حسب ادعائهم فالخلاف سياسي. يجب إبعاد الجيش عن السياسة.

-أظن أن هذا خلاف حول امرأة. كلنا نعرف من هو برهان الدين!

ابتعد الضابطان، يتابعان حديثهما. عرفت الآن من أرسل باقة الورد إلى قمرتي مع سائق المركب العجوز، قبل قليل.

إحسان، ربما لن ألتقيك في حياتي ثانية، وحتى لو التقينا، يجب أن أتظاهر بعدم معرفتي لك. لكنني لن أنسى أنك تذكرتني يوم مثولك أمام المحكمة العسكرية من أجلي. رقتك واضحة من إغفال اسمك على باقة الورد. سأحتفظ بإحدى وريقاتها في دفتري لتبقى ذكراك في قلبي أيضاً.

ما زال الراكب يردد لحناً حزيناً، وحيداً على سطح الباخرة. أطللت من نافذة قمرتي. سحر انبلاج الفجر بلمعانه كأنه يتدفق من الماء ببريق يخلب النظر.

هيا إلى النوم، يا طائر النمنمة. الليل والتعب يؤذي عينيك المسكينتين. دعك من سحر الفجر! الفجر هناك في البعيد، قد حلّت ساعة استيقاظ "الزهرة الذهبية" بعيون سعيدة انخدعت بالنوم وأشياء أخرى.

القسم الرابع

-١-

إزمير، ٢٠ أيلول

أقيم في إزمير منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر. أموري لا تسير على ما يرام. غداً آخر أمل لي. إن أضعته أيضاً، لا أجرؤ حتى على التفكير بما سيحل بي. الرجل الذي بعثني إليه مديرة مدرسة (ج)، أصابه مرض عضال، قبل شهر من وصولي إلى إزمير، وذهب إلى استانبول لقضاء فترة نقاهة تدوم ستة أشهر. ذهبت وحدي إلى مديرية المعارف. أتصدقون من وجدت هناك؟ مدير معارف (ب) الكسول، الجالس كالنائم، المتكلم كالحالم... عينيه الناعستين اللتين خلقهما الله له ليرى بهما، يستخدمهما للنوم أكثر من أن يرى بهما، لم تميزاني، فقال: "مرّي بعد بضعة أيام، قد نجد شاغراً في مكان ما". بضعة أيام تعني بضعة أشهر حسب أجندته، وذلك ما حصل.

اليوم، مررت ثانية. تلطّف وأظهر دماثة، وقال بذلك الصوت الحليم والبريء:

-ابنتي، هناك مدرسة على بعد ساعتين من هنا. مكان هواؤه عليل وماؤه عذب، طبيعته خلابة...

ما إن شرع بخطبته الشهيرة التي ضللني بها في (ب) وأرسلني إلى الزينيّون، حتى جن جنوني. قطعت عليه الكلام وأكملت ضاحكة:

-لا تتعب نفسك يا سيدي، سأكمل نيابة عنك. لقد ارتأت الإدارة بكثير من الجهد والتفاني إقامة مدرسة جديدة، لكنها بحاجة إلى همّة وتفاني معلمة شابة ومتميزة مثلي، أليس كذلك؟ ميرسي يا سيدي. رأيت

هذا التلطف منك سابقاً حين نقلتني من (ب) إلى الزيتون.

قلت ذلك حتى لو أدى إلى طردي. لكن الغريب في الأمر أنه لم يغضب، بل على العكس انفجر ضاحكاً، ثم قال بهدوء:

-ما العمل يا ابنتي؟ الإدارة تتطلب ذلك. لا أحد يريد الذهاب إلى تلك الأماكن. كيف أقنعه بالقبول؟ على الأقل، ينقص شخص واحد من عدد المراجعين.

صوت أجش صدر من الأريكة المواجهة:

-ما حدة الطباع هذه، يا سوسة البندق؟

هل قال سوسة البندق؟ ألا يكفيني من ألقاب من دودة القز إلى حلوى الورد، لأسمع هنا من يناديني بسوسة البندق؟

استدرت بحدة، لألقّن قليل الأدب هذا درساً لن ينساه طوال حياته، وأنتقم منه عن كل من أطلق عليّ من الألقاب.

لكنه لم يعطني الفرصة للحديث، إذ استدار نحو مدير المعارف وقال بصوت آمر:

-بالله عليك، أعطِ هذه الآنسة ما تريد، لا تحزنها.

أجاب المدير بكل احترام:

-تأمر يا سيد رشيد، لكن، حقاً لا شاغر لدي في الوقت الحالي، سوى لمعلمة اللغة الفرنسية في الابتدائية. من المؤكد أنه لا يناسب الآنسة.

-لِمَ لا يناسبني يا سيدي؟ لقد كنت معلمة اللغة الفرنسية في دار المعلماتَ في (ب)، قلت.

تابع المدير كلامه:

-أجل، لكن أعلنّا عن المسابقة، والامتحان غداً.

السيد رشيد:

-حسن جداً، تتقدم الآنسة للامتحان على الفور، لا توجد مشكلة. بطبيعة الحال، سأكون حاضراً في الامتحان، بمشيئة الله. إياكم أن تبدأوا الامتحان قبل حضوري...

يبدو أن السيد رشيد، شخصية مهمة. لكن قباحته لا توصف!

كلما نظرت إلى وجهه كنت أعض على شفتي كي لا أقهقه ضاحكة.

الإنسان إما أن يكون أسمر أو أبيض، أليس كذلك؟ لكن وجه هذا السيد يحمل آلاف الندوب الملونة، ابتداء من ناصع البياض إلى سواد الفحم. حتى لونه الأسمر كان غريباً، كأن ناعم الفحم قد رُشق على وجهه. عيناه حمراوان كجرح دام، ومتقاربتان كعيني قرد، وداخل جفنين بلا أهداب. فوق شاربيه الأبيّضين أنف عجيب يتدلى حتى شفتيه، وخدان متهدلان على جانبي وجهه.

في الحقيقة، لا اقصد الإساءة، خاصة فما فعله من أجلي لا يستهان به. على أية حال، فقد عوّضه الله بقلب طيب، فجمال القلب أفضل بكثير من جمال المحيا. ما قيمة الجمال بلا قلب، سوى أذية بنات الخالات المسكينات وجرح قلوبهن؟..

إزمير، ٢٢ أيلول

دخلت الامتحان التنافسي اليوم. انقضى الامتحان التحريري على نحو سيئ، كتصريف بعض الأفعال في حالات المضارع والأمر مثل:

استقر، استثمر، استوفى وغيرها. كيف لي تصريفها بالفرنسية إن كنت لا أعرف معناها بالتركية؟ لكنني أفلحت بالامتحان الشفوي. حادثني السيد رشيد بالفرنسية، وأبدا رضاه، ما أمّلني بالفوز بالشاغر.

ليشفق الله على حال مؤنسة!

إزمير، ٢٥ ايلول

أعلنت النتيجة. لم أنجح بالامتحان. أحد الكتّاب قال:

-لو أراد السيد رشيد لفزتِ بالشاغر. لا أحد يستطيع مخالفة رأيه! لابد أن له وجهة نظر ما.

ساء وضعي جداً. أول الشهر بعد يومين. يجب دفع الإيجار. لم أعد أملك من الغوث سوى القلادة الأخيرة الباقية لي من أمي. اليوم، أعطيتها لإحدى جاراتي ليبيعها زوجها وتعطيني ثمنها. لم أكن أريد أن أفقد آخر ذكرى من أمي، خاصة وأنها تحمل صورة أبي وأمي معاً يوم زفافهما. بقيت الصورة بلا غطاء. واسيت نفسي: "يفضّل أبي وأمي أن يكونا قريبين من قلب ابنتهما الوحيدة على أن يكونا داخل قطعة من الذهب!".

إزمير، ٢٧ أيلول

استلمت اليوم، كتاباً من السيد رشيد. وجد لي عملاً. يطلبني للمقابلة في بيته في حي "كارشي ياكا". أظن أن ما زعمه كاتب مديرية

المعارف عن معارضة السيد رشيد لتعييني، كان غير صحيح. على أية حال، غداً سأعرف الحقيقة.

إزمير، ٢٨ أيلول

عدت من بيت السيد رشيد في حي كارشي ياكا. ليس بيتاً عادياً بل قصراً فخماً. أدرك الآن، سبب الأهمية التي يلقاها هذا السيد.

استقبلني السيد رشيد بحفاوة. أطرى على لغتي الفرنسية، لكنه لم يستطع منع الغبن الذي أوقعه زملاؤه عليّ. كما أوضح أن تعليم بناته اللغة الفرنسية هو موضوع كتابه الذي استلمته.

-ابنتي الآنسة، أعجبت بكفاءتك كما بوقارك وسلوكك. ألا ترين أن إعطاء بناتي دروساً بالفرنسية أكثر راحة من التدريس في مدارس المعارف؟ أخصص لك غرفة مناسبة، وتقيمين معنا. ما رأيك؟

العرض أن أعمل مربية، لا شيء سوى ذلك. لكنه أكثر راحة ومنفعة من التعليم في المدارس. رغم أني لم أحب هذه المهنة قط، وكنت أعتبرها نوعاً من الخدمة.

ليس من الصواب رفض عرض السيد رشيد. شكرته لما أبداه من ثقة ولطف. لكن بررت عدم قبولي عرضه بسبب مؤنسة. لم يعتبر السيد رشيد وجود مؤنسة مانعاً:

-نضعها على رؤوسنا يا ابنتي. لا مشكلة بوجود طفلة صغيرة في دارنا المتواضعة هذه.

لم أعطِ جواباً قطعياً. طلبت مهلة لثلاثة أيام. سأجرب حظي في

محاولة أخيرة. أفضّل العمل في مديرية المعارف، وإلا لا مجال آخر لدي!

كارشي ياكا، ٣ تشرين الأول

خُصص لي ومؤنسة غرفة في الطابق العلوي للقصر، تطل على البحر. صغيرة، لكنها أنيسة كقفص الطيور.

تابعت الساحل والبحر من نافذتي حتى ساعة متأخرة من الليل. تشرف نافذتي على الخليج. إزمير في الجهة المقابلة، تخلب النظر بأضوائها المذهلة. لكن في الحقيقة، شعرت بمتعة أكبر بساحل كارشي ياكا. هنا الحياة جميلة وممتعة. تعمل الترامواي‌ات حتى منتصف الليل، ولا تتوقف جموع الشباب عن التنزه تحت أضواء الغاز الخضراء. في البعيد، كازينو تتدفق منه أنوار حمراء وخضراء تتراقص على أمواج البحر، وأصوات عزف على الغيتار، تارة مرحة، وحزينة تارة أخرى.

لا أدري لماذا يتهيأ لي أن المتنزهين في هذه الإنارات الخافتة، أزواجاً أو مخطوبين يحبون بعضهم بعضاً. حتى كل من خلف الصخور المعتمة ليسوا سوى عشاقاً غير مرئيين.

الهمسات القادمة من البحر، كبوح خفي من الشفة للشفة. أنسام الليل تضغط على صدري، وتخنق أنفاسي، واللون الأخضر لعينيك أصبح داكناً كحلكة بحار الليل.

عُوملت في هذا القصر، باحترام كإحدى سيدات القصر. لم أشعر يوماً بثقل حقيبتي. رغم ذلك، لم يقبل الحاجب العجوز أن أحمل حقيبتي إلى غرفتي. أخذها من يدي رغماً عني. لم تكن مؤنسة في عمر يسمح لها

بإدراك ذلك. لكن عظمة القصر خلبت عينيّ المسكينة. قبل قليل، بينما كنا نصعد الدرج، حاولت المزاح معي بمسك تلابيبي، كما تفعل دائماً. أمسكتها من ذراعها، وهمست في أذنها:

-مؤنسة، نحن لسنا في بيتنا الخاص يا صغيرتي... حين نكون في بيتنا، افعلي ما تشائين.

توقفت الطفلة في الحال. لقد فهمت ما أقصد.

حين دخلنا غرفتنا الصغيرة، غاب الفرح عن وجهها الصغير. كم تفهمني هذه الطفلة سريعاً. احتضنتني بذراعيها الصغيرتين وغمرت وجهي بقبلاتها الصغيرة.

بينما كنت أغلق النافذة نظرت إلى الساحل ثانية. أقفر الساحل من المتنزهين، وانطفئت الأنوار. كان البحر يداعب منارات الساحل قبل قليل، وانسحب الآن بعيداً، تاركاً رماله وحدها، لينام كطفل على وسادة من الصخور البيضاء.

هذا اليوم، بينما كنت في طريقي إلى هنا... لا أملك الجرأة على مواصلة الكتابة، سأتوقف.

كارشي ياكا، ٧ تشرين الأول

لا تمضي الأيام على نحو سيء في قصر السيد رشيد. طالباتي هما بنتان، واحدة بعمري والثانية أصغر. الكبيرة تدعى فرهوندا. هي ند بجمالها لأبيها، لذلك فهي ذات طباع عدوانية للغاية. الصغيرة تدعى

صباحات كانت على عكسها، بنت جميلة كدمية، دمثة وممتلئة الجسم...

ذات يوم، إحدى العاملات غمزت بعينها بخبث وقالت:

-حين كانت المرحومة زوجة السيد مريضة، طبيب عسكري شاب كان يتردد لمعالجتها. يبدو أن السيدة من كثرة ما شاهدته، أنجبت طفلة بجماله.

أخشى الخادمات كثيراً. لمَ أخفِ الواقع؟ ألست زميلتهن في المهنة؟ لكنني تعاملت معهن بحكمةَ، ولم آمر أي منهن بالقيام بأي عمل... لذلك يظهرن احتراماً خاصاً نحوي.

ربما، ما يبديه السيد رشيد من اهتمام بي، جعلهن يتصرفن معي على النحو نفسه.

لكن أكثر ما يزعجني في القصر أنه كخلية نحل. لا يتوقف توافد الضيوف أبداً. الأكثر إزعاجاً في الأمر، إصرار فرهوندا وصباحات على مشاركتي لهما باستقبال الضيوف. والأسوأ من ذلك، جميل الابن الأكبر للسيد رشيد... شاب سيء وتافه، في الثلاثين من العمر... يمضي عشرة أشهر بتبذير مال أبيه في أوروبا، وشهرين في إزمير. الشكر لله، أنه على وشك العودة إلى أوروبا، وإلا كنت قد تركت العمل في القصر قبل ثلاثة أيام!

قبل ثلاثة أيام، سهرت في الصالة حتى ساعة متأخرة من الليل، تحت إصرار فرهوندا وصباحات. حين كنت أصعد إلى غرفتي في العتمة، فوجئت برجل وجهاً لوجه، أعلى درجات الطابق الثالث. سرت رعدة في جسمي، فأردت التراجع.

الصوت كان لجميل:

-لا تخافي يا آنستي، أنا جميل، قال.

ضياء باهت كان يتسرب من إحدى النوافذ الجانبية، يسقط على وجهه:

-أرجو المعذرة يا سيدي، لم أميزك، للوهلة الأولى، قلت.

أردت التجاوز. خطا جميل خطوة نحو اليمين، فقطع طريقي.

-لم أستطع النوم يا آنسة، فخرجت لمشاهدة البدر.

أدركت نواياه. لكنني تظاهرت بعدم الاهتمام وحاولت متابعة طريقي، قائلة:

-ليس وقت البدر، يا سيدي.

ردّ بهدوء:

-كيف لا، وهو أمامي يسطع ببهاء! ضوء هذا البدر الوردي يخطف القلب، يا آنسة.

فجأة أمسك جميل بمعصميّ، واقترب حتى شعرت بأنفاسه الساخنة على وجهي. تراجعت إلى الخلف بقوة فكدت أتدحرج إلى أسفل الدرج، لو لم أتمكن من الإمساك بالدرابزين، لكن رأسي ارتطم بشدة، فصحت من الألم.

هبط جميل إلى جانبي بهدوء كي لا يصدر جلبة. أدركت أنه في حالة اضطراب وارتباك، رغم أنني لم أتمكن من رؤية وجهه بوضوح.

-آنسة فريدة، أرجو أن تقبلي اعتذاري الشديد. هل تشعرين بألم ما؟ قال.

كنت على وشك أن أقول له: " كلا، الأمر ليس خطيراً، لكن اذهب

ودعني وحدي"، لكن لم يصدر مني سوى شهقة مخنوقة. حين وضعت منديلي على فمي، لاحظت بقعة دم على المنديل. يبدو أني جُرحت حين ارتطم رأسي.

لاحظ جميل أيضاً، نزف الدم من شفتي، في الضوء الباهت المتسرب من نافذة الدرج. فقال بصوت مرتعش:

-لقد تصرفت هذه الليلة، كرجل وضيع. لا تبخلي عليّ بالتلطف والصفح عما ارتكبته من حماقة، يا آنسة فريدة.

محاولته التصرف بأدب بعد ما أبداه من قلة أدب، أعاد لي جرأتي، فقلت بصوت قاس:

-لا غرابة من تصرفك على هذا النحو يا سيدي. من المألوف أن تعامل المرأة التي تخدم الآخرين كجارية... ما دمت قد قبلت العمل في قصركم، فذلك يعني ضمناً، أن لا اعتراض لي على معاملتي كجارية. لا تخشَ شيئاً، فلست بثرثارة لأبوح بما حدث. غداً صباحاً، سأجد ذريعة ما، وأترك القصر.

بعد انتهائي من الكلام، صعدت الدرج بهدوء وبلا مبالاة، واتجهت نحو غرفتي.

الأمر في منتهى البساطة، أفتح الباب، أحمل حقيبتي بيد، وأمسك مؤنسة باليد الأخرى، وأذهب. لكن إلى أين؟ رغم مرور ثلاثة أيام على هذا القرار، لكنني لم أنفذه، ولا أزال في القصر. لقد جاء وقت الاعتراف بما خجلت من كتابته في مذكراتي سابقاً.

حين أتيت إلى القصر، كان المساء قد حلّ والظلام قد انتشر. ربما كان

الانتظار حتى الصباح، أكثر رزانة، أليس كذلك؟ ذلك مؤكد، لكنني لم أتمكن من فعل ذلك. لماذا؟ سأروي ذلك.

في ذلك المساء الكئيب، حين أتيت إلى القصر، كان يعج بالضيوف. عرضني السيد رشيد وبناته على ضيوفهم كما تُعرض أشياء جميلة اشتُريت حديثاً. كان الجميع ينظر إليّ بعين الشفقة ظاهرها الإعجاب. عملي الجديد أوجب عليّ أن أتودّد للحضور وإظهار اللطف والكياسة. في تلك الأثناء، دارت بي الأرض وفقدت توازني، فجلست على طرف أقرب كرسي إلى جانبي، دون أن أطفئ ابتسامتي الخجولة. ربما أغمضت عينيّ لثوانٍ.

حالة من الاضطراب والارتباك عمّت الصالة. اهتاج السيد رشيد وبناته والضيوف.

ركضت صباحات وأحضرت كوباً من الماء، وأشربتني الماء بالإكراه، ضاحكة.

سيدة مسنة من الضيوف قالت مبتسمة:

-لا شيء خطير. لابد أنه من تأثير هواء البحر البارد في هذا الفصل. آه، من بنات هذا الزمان الرقيقات. إذا ما اختلف الطقس قليلاً يذبلن كالوردة.

لقد ظن الجميع أني فتاة صغيرة لا تحتمل المشقة، رقيقة وعليلة.

وافقتهم الرأي بإيماءة من رأسي، وسررت بظنهم هذا. لقد كذبت عليهم.

كان لدوار رأسي سبب آخر. ذلك المساء، كانت معدة طائر النمنمة

خاوية تماماً، ولم تذق لقمة واحدة طوال النهار، أول مرة في حياتها!

كارشي ياكا، ١١ تشرين الأول

هذا اليوم، استقبلت فرهوندا وصباحات ضيفات ثانية، قدمن من إزمير البلد. أربع فتيات ما بين الخامسة عشر والعشرين من العمر. كنا سنقوم بعد الظهر، بنزهة بحرية بالمركب إلى "بايراكلي". لكن، ما إن أوشكنا على الخروج حتى هطل المطر. فقلنا عائدات حزينات وجلسنا في الصالة. عزفنا على البيانو قليلاً، وثرثرنا قليلاً، ثم انسحبت كل اثنتين إلى زاوية وجلسن يتهامسن، ويتضاحكن. جليٌّ ما يدور بينهن من حديث!

صباحات، بنت مرحة وشقية جداً. كانت تلقي بالنكات وتقوم بحركات شقية كي تدخل السرور إلى قلوب ضيفاتها. أحضرت ألبومات لصور العائلة وجمعت حولها البنات، وراحت تعرض الصورة تلو الأخرى دون أن تغفل عن تعليق مضحك حولها. كنا غارقات في ضحك متواصل. هذا الباشا المهيب المليء صدره بالأوسمة، ينال علقة بالمكنسة من زوجته كل ليلة، وتلك السيدة المتأنقة المتعالية، فضحتها لكنتها الريفية حين سقطت في الماء من الباخرة. ثم أرتنا صورة لخال بالرضاعة للسيد رشيد، بلباس رجل دين بعمامة وبنطال فضفاض. مقابلها صورة له بعد أن أصبح نائباً ببدلة سهرة أوروبية، ونظارة أحادية العدسة. الصورتان متقابلتان، كأن رجل الدين ينظر إلى النائب مذهولاً، والنائب يزمّ شفيه كأنه يهزأ برجل الدين. المنظر مضحك جداً. أمسكتُ يد صباحات كي لا تقلب صفحة الألبوم، وظللت أضحك بجنون.

مازحتني فرهوندا ضاحكة:

-آنسة فريدة، إن أعجبت به، ما رأيك أن نزوجك به؟ هو أعزب الآن، بعد أن طلّق زوجاته الأربع، ويبحث عن سيدة (مودرن)، تليق بسعادة النائب.

ابتعدت عنهن ضاحكة، وقلت لفرهوندا:

-اكتبي له رسالة في الحال. أنا موافقة. إن لم يجد المرء حبيباً يعيش معه بسعادة، لِمَ لا يمضي حياته مع من يضحكه؟

-آنسة فريدة، تعاليَ سريعاً، إن رأيت صورة هذا الشاب، لن توافقي أبداً على الارتباط بالنائب، قالت فرهوندا.

صاحت البنات بصوت واحد: "يا الله، ما أوسمه!". ولوّحن بأيديهن كي أرى صورة الشاب.

-لا تتعبن أنفسكن، مهما كان وسيماً، فلن أتخلَى عن نائبي، قلت ثم اقتربت منهن ونظرت إلى الصورة. لم أستطع كبح صيحة صدرت مني من هول المفاجأة. صورة الشاب المبتسم كانت لكامران!

لم تتوقف صباحات عند عرض الصورة فحسب، بل تابعت الكلام عن صاحب الصورة بحماس واهتمام:

-هذا الشاب، هو زوج خالتي منوّر. حضرنا حفل زفافها في استانبول، في الربيع الماضي. في الحقيقة، هو أجمل بكثير مما يبدو في الصورة. له عينان رائعتان وأنف جميل! علمنا أنه كان يحب بنت خالته. فتاة صغيرة الحجم، طائشة وصعبة المراس للغاية، لذلك يدعونها بطائر النمنمة. لكنها لم تقابله بالحب نفسه. يقولون القلب وما يهوى...

قبل يوم من موعد زفافها، هربت من البيت، وسافرت إلى بلاد

بعيدة لتعيش وحيدة. انقطع كامران عن الأكل والشرب، لأشهر طويلة بانتظار عودة هذه البنت عديمة الوفاء. لو كانت تريده، هل تختفي عن الأعين ليلة زفافها؟ بكت الحماة أم كامران العجوز، كطفلة صغيرة، حين قبّلت خالتي منوّر يدها يوم زفافها على ابنها. لابد أنها تذكرت طائر النمنمة تلك التي لا تقف على غصن.

استندت إلى البيانو، وأنا أستمع لهذا الكلام. أصغيت بشرود، دون أن يبدر مني لا صوت ولا حركة، بينما لا يزال كامران يبتسم لي داخل ألبوم الصور. لم أتمالك نفسي من القول: "قلب بلا مشاعر!".

استدارت صباحات نحوي وقالت:

-كلامك في محله، يا آنسة فريدة. "قلب بلا مشاعر"، أقل ما توصف به فتاةٌ لم تخلص لشاب وسيم أحبها.

أنا، أكرهك يا كامران. لو أني لا أكرهك، لكنت بكيت وندبت وأغمي عليّ حين سمعت هذا الخبر. لكنني ضحكت وأظهرت مرحاً وبهجة أكثر من أي وقت مضى. ربما أدعي أن هذا اليوم هو أسعد أيامي!

تحسّن الطقس مع حلول المساء، فقمنا بنزهة في السهول المجاورة. وبينما كنا نمشي على ضفة جدول مياه جارية، رأت إحدى البنات الضيفات أقحوان على الضفة الأخرى للجدول، فصاحت من بعيد: "أعشق الأقحوان الأحمر، ما أجمله!". ضحكت وقلت لها: "أتريدين بعضاً منها؟".

-لكن المجرى عميق وواسع وخطير؟

ضحكت ضيفة أخرى وقالت:

مكتبة
t.me/soramnqraa

-لو أن هناك جسر لعبرنا إلى الضفة الأخرى.

-يمكنني العبور من دون جسر، قلت، وقفزت على الفور. تعالت خلفي صيحات فزع وذعر.

نجحت بالقفز إلى الضفة الأخرى. لكن للأسف، لم أتمكن من قطف الأقحوان الذي وعدت، فقد قفزت إلى منطقة موحلة، مما اضطرني إلى الإمساك بما وصلت إليه يدي من شجيرات شوكية كي لا أنزلق في المجرى. امتلأت كفيّ بالأشواك والجروح. عدت باكية من الآلام ويداي تنزف حتى وصلنا القصر. رغم ذلك، فقد كان هذا اليوم من أسعد أيامي وأكثرها بهجة.

كامران، لقد هربت إلى بلاد بعيدة لأني أكرهك، ولا أزال أهرب بعيداً عن دنيا أنت تعيش فيها وتتنفس.

كارشي ياكا، ٥ تشرين الثاني

أصبح الابتعاد عن هذا البيت أمراً لا مفر منه. صرت أتردّد على مديرية المعارف من حين لآخر، علّي أجد شاغراً جديداً أينما كان. قبل شهرين، التقيت بالراهبة برنيس إحدى معلماتي القديمات. لم أتردّد بطلب مساعدتها لتجد لي عملاً، فقد كانت تودني كثيراً. صباح أمس التقيت بها ثانية، في الباخرة. قالت الراهبة برنيس:

-فريدة، أبحث عنك منذ أيام. مدرستنا في "كارانتينا" بحاجة إلى معلمة للغة التركية والرسم. أخبرت المديرة عنك. لا داعي لاستئجار بيت، يمكنك الإقامة في المدرسة. على أية حالة، فأنت معتادة على حياتنا.

بدأ قلبي بالخفقان. إن عدت ثانية إلى تلك الأجواء المصحوبة بالعزف على الأورغ، ربما سأستعيد ثانية، بعضاً من أحلام الطفولة.

دون أن أرى حاجة حتى للتفكير:

–حسن جداً يا ماسور، أوافق، وأشكرك، قلت.

اليوم، ذهبت إلى مديرية المعارف لاستعادة وثائقي، قبل انتقالي إلى كارانتينا. ما إن وصلت المديرية حتى علمت أن المدير يبحث عني منذ ثلاثة أيام. ذهبت إلى غرفته في الحال. ما إن رآني مدير المعارف:

–انتظر مجيئك منذ أيام، يا ابنتي، لحسن حظك وجدت لك مكاناً جيداً. سأرسلك إلى مدرسة "جزيرة الطيور"، قال.

جزيرة الطيور، ما أجمله من اسم! يشبه اسمي. انتابني إحساس بأن المكان جميل. تذكرت وعدي لمدرسة الراهبات... فكرت لدقائق.

هنا الحياة مريحة. هناك، ربما الفقر والمعاناة ثانية. لكن ألم يحمل معه السلوى والسحر؟ مدارسنا وأطفالنا بحاجة إلى العناية والرعاية. الأطفال كالزهور بحاجة إلى الشمس كي ينموا، ويقدمون قلوبهم امتناناً لمن يقدم لهم مشاعر الحنان والألفة. أدرك محبتي للأطفال البؤساء. ألم تكن مؤنسة إحداهن؟

لقد تعلمت الكثير خلال غربتي هذه. كما تؤذي الأضواء الساطعة العيون المريضة، السعادة أيضاً تدمي القلوب المريضة، ولا أفضل من العتمة لعلاج القلوب المريضة كما العيون المريضة.

رضيت بمهنة التعليم كي لا أموت جوعاً، لكنني أخطأت الظن، فقد تقتل هذه المهنة صاحبها من الجوع. لكن ما الضرر في ذلك؟ ألا يشبع حنان قلبي من يطلب العلم؟ ألا يشعر بالسعادة من يُسعد الآخرين؟

بدأت أحلامي بالعودة إلى أيامي الماضية بالتلاشي، وغابت عن مخيلتي صورة مدرستي وما عادت ألحان الأورغ تصدح في أذني. ابتسمت لخيال أطفال ينتظرونني في جزيرة الطيور:

-حسن جداً، أنا موافقة يا سيدي، قلت.

لم أكن أريد الإفصاح عن رغبتي بترك القصر حتى أستلم قرار تعييني. لكن ما قالته رئيسة الخدم اليوم، دفعني إلى البوح برغبتي تلك، إذ كانت منذ وقت طويل، لا تكف عن إسماعي كلاماً فيه مديح وإطراء دون مناسبة:

-ابنتي، محبتي لك تزداد من يوم إلى يوم... لست وحدي من يشعر نحوك بهذه المودة، جميع من في القصر يشاركني هذا الشعور... صحيح أن فرهوندا وصباحات أصبحتا شابتين يافعتين، لكن ذلك لا يكفي لإضفاء السعادة على القصر... أضفيت على القصر جواً من المرح والسعادة بطباعك وأخلاقك الحميدة منذ مجيئك... تحسنين التعامل مع الكبار وتتفهّمين الصغار أيضاً...

كنت أعتبر كلام المرأة العجوز هذا من باب اللطف والكياسة، ولم أحمله معنى آخر. إلى أن أفصحت أمس عما تهدف إليه:

-ابنتي، أخشى أن تغادرينا يوماً ما. ليتنا نستطيع إبقاءك في القصر، وأن لا تغادرينا أبداً. أفكر بوسيلة ما. لكن لا تظني أن أحداً طلب مني قول ذلك.

لم يبقَ عندي شك من أن أحداً دفعها لقول ذلك. تظاهرت بأني لم أكشفها، وتابعت الإصغاء إليها. لم تجرؤ على الإفصاح بشكل مباشر، فغيّرت مجرى الحديث على نحو جديد:

-لا تظني أن السيد رشيد كبير في السن، لقد رعيته منذ طفولته. صحيح أنه ليس وسيماً، لكنه نبيل وصاحب جاه. كما أن طباعه ليست سيئة. بيت من دون سيدة كخيمة من دون عماد. سيأتي يوم وتغادر فرهوندا وصباحات القصر إلى بيوت أزواجهما. أخشى أن نقع بالحرام، لا قدّر الله! يا آنسة فريدة، تستطيع الفتاة الحصول على شاب وسيم بسهولة، لكن الحصول على مثل هذه الأبهة ليست سهلة المنال. ليتنا نجد الفتاة المناسبة للسيد رشيد، ما قولك يا ابنتي؟

كنت أصغي لها صامتة وأفكر مبتسمة بحزن.

بدأت الأفكار تتراقص في ذهني: ما يظهره السيد رشيد من احترام شديد لي، وما يولي من أهمية لدروس صباحات وفرهوندا، حتى مشاركته لنا بلعب الكرة... وما قاله كاتب المعارف: "لو أراد السيد رشيد، لفزتِ بالشاغر. لا أحد يمكنه مخالفة رأيه! لابد أن له وجهة نظر ما!". قبل سنوات، ما كنت أحتمل الصمت تجاه تلك التصرفات، أنفعل وأثور. لكنني الآن، اكتفيت بالرد بهدوء وبلا مبالاة، كي أضع حداً لكلام المرأة العجوز:

-كنت على استعداد للذهاب معك بكل سرور، لنجد عروساً للسيد رشيد. لكنني خلال يوم أو يومين، ينبغي أن أكون في جزيرة الطيور. سألتقي بخطيبي هناك لنتزوج قريباً.

نظرت المرأة العجوز إلى وجهي بذهول:

-تصبحين على خير يا عزيزتي، سأنام باكراً، قلت، ثم صعدت إلى غرفتي.

جزيرة الطيور، ٢٥ تشرين الثاني

شعرت بالفرح حين قال مدير المعارف: "هل تذهبين إلى جزيرة الطيور؟"، وقلت في قرارة نفسي: "جزيرة الطيور، لابد أن أجد السعادة التي أبحث عنها في جزيرتي هذه!". لم يخدعني إحساسي هذا. لقد أحببت هذا المكان أكثر من كل الأمكنة السابقة. في الحقيقة، الجزيرة ليست بالغة الجمال، وليست كجزيرة روبنسون كروزو، كي أمضي فيها حياة منعزلة مع مؤنسة -تلك البيغاء الصفراء- كما ظننت، ولا تشرف كل طرقها على البحر، وأبذل جهداً في العمل أكثر مما بذلته في أي مكان آخر. ربما تجدون جوابي غريباً إن قلت إني أحب هذه الجزيرة لأنها ليست جميلة والعمل فيها غير مريح! ما أظنه أن جمال المحيا وجمال الطبيعة وجمال البحار لم تُخلق للمتعة فقط، بل لعذاب المرء أحياناً.

عند مجيئي إلى هنا منذ شهر، استدعتني رئيسة المعلمات إلى غرفتها. هي امرأة في الخمسين من عمرها، عليلة وحالتها النفسية سيئة:

-ابنتي، لقد واريت ابني الأول التراب، وبعد ثلاثة أشهر، دفنت الثاني. ما عدت أحتمل العيش. أرسلوك للتعليم الثاني في هذه المدرسة. أنت فتية، وتبدين واسعة المعرفة. أترك لك إدارة المدرسة. يشاركك التعليم معلمتين مسنتين، لكن لا تعوّلي عليهما.

وعدتها أن أبذل كل جهدي، وقد التزمت بوعدي.

يوم أمس، قالت رئيسة المعلمات لي:

-معلمة فريدة ابنتي، مهما شكرتك لن أوفيك حقك. ما بذلته من جهد لا يقدر بثمن. لقد تفتحت المدرسة والأطفال كالأزهار خلال

شهر من عملك الدؤوب. ليباركك الله. لقد اكتسبت محبة الجميع، من زميلاتك حتى أصغر طفلة في المدرسة. حتى أنا، فروحك المرحة أنستني وجع قلبي.

تظن المرأة المسكينة أني أعمل من أجلها. جميلٌ الإخلاص في العمل والتفاني من أجل إسعاد الآخرين! طائر النمنمة عادت إلى سابق عهدها. التفاني في العمل، والتضحية من أجل الآخرين، كم هو جميل! طائر النمنمة المنسية عادت طائر النمنمة كسابق عهدها. لقد تبدّد كل ما جابهته من منغصات العيش ابتداء من (ب) وانتهاء بإزمير، وتلاشت كسحابة صيف عابرة.

ما عدت أخشى أن يشيب شعري كي أسعد أطفال غيري. المكان الشاغر في قلبي لأطفال ماتوا قبل أن يولدوا ذات مساء خريفي، قبل سنتين، أعطيته لأطفال غيري.

جزيرة الطيور، ١ كانون الأول

منذ وقت طويل، كان الحديث يدور حول حرب بعيدة عنا. لم أكن أشارك حتى بالحديث حولها، فقد كانت المدرسة شغلي الشاغل. لكن اليوم، طرقت الحرب أبوابنا.

جزيرة الطيور، ١٥ كانون الأول

مضى خمسة عشر يوماً على بدء الحرب. يصل المستشفى يومياً جرحى بالعشرات. جو من الكآبة والهلع خيّم على المدرسة. آباء وأخوة

معظم صغاري في صفوف الجيش. لا يعلم الصغار المساكين ماهية الخطر المحدق بنا، لكنهم تأثروا بما حولهم من حالة الحزن العامة.

جزيرة الطيور، ١٦ كانون الأول

يا لسوء الحظ يا ربي! اليوم، لقد وضع الجيش يده على المدرسة. ستُستخدم كمستشفى مؤقتاً. لا يعنيني ما سيفعلون بها، لكن كيف سأمضي الوقت بلا مدرسة؟

جزيرة الطيور، ٢٤ كانون الأول

ذهبت اليوم، إلى المدرسة لاستعادة عدد من الكتب. الفوضى لا يمكن وصفها! لو أضاع المرء ليس كتابه فحسب بل نفسه لما وجدها. بعد أن يئست من البحث عن كتبي، فتحت الممرضة باب إحدى الغرف وقالت:

-دعينا نسأل رئيس الأطباء. ربما رفع بعض الكتب من حوله.

الغرفة تكاد تختنق بالزجاجات والضمادات وعلب العقاقير. رئيس الأطباء قد خلع معطفه، ويحاول متذمراً، ترتيب ما حوله من فوضى. كان مدبراً ظهره، لذا لم أرَ منه سوى شعره الأشيب وذراعيه مشمريين. لم أجد من اللياقة سؤال طبيب مشغول عن كتاب ضائع، فشددت الممرضة من مئزرها:

-دعكِ من الكتاب، لنغادر في الحال، قلت. لم تدرك الممرضة مقصدي:

-دكتور، هل رأيت كتباً فرنسية مصورة؟ قالت.

غضب الدكتور العجوز، وأطلق سيلاً من السباب المشين، دون أن يدير رأسه، حتى أني غطيت وجهي بيديّ. ما إن عزمت على الخروج حتى أدار وجهه نحونا، فصاح في الحال:

-ماذا تفعلين هنا، يا صغيرة؟

ما إن رأيت وجهه، حتى أطلقت صيحة مثله بدهشة، وقلت بصوت كالصباح:

-دكتور، الدكتور في الزينيّون!

اندفع نحوي بلهفة دون أن يبالي بسقوط الزجاجات. أمسك يديّ، ثم رأسي مقبلاً شعري من فوق ملاءتي. رغم أننا لم نلتقِ سوى بضع ساعات، لكن رابطاً روحياً عميقاً جمع بيننا، كأننا صديقان منذ أربعين عاماً. تعانقنا كأب وابنته!

الدكتور خير الله، بصراحته المعهودة، كما في الزينيّون سألني:

-قولي، يا شقية، ماذا تفعلين هنا؟

كانت عيناه الزرقاوان تلمع كعيني طفل، داخل أهدابه البيضاء، وتعكس مودة عصية على الوصف. نظرت بدوري إلى هاتين العينين ضاحكة:

-تعلم يا دكتور، أنا معلمة كثيرة التنقل. لقد تم تعييني هنا مؤخراً، قلت.

أجاب بأسى شديد، كأنه على علم بكل تفاصيل حياتي وما يكنه قلبي من أسرار:

-ألم تصلك أية أخبار جديدة، يا صغيرتي؟

ارتعشت كأن ماء رُشق على وجهي. فتحت عيني محاولة أن أظهر دهشة وحيرة من سؤاله:

-مِنْ مَنْ، يا دكتور؟ قلت.

أنّبني بإصبعه مبدياً عدم تصديقه لادعائي:

-لا تحاولي الكذب، يا صغيرة! إن تنطق شفتاك بالكذب، لكن عيناك لا تكذبان. من أسالك عن أخباره، هو من جعلك تتنقلين من بلد إلى بلد!

هززت كتفيّ ضاحكة:

-تقصد وزارة المعارف، وخدمة أطفال بلدي أيضاً.

أذعن الدكتور ثانية، رغم عدم قناعته بصحة قولي، كما فعل في الزينيّون. لكن كلامه لا يزال عالقاً في ذهني:

-أبهذا العمر، وهذه الحال، وهذا الجمال؟ لا بأس، ليكن ما تريدين، يا شقية، لكن كفّي عن الحماقة.

نسي عقاقيره كما نسيت كتبي، وتابعنا الحديث:

-أنت معلمة في هذه المدرسة، أليس كذلك؟

-لقد أحزنني استيلائكم على مدرستنا يا دكتور...

-عندي اقتراح مناسب... ما اسم تلك القرية التعيسة، حيث قمت ببعض أعمال التمريض؟ هل تذكرين؟ ما رأيك أن تساعديني هنا؟ لا فرق بين قرودك الصغار وأحبائي الدببة! جميعهم يملكون أرواحاً، ويشبهون بعضهم بعضاً... الطيبة نفسها. كما أن مساعدة دببي في هذه الحرب بمثابة عمل خير، يا صغيرتي...

انبسطت أساريري وفرحت كطفلة. لا يمكنني الجلوس بلا عمل مهما كان.

-حسن جداً يا دكتور، أباشر العمل متى تشاء.

-في الحال، انظري إلى هذه الفوضى هنا، ليست يد...

كلمة بذيئة ومخجلة، ثانية.

قلت بخجل:

-لكن لي شرط يا دكتور... حين أكون إلى جانبك، لن تتحدث على الطريقة العسكرية هذه...

ردّ ضاحكاً:

-سأبذل جهدي يا صغيرتي، سأحاول... أما إذا أخطأت وارتكبت هفوة عن غير قصد، ستصفحين عني. أليس كذلك؟

عملنا معاً حتى المساء، وتهيأنا لاستقبال عدد من الجرحى سيُقلون بالعربات غداً.

جزيرة الطيور، ٢٦ كانون الأول

أعمل ممرضة إلى جانب الدكتور خير الله منذ شهر. الحرب لم تتوقف، ولم تنقطع قوافل الجرحى القادمين إلى المستشفى. العمل لا ينتهي... وأضطر أحياناً إلى البقاء في المستشفى ليلاً.

وجب عليّ رعاية ضابط مسن حتى ساعة متأخرة من ليلة أمس. مع طلوع الصباح، سقطت من الإعياء، فغفوت على أريكة في غرفة الأدوية.

فتحت عينيّ حين شعرت بلمسة يد خفيفة على كتفي. كان الدكتور خير الله، يحاول تغطيتي ببطانية، خشية عليّ من الإصابة بالبرد. لمحت في ضوء الفجر الداخل من النافذة ابتسامة عينيه الزرقاوين المرهقتين:

-نامي يا صغيرتي، لا تقلقي، قال.

هذا الحنان، غمرني بالسعادة... أردت أن أعبر له عن امتناني، لكن التعب والنعاس غلباني، فغفوت ثانية.

أحب هذا الدكتور العجوز كثيراً، لكن ما لا أحبه منه: ترديده لكلمات نابية في حديثه. في الحقيقة، التصرفات الهوجاء للبعض تجبره على الشتم والسباب بكلمات نابية، لكن ذلك ليس سبباً وجيهاً. كلماته تلك تدفعني إلى الابتعاد عنه لبضعة أيام، كي يدرك خطأه.

يعتذر الدكتور خير الله، ويتودد ببراءة طفل.

-لا تعتبي يا صغيرتي، لا تحمّلي الأمور أكثر من حجمها، هذه حياة الجيش، يقول.

هناك صفة مميزة أخرى يحملها هذا الرجل، لكنها تغيظني: قدرته على جعلي أبوح له بما أكنه في داخلي من خصوصياتي ما لا أحب أن يطلع عليها أحد... كيف يزل لساني دون وعي مني؟ لا أدري، ولا أكتشف ذلك إلا حين يواجهني بأقوالي.

لا أقارب للدكتور. تزوج قبل خمسة وعشرين عاماً. توفيت زوجته بعد تسعة أشهر، إثر إصابتها بالتيفوئيد. منذ ذلك الوقت وهو أرمل. ولد في جزيرة رودوس، لكنه يملك أراضي وعقارات في جزيرة الطيور. على أية حال، لا حاجة له لراتبه كضابط برتبة عالية في الجيش، فهو ينفق أضعافه على المرضى المحتاجين.

قرأت لأحد الجنود الجرحى قبل أيام، رسالة وصلته من أمه، تصف حال أطفاله البائسة. كان الدكتور خير الله يعاين جندياً آخر على سرير إلى جانبنا. استدار إلى الجندي على الفور وقال:

-هل أنت راضي الآن؟ لِمَ أنجبت هذا العدد من الأطفال ما دمت غير قادر على إطعامهم؟

تأثرت كثيراً من هذا الاستهزاء القاسي. كنت أود أن أتحدث معه بهذا الخصوص، في وقت لاحق، لكنه سبقني:

-صغيرتي، حاولي أن تحصلي على عنوان والدة هذا الدب، لنرسل لها قليلاً من المال، قال.

أدركت أن هذا الدكتور العجوز، لا يخدم في الجيش من أجل المال ولا يقوم بمهام وظيفته من باب الواجب، بل يملك شعوراً رقيقاً من الرأفة والشفقة على ما يدعوهم "أحبائي الدببة" من الجنود المساكين، ولا يهدف سوى مساعدتهم إن كان بالعلاج أو بالمال. لكنني لا أفهم لِمَ يخفي مشاعره السامية تلك!

جزيرة الطبور، ٢٨ كانون الثاني

حين وصلت إلى المستشفى هذا الصباح، علمت أنه تم إدخال أربعة ضباط جروحهم بليغة، وأن الدكتور خير الله سأل عني. أعلم أنه يريدني إلى جانبه دائماً، كلما يجري عملية جراحية، ويقول:

-ليس صواباً أن أسمح لك برؤية هذه المشاهد المفجعة، لكن لا أحد ينجز عمله على أكمل وجه سواك، يا صغيرتي، بل هم يشوشون أفكاري بما يرتكبونه من أخطاء.

خلعت ملاءتي، وارتديت مئزري سريعاً. لكن العملية كانت قد انتهت، ونُقل الجريح إلى الطابق الأعلى.

استدعاني الدكتور خير الله:

-صغيرتي، لقد قمنا بخياطة معقدة - يطلق كلمة خياطة على العملية الجراحية- لضابط أركان حرب. قذيفة هشّمت ذراعه وجانباً من وجهه. أعطيته غرفتي الخاصة. يحتاج إلى عناية فائقة. أعتمد عليك برعايته.

كنا نتحدث حين دخلنا الغرفة. الجريح مستلقي على السرير بصمت، وجهه وذراعه مغطى بالضمادات. وقفنا جوار السرير. لم يظهر من وجهه المغطى بالضمادات سوى جانبه الأيسر. لم يكن هذا المحيا غريباً عني، لكنني لم أستطع تذكر صاحبه.

جس الدكتور خير الله، نبض الجريح من يده اليسرى. ثم انحنى فوقه ونادى:

-سيد إحسان، الضابط إحسان، هل تسمعني؟

على الفور، لمعت الذكريات في ذهني كصاعقة. إنه الضابط الذي التقيت في بيت عبد الرحيم باشا في (ج). ارتددت إلى الخلف، وأردت الخروج من الغرفة. فكرت أن أطلب من الدكتور أن يعفيني من مهمة رعاية هذا الضابط الجريح. لكن الجريح فتح عينيه. رآني، أو ربما، لم يتوقع من أكون. لابد أنه منذ إصابته، قد فقد وعيه أكثر من مرة، وارتفعت حرارته، وتعرض لأحلام وهذيان محموم. أدركت من نظرات عينيه الشاردة، أنه لم يتوقع من أكون. أغمض عينيه ثانية بعد أن وضع ابتسامة مرهقة على شفتيه.

إحسان! لقد أظهرت مروءة، وجازفت بحياتك من أجلي، ووقفت في وجه من حاولوا دفعني إلى عالم الليل، منتهزين جهالتي، وقلة حيلتي، ووحدتي بلا أب أو أخ...

يوم تحدّيت الجميع من أجلي، كنت أخرج من بلدتك كالمطرودة، أغطي وجهي بذل امرأة رخيصة، ولم يكن أمامي سوى الخضوع أمام ظلم لا حيلة لي على مجابهته.

صدفة مؤلمة جمعتنا اليوم، وجهاً لوجه. لن أتخلى عنك، أنا أيضاً، وسأعتني بك كأخت صغيرة.

جزيرة الطيور، ٧ شباط

بدأت جراح الضابط إحسان بالشفاء. سيستعيد قواه في أقل من شهر. لكن ندبة جرح قبيحة تمتد من حاجبه الأيمن حتى أسفل فكه، سترافقه مدى الحياة.

كنت أفضل عدم مرافقة الدكتور خير الله حين يبدل ضماد جرحه. لم يكن ذلك لعدم تحملي رؤية جرحه، فقد رأيت جروحاً أشد منها بكثير، لكنني كنت أدرك أن رؤيتي لحاله تلك ستؤلمه أكثر من إيلام جراحه...

يعلم هذا الرجل المسكين بأي محيّا سيخرج من المستشفى. يأس وحزن أليمان تموضعا في قلبه، رغم عدم إفصاحه بما يجيش في داخله.

كان يبدو عليه القلق حين يقول الدكتور خير الله له:

-تماسك يا شاب، ستقف على قدميك بكامل قواك خلال عشرين يوماً.

كنت أبذل جهدي كي يشعر الجريح براحة خلال ما سيمضيه من أيام في المستشفى، أقرأ له بعض الكتب، وأروي له بعض الحكايات. لكن الحزن والأسى ظلّ يغطي وجهه، لإدراكه أن هذا الجرح اللعين سيرافقه

طوال حياته. لذا كنت أحاول تسليته بشكل خفي، كالقول إن الجمال الحقيقي في الروح والقلب، وإن جمال المحيا زائل مع العمر ولا أهمية له.

جزيرة الطيور، ٢٥ شباط

استرجع الضابط إحسان قواه في وقت أقصر مما توقعنا. هذا الصباح حين أحضرت له الشاي بالحليب، كان قد غادر فراشه وارتدى بزته العسكرية.

في الحال، تراءى في مخيلتي الضابط الوسيم المتباه بلباسه البراق، حين التقيته قبل عام، في حديقة عبد الرحيم باشا. هل هو نفسه، هذا الضابط الخجول الذي يحاول إخفاء جرحه داخل ياقته؟

لم أستطع إخفاء تأثري، فحاولت التظاهر بالاعتراض:

-لِمَ ارتديت ثيابك ولم تتعافَ بعد يا سيد إحسان؟ ألا ترى أن تصرفكَ هذا كالأطفال؟

أخفض بصره:

-لأن الاستلقاء يزيدني مرضاً، أجاب.

صمت كلانا. حاول إخفاء مزاجه السيء فأردف قائلاً:

-كفى، أريد الذهاب. لقد تعافيت تماماً.

اعتصر قلبي من الحزن على حاله. قلبت وتيرة الحديث ممازحة:

-سيد إحسان، كأن عنادك العسكري قد عاد إليك، ولا تريد الاستماع إلى نصحي! لا تجبرني على استدعاء طبيبك. قد يسمعك كلاماً لا يرضيك.

تركت الصينية وخرجت مسرعة. لكنني لم أخبر الدكتور بنيته المغادرة.

٢٥ شباط (عند المساء)

احتد نقاشي مع الدكتور خير الله. لكن، لم يكن للعمل علاقة بذلك، بل لأنه يتدخل بأمور ليست من شأنه...

قبل وقت قليل، كنا نتحدث عن إحسان. قلت إن جراح وجهه يحزنه كثيراً.

زمّ الدكتور خير الله شفتيه:

-من الطبيعي أن يحزن. لو كنت مكانه لألقيت نفسي في البحر. ذلك الوجه لا نفع منه إلا طعاماً للسمك، قال.

-لم أكن أظن أنك تفكر على هذا النحو يا دكتور. ما أهمية جمال الوجه إلى جانب جمال الروح؟ قلت.

شرع الدكتور خير الله يضحك ويتندر بكلامي:

-هذا كلام فارغ يا صغيرتي، سينفر الجميع من وجهه هذا، خاصة البنات اللاتي في عمرك.

ثم نفض ياقته باستنكار. ثرت في وجهه:

-تعلم بعضاً من أحداث حياتي. لا أعلم كيف تتمكن من دفعي إلى البوح لك بما يكنه قلبي. كان خطيبي وسيماً، بل وسيماً جداً. لكن حين اكتشفت خيانته لي، محيته من قلبي تماماً. أكرهه.

أطلق الدكتور خير الله ضحكة مرتفعة، ثم حدق فيّ بعينيه الزرقاوين كأنه يغور في أعماق قلبي وقال:

-انظري إليّ يا صغيرتي. حدقي في عينيّ وأجيبني، ألا تحبينه؟
--أكرهه.
أمسك ذقني، وتابع التحديق في عينيّ:
-آه، أيتها الصغيرة المسكينة، تحترقين من أجله كالحطب المستعر منذ سنوات. لقد دمر ذلك الحيوان حياته وحياتك. لن يجد مثل هذا العشق عند أية امرأة أبداً.
قلت بصوت مخنوق من الغضب:
-ألا ترى أن كلامك هذا مجرد افتراء؟ كيف لك بمعرفة ما في قلبي؟
-مذ رأيتك للمرة الأولى، في تلك القرية، أدركت ذلك. لا يمكنك إخفاء ذلك، فعيناك تفضح هذا الهيام.
شعرت وكأن الدنيا تسود حولي، وطنين يضج في أذني، بينما كان يتابع حديثه:
-إنك تحرقين فؤادي يا صغيرتي، حين أرى ابتسامتك بحزن وشرود كأنك تعيشين في حلم، وتحاولين النسيان بالعيش غريبة في عالم غير عالمك. كما أني أراك إنسانة تختلف عن الآخرين بما تحملينه من مشاعر سامية. تروي الأساطير عن حوريات تُولد من قبلة حب، وتتغذى بالقُبل وتكبر بالحب. في الحقيقة، تلك الحوريات ليست من نسج الخيال، ومنهن من تعيش في الواقع. فريدتي الصغيرة، أنت لست إلا واحدة منهن، وقد خُلقت لتحبّي وتُحبّي. آه منك، يا فريدة! لقد تصرفت بجنون. ما كان ينبغي أن تتخلي عن هذا الشاب المغفل. كنت ستعيشين بسعادة.
طرقت الأرض بقدمي:
-لِمَ تقول هذا؟ ماذا تريد مني؟ صحت بتشنج، ثم غرقت في البكاء.

حينذاك، أدرك الدكتور تماديه في الكلام، فحاول تهدئتي وقال:

-لك كل الحق يا صغيرتي، ما كان ينبغي أن أقول ذلك. لقد ارتكبت حماقة بغيضة. سامحيني يا صغيرتي.

أغضبني حتى ما عدت أطيق رؤية وجهه.

-سترى، سأثبت لك عدم محبتي له، قلت، وخرجت من الغرفة وصفقت الباب بعنف.

٢٥ شباط (ليلاً)

حين مررت على غرفة إحسان لإشعال المصباح، كان لم يخلع ثيابه بعد. كان واقفاً أمام النافذة، يتأمل لمعان حمرة المغيب على سطح البحر. قلت لمجرد الكلام:

-يبدو أنك تتوق إلى رؤية بزتك العسكرية.

غابت حمرة المغيب تماماً عن الغرفة. يبدو أن العتمة قد أعطته بعضاً من الجرأة ليفضفض عن حزنه بشيء من الصراحة:

-لم يبقَ لي أمل سوى ببزتي العسكرية. هي من أوصلت وجهي إلى حاله هذه، ولن يقوى على رفع هذه المصيبة سواها.

لم أفهم ما يرمي إليه. نظرت بحيرة إلى وجهه متسائلة. تنهّد وتابع كلامه:

-الأمر واضح، يا آنسة فريدة. سأعود إلى الجبهة ثانية. سأتحرر حين تكمل قذيفة أخرى ما لم تقم به سابقتها.

كان الضابط الشاب، يردّد كلامه هذا ببراءة وألم طفولي. أدرت له

ظهري وتظاهرت بإشعال المصباح. أشعلت عود ثقاب ثم نفخت عليه وأطفأته، ثم انحنيت كأني أضبط فتيل المصباح، وقلت بهدوء:

لا تقل ذلك يا سيد إحسان، ستتزوج من فتاة صالحة، وتشكلان عائلة مثالية، وتنجبان أطفالاً، وتعيشان بسعادة.

رغم أني لم أدر رأسي لكنني أدركت أنه لا ينظر إليّ ولا يزال يتابع البحر من النافذة.

-آنسة فريدة، لولا معرفتي بطيبة قلبك، لقلت إنك تهزئين مني. من ستوافق على الزواج مني بحالي هذه؟ لقد رفضتني فتاة حين كنت في أفضل حالي، والآن بعد أن تشوهت...

لم يستطع متابعة كلامه، ثم استجمع قواه وقال:

-آنسة فريدة، لا ضرورة لمثل هذا الكلام. أرجو المعذرة، هل تشعلين المصباح؟

أشعلت عود ثقاب آخر، لكنني لم أقرّبه من المصباح. حدقت في الشعلة المرتعشة بانتظار انطفائها، وقد غرقت في التفكير. ما إن أظلمت الغرفة ثانية حتى قلت بأناة:

-سيد إحسان، حين تعرضت لتلك الخيبة، كنت رجلاً مغروراً وأنانياً. رغم أن تلك الخيبة كانت عابرة، لكنك أظهرت مروءة بالدفاع عن معلمة ابتدائية لا حول لها ولا قوة، غير آبه بفقدانك لوظيفتك بل حتى بالموت. الأهم من ذلك، فقد رافقتك السعادة في حياتك حتى هذا اليوم. لِمَ لا تكرس معلمة الابتدائية هذه حياتها من أجل استمرار سعادتك؟

أجاب الضابط الجريح، بصوت مخنوق:

-أرجوك يا آنسة فريدة، لا تؤمّليني بأوهام لن تتحقق فأصاب بالتعاسة.

قررت الإفصاح عما عزمت عليه. استدرت نحوه. أملت رأسي إلى صدري:

-إحسان، أطلب الزواج منك. أرجو أن توافق. سترى كم سأسعدك، وكم سنكون سعداء...

اغرورقت عيناي بالدموع فلم أتبين ردة فعله، لكنه أمسك يدي الممدودة نحوه، وقبّل أطراف أصابعي بخجل.

وهكذا، فقد وضعت حداً لما يقال عن لوعتي وحبي له.

جزيرة الطيور، ٢٦ شباط

منذ ذلك اليوم، غدوت يا كامران غريباً عني وخصماً لي!.. كنت أعلم أن علاقتنا قد انقطعت ولن نلتقي ثانية أبداً. رغم ذلك، لم أتمكن من الخلاص من شعوري بأني خطيبتك، وظل هذا الشعور قائماً بين ثنايا قلبي. كنت أؤمن أني لك وحدك...

لِمَ الكذب؟ رغم كل هذا الشعور بالكراهية والرفض، ورغم كل ما حدثَ، كنت لكَ وحدك.

حين استيقظت، هذا الصباح، شعرت أول مرة، أني خطيبة لأحد آخر. كم من صباح استيقظت على أني خطيبتك، لأستيقظ هذا الصباح وأنا خطيبة لأحد آخر! كامران، في الحقيقة، لم أنفصل عنك سوى في هذا

الصباح، كمهاجر مسكين فارٍّ من اضطهاد، لا حق له بحمل ذكرى من دياره، أو حتى بالالتفات خلفه، ليلقي نظرة أخيرة، على ما تركه خلفه.

هذا الصباح، كنت سأصطحب إحسان إلى غرفة الدكتور خير الله، لنخبره بخطبتنا. في هذا الصباح الجديد، لن يكون من اللائق أن أظهر أمام خطيبي الجديد بمئزر الممرضة. لم أجد في الحديقة سوى عدداً من أزهار السوسن الهزيلة، قطفتها وشبكتها على مئزري.

وجدت إحسان وقد ارتدى زيه العسكري هذا الصباح أيضاً. ما إن رآني حتى ارتسمت ابتسامة بريئة وطفولية على شفتيه. أرى أن واجبي العمل على إسعاده، اعتباراً من هذا اليوم. حاولت الابتسام بصعوبة ومددت يديّ:

-بونجور إحسان، قلت.

نزعت عدداً من السوسنات وشبكتها على لباسه العسكري:

-أظن أنك نمت ملء جفونك، هذه الليلة، قلت

-نعم. وأنتِ؟

-نمت كالأطفال بهناء وسعادة.

-لِمَ وجهكِ شاحب، إذن؟

-ألا تعلم أن السعادة قد تسبب شحوباً للمرء؟

حالة صمت خيمت علينا إثر هذا التعليل.

بدت شفتا إحسان شديدة البياض. بعد فترة من الصمت، بدأ الكلام بأناة، ويسكت من حين لآخر، كأنه يخشى من ارتعاش صوته، ويتردد لبضع ثواني:

-فريدة، لك مني كل العرفان والامتنان، مدى حياتي. لقد جعلتني أمضي ليلة سعيدة لا مثيل لها حتى خلال أيام سعادتي الماضية. لم أكن صادقاً، حين قلت قبل قليل، إني نمت طوال الليل. بقيت طوال الليل أسمع صوتك تقولين "أطلب الزواج منك"... لم استطع النوم من شدة سعادتي، وأردت استغلال كل دقيقة من ليلتي الوحيدة التي سأمضيها خطيباً لك! سأحمل لك في قلبي كل العرفان والامتنان طوال عمري.

-سأسعدك دائماً، قلت.

كان في حالة انفعال شديد. أراد مسك يديّ، لكنه تراجع ولم يجرؤ، ثم قال بصوت رقيق كمن يخاطب طفلاً مريضاً:

-كلا يا فريدة، لن يكون لهذه الليلة من غد. لقد كنت في قمة السعادة، هذه الليلة. لكنني رغم ذلك، سأغادر، ونفترق بعد قليل.

-لِمَ تريدنا أن نفترق يا إحسان؟ ألا ترغب بالزواج مني؟ أتريد الذهابَ بعد أن منحتني الأمل؟

أسند الضابط ظهره إلى الحائط. أغلق عينيه وقال بعمق: "آه، ما أجمل هذا الصوت!". ثم انتفض وقال بصوت صارم:

-لا تحاولي معي، لا أريد أن تقنعيني بأن شفقتك هذه محبة صادقة.

-لِمَ تظن هذا يا إحسان؟ ما دمت عرضت عليك الزواج، فلابد أنه عندي ما يبرره.

أجاب باستهزاء مؤلم:

-نعم، تريدين إقناعي أن حبك لي سبب عرضك للزواج. لا أريد أن تكون الشفقة هي الدافع لذلك. هل أنت مقتنعة بهذا الزواج حقاً يا

فريدة؟

-......

-فريدة، أتظنين أني رجل منهار وفاقد للأمل إلى درجة قبول العشق كصدقة لا هدف خلفها سوى الشعور بالشفقة على رجل مشوه بلا أمل؟

أملت رأسي إلى صدري أمام هذا الحزن اللانهائي:

-لكَ كل الحق، ربما نحن الاثنان نعاني، لكن يبدو أني قد أخطأت حين ظننت إن جمعنا همومنا قد نكون سعداء.

أشرت إلى السيف المعلق على الحائط وتابعت كلامي:

-ما دمت تريد العودة إلى الجبهة، فهذا سلوان لك، لكن لا سلوان لي.

في صباح شتاء غائم، وقف خطيبان حديثان وجهاً لوجه، على شفاههما ابتسامة كاذبة مثل تلك السوسنات الهزيلة التي على صدريهما، ليفترقا بعد بضع دقائق، كأخ تعيس وأخت وحيدة ودموع الفراق تملأ عيونهما.

جزيرة الطيور، ٢ نيسان

أُخليت المدرسة قبل ثلاثة أيام. عاودنا الدراسة بعد انقطاع دام خمس سنوات. لكن بلا جدوى، فالعام الدراسي قد انتهى مع عودتنا إلى المدرسة. الربيع يملأ غرف المدرسة بضياء الشمس المتوهجة، ويزكيها بروائح الزهور المنعشة. أمواج البحر الأبيض الخضراء تداعب الجدران الحجرية، والكبير والصغير يتوقون إلى مياه البحر ولا رغبة لأحد بالعمل.

سعت رئيسة المعلمات كثيراً كي تنتقل من جزيرة الطيور. نجحت

أخيراً، في مسعاها، ونُقلت إلى مكان آخر، قبل شهر. عُيّنت مكانها مع تغيير مسماي الوظيفي إلى "مديرة مدرسة". المسمى الجديد أقلقني وأزعج زميلاتي.

في الواقع، زميلاتي لا يملكن مؤهلات ومعرفة كافية، لكنهن يعملن في التدريس منذ ما يقرب من عشرين عاماً. أظن أني كنت سأستاء أيضاً، لو كنت مكانهن، وعُيّنت فتاة بعمر بناتي مسؤولة عني.

أُحيل الدكتور خير الله إلى التقاعد، في بداية آذار.

لقد شعر بالحزن رغم أنه ثري ولا حاجة له إلى الراتب.

-لقد أغمضت بيدي، عيون الكثير من أحبائي الدببة. كنت أريد أن يغمضوا عينيّ بيدهم، وينقلوني إلى القبر بأنفسهم. لكن ذلك لن يحدث، قال.

الدكتور خير الله واسع المعرفة. أمضى شبابه بالمطالعة. يملك مكتبة ضخمة في بيته. لكنه يقول إن لا شيء أتفه وأقل نفعاً من الكتاب. الكتّاب وقراؤهم أغبى الأغبياء على حد سواء، يمضون حياتهم بلا نفع يذكر! قبل أيام، أردت تفنيد رأيه هذا وإغاظته:

-إن كنت تظن أن رأيك هذا صائباً، لِمَ لا تكف عن المطالعة، وعن حثّي على المطالعة؟ قلت.

كنت أظن أني سأنجح بإسكاته، لكنه لم يرتبك بل قابل كلامي بالضحك والاستهزاء:

-أحسنت قولاً يا صغيرتي. لا أحد يجبرك على قبول رأيي.

لا أفهم هذا الدكتور العجوز... يعارض كل شيء يحبه. حتى حين يوبخني، أشعر بأنه يحبني أكثر.

منذ أن ترك المستشفى، غدا يجلس في غرفته يطالع كتاباً، أو يحتذي جزمته العسكرية ويحمل البندقية على ظهره كرجال الدرك، ويمتطي حصانه المعمّر دودول الأقرب إلى قلبه، ثم ينطلق متجولاً بين القرى بحثاً عن مريض بحاجة إلى معالجة.

تقيم أمه بالرضاعة في بيته. ثمانينية عرجاء تهوى البستنة، ويدعوها بـ"العريف".

دعاني ومؤنسة قبل ثلاثة أيام، إلى بيته. كان فرحاً جداً. بينما كنت أقلبّ كتب المكتبة، كان يلعب مع مؤنسة كالأطفال، ويصدر إليها أوامر مضحكة، فلا أتمالك نفسي من الضحك:

-سنلعب الغمّيضة، لكن عليك أن لا تختبئي في مكان يصعب علي الوصول إليه. أنت صغيرة الحجم وقد تختبئين في أي مكان، يجعلني أمضي ساعات بالبحث عنك. أما إذا لم تعثري عليّ، لا تقلقي، فقد أنام في تلك الأثناء، حيث أختبئ.

بعد عدة أيام، ستدخل مؤنسة الرابعة عشر من عمرها. سأضطر لإلزامها بارتداء الملاءة. أصبحت قامتها بطول قامتي، وتفتحت كالوردة. تشبه الحوريات بشعرها الأشقر، وبشرتها ناصعة البياض، وعينيها الزرقاوين. تتفتح على وجنتيها ورود جورية كلما ضحكت، وتنهمر لآلئ على وجنتيها كلما بكت.

يعارض الدكتور خير الله ارتدائها الملاءة. أنا أيضاً، أراها لا تزال صغيرة على ارتدائها. لكنني أخشى عليها، فالجميع يقولون لي:

-فريدة، أخفيها عن أعين الرجال، وإلا أصبحت حماة قبل أوانك!

ينتابني شعور داخلي بالفرح والقلق في آن واحد. يبدو أن ما يقال عن نكد الحموات لم يأتِ من فراغ.

قبل أيام، كنا عائدتين من المدرسة. طالب مدرسة في السادسة عشر أو السابعة عشر من عمره، كان يتابعنا على الرصيف المقابل. لم تعجبني نظراته نحونا. نظرت خلسة إلى مؤنسة من تحت خماري. ضبطت الشقراء الغدارة تقابل نظرات الفتى بابتسام. كدت أقع على الأرض مغمياً عليّ من شدة الانزعاج. أمسكت المسخ من معصمها، وسحبتها بشدة إلى البيت. أنّبتها على فعلتها تلك بشدة. حاولت الإنكار في بادئ الأمر، وحين أدركت أني لم أصدق ادعاءها، تظاهرت بالبكاء لعلمها أني لا أحتمل رؤية دموعها.

-لقد استحققت العقاب المناسب، قلت.

اشتريت قطعة قماش من الحرير الداكن، وخطت لها ملاءة.

تشاجرنا هذا الصباح، حول "رقيب الشمس" ثانية. قبل عدة أشهر، ذكرت أمام الدكتور خير الله في سياق الكلام، أني أحب عطر زهر رقيب الشمس. بعد بضعة أيام، أهداني زجاجة من هذا العطر. لا أعلم أين وجده؟ حرصت على التقنين باستخدام هذا العطر كي لا تنفد. لكنني اكتشفت أنها شارفت على الانتهاء. البنت الشقية كانت تستخدمها دون علمي! ذات يوم شممت رائحة رقيب الشمس في الغرفة، فقالت بخبث:

-والله، لم أستخدمها يا أختي.

جزيرة الطيور، ٥ أيار

استيقظت مؤنسة هذا الصباح، وقد بدا عليها الوهن والتوعك. عيناها حمراوان، ووجهها شاحب. لم يكن بإمكاني البقاء في البيت إلى

جانبها، فلدي عمل كثير في المدرسة لا يمكن تأجيله. ذهبت إلى الدكتور خير الله، لأطلب منه البقاء إلى جانب مؤنسة ويعتني بها. لسوء الحظ، كان قد خرج من البيت قبل نصف ساعة، ممتطياً دودول، ليقوم بجولة بين القرى. عدت إلى البيت ثانية، فوجدت مؤنسة لا تزال متعبة، لا تقوى على مغادرة فراشها. رجوت جارتي العجوز، لتتفقد الطفلة من وقت لآخر. ليباركها الله! لم تترك الطفلة حتى عودتي في المساء، وظلت إلى جانبها تحيك جوارباً.

تفاقم زكام مؤنسة، وارتفعت حرارتها، ولم تكف عن السعال حتى الصباح. كانت تشعر بضيق نفس شديد. حين جسست عنقها، شعرت بوجود غدد صلبة. فتحت فمها، فرأيت في ضوء المصباح، بثرات بيضاء على لسانها الصغير. بهر ضوء المصباح بصرها، فقالت:

–ما الخطر من السعال، يا أختي؟ ألم أصاب بالسعال في الزينيّون؟ هل نسيتِ؟

كانت الطفلة محقة. ألم تكن في حالة شبه متجمدة حين وجدتها ليلاً، في الزينيّون؟ قد لا تكون الإصابة بالنزلة أمراً خطيراً، لكن عدم وجود الدكتور خير الله إلى جانبنا في تلك اللحظة، يقلقني كثيراً. لقد جاءت أمه العريف ثانية، للاطمئنان على صحة مؤنسة، وأخبرتنا أن الدكتور سيبقى هذه الليلة في القرية، وترجو الله أن تتعافى الصغيرة قبل عودته.

جزيرة الطيور، ١٨ تموز

هذا الصباح، حين عددت الأيام التي مضت على مواراة صغيرتي التراب، كانت ثلاثاً وسبعين ليلة. لقد بدأت بتقبّل موتها، وتحمّل هذا

الألم، شيئاً فشيئاً. يبدو أن الإنسان قادر على مواجهة كل الصعاب!..

ذهبت ودكتوري العجوز إلى شاطئ البحر قبل قليل. جمعت حصى وصدفاً من بين الرمال، ورحت أقذفها نحو المياه الساكنة.

كان الدكتور خير الله فرحاً كطفل. لمعت عيناه الزرقاوان بين أهدابها البيضاء من الضحك، وقال:

-لله الحمد! لقد هزمنا الحزن! انظري لقد عادت إليك حيويتك وروحك المرحة. هذه هي حيوية الشباب!

-بعد أن يكون لي طبيب مثلك، فذلك ممكن، أليس كذلك؟ أجبت.

هز رأسه بحزن:

-ليس ممكناً في بعض الأحوال. الطب مثل الإنسان، مثل الكتب، مثل العدل والظلم، أسطورة دائمة، لا أساس لها من الصحة... أبصق على هذا العلم الذي لم ينجح بإنقاذ حياة طفلة صغيرة.

-ماذا نفعل؟ الأمر ليس بيدنا يا دكتور، لا تبتئس. هذه مشيئة الله، قلت.

نظر إلى وجهي بحزن:

-صغيرتي المسكينة، هل تعلمين لمَ أتألم من أجلك؟ حين يصيبك كرب ما، تهرعين لمواساة الآخرين، وتنسين أنك من بحاجة إلى المواساة. حالك تلك، تبكيني يا صغيرتي.

صمتَ قليلاً، ثم شرع يحدث نفسه متذمراً:

-كأني أصبحت فاشلاً! هل أصابني الخرف، أم ماذا؟ هيا يا صغيرتي، لنذهب.

شرعنا بالسير نحو البيت بين حقول قد اصفرّت. كل الفلاحين هناك، يعرفون الدكتور. تحدثنا مع امرأة عجوز تقف إلى جوار كوم ضخم من الحصاد. شفي حفيدها من المرض على يدي الدكتور خير الله قبل عدة سنوات. راحت تلهج له بالدعاء، ونادت شاباً قوياً يدرس سنابل القمح تحت شمس تموز الحارقة:

-حسين، تعال إلى هنا وقبّل يد ولي نعمتك. لولاه لكنتَ حفنة من التراب الآن، قالت.

بعد أن داعب الدكتور العجوز، وجه حسين المتعرق والمحروق من أشعة الشمس، قال:

-لا أقبل مجرد تقبيل اليد يا شاب. هيا، أركبنا على الدرّاسة.

ركبنا على درّاسة يجرها ثوران قويّان، وتنقلنا ببطء فوق أمواج بحر من الحصيد، مدة من الوقت.

اليوم، أجد في نفسي الجرأة على العودة بذاكرتي للكتابة عن تلك المأساة. آخر ما كتبته على دفتري، يوم كانت مؤنسة مريضة جداً. انحبس صوتها، وضاق نفسها إلى درجة الاختناق، وما عادت قادرة على الكلام. قررت أن أستدعي طبيباً آخر. وبينما كنت أرتدي ملاءتي استعداداً للخروج، وصل الدكتور خير الله. بعد أن عاين الصغيرة، أخبرني أن لا شيء خطير.

مع هذا، فقد بدا وجهه مقطباً، وعيناه تفكر بعيداً. لم تعجبني حاله هذه، فسألته بخوف عن حالها. أبدى انزعاجاً وهزّ كتفيه وقال:

-لا داعي للبكاء. أنا مرهق من طريق دام أربع ساعات. ألا يكفي

أني أتيت من فوري من أجل الصغيرة؟ لمَ أكذب عليك؟

أعلم أن الدكتور خير الله يصبح عصَبياً وفظاً أمام الحالات المرضية المستعصية.

محاولاً تجنب النظر إلى وجهي:

-رغم أنه لا داعي لذلك، لكنني سأستدعي عدداً من أصدقائي الأطباء من باب الحيطة فقط. أعطني ورقة وقلماً، قال.

اليوم، كل الأمور تسير ضدي. بُعثت فرّاشة المدرسة لطلبي ثلاث مرات. عدد من موظفي المعارف ينتظرونني في المدرسة، ربما جاءوا للتفتيش. في المرة الثالثة عنّفت الفرّاشة وطردتها. غضب الدكتور خير الله، وقال:

-لمَ أنتِ هنا؟ هيا إلى مدرستك. أمامي عمل كثير، رغم أني مرهق. وجودكَ هنا يربكني، هيا، ارتدي ملاءتك. إلى الأمام سر!

كان الدكتور العجوز صارماً وحازماً بكلامه فلم أجرؤ على مخالفته. ذهبت إلى المدرسة والدموع تملأ عيني.

كنت على يقين أن ذهابي إلى المدرسة في هذا اليوم العصيب، تضحية عظيمة. لن تفيني وزارة المعارف حقي، حتى لو غمرتني بكل نِعَم الدنيا. يتنقّل المفتشون بين الصفوف، يمتحنون معارف الطالبات، ويقلّبون الدفاتر، ويسألون أسئلة تعجيزية. كان فكري مشوشاً ولا أعلم ماذا أجبت على أسئلتهم. اقترب الوقت من العصر، وما زالوا لا يذهبون.

أخيراً، لاحظ أحدهم حالي البائسة:

-أمريضة أنت، يا مديرة؟ يبدو عليك الإعياء الشديد، قال.

لم أعد أحتمل أكثر، أملت رأسي إلى صدري وضممت يدي كمن

يطلب الرحمة:

-طفلتي تموت، قلت.

أبدوا مظاهر الحزن وتمتموا بكلمات لا معنى لها، وطلبوا مني الذهاب إلى بيتي.

الطريق ما بين بيتي والمدرسة لا يزيد عن خمس دقائق. لكنه استغرق مني هذه المرة، أكثر من نصف ساعة. منذ الصباح، كنت أحثّ الجميع على العجلة بحدة وانفعال، كي أعود سريعاً إلى البيت. الآن، أهاب من العودة إلى البيت. أستند على الجدران في الأزقة الخالية، وأجلس على حجارة الرصيف كالمسافرين المتعبين.

شاهدت رجالاً غرباء من نوافذ بيتي المشرعة. فتحت العريف العجوز لي الباب. لم أجرؤ على سؤالها عن حال مؤنسة. لكنها بادرتني بالقول:

-الطفلة المسكينة مريضة جداً... بعون الله ستشفى قريباً.

شعرت وكأن الأرض تدور تحت قدمي، حين ظهر الدكتور خير الله أعلى الدرج، صدره عاري ورأسه مكشوف وذراعاه مشمران:

-من جاء يا عريف؟ نادى.

هبطتُ منهارة على الدرجات. حين رآني في عتمة الفناء، توقف بارتباك:

-أعدت يا فريدة؟ حسن جداً يا ابنتي، حسن جداً، قال. ثم هبط إلى جانبي ببطء. أمسك يديّ محاولاً ترديد كلام لطيف، بصوت مخنوق:

-تماسكي يا ابنتي، تماسكي. ستتعافى بمشيئة الله. أعطيناها مصلاً،

ونبذل كل ما بوسعنا. الله كبير، لا ينقطع منه الأمل، قال.

-دكتور، أريد رؤيتها، قلت.

-ليس الآن يا فريدة، سترينها لاحقاً. هي الآن، لا تعي ما حولها. أقسم لك، لم يحصل لها مكروه. والله! مجرد غيبوبة.

أصررت بعناد معترضة:

-سأراها الآن يا دكتور. لن تستطيع منعي من رؤيتها.

ثم أضفت متنهدة:

-أنا أقوى مما تظن. لا تخشى من قيامي بأية حماقة.

فكر الدكتور خير الله قليلاً، ثم هز رأسه موافقاً:

-حسناً يا ابنتي، لكن لا تنسي، لا أريد آهات ترعب المريضة.

التزام المرء بتعهده أقوى من الألم مهما بلغت شدته. أسندت رأسي على كتف الدكتور خير الله بسكينة وهدوء، حين وقفت بباب مؤنسة. لم أشعر في قلبي اضطراباً، ولم تنهمر من عيني دمعة واحدة!

رغم مرور ثلاث وسبعين ليلة طويلة كأنها ثلاثة وسبعون عاماً، لكن ذلك المشهد لا يزال ماثلاً على حاله أمام عينيّ.

كان في الغرفة طبيبان شابان قد حلّا أزرار ياقات قمصانهما، وشمرا عن ساعديهما، وامرأة عجوز إلى جانبهما. شمس ما بعد الظهيرة قد تسللت بين أوراق الشجر ودخلت الغرفة تملأها بضياء الأمل البرّاق. الزيزان والعصافير تغرّد في الخارج، وصوت غرامافون يصدح من بعيد، والغرفة في حالة فوضى عارمة. قوارير وقطن على الكراسي والأرفف، وأغراض مؤنسة ملقية على الأرض أو معلقة على الجدران. باقة أزهار صنعتها بيدها من حديقة الدكتور معلقة على حافة المرآة، وعلى الطاولة

حصى ملونة وأصدافاً جمعتها من شاطئ البحر، وفردة من حذائها تحت أحد الكراسي، وعلى الحائط صورة لها والجدي مظلوم في حضنها من رسم يدي، وكمية من الخرز الملون وأقراط زجاجية ودمي عرائس بالطرحة...

قبل أسبوعين، قلت لها: "مؤنسة، لقد كبرت وأصبحت شابة ترتدين ملاءة"، واشتريت لها سريراً نحاسياً، ووضعت فوقه غطاء جميلاً من الموصلين كمن يجهّز سريراً لطفل.

صغيرتي، تستلقي بين الحرير ببشرتها الحريرية ناصعة البياض، رأسها مائل إلى جانبها في سبات عميق، وملاءتها السوداء معلقة على مسند سريرها، وفوق رأسها على الرف، دميتها تنظر إليها بحزن بعينيها الزرقاوين. بدت في سكينة نائمة كأن آلام مرضها قد توقفت، وحياة ترتعش على شفتيها المنفرجة بابتسامة باهتة، تكشف عن أسنان لؤلؤية. هذه المسكينة الجميلة، أدخلت السعادة إلى قلبي مذ عرفتها في المدرسة المعتمة لقريتها.

لا تزال العصافير تقيم أفراحها على الشجرة المطلة من نافذة الغرفة، ولا يزال الغرامافون يصدح بموسيقى شجية. أشعة شمس ما بعد الظهيرة لا تزال تطل على وجه الطفلة الشاحب من بين أوراق الشجر، وتداعب خصلات شعرها الأشقر التي تغطي جبينها.

كنت أتابع هذا الجمال بلا عويل ولا اضطراب... ولم يصدر مني أدنى حركة، سوى أن ذراعي قد التفت حول عنق الدكتور العجوز، ورأسي استند على كتفه، بسعادة أليمة...

كان الموت يطل على صغيرتي ببهاء ضوء القمر، يقبّلها بشفتي أم حنون، من جبينها وشفتيها دون أن يخيفها أو يرعبها.

تجمّع الأطباء حول السرير. رفع أحدهم الغطاء الحريري عن صغيرتي وكشف عن ذراعها، ثم أعدّ محقنة طبية.

استدار الدكتور خير الله قليلاً، ليحجب مؤنسة عن نظري. صاح أحدهم:

-كولونيا، قليلاً من الكولونيا.

أشار الدكتور العجوز إلى إحدى الزجاجات فوق أحد الرفوف. لا تزال الطيور لم تتوقف عن التغريد، والغرامافون لا يزال يصدح بموسيقى شجية.

فجأة، انتشرت رائحة منعشة في الغرفة، رائحة رقيب الشمس! لم يجدوا كولونيا أخرى، فاستخدموا قارورة رقيب الشمس... خطر ببالي أن صغيرتي تحب هذا العطر، وقد كنت أمنعها من استخدامه.

قلت بصوت كالأنين:

-دكتور، أفرغ القارورة على السرير. ستموت صغيرتي بسعادة حين تتنشق هذه الرائحة.

ربت الدكتور خير الله على شعري، وقال:

-هيا يا فريدة، هيا لنخرج يا ابنتي.

كنت أريد تقبيل مؤنسة للمرة الأخيرة. لكن شجاعتي خانتني. كانت صغيرتي تمسك يديّ وتقلبها وتقبّل راحتيّ، من حين لآخر. فعلت مثلما كانت تفعل. أمسكت يديها، وقبلت راحتيها، وشكرتها على السعادة

التي منحتني بوجودها إلى جانبي أنيسة لوحدتي.

لم أتمكن من رؤية مؤنسة مرة أخرى. مددوني فوق سريري وتركوني وحدي في غرفتي.

كنت أرتجف والعرق يتصبب مني. رائحة رقيب الشمس تعبق في أرجاء البيت، وتملأ صدري فأشعر بالاختناق. بدا لي أن رائحة رقيب الشمس، وضياء شمس ما بعد الظهيرة، وتغريد العصافير، وصدح الغرامافون، استمر طويلاً لسنوات. ثم اسودت الرؤية حولي، وخيالات وأطياف راحت تتراقص أمام ناظري: مؤنسة تحاول النجاة من عاصفة ثلجية، مؤنسة تطرق بابي ليلاً، وتئن بصوت ناعم...

لا أدري كم كانت الساعة ليلاً، حين بهر ضوء قوي بصري، ويد لامست شعري وجبيني. فتحت عيني. الدكتور العجوز مائلاً نحوي، يحمل شمعداناً في يده، والدموع تملأ عينيه الزرقاوين وتبلّل وأهدابه البيضاء. قلت كأني في حلم:

-كم الساعة؟ انتهى، أليس كذلك؟

أتذكر ما قلته، ثم غرقت ثانية في عتمة ليلة الزيتون تلك.

حين فتحت عينيّ ثانية، لم أتمكن من معرفة المكان حولي. غرفة أخرى، ونوافذ أخرى... استندت على مرفقيّ محاولة النهوض. سقط رأسي على الوسادة كأنه ليس مني. نظرت حولي بحيرة. رأيت عينيّ الدكتور الزرقاوين ثانية.

-فريدة، هل عرفتني؟

-لِمَ لا أعرفك يا دكتور؟

-الشكر لله، الشكر لله. ليعافينا الله جميعاً.

-ماذا حصل، يا دكتور؟

-نمت قليلاً يا ابنتي، لا أهمية لفتاة في عمرك، غفوت قليلاً، لا شيء يدعو للقلق...

-أنمت لوقت طويل؟

-نعم، لكن لا يدعو للقلق... مجرد سبعة عشر يوماً...

نمت سبعة عشر يوماً! يا للعجب! أغمضت عيني ثانية، لانزعاجي من الضياء حولي، ضحكت بغرابة كأن الصوت لا يصدر مني، ثم غرقت في النوم ثانية.

يبدو أني أصبت بحمى دماغية شديدة. نقلني الدكتور خير الله إلى بيته، ولم يفارقني سبعة عشر يوماً متواصلاً. كان هذا أول مرض شديد لي في حياتي. دامت فترة النقاهة أكثر من أربعين يوماً، لم أستطع خلالها النهوض من فراشي عدة أيام. طال شعري كثيراً خلال مرضي، فطلبت مقصاً، وقصصته حتى مؤخرة عنقي.

فترة النقاهة مريحة وجميلة. يشعر المرء كأنه يحيا من جديد. يرى كل شيء حوله مهما صغرت أهميته، جميلاً ومفرحاً، كما يرى الطفل ألعابه. تمتعني الفراشات الجميلة حين ترتطم بزجاج النافذة، أو انعكاسات ضياء الشمس الملونة على المرآة، وحتى أصوات أجراس قطعان الغنم في البعيد...

أنساني المرض كل متاعب سنواتي الثلاث الأخيرة. حتى ذكرياتي بحلوها ومرها، بدت كأنها ما عادت ذكريات تخصني، بل تخص أناساً آخرين غرباء، وبتّ أسأل نفسي بحيرة:

-لعلها أضغاث أحلام! أو ربما ما بقي في ذاكرتي من روايات قرأتها أيام المدرسة!

لازمني الدكتور خير الله في فترة النقاهة هذه، ولم يفارقني يوماً واحداً. كان يحاول تسليتي وإدخال السرور إلى قلبي بقراءة الحكايات والروايات. لقد أرهق نفسه من أجلي، سواء خلال مرضي أو فترة نقاهتي.

-بعد أن تتعافي وتغادري الفراش، سأخيط دشداشة قطنية لي، وأتمدد في الفراش ثلاثة أشهر، أتظاهر بالمرض، ولا أكف عن التطلّب والدلال، كان يقول.

كنت أمر بحالات من فقدان الوعي من حين لآخر، أشبه بالنوم. أشعر بضياء الشمس تنفذ من بين أجفاني نصف المطبقة، وأبقى على هذه الحال لفترة من الوقت.

في تلك الأثناء، كان الدكتور خير الله إما أن يقرأ كتاباً على الأريكة المواجهة، أو يغلبه النعاس وينام على الأريكة. بينما كنت في تلك الأثناء، أشعر كأني أحلق في السماء، وأتنقل في فضاء مجهول.

لا أعلم أين كنت أحلق، لكنني كنت أشعر فجأة، كأني أهوي إلى أعماق مجهولة، فأستيقظ مذعورة، وحين أجد نفسي في فراشي، يعاودني الشعور بالدفء والأمان.

منذ أيام، قلت للدكتور خير الله:

-دكتوري، لقد تعافيت تماماً. أيمكننا زيارتها؟

لم يوافق، وأصرّ عليّ الانتظار خمسة عشر يوماً أخرى.

لكن إلحاح المرضى لا يحتمل، واضطر صديقي العجوز إلى الموافقة تحت إلحاحي. جمعنا كمية كبيرة من الأزهار من الحديقة، وكمية أخرى من الحصى الملونة من شاطئ البحر. صغيرتي تحب الحصى الملونة أكثر من حبها للأزهار.

ترقد مؤنسة على تلة مرتفعة تشرف على البحر الأبيض، تحت شجرة سرو صغيرة ونضرة مثلها. جلسنا إلى جانبها لساعات، حدثني فيها أول مرة، عن صغيرتي، منذ أن مرضت، كيف وافتها المنية، ومتى دفنت. رغم أن الدكتور خير الله حاول الحديث باقتضاب، لكنه ذكر لي أن أثناء مراسم الدفن، سأل الإمام عن اسم أم مؤنسة، وحيث أن لا أحداً يعلمه، ذكر الدكتور اسمي لأنني كنت أماً لهذه البنت. لقد ووريت صغيرتي التراب باعتبارها "مؤنسة بنت فريدة"...

جزيرة الطيور، ١ أيلول

هذا الصباح، قال الدكتور خير الله لي:

-صغيرتي، لقد أُستدعيت إلى إحدى القرى. "دودول" في أمانتك. إياك، أن تسمحي للدبّة العريف أن تغيّر ضماده. قد تتسبب في كسر ساق الحيوان المسكين! خذي دودول في جولة في الحديقة، لمدة عشر دقائق، بعد تغييرك لضماده، ودعيه يعدو قليلاً. هل فهمت ما عليك فعله أولاً؟ ثانياً، سيجلب خورشيد الفرّان إيجار الفرن، اليوم. تستلمين منه ثمانٍ وعشرين ليرة. ماذا أيضاً؟ أصبحت كثير النسيان... تذكرت، أشرفي على نقل مكتبي إلى الطابق الأرضي. سأعطيك تلك الغرفة، فهي أجمل من غرفتك الحالية، وتشرف على البحر. كما أنها أكثر دفئاً في الشتاء...

حان الوقت لأقول له ما ترددت في قوله منذ وقت طويل:

-دكتور، لا تقلق على دودول، سأعتني به، وسأقبض إيجار الفرن أيضاً. لكن، لم يعد هناك من ضرورة لبقائي. لقد طالت إقامتي هنا، وأرغب أن تأذن لي بالذهاب.

تخصّر الدكتور، وقال بصوت ناعم وحاد قاصداً تقليد صوتي:

-لقد طالت إقامتي هنا، وأرغب أن تأذن لي بالذهاب.

ثم لوّح بقبضته، وقال بحدة:

-ماذا قلت؟ أتريدين الذهاب؟ ما هذا الكلام الفارغ! أمزق فكك، فتبدين بوجه ضحوك إلى يوم الدين!

-لكن زيارتي طالت كثيراً، يا دكتور.

تخصّر ثانية:

-حسن يا حضرة الآنسة، تريدين الذهاب، كما تشائين، لكن - quo vadis (إلى أين تذهبين باللاتينية) ؟..

أجبت مبتسمة:

-دكتور، لقد سألت نفسي السؤال نفسه، لكن ما أعلمه جيداً، أنه لا يمكنني البقاء هنا إلى ما لانهاية. لن أنسى ما حييت، وقوفك إلى جانبي في أحلك أيامي حين كنت بحاجة إلى مساعدة، لكن...

أمسك خير الله بذقني:

-لا داعي لمثل هذا الكلام، يا صغيرتي. لقد بتنا كجنديين صديقين. دعك من الترهات!

تابعت إصراري:

-دكتور، البقاء إلى جانبك يشعرني بالأمان والحبور. كن على ثقة أني أشعر بالسعادة بوجودي معك، لكنني حمل ثقيل عليك منذ وقت طويل. إلى متى سيستمر هذا الأمر؟ في الحقيقة، أنت ذو مروءة وذو نخوة...

عبث الدكتور بشعري القصير بحنان، وراح يقلّد صوتي ثانية:

-مروءة، ونخوة... هل نلعب تراجيديا أيتها البنت المجنونة؟ لم تعرفي طباعي بعد. المروءة والنخوة لا تعني لي شيئاً يا صغيرتي. أفعل ما يحلو لي فقط. رعيتك لأني أردت ذلك. لو لم أعجب بك، هل تظنين أني كنت سأهتم بك؟ لو سمعت أني ألقيت نفسي من المئذنة، لا تظني أني قمت بتضحية ما، بل فكري بأي متعة وجدها هذا العجوز الأناني بفعلته تلك. أعجب بأحد أبطال موليير كثيراً، حين هرع الناس لنجدته، أثناء تعرضه للضرب من شخص آخر، صاح بهم: "ليذهب كل إلى شأنه، ودعوني وشأني. ربما استمتع بهذا الضرب!". هيا يا صغيرتي، دعك من هذه الترهات. إياك أن أعود وأرى البيت في حالة فوضى. هل تعلمين كيف سيكون عقابي لك؟ سأزوجك من الحارس الضخم الذي يقف بالباب دائماً!

يتعمد الدكتور خير الله القيام بمزاح ثقيل أحياناً، ليخجلني، فأضطر للهرب من أمامه، بذلك يغلق حديثاً لا يريده أن يطول.

لقد أصبح الدكتور خير الله أباً محباً لي، وصديقاً مخلصاً في آن واحد... غمرني بالسعادة رغم ما مر بي من ظروف صعبة، ولم يشعرني أني غريبة في بيته. أفعل في بيته ما يحلو لي. أساعد العجوز العريف، أهتم بشؤون

البيت وأعتني بالحديقة، وأجهز له ما يحب من طعام، وأنظم حساباته أيضاً.

إذا ما غادرت بيت الدكتور، أين أذهب، وماذا أفعل؟ لقد أصبحت عليلة. صحيح، أن صحتي في تعافي، لكنني أشعر أن شيئاً في داخلي قد كُسر إلى الأبد. كأني فقدت بهجتي القديمة، أبكي حين أضحك، وأضحك حين أبكي. مزاجي في تقلب مستمر. الليلة الماضية، كنت أشعر بالبهجة حين دخلت سريري، ونمت بسعادة وهناء، لكنني قبيل طلوع الصباح، صحوت من نومي باكية. لِمَ كنت أبكي؟ لا أعلم. لكنني كنت أشعر بضيق، كأن هموم الدنيا كلها قد جثمت فوق صدري. كنت أنشج وأصيح: "أمي، أمي!". أغلقت فمي بيدي على الفور، لكن الدكتور العجوز سمعني من الغرفة المجاورة فنادى:

-فريدة، ما بك يا ابنتي؟

ثم هرع إلى غرفتي حاملاً بيده شمعة، وراح يهدّئ من روعي ويواسيني بكلمات رقيقة، دون أن يرى حاجة لسؤالي عن سبب بكائي.

-لا تخشي شيئاً، يا ابنتي، نوبة عصبية عابرة يا ابنتي. واهِ يا صغيرتي!

بينما كانت الدموع لا تزال تنهمر من عيني، وفمي يرتعش بنشيج مختنق كصغار العصافير، استدار صديقي العجوز إلى النافذة، لوّح بقبضته في العتمة بعيداً، وتمتم:

-لا وفقك الله! لقد دمرت فتاة مثل اللبؤة.

ماذا كنت سأفعل لو لم يكن الدكتور إلى جانبي، في ساعات مرضي ويأسي هذه؟ يا لي من غبية... لِمَ أفكر بهذا الآن؟ لن يدعني الدكتور أن

أغادر قبل شهر، على الأقل...

مزرعة "صخرة الشفق"، ١٠ ايلول

أقيم في مزرعة (صخرة الشفق) منذ أسبوع. قبل عشرة أيام، قال الدكتور خير الله:

-فريدة، أملك مزرعة في منطقة صخرة الشفق، لم أذهب لتفقدها منذ وقت طويل جداً. يجب عدم ترك العمال بلا متابعة. سآخذك لتقضي هناك خمسة عشر يوماً. فرصة لك لاستنشاق هواء عليل، قبل افتتاح المدارس. أمامك سنة طويلة من التدريس.

-دكتور، أحب كثيراً الأماكن الفضاء، لكن المدارس على وشك الافتتاح. ما العمل؟ أجبت.

هزّ كتفيه بعصبية:

-صغيرتي، لم أسألك إن كنت ترغبين بالذهاب كي تخبريني بوجهة نظرك؟ بل قلت سآخذك. لا تناقشيني. هذا عمل الطبيب... إذا تطلّب الأمر، أكتب لك تقريراً طبياً وينتهي الأمر. هيا، هيا! خذي كتب "روسو" وعدداً من الكتب الأخرى من مكتبتي.

أصبح الدكتور خير الله يعاملني كبنت مدرسة. بعد مرضي، ما عادت أناقشه أو أعترض على توجيهاته، والأغرب من ذلك، أني لست مستاءة من ذلك، بل بتّ أتقبل تعليماته بصدر رحب.

يبدو أن مزرعة الدكتور قد أُهملت وتُركت بلا عناية بشكل ملحوظ. رغم ذلك، فالمكان جميل جداً، وشتاؤه كالربيع. كما أن هناك منطقة صخرية عجيبة، يتغير لون صخورها من الأحمر الياقوتي إلى الأحمر

الأرجواني، حسب درجة سطوع الشمس، من شروقها صباحاً وحتى مغيبها مساءً، لذلك أطلق عليها "صخور الشفق"

شغلتني المزرعة أكثر مما توقعت. أحلب الحليب مع المزارعين. أمتطي ظهر دودول، بعد أن تشكلت صداقة حميمة بيننا، وأتنزه في البساتين المجاورة. تلك هي حياة الريف التي كنت أحلم بها.

رغم ذلك، فقد كنت أشعر بالقلق. يجب أن أكون في المدرسة عند افتتاحها، لأشرف على إعدادها من صيانة وتنظيف وغيره. لكنني لم استطع إقناع الدكتور خير الله...

كان الدكتور يطلب مني قراءة الروايات كل ليلة.

-رغم أن هذا كلام فارغ يدعو إلى الملل، لكنه يصبح ممتعاً حين يخرج من فمك، يقول.

ليلة أمس، بينما كنت أقرأ له إحدى الروايات، تبين لي أنها مليئة بالكلمات الفاضحة. صرت أستبدلها بكلمات أخرى، أو أتجاوز كامل الجملة. حين يلاحظ الدكتور خير الله ذلك من ارتباكي، يهتز السقف من ضحكاته المجلجلة.

فجأة راحت الكلاب تنبح في عتمة الليل. فتحنا النافذة. قادم يمتطي حصاناً، كان يدخل من باب المزرعة. الدكتور خير الله:

-من هناك؟ نادى.

صوت الحارس:

-أنا حارس البيت، أجاب.

لابد أن هناك أمر خطير دفع الحارس للمجيء من جزيرة الطيور، في مثل هذه الساعة المتأخرة. الدكتور:

-خير إن شاء الله! سأنزل لأفهم ما الأمر. إذا تأخرت نامي، يا صغيرتي، قال.

ظل الدكتور خير الله مع الحارس أكثر من ساعة. حين صعد إلى الغرفة، كان وجهه أحمر، وحاجباه مقطبين:

-لَمَ جاء الحارس يا دكتور؟ قلت.

صاح بصوت حازم:

-ألم أقل لك أن تنامي؟ هذا ليس من شأنك. هذا سلوك مخزي. بنت طائشة! لا أحب أن يتدخّل أحد في شؤوني الخاصة.

لقد أصبحت أعرف طباعه. يتصرف بفظاظة حين يواجه بعض المتاعب. حملت الشمعدان وذهبت إلى غرفتي.

حين استيقظت في الصباح، علمت أن الدكتور خير الله غادر المزرعة باكراً، من أجل بعض الأعمال، وطلب أن لا أقلق إن لم يعد مساء.

لابد أن أمراً قد حصل، فأزعج الدكتور. قبيل الظهيرة، بينما كانوا يرتبون غرفته، جلبت نظري قطعة من مغلف رسمي ممزق، سقطت إلى جانب سريره. أخذتها وقرأت بقية ما كان مكتوباً عليها "...ديرة مدرسة جزيرة الطيور". يبدو أن هذا المغلف يخصّني... اختلطت الأسور في ذهني. أأحضره الحارس ليلة أمس، يا ترى؟ إن كان الأمر كذلك، لَمَ أخفاه الدكتور خير الله عني؟ لا أظن ذلك، ربما كانت تلك القطعة بينَ الكتب التي أحضرتها من جزيرة الطيور.

جزيرة الطيور، ٢٥ ايلول

يبدو أن مقولة "إن الحياة رحلة قصيرة لا تستحق كل هذا العناء" صائبة!

هذه الحادثة ستكون نهاية لمذكراتي. أكتبها دون انفعال ودون أن أسكب ولا قطرة دمع واحدة من عيني.

مضى يومان، ولم يعد الدكتور خير الله إلى المزرعة. في الليلة الثالثة، شعرت بقلق شديد، فقررت أن أنزل صباح الغد باكراً، إلى البلدة، في العربة وحدي. لكن، حين استيقظت صباحاً، كان قد عاد.

الدكتور خير الله، هذا اللا مبالي وخالي البال دائماً، لا أذكر أني رأيته أبداً بهذا القدر من الاضطراب والارتباك. وضع قبلة على شعري، كما يفعل دائماً، ثم نظر إلى وجهي بتمعن:

-ليلعنهم الله! قال.

أدركت أن مصيبة جديدة قد حلّت عليّ، لكنني لم أجرؤ على السؤال.

ذرع الدكتور خير الله الغرفة ذهاباً وإياباً، مطرقاً يفكر ويديه في جيبيه. ثم توقف أمامي، ووضع يديه على كتفيّ بحنان وسألني:

-صغيرتي، ألاحظت شيئاً ما؟

-كلا، يا دكتور.

-أدرك ذلك. لو كان في الجو شيء غريب لجلب انتباهك، ولكنت تساءلتِ.

رددت بجدية وتأثر:

-كلا يا دكتور. لا علم لي بشيء، لكنني أعلم أنك قلق ومضطرب، وهناك ما يعكر صفوك. لقد وقفت إلى جانبي كأب حامٍ، وما يكدرك يكدرني أيضاً. أخبرني ماذا جرى.

-فريدة، يا ابنتي، هل أنت واثقة أنك قوية إلى درجة عالية؟
فضولي كان أعظم من خوفي. حاولت أن أبدو هادئة:
-تعلم جيداً أني قوية الشكيمة، قل يا دكتور، ولا تخشَ شيئاً، قلت.
-فريدة، خذي ذاك القلم، واكتبي ما سأمليه عليك، هيا يا ابنتي، أطيعي صديقك العجوز!
أطرق الدكتور خير الله مفكراً، ثم أملى عليّ تلك الأسطر:
"إلى مقام رئاسة لجنة المعارف،
بما أن حالتي الصحية لا تساعدني على القيام بمهامي الوظيفية في مديرية المعارف، أرجو التكرم بإعفائي من وظيفتي كمديرة لابتدائية بنات جزيرة الطيور، سيدي."
-وقّعي الآن يا ابنتي، دون أن تسأليني لماذا، واعطني تلك الورقة. يداك ترتعشان، يا فريدة، لا تحاولي النظر إلى وجهي. ذلك أفضل لي يا ابنتي. سأرتبك إن نظرتِ إليّ بعينيك البريئتين. لابد أنك أدركت الآن أن هناك أمر غير عادي قد حدث، أليس كذلك؟ اسمعيني يا فريدة، إن أشعرتني أنك حزينة أو مضطربة، ستضطرينني للتوقف عن متابعة كلامي. رغم أني أود أن تعرفي كامل الحقيقة. فريدة، تظنين أنك قد أصبحت قادرة على معرفة معادن الناس بما واجهتيه في ثلاث سنوات من عمرك، أليس كذلك؟ عبث! لقد تجاوزت الستين من عمري لكنني لا أزال غير قادر على فهم هؤلاء البشر. لقد واجهت ألف صنفٍ من الدناءة والخسة في حياتي، لكنني لم أواجه هذا القدر من الدناءة والخسة قط. رأسي العجوز لا يزال لا يصدق. ألسنا أنتِ وأنا، أوفى وأطهر صديقين في هذه الدنيا؟ لقد أمسكت جسدك العليل بيدي كطفلتي، هل تعلمين

يا فريدة، ماذا قالوا، وماذا يقولون عنا؟ مستحيل أن تتوقعي ذلك. لقد قالوا إني عاشق لكِ. لا تغطي وجهك بيديك، بل على العكس، ابقي رأسك مرفوعاً عالياً. لا يغطي وجهه إلا من وجهه أسود. لِمَ نخجل ونحنِ لم نفعل ما يُخجل؟ استمعي لي يا فريدة، حتى أنهي كلَ كلامي. لقد أشيع هذا الافتراء الخسيس من المدرسة، أولاً. تناقلت زميلاتك الكلام حولنا، وأشاعته. لكن حقدهن واضح. لقد أصبحت المديرة رغم أنهن أقدم وأكبر منك سناً. لقد أردتُ قبل ستة أشهر، أن أقدم لك خدمة دون علمك. طلبتُ من صديقي مدير المالية في إزمير، أن يساعدك لترفيعك إلى منصب المديرة للمدرسة دون علمك. لابد أنهن قد علمن أن هذا الترفيع قد تم من خلالي مما ضاعف من شكوكهن.

نار الفساد هذه مشتعلة منذ أشهر في الخفاء. سُرّبت أخبار مغرضة إلى لجنة المعارف والقائم مقام، وجرت مراسلات مطوّلة، وأُجريت تحقيقات، ودُقّقت سيرتك المهنية من خلال مديرية معارف الولاية، ونُوقشت عدة نقاط غامضة في مسيرة عملك. مثل مجيئك من استانبول إلى (ب)، ثم استقالتك من مدرسة المركز وذهابك إلى قرية نائية، ما اعتُبر هروب مشبوه من أمر غامض، ثم حصولك بعد عدة أشهر، على مساعدة من مصدر مجهول، وترقية لم يشهد لها مثيل في تاريخ وزارة المعارف: ترفيعك من معلمة مدرسة ابتدائية إلى معلمة في دار المعلمات. ثم استقالتك ثانية، دون مبرر واضح، ثم ذهابك إلى بلدة أخرى ثانية. لكننك لا تطيلين البقاء هناك، كما ورد من لجنة معارف (ج). بينما كنت أقرأ كل هذا، شعرت بصدمة هزّت كياني، يا فريدة. وبينما كنت هناك... كلا، كلا لا يمكنني القول. ما أُدعي من باطل بقلم ولسان رجال

يفُترض أنهم مربّون وعلى مستوى عالٍ من العلم، حتى تربيتي العسكرية لا تسمح به، ولا يمكنني أن أتفوه به، رغم رعونتي وإطلاقي لأبذأ الكلمات. فريدتي الصغيرة، تعلمين ما تفعله كلاب الصيد حين تجتمع حول غزال جريح، وهم اجتمعوا حولك بالأسلوب نفسه. تصرفاتك الأشد براءة، فُسّرت كدليل ضدك، وذُكرت في ملفات التحقيق. دعوتك لي لمعالجة طالباتك المريضات من حين لآخر، إسنادك لرأسك المنهك على كتفي للحظات، حين كانت صغيرتك تحتضر، وما أمضيته من ساعات إلى جانب سريرك وأنت ترقدين مريضة، كل ذلك اعتُبر جريمة! لقد تمادينا بالسفاهة، وضربنا أعراف وعادات وشرف وعفة البلد بعرض الحائط، ولم نُقِم وزناً للناس حولنا. بينما كنا ندعي مرضك أمام الجميع، ركبنا على الدرّاسة، وتجولنا في الحقول بأيدٍ متشابكة، وأبديت اهتماماً بحصاني بدلاً من اهتمامك بوظيفتك، ثم لم نتوقف عند هذا، بل غادرنا المدينة إلى المزرعة وحدنا.

فريدتي الصغيرة، أقول لك ذلك بكل عريّه وقساوته، مباشرة، دون اللجوء إلى مواساتك، وتحطيم آمالك شيئاً فشيئاً، مع مرور الأيام، لأني لا أرى نجاعة في ذلك. هل تعلمين لماذا؟ لقد تعلمت من خلال مهنتي وتجربتي في الحياة، أنه ينبغي على المرء أن يتجرع السم دفعة واحدة. إما أن يموت أو ينجو.

تجرع السم مع الشراب على دفعات، شيء مقزز، ويطيل الصراع مع الموت، ونقل أخبار المصائب على دفعات يشبه قطع قدم المرء بالمنشار، وهو صاحي.

أجل يا فريدة، أنت تجابهين محنة من أقسى محن الحياة. كان يمكن هذه الصدمة أن تقتلك لو كنتِ وحدكِ. في الواقع، ما الذي يؤول لحال طفل بحجم العصفور، حين ينقضّ عليه هذا القدر من الناس؟ أشكري الله أنه منحك عجوزاً يتصدى للفساد. ساعة عمري على وشك العزف. لكن لا مشكلة في ذلك، يكفيني وقت قصير من عمري كي أساعدك. إن تمكنت من ذلك، لن أشعر بالحزن على ما أمضيته من عمري في السعي خلف أمور تافهة. لا تخشي يا فريدة، سيمضي كل شيء ويصبح في طي النسيان. أنتِ لا تزالين في مقتبل العمر، لا تقطعي الأمل من أيام قادمة أجمل. كنت سأقدم استقالتك بنفسي دون علمك، لكنني عدلت عن تلك الفكرة. لا يمكنني تركك على هذه الحال. خيباتك العديدة إلى جانبك الطفولي، لها جانب إيجابي. يكفينا الآن ما تحدثنا به. هيا يا فريدة، هيا لنخرج سوياً إلى الهواء الطلق، لنرعى الخراف والأبقار. كوني على ثقة، أن ما تفعلينه من خير لهذه الحيوانات، أهم وأبقى. الحيوانات أكثر اعترافاً بالجميل من البشر.

وضع الدكتور العجوز كتاب استقالتي في مغلف وأعطاه للحارس. لم تكن قطعة الورق هذه قطعة من عمري فحسب، بل كنت أدفن معها قطعة من قلبي، وآخر أمل لي بمتابعة العمل الذي أحببت. كم مؤلم ذلك يا ربي! وكم يسبب من حزن!

كل أمل أتعلق فيه، يتبخر، وكل من يتعلق قلبي به، يموت. لقد ماتت أحلامي الفتية مساء يوم خريفي، قبل سنوات ثلاث، ومات معها أطفالي قبل أن يولدوا، ثم ماتت مؤنسة، والآن ماتت آمالي برعاية أطفال

المدارس الصغار. كل شيء حولي يتهاوى كأوراق أشجار الخريف تسقط الواحدة تلو الأخرى. رغم أني لم أبلغ الثالثة والعشرين من عمري بعد، وملامح الطفولة لم تختفِ من وجهي وجسدي بعد، لكن قلبي قد شاخ وامتلأ بمن مات من أحبائي

لم يتركني الدكتور خير الله وحدي على مدى ثلاثة أيام. فوجئ بما أظهرته من جلد ورباطة جأش أمام هذه المصيبة الجديدة. كان يقف بباب غرفتي ليلاً، قبل أن أنام:

-فريدة، هل أنت بحاجة إلى شيء ما؟ إن كنت لا تشعرين برغبة بالنوم، نجلس سوياً، كان يقول.

كان صباح اليوم الثالث منعشاً وطلّا كأيام شهر أيار، حين استيقظت باكراً. حلبت البقرة بنفسي لأقدم حليباً طازجاً للدكتور خير الله، وأعددت له الإفطار. دخلت غرفته حاملة صينية الإفطار، وابتسامة فرحة تغطي وجهي. حين رآني الدكتور والبهجة تطفح من وجهي، فرح كثيراً وقال:

-لقد أسعدتني كثيراً، يا فريدة! كما أنك أتعبت نفسك. ألا يوجد أحد سواك ليتولى إعداد الإفطار؟

فتحت النافذة، ثم رتّبت بعض أشيائه المبعثرة هنا وهناك، وتحدثت حول أمور تخص المزرعة والخراف. كنت أتكلم دون توقف، وأضحك، وأصفر مثلما كنت أفعل أيام المدرسة.

كان الدكتور خير الله سعيداً بفرحي، وكنت أفرح كلما أراه سعيداً. ثم، سحبت أريكة الدكتور إلى جانب النافذة، ووضعت غطاء على

ركبتيه، وجلست على حافة النافذة:

-أريد أن أحدثك ببعض الأمور، دكتور، قلت.

غطى الدكتور خير الله عينيه بيده:

-تحدثي بما تشائين، لكن انزلي أولاً، عن النافذة. قد تقعين، لا سمح الله...

-لا تقلق، لقد أمضيت طفولتي على أغصان الأشجار. سأخبرك أمراً يفرحك. أترى كم أنا هادئة؟.. لقد اتخذت قراراً مهماً مساء أمس.

-ما هو؟

-مواصلة الحياة.

-ما معنى هذا؟

-بكل بساطة: عدم الانتحار. كنت قد فكرت بالانتحار، وعدلت عن هذه الفكرة مساء أمس.

كنت أتكلم بطيش طفولي مرح. وثب الدكتور العجوز من مكانه بانفعال:

-ماذا تقولين، يا شقية؟ ما هذا الهراء؟ لو كنت مكانك على النافذة، لسقطت إلى الأسفل من الدهشة، وتقطعت أشلاء. لكن، بالله عليك، انزلي عن حافة النافذة، قد يخرج الأمر عن السيطرة!

أجبته ضاحكة:

-بعد إقراري بمواصلة الحياة، ما عاد هناك من مبرر لخوفك من إلقاء نفسي من النافذة، أليس كذلك، يا دكتور؟ سأخبرك لِمَ اتخذت هذا القرار. هناك أسباب عدة، أولها: أني لا أملك الجرأة على قَتل نفسي. لا

تنظر إلى حديثي عن الموت باستخفاف سابقاً، يا دكتور، فأنا، أخاف من الموت، رغم أنه كان الحل الوحيد لمشكلتي.

كنت أتكلم بهدوء وبراءة، ويديّ ممدودة أمامي، ورأسي مائل إلى صدري.

بدا الاضطراب على الدكتور خير الله، فأسرع ممسكاً معصميّ، وأنزلني بالإكراه، عن حافة النافذة، وأجلسني على أقرب كرسي:

-كم أنتِ صعبة على الفهم، يا فريدة! تتخذين قرارات سريعة، وتتصرفين على نحو غير مألوف، لكنكِ راسخة كالجبل، وتتحلين بشجاعة وجلد لا يصدّق... حسناً يا فريدة، تابعي كلامك، استمع إليك.

-صديقي الوحيد الذي لا مثيل له، أنت أبي وسندي. بعد أن أدركت أنه لا يمكنني الانتحار، قررت مواصلة الحياة. جميل جداً، لكن كيف ذلك؟ ألا ترشدني إلى الطريق المناسبة؟ ستقدم لي خدمة رائعة!

فكّر الدكتور خير الله ملياً وقطّب حاجبيه، ثم قال:

-فريدة، لقد فكرت بذلك، لكنني أردت التريث حتى نناقش الأمر سوياً. لكن، ما دمت تملكين رباطة الجأش الخارقة هذه، يمكننا التحدث الآن. أكرر، لا تقطعي الأمل بأن تصبحي معلمة ثانية. أستطيع اليوم أن أصارحك ببعض ما حدث:

قبل عشرة أيام، وصل مفتش من الولاية. له سحنة لعينة وأنياب بارزة مثل أنياب كلب البحر. شُكّلت هيئة التحقيق برئاسة هذا المفتش. كانوا يريدون استدعاءك للمثول أمام لجنة التحقيق هذه، قبل عزلك من

وظيفتك. الكتاب الذي أحضره الحارس ليلاً، كان مذكرة جلب. تخيّلي يا فريدة، كيف يمكنك الوقوف أمام مثل هذه الهيئة ومواجهة أكاذيبها، ودحض افتراءاتها الباطلة؟ حين علمت بذلك فقدت صوابي. تخيلتك تقفين أمام كلب البحر بأنيابه المفترسة بملاءتك السوداء، ووجهك الطفولي، وانحناءة رأسك الخجولة. هذا الرجل المتوحش كما في حكاية "الذئب والحَمَل"، يبحث عن أي مبرر لإدانتك، وسيردّد تلك الاتهامات البذيئة الباطلة أمامك. لم أحتمل تركك وحدك في مواجهة كلب البحر هذا، وأنت الفتاة البريئة التي تخجلين ويتقلّب لون وجهك الطفولي حين تخرج من فم عسكري خرف كلمات غير مناسبة دون سوء نية!

لم أرَ قبل هذا اليوم، ذلك البريق المخيف في عينيّ الدكتور خير الله الزرقاوين الحليمتين، ولم أره حانقاً وأسنانه تصطك من شدة الانفعال، ملوّحاً بقبضته ويقول:

-لو تعلمين يا فريدة، ما قلته لهذا النذل، وكم صغّرته وحقّرته... لقد أفرغت كل ما في داخلي من غلٍ تجاه هذا الصنف من البشر... في تلك اللحظة، لو أطلقت عليه النار، ما كان لينزف منه ولا قطرة دم واحدة.

قبل يومين، علمت أنه رفع دعوى ضدي إلى المحكمة، بتهمة تحقيره. أنتظر ذلك اليوم، بفارغ الصبر كي أفضح المفتشين ولجان التحقيق على ما اقترفوه من تزوير للحقائق.

هدأ الدكتور العجوز وصمت قليلاً، وبعد أن غاب ذلك البريق الوحشي عن عينيه، استعاد صوته الحليم المعتاد، واستأنف الكلام ببراءته المألوفة:

-في تلك الأثناء، تعاقبت الأحداث. ارتفعت حرارتك بشكل خطير. ثم أجبرت على تقديم استقالتك كي لا تظني بي الظنون في المستقبل، وكان ينبغي قطع علاقتك فوراً، بوزارة المعارف. لقد خلق الله هاتين العينين وهاتين الشفتين للضحك ونشر السعادة لمن حولك، لا لترتعش وتبكي أمام كلب البحر... فريدة، هناك ما يجب قوله أيضاً. لقد تضاعفت مسؤوليتي تجاهك الآن، لأنني كنت السبب وراء ما حدث لك، وينبغي عليّ إصلاحه. كما ينبغي عليك أن لا تفكري بالعمل في المعارف ثانية. إن وجدنا اليوم حلاً، سيجدون غداً وسيلة أخرى لإيذائك... وربما لا أكون قربك حينذاك! لنفكّر معاً بحل مناسب؛ هل يمكنك العودة إلى أهلك في استانبول؟

أملت رأسي إلى صدري:

-كلا، يا دكتور، لقد انتهوا بالنسبة لي.

-لا بأس، هناك حل آخر؛ ألا تفكرين بالزواج من شاب مناسب؟

-كلا، يا دكتور. لقد قررت أن لا أتزوج أبداً.

-أنا على قناعة تامة أنك لن تكوني سعيدة أبداً يا فريدة. لقد امتلك ذلك المغضوب قلبك، ولا يمكنك انتزاعه منه.

-دكتور، أقبّل قدميك، قل ما تريد، إلا في هذا الأمر...

-حسناً يا صغيرتي، كما تشائين.

-أشكرك، دكتور.

استغرق الدكتور خير الله في التفكير ضاغطاً على شاربه الأبيض بشفته السفلى:

-حسناً، لكن ما العمل إذن؟ لا أخشى عليك من الحاجة، فثروتي تكفي لكلينا. كنت أفكر ما الذي أفعله بهذا المال، ولا شيء أفضل من صرفه على سعادتك.

كنت أعلم أن ردّي سيغضبه، لكن لا يمكنني قبول عرضه. حككت ركبتيّ بوجل:

-لكن يا دكتور، بأي صفة يمكنني قبول عون مالي منك؟ لن أسمح لنفسي بالهبوط إلى هذا المستوى المتدني.

لم يغضب الدكتور خير الله، لكنه نظر إلى وجهي بعتاب حزين جداً:

-عيب عليك يا فريدة، عيب. من المخجل أن تقولي ذلك بعد هذه الصداقة المتينة بيننا. لكن ماذا أفعل؟ رغم أنك لا تحبين القيود وذات فكر متحرر، لكنك ابنة عائلة كريمة، وعفيفة النفس، ومسالمة. أنت بنت صغيرة كحمل وديع... فكّري بعقلانية يا فريدة، اعتدادك بنفسك لا يسمح لك بقبول مساعدة من صديقك العجوز الحميم، لكن كيف ستعيشين وحدك؟ بعد كل ما حصل وما أُشيع حولك من اتهامات باطلة؟ لذلك فكرت بتزويجك. لا يمكنك العمل ثانية، وترفضين قبول مساعدة من أحد. وإن قلت لك ابقي هنا، لا تريدين البقاء، أليس كذلك؟ لا يمكنك أن تجيبي وتكتفي بإحناء رأسك فقط. هذا ليس حلاً. يجب أن أكون أكثر صراحة، لقد قابل عدد من أهل الحي القائم مقام، بدعوى أن فتاة تعيش في بيتي، لا هي من عائلتي ولا من أقاربي، وفي ذلك مخالفة للأعراف والدين، ويريدون نفيك خارج البلدة. لمَ لا؟ فالكل يكرهني، لأنني لا أتورع عن مواجهة بذاءتهم في وجوههم بكل صراحة، وقد سنحت لهم الفرصة للإساءة إليّ. خلاصة الكلام، لا يمكنك أن

تعيشي معي، ولا يمكنك أن تعيشي وحدك. الظنون الباطلة ستلاحقك أينما تذهبين. نقطة واحدة غامضة في ماضيك، ستعطي الفرصة لكل نذل حقير وعديم الأخلاق، أن ينهشك. ما العمل؟ وكيف ينبغي أن أحميكِ؟

نظرت إلى وجهه بصمت مريضٍ محكومٍ على مصيره بالموت. رغم اليأس العميق في داخلي، قلت ضاحكَة:

-ها أنت أيضاً، ترفع الراية أخيراً. ألا ترى أني كنت محقة حين فكرت بالانتحار؟ انظر يا دكتور إلى تلك الشمس الرائعة، وتلك الأشجار النضرة، وذاك البحر البعيد، هل هناك أحد بمحنة شديدة مثلي، يرغب رضا قلب، بفراق هذه الدنيا الجميلة؟

أغلق الدكتور خير الله فمي بيده:

-كفى يا فريدة، كفى. ستجبرينني على فعل شيء لم أفعله في حياتي قط. سترغمينني على البكاء كطفل صغير.

أشار بيده نحو شمس الخريف اللامعة بين أغصان جافة سقطت أوراقها:

-أنا عجوز مسن، رأيت كل أشكال الشقاء والألم، وكم من العيون أُغمضت بين ذراعيّ. لكنني لم أرَ مثل هذا الوجه الطفولي يتحدث عن الموت ضاحكاً.

رمى الدكتور خير الله غطاءه عن ركبتيه، وراح يذرع في الغرفة ذهاباً وإياباً، ثم وقف أمامي:

-ليس أمامنا من حل سوى هذا الحل. سأحميك بكل نفس أتنفسه. ستبقين في بيتي بصفة تلائم أعرافهم. استعدي يا فريدة. الخميس بعد القادم...

أقيم في جزيرة الطيور منذ أسبوع. غداً سأصبح عروساً. ذهب الدكتور خير الله إلى إزمير أول أمس. يريد متابعة بعض من أعماله الخاصة، وإحضار بعض من الأشياء الجديدة لبيتنا. استلمت برقية منه يخبرني بعودته هذا المساء.

اعترض بشدة حين قلت إن لا لزوم لهذه الأشياء الجديدة:

-لا شيء، أيتها الآنسة المخطوبة، أم أنك تريدين القول بأني عجوز! في الحقيقة، يبدو أن القدر قد أخطأ حين وضع فارق عمر بيننا من أربعين عاماً، لكن لا أهمية لذلك. الأصل في الشباب، شباب الروح. دعك من عمري، أنا أصلب من شباب في العشرين من أعمارهم، وأريد أن أراك عروساً جميلة، وسأحضر لك ثوب زفاف رائع من إزمير.

كنت أنظر إليه صامتة. تابع الدكتور خير الله كلامه:

-سأقدم لك هدية زفاف مدهشة. لكن مهما حاولت أن تخمّني، عبث! لن تتمكني. ليست قرطاً، ولا خاتماً، ولا لؤلؤاً، ولا ماساً. سأخبرك: داراً لرعاية الأيتام!

نظرت إلى وجهه بحيرة، فاستأنف ضاحكاً بسعادة:

-أعلم أن هذه الهدية ستنال إعجابك. سأحوّل مزرعتنا في صخرة الشفق إلى دار لرعاية الأيتام. ستتسع لثلاثين أو أربعين طفلاً. نجمع أطفالاً لا معيل لهم، أنا أتولى معالجتهم، وأنت تتولين أمومتهم وتعليمهم.

أكتب هذه الأسطر أمام نافذة الغرفة حيث أمضيت أيام نقاهتي. مطر غزير يهطل على أغصان الأشجار العارية في الحديقة. بعض ما بقي من الأوراق الصفراء الجافة لتلك الأشجار، دفعها الريح من النافذة

لتسقط فوق دفتري. عينا صديقي العجوز تلك المليئة بالعطف والرحمة والمحبة الطاهرة بلا دنس، كانت تعيش في قلبي كورقة خضراء نضرة. لكنها اعتباراً من هذا اليوم، ستصبح عينيّ زوج. هذه الورقة الخضراء الوحيدة في حياتي قد اصفرت أيضاً. ماذا أفعل؟ يبدو أن الحياة لا حدود لقسوتها! ويجب الانحناء أمام امتحانها.

وصلت إلى آخر صفحات دفتري المدرسي المليء بكتابات صغيرة كأرجل النمل. يا للصدفة الحزينة! انتهى دفتري مع انتهاء حكاية كفاحي مع المحن. لن أفكر بكتابة قصة حياتي الجديدة على دفتر آخر، فما حياتي الجديدة سوى نهاية لعمري الذي ضاع عبثاً وقد أصبحت زوجة لرجل آخر. سأستيقظ في الصباح في غرفة وعلى فراش رجلٍ آخر. لقد ضاعت حياتك يا طائر النمنمة، ولم يبقَ منها سوى الدموع وتغريدة جميلة تلاشت في الهواء.

اليوم، تموت طائر النمنمة إلى الأبد داخل دفترها المبلل بدموع عينيها المتساقطة على صفحاته المصحوبة بتساقط أوراق الخريف.

لا أجد مبرراً لإخفاء الحقيقة في آخر ساعة للفراق. لقد كتبت هذه المذكرات من أجلك يا كامران. كتبتها على دفتر لن تقرأه يا كامران. أجل، كل ما قلته، كل ما كتبته كان من أجلك. سأعترف الآن، بخطأي الذي ارتكبته بسبب تعنّتي. كنت سأشعر بالسعادة معك رغم كل شيء. كنت أعلم أنك تحبني، لكنني أريد أن أكون وحدي حبيبتك، ولم يشاركني بك أحد، لا قبلي ولا بعدي. أن لا تحب أحداً سواي. كنت أريدك أن

تحبني كثيراً، لكنني أعلم أنه ليس باستطاعتك أن تحبني بقدر ما أحبك، فذلك مستحيل! ألا ترى أني كنت على حق، يا كامران؟ ربما كنت فتاة صغيرة غرة، لا أعرف كيف أُحِبُّ وأُحَبُّ. ما دامت زهرتك الذهبية قد أسعدتك، يا كامران، فأنا أسامحها في خيالي. ربما كانت فاتنة الجمال، وتعرف كيف تخلب لبك بكلامها الجميل. في حين، كنت أجهل هذه الأمور، ولكنني أعلم أني كنت سأصبح أماً جيدة لأطفالك، أطفالنا.

كامران، لقد أدركت مدى عمق حبي لك بعد فراقنا، ورغم كل ما مر بي من تجارب في حياتي الماضية، لم أحب سواك، وظل طيفك يرافقني أينما ذهبت، وحبي لك خالد في أعماق قلبي الحزين.

كنت ترافقني دائماً، أعيش بين طيف ذراعيك، في عتمة مقابر الزينّون، في بكاء وعويل رياح الليالي الطويلة، في السهول، ومع نغمات أجراس العربات على الطرقات النائية، وفي الطرقات العابقة بعطر الزيزفون. غداً، سأصبح زوجة لرجل آخر، كأرملة، لكنه لن ينسيها عشقها وهيامها لرجلها الأول!

كامران، سنفترق اليوم عن بعضنا، وسأصبح أرملة... ورغم أن الأيام قد أبعدتنا، لكنني كنت جزءاً منك ولك، وسأبقى بروحي، دائماً لك وحدك...

(هنا تنتهي مذكرات فريدة.)

الجزء الخامس

-١-

-صحبتك في النزهة مملّة جداً يا كامران. أحدثك منذ أكثر من ساعتين، وسألتك مئتي سؤال، ولم تجبني سوى بكلمتي نعم أو لا. اصحو يا بني!

كان كامران يتابع بحر مرمرة بشرود، وقد رفع ياقة معطفه اتقاء من برد المساء. أبعد عينيه عن البحر مكرهاً وابتسم:

-أظن أن إجابة مئتي سؤال خلال ساعتين، ليس بالقليل، وإن كانت الإجابات قصيرة كنعم أو لا، أليس كذلك، يا صهري؟

-صحيح يا بني، لكن إجاباتك كانت تلقائية، ودون تفكير...

-أصول المعالجة السليمة بالخروج إلى الهواء الطلق، يا صهري... أتريد إرهاقي بتفكير لا جدوى منه؟

-كلا يا ناكر الجميل، يبدو أن لا مجال للتودد إليك... أريدك أن تمعن التفكير بواقعك، وأن تكفّ عن العيش بالأحلام. لكن يبدو أن لا مجال لإدخال السرور إلى قلبك. حين اصطحبتك قبل ثلاثة أيام، لحضور حفل زفاف قروي، كان هدفي أن تلتقي بالناس، وتستمع إلى عزف الطبل والمزمار، وتستمتع بحركات المهرجين والراقصين. لقد استمتعت شخصياً كثيراً، لكنك لم تحاول الاستمتاع بأي شيء. لا تنكر ذلك، فقد كانت تصرفاتك تشي بذلك.

-كيف أوضّح لك يا صهري، ربما طباعي مختلفة عن الآخرين.

-كلا، يا بني، لقد فقدت عزيمتك في الحياة. انظر إليّ، لقد جاوزت الستين من عمري، لكنني أزداد شباباً من يوم لآخر.

-لو تسمع خالتي عائشة!

-لا أبالي إن سمعت. ألم أكن أبدو مسناً أكثر حين قدمت إلى هنا؟

ضحك كامران وقال:

-لقد مضى عشر سنوات على مجيئي إلى تكيرداغ. لا أزال أذكر ذلك، كان في شهر آب أيضاً.

ضرب الصهر عزيز راحتيه ببعضهما:

-لا تبدأ، بالله عليك، كم تمضي السنوات سريعاً! لك كل الحق يا كامران. لديك طفل في الرابعة من عمره، واستمرت خطبتك على فريدة خمس سنوات. لا يزال عقلي لا يستوعب كيف هانت عليك فريدة، يا كامران! لا يزال قلبي يتوجع كلما أتذكر صوت طائر النمنمة كصوت البلبل، ووجهها كالوردة الجورية. مضى عشر سنوات، ولا يزال قلبي لا يحتمل النظر إلى حديقة البيت الخلفية. لن أسامحك يا كامران، حتى مماتي.

-أيقال مثل هذا الكلام لمريض دُعي إلى بلدكم من أجل شفائه، يا صهري؟

-لكن لا علاقة ذلك بمرضك. لقد تزوجت بامرأة تحبها، لكن حياتك معها لم تكن سعيدة، فسرعان ما وقعت منوّر طريحة الفراش، وأمضيت ثلاث سنوات من عمرك في التمريض. حاولت معالجتها في الجزيرة، وفي سويسرا، ولست أدري أين أيضاً، لكن القدر كان لها بالمرصاد، وتوفيت زوجتك في الشتاء الماضي. لقد أصبت بحالة نفسية

سيئة، ولم تستعد قواك بعد، ولا تزال مريضاً. ما علاقة ذلك بفريدة؟ كنت تحب امرأة أخرى.

أجاب كامران بابتسامة مريرة:

-صهري، لا أحد يصدقني، وأنت أيضاً، لن تصدقني، ستظن أن ذلك غير صحيح. لقد عشت تجارب ومغامرات عديدة في حياتي، لكن أؤكد لك أني لم أحب امرأة في حياتي، بقدر ما أحب فريدة.

تمتم الصهر عزيز:

-هيام مجنون، وعشق بلا أمل!..

-ألم أقل لك يا صهري؟ لن تصدقني. على أية حال لا أحد يريد أن يصدقني. تخاصمني موجغان منذ سنوات. لا تسمح لي حتى بلفظ اسم فريدة. تثور وتقول: "إياك أن تنطق باسمها!"، حتى أمي وخالتي، غاضبتان عليّ. لا أحد يستمع إليّ سوى نرمين. نرمين الآن، في السابعة عشر من عمرها. كانت في السابعة من عمرها حين جاءت فريدة إلى هنا. تذكرها كالخيال وتقول: "لقد أرجحتني أختي فريدة ذات الفستان الأحمر بالأرجوحة". أمضي الوقت حاثاً نرمين على التحدث عن فريدة ذات الفستان الأحمر.

-يا لك من رجل غريب الأطوار يا كامران؟ حسناً، والأخرى؟

-كانت مريضة، وموتها كان بسببي. بعد أن قطعت الأمل من عودة فريدة، أردت أن أؤدي لها خدمة إنسانية. لا شيء سوى ذلك.

-ادعاؤك غير مقبول. أنت بروح مضطربة يا كامران.

-كلامك صائب يا صهري. لم أعرف في أي وقت، ما أريده وما ينبغي عليّ فعله. الشيء الوحيد الذي أعرفه جيداً هو ضعفي تجاه فريدة.

لا يمكنني نسيان ذكرياتي معها، ولا ما آلت إليه. أخشى أن أموت من البكاء كلما أتذكرها. سأخبرك ما يثبت كلامي يا صهري. حين طلب الأطباء مني أن أخرج من أجوائي إلى مكان بعيد، لم يخطر ببالي سوى تكيرداغ. أتظن أني قدمت إلى هنا بناء على دعوتك لي؟ لا تعتب عليّ إن قلت لك إن السبب الوحيد لاختياري تكيرداغ، كان استعادة بعض من ذكريات شبابي الضائع. لا شيء غير ذلك.

– ما دمت أنك تعلم بخطأ تصرفك، لِمَ لم تحاول إصلاحه؟

–لقد ارتكبت حماقة وسوء تصرف. لقد غادرتنا فريدة غاضبة جداً. لكن، حين وصلت إليها، تردّدت في مواجهتها، خشية من ردة فعل قاسية قد تصدر منها. لم يكن قد جُرح قلبها فحسب، بل كبرياؤها أيضاً، وذهابها إلى بلاد بعيدة وغريبة يعكس شدة حزنها. أردت الانتظار ستة أشهر حتى يهدأ غضبها وحزنها، ولا ترتكب تصرفاً جنونياً أفدح حين تراني. انتظرت حتى الربيع بنفاذ صبر. وبينما كنت أتهيأ للسفر إلى القرية حيث تقيم، أصابني المرض لسوء حظي، وبقيت طريح الفراش ثلاثة أشهر. بعدئذ، حين وصلت (ب)، كنت قد تأخرت كثيراً. سمعت عن حب فريدة للحن مريض، وقصتها معه جوار شلال من المياه، ووضعها لرأسها الخائن على ركبتيّ حبيبها، تحدق في عينيه وتدعوه لمزيد من العزف على الطنبور. ماذا تظن أن أفعل يا صهري، بعد انتظار دام سنوات، على قولها "هذا الرأس وهاتان العينان لي وحدي!"، ثم أسمع ما سمعته؟

توقف كامران عن الكلام، ودفن عنقه داخل ياقة معطفه كأنه يخشى ريح المساء المنعشة القادمة من بحر مرمرة، وتابع في البعيد، النيران المتقدة لصيادي الاسماك.

تبدّد مرح عزيز:

-كامران يا بني، أظن أنك ارتكبت حماقة أخرى. ليس التقلب السريع من طباع طائر النمنمة. ليتها فعلت لعاشت بسعادة.

هزّ كامران رأسه بابتسامة حزينة:

-من هذه الناحية، كن مطمئناً يا صهري. فريدة سعيدة جداً، منذ سنتين. سمعت ذلك ممن رأوها بالعين. لقد تزوجت من طبيب عجوز ثري. زوجة أحد أصدقائي موظفي الدولة، هي صديقة قديمة لفريدة، التقت بها في جزيرة الطيور السنة الماضية. طائر النمنمة كما عهدناها، تتحدث وتمازح وتضحك باستمرار. ترعى ما يقرب من عشرين طفلاً في دار للأيتام في مزرعة على بعد ثلاث ساعات من المدينة. أخبرتها أنها سعيدة في حياتها، ولا تحتمل فراق زوجها أكثر من نصف ساعة. حين أرادت زوجة صديقي الخوض معها في الحديث عن استانبول وعن أهلها، قطعت فريدة كلامها، وقالت: "لم أعد أتذكر تلك المدينة ولا أهلها!". أعلم أنني ارتكبت خطأ جسيماً وأسأت لفريدة، لكن، كن منصفاً يا صهري، أتظن أنها لم تخطئ بنسياني بهذه السرعة؟ على أية حال، فهذا الكلام لا جدوى منه، لا أريد متابعة النزهة. سأترجل هنا، وأعود إلى البيت سيراً على الأقدام . أتمنى لك نزهة سعيدة. هذه الطرق سيئة جداً. لقد أتعبتني جداً.

تنهد عزيز بعمق:

- في الحقيقة، لا أحد يقدّر ما يفعله رجال الدولة. إنهم سيئو الحظ. لقد أشرفت على إعمار هذه الطرق بنفسي منذ سنوات، واصطليت بحرارة الشمس كالعمال. على أية حال، لا تفترِ يا كامران، فليست

الطرق ما أتعبتك. لقد فعلوا خيراً بإحالتي على التقاعد من عملي قبل سبع سنوات. هيا يا ابني، ترجّل إن شئت، لكن لا تتأخر علينا، فالشيخوخة، وخالتك أيضاً أتعباني. إن تتأخر بالعودة، ستقلق خالتك عليك، وسيغمى عليّ من الجوع.

ترجّل كامران من العربة عند الجسر. في إحدى أمسيات نهاية آب، قبل عشر سنوات، كان يجلس في المكان نفسه، على تلك الأخشاب المتهتكة ويهزّ ساقيه.

منذ أن جاء إلى تكيرداغ قبل عشرين يوماً، يأتي إلى هذا المكان قبيل كل غروب للشمس، ويجلس حتى غروبها، ثم يعود إلى البيت.

تقيم موجغان مع أطفالها، في بيت والدها في تكيرداغ، مذ سافر زوجها إلى الأناضول في مهمة رسمية مؤقتة. ذات مساء قالت لكامران:

-تبدو مرهقاً جداً، هل ذهبت إلى مكان بعيد؟

أجاب كامران مبتسماً بحزن:

-لقد صدقت يا موجغان، لقد ذهبت بعيداً، إلى الماضي، إلى عشر سنوات خلت.

أراد أن يكمل كلامه، لكن موجغان أبدت امتعاضاً من كلامه بزمّ شفتيها، وأدارت له ظهرها، لتمنعه من الحديث حول فريدة كعادتها، فقد كانت ناقمة عليه لزواجه من امرأة أخرى غير فريدة.

بينما كان كامران يقفل أدراجه عائداً إلى البيت بين الحدائق، كان المساء يهبط حوله شيئاً فشيئاً، وشمس الأصيل لا تزال تطل على قمم الجبال العالية في البعيد.

توقف الشاب في طريقه، أمام إحدى الحدائق، وظلّ يتابع سراج الليل تتطاير حوله في الهواء، كنجوم خضراء لامعة. استعاد في ذاكرته، حين رأى فريدة مساء، قبل عشر سنوات، تمر من هذا المكان. كانت طائر النمنمة تتقدم نحوه بقميصها الأبيض ذي ياقة البحارة، وخصلات من شعرها تتموّج تحت قبعتها، وطفل يمشي أمامها، يركل حجارة الطريق بطرف حذائه.

تأخر الوقت كثيراً، لكنه لم يكن يرغب بالعودة إلى البيت، رغم علمه بأنه سيثير قلق أهل البيت. كان يسير الهوينى شارداً، كأنه يستعيد حلماً قديماً.

رأى في البعيد، أمام مدخل البيت، طيف امرأة موشحة بالبياض. كانت موجغان تخرج كل مساء، إلى الشارع، لتعلّم أصغر أطفالها المشي أمام البيت.

ما إن رأت كامران في البعيد، حتى شرعت بالتلويح بذراعها:

-لمَ تمشِ بهذا البطء يا كامران؟ أين كنت حتى هذه الساعة المتأخرة؟

-كَنتَ أتنزه بين الحدائق، فالهواء لطيف جداً، يا موجغان.

كانت موجغان وحدها دون طفلها، هذه الليلة، لكن كان يبدو على وجهها الهادئ دائماً، انفعال غير مألوف.

-ما بكِ، يا موجغان؟

ترددت الشابة في الكلام، لكنها تراجعت إلى الخلف، وأشارت من الباب إلى الداخل:

-تعال لترى من أتى يا كامران، قالت.

أدار كامران رأسه بحيرة، فرأى في الضوء الأزرق للمصباح المشع

من الباب الداخلي، العينين الشهلاوين لفريدة على مقربة منه. بدا له نجمتان زرقاوان تلمع ضاحكة من بؤبؤ هاتين العينين، ووجهها الضحوك شاحباً وواهناً قليلاً. كان طيف فريدة بوجهها الضحوك قربه دائماً، كلما أغمض عينيه. ظنّ أنه في حلم جميل، وشعر كأنه يفقد توازنه، فأغمض عينيه كأنه يخشى تلاشي هذا الحلم الجميل، وحاول أن يجد حوله مكاناً ليستند إليه. نظر كل منهما إلى الآخر، يرتعشان صامتين. تبادلا الابتسام وعيونهما مغرورقة. أدركت موجغان صعوبة لحظة اللقاء هذه، فأمسكت بيد فريدة وقرّبتها من كامران، ثم قالت بصوت عميق:

-أبناء الخالات كالأخوة. لا أخ لفريدة، لذا أنت أخوها الكبير يا كامران. هيا قل لأختك "أهلاً سهلاً!"..

بدا كامران عاجزاً عن الكلام. انحنى قليلاً وقبّل شعر فريدة، ثم قال بصوت خفيض كالهمس:

-أنا عاجز عن التعبير عن مدى سعادتي لرؤيتك ثانية يا سيدة فريدة.

كلامه هذا حلّ عقدة لسان فريدة، فقالت بصوتها المألوف كإيقاع تهشم الكريستال مرتعشة:

-أشكرك يا سيد كامران، أنا جد سعيدة برؤيتك أيضاً.

-متى أتيت؟

-اليوم، عند الظهيرة. ذهبت إلى استانبول قبل عشرة أيام. كنت في شوق إلى رؤية خالاتي والجميع. حين علمت أنكم جميعاً في تكيرداغ، قررت أن آتي إلى تكيرداغ لرؤيتكم. ربما أنتم ترغبون برؤيتي أيضاً. كما أن تكيرداغ مكان جميل للاستجمام، أليس كذلك، يا سيد كامران؟

تدخلت موجغان بالكلام ثانية:

-جميل لكن ما هذا التكلف والمخاطبة بسيدة وسيد؟ لقد قلت قبل قليل، أنكما كالأخوة. يمكنك أن تقولي أخي كامران يا فريدة.

أخفض كلاهما عيونهما إلى الأرض. ثم قالت فريدة بتردد:

-هل تأذن لي أن أناديك بأخي يا كامران؟ قالت.

بينما كانت تنتظر ردّ كامران، كانت عيناها تحدق في العتمة تتابع سراج الليل المتطاير حولهم.

أجاب كامران بخيبة أمل:

-كما تشائين يا فريدة...

تلاشى الارتباك الذي كان مهيمناً عليهما، وراحت فريدة تروي لكامران بهدوء، تفاصيل رحلتها:

-سافرت إلى استانبول لتأدية بعض الأعمال، وشعرت بحنين إلى رؤياكم، كما قلت قبل قليل. صهرك الدكتور أذن لي بعطلة لمدة شهرين. سعدت كثيراً لرؤيتي لخالاتي بصحة جيدة. لكنني سمعت في استانبول أنك أصبت بمحنة يا كامران. لقد حزنت كثيراً من أجلك. إنها فاجعة أن تفقد زوجتك في وقت قصير! لكن الله وهبك طفلاً رائعاً يا كامران. لقد أحببته، وأصبحنا أصدقاء على الفور، وأصرّ على الجلوس في حضني طوال الوقت. في الواقع، أكسب قلوب الصغار سريعاً...

كلما استرسلت فريدة بالكلام، كلما تتحرر، وتستعيد خفة تلك الطفلة الشقية كسابق حالها.

كانت سعادة الشاب لا توصف، بالإصغاء إلى صوت شفتيها تتحدثان، ومشاهدة عينيها الشهلاوين تلمعان، لا يفكر بأنها أصبحت

زوجة لغيره، ولا يخطر بباله أن سعادة رؤيتها هذه، ستؤول حلماً جميلاً بعد شهر أو شهر ونصف. كل ما كان يفكر به، أن لا يشعر أهل البيت بقدومه، كي يبقيان وحدهما معاً، أطول فترة ممكنة. لكن ذلك لم يدم، فقد رأتهما نرمين واقفين خلف الباب، فأسرعت صائحة لتخبر أهل البيت بقدومه، بعد أن احتضنت فريدة وقالت:

-لم أنسك قط يا أختي فريدة، وأخي كامران شاهد على ذلك. كنا نتحدث عن أختي ذات الفستان الأحمر دائماً، أليس كذلك يا أخي كامران؟

-٢-

تلك الليلة، جلس الجميع حول مائدة العشاء كأنهم في حفل فرح. كان الصهر عزيز لا يتوقف عن الحديث بمرح شديد:

-آه يا طائر النمنمة، لقد أحزنتني كثيراً. كنت أشعر برغبة بالبكاء كلما تردد صوتك في أذني. ذلك دليل على حبي الشديد لك.

بعد مضي سنوات، وانقطاع الأمل برؤية طائر النمنمة، عادت إلى عشها ثانية، ليضفي حضورها ليس البهجة فحسب، بل ليحي تعاطف ومحبة الأيام الماضية. كل الوجوه تضحك، وكل القلوب ترفّ فرحاً. لكن، قبيل انتهاء الطعام، بينما كانت الخالة بسيمة تتحدث، شرعت بالبكاء فجأة، ثم تداركت ومسحت عينيها سريعاً وقالت:

-ليس بذي بال، لقد تذكرت أمها غوزيدا.

في تلك الأثناء، كان ابن كامران جالساً في حضن فريدة، وكانت تطعمه عنباً. دفنت فريدة وجهها في شعر الطفل الأشقر الجعد، للحظات،

ثم عادت البهجة إلى النفوس جميعها.

وبينما دار الحديث بين الخالة وزوجها حول نجمية المقيمة في طرابزون:

-تلك المسكينة تعاني من الحسرة على ابنتها أيضاً. لقد توفيت بعد إصابتها بالخناق، قالت.

تنهّدت فريدة بحسرة:

-أعيش تلك الحسرة يا خالتي، لقد توفيت صغيرتي من المرض نفسه، قالت.

نظر جميع من إلى المائدة إلى بعضهم بعضاً بدهشة، إلى أن قالت الخالة

عائشة:

-أكان لديك طفلة؟ لم نكن نعلم بذلك!

هزّت فريدة رأسها بحزن:

-بنت كحبة اللؤلؤ، كنت أتمنى أن تروها. كم كانت جميلة! لقد استحال إنقاذ صغيرتي من الموت.

سألت الخالة عائشة ثانية:

-كم كان عمر طفلتك حين توفيت، يا فريدة؟

زمّت فريدة شفتيها، وقالت ببراءة:

-كانت قد أكملت الثالثة عشر. كنت أخيط لها أولى ملاءاتها. كنت على وشك أن أصبح حماة.

ضج الجميع بالضحك، ثم قال الصهر عزيز:

-واهاً لك يا طائر النمنمة، حتى لو بلغت المائة من عمرك، لن تكفي عن المزاح!

رغم ضحك الجميع على بنت فريدة ذات الثلاثة عشر عاماً، لكن أهداب فريدة كانت مبللة بالدموع. ضمّت نجدت بحنان إلى صدرها، وراحت تروي لهم بحزن شديد، قصتها مع مؤنسة.

تلك الليلة، تسامروا حتى ساعة متأخرة من الليل. كان الصهر عزيز يكرّر من حين لآخر:

-فريدة، يجب أن تنامي لترتاحي من تعب السفر، يا ابنتي.

فريدة وقد نام نجدت بين ذراعيها منذ وقت طويل، تجيب ضاحكة:

-لا أشعر بالتعب يا صهري، في الحقيقة، أشعر بالراحة ما دمت بينكم. الوحدة، هي من أتعبتني.

ظلّت فريدة تتحدث لساعات دون انقطاع، بعينيها الشهلاوين البراقتين، والابتسامة لا تفارق شفتها القصيرة. لقد استعادت حيوية طائر النمنمة السابقة. يزداد شعورها بالبهجة كلما أصغوا لها باهتمام، تتحدث مشددة على أحرف كلماتها، وتزمّ شفتيها، وتعض على لسانها، بتلك الحركات اللطيفة المحببة للأطفال المدللين، بينما يعبّر الصهر العجوز عن بهجته وقد انتشى بفعل الخمر، بسرد شقاواتها حين كانت طفلة: كم كنت شقية يا طائر النمنمة. لا أصدّق أنك تزوجت وأصبحت ربة بيت! لكنك لا تزالين طفلة بنظري، بوجهك الطفولي الجميل هذا".

شعر كامران باصفرار وجهه، حيث يجلس في الزاوية. لقد استفاق من حلمه، وأدرك في تلك اللحظة، أن طائر النمنمة أصبحت زوجة لأحد غيره.

-٣-

لم يتمكن كامران خلال اليومين التاليين، من رؤية فريدة إلا لماماً. لقد شكّلت طائر النمنمة صداقات مع فتيات من عمرها، حين قدمت إلى تكيرداغ قبل عشر سنوات. لقد تزوجن الآن وأصبحن ربات بيوت، لكنهن لا يفارقن فريدة، ولا يتركنها وحدها أبداً. يزرنها في البيت لساعات، ويصطحبنها للنزهة من حديقة إلى حديقة، ومن بيت إلى بيت.

كلما رأت موجغان حزن كامران الخفي، كانت تفرح كثيراً، عيناها تضحك ولسانها يتظاهر بالشكوى:

-لا تتعب نفسك يا كامران، لا يتركن فريدة لنا ولا للحظة واحدة. لكن المهم أن تشعر هي بالسعادة.

لقد سنحت الفرصة لكامران، برؤية فريدة مرتين في هذين اليومين، مرة عند الطعام، ومرة أخرى عند عودتها من الشارع وقد التفّت بملاءتها.

في صباح الليلة الثالثة، استيقظ كامران مبكراً جداً على غير عادته. كان ذلك مع طلوع الصباح، وأهل القصر لا يزالون نياماً. حين فتح أباجور النافذة، رأى فريدة في الحديقة. سمعت فريدة صرير الأباجور، فرفعت رأسها. حجبت أشعة الشمس المشرقة للتو، عن عينيها بيدها وقالت:

-هل استيقظتم، يا سيد كامران؟ يبدو أن طباعكم قد تغيّرت كثيراً. في الماضي، لم أكن استطيع إيقاظكم في الصيف إلا بملء كفّي حصاً، وعديد من كرات الثلج في الشتاء. يبدو أنكم أنتم أيضاً، أصبحتم كأهل الأناضول. حين كنت أتأخر بالاستيقاظ هناك، كانوا يعيبونني بقولهم: "الشمس تشرق على الكسول فقط!".

إيقاع هذا الصوت كمياه تنساب بدِعة، وهذا الكلام الممازح، ذكّره بطائر النمنمة القديمة. امتلأ قلبه بأحاسيس ندية، فسأل بتردد:

-آآتي، يا فريدة؟

بينما لا تزال تحجب أشعة الشمس بيديها، أجابت ممازحة كما كانت تفعل في الماضي:

-لا بأس، إن كنتم لا تخشون أن تؤذي رطوبة الصباح جسمكم الرقيق. سأقدم لكم ضيافة أناضولية.

اصطحبت كامران إلى شجرة جوز ضخمة، وأجلسته على كرسي منسي في الحديقة مساء:

-انتظروني هنا قليلاً، يا سيد كامران.

-ألم نتفق على رفع الكلفة بيننا؟

-اصبر قليلاً، يحصل ذلك مع الوقت. لا أجسر على عدم احترامك فجأة.

ضحك كامران:

-لكن هذا الأسلوب بالكلام يعكس عدم احترام أعظم يا فريدة. أشعر وكأنك تسخرين مني، حين تخاطبيني بـ: "أنتم" أو "سيد كامران".

ضحكت فريدة أيضاً:

-صحيح، لديكم كل الحق، أقصد لديك كل الحق. سأحاول. الآن اسمح لي، سأعد لك كوباً من الحليب.

-فريدة، أرجوك، لا تتعبي نفسك.

-لا تحاول منعي. أفضل تملق للمرأة الأناضولية، أن تدعها تعد الطعام بنفسها.

ثم تابعت كلامها بمزاح وحزن قليل:
-كي ننال الإعجاب، لا سحر لنا سوى القيام بشؤون البيت...
راحت فريدة تذهب وتجيء في الحديقة، تارة تحمل دلة، وأغصاناً تارة أخرى، ثم سمعها كامران تتحدث مع البستاني الذي استيقظ للتو.
أخيراً، عادت تحمل كوباً من الحليب يتصاعد البخار منه.
-هذا الحليب، ليس كما أريد يا كامران، لكن بعد ثلاثة أيام، أي الأيام نحن اليوم؟ الأثنين. صباح الخميس، أدعوك لضيافة الصباح. ستشرب حليب الشاة نفسها، لكنك ستتذوق حليباً مختلفاً جداً، لذيذاً بطعم الفاكهة. هذه وصفتي السرية! ألا تتلهّف لتذوقه؟ يا لك من لا مبالي! سأخبرك بسر وصفتي الآن. سأطعم الشاة إجاصاً لثلاثة أيام. ستصاب بالبرد، الهواء بارد اليوم. هل تريد أن توبخني خالتي بسيمة وتقول: "بنت مجنونة، أمرضت ابني!"؟ لا عليك، أنا اعتدت على الأجواء الباردة، سأعطيك وشاحي.
خلعت وشاحها الصوفي الأحمر المشبوك حول عنقها بدبوس، وغطت به كتفي وصدر كامران الذي بدا يرتعش من البرد.
عاد كامران في مخيلته إلى عشر سنوات مضت، وتراءى أمام ناظريه طيف طالبة صغيرة بمئزر أسود قصير، أصابعها ملوثة بالحبر الأزرق، تضع معطفها الأزرق الداكن على كتفيه، مساء عند الباب الخارجي لقصر كوزيتاي، وتردد في أذنيه صدى صوتها تقول: "من الآن فصاعداً، واجبي رعايتك والاعتناء بشؤونك".
-كامران، ما بك كالمخبول ستسكب الحليب وتحرق قدميك؟ ما بك شردت بعيداً؟

-لا شيء، جال في ذهني شيء...

كأن فريدة أرادت أن لا يذكر ما جال في ذهنه، فقالت على الفور:

-وأنا أيضاً، حين رأيتك والوشاح على كتفيك، خطر ببالي أن أقول لك "سيدة كامران!".

بعد أن أنهت فريدة كلامها، جلست على كرسي مطبخ واطئ قبالة كامران. ثوب ريفي فضفاض، من حرير بورصا، سميك وقاتم اللون، كان يغطي عنقها وجسدها بثنيات خفيفة. أسندت مرفقيها على ركبتيها، وضمّت معصميها أسفل فكها، ووضعت كفيها على وجنتيها، ثم شرعت بالحديث.

لم يسبق لكامران أن رأى وجهها بهذا القرب. تأمّل وجهها ملياً، تهدّل قليلاً وبدت عيناها واسعة، يظلّل أطرافها تراخي غير ملحوظ. هاتان العينان لا تزالان تضحك، ولا تزالان تلمع بجسارة بريئة كالماضي. لكن بدا لكامران أنه ما عاد قادراً على سبر أغوارها.

فرقت كالريفيات، شعرها من الوسط إلى جديلتين ثخينتين، وأرختهما على كتفيها. شعرها جُدل بإحكام، حتى شدّ بشرة جبينها وصدغيها، ورفع طرفي حاجبيها غير المشذبين، إلى أعلى قليلاً. بدت ظلال زرقة عروق وجهها تظهر على بشرتها الناعمة الشفافة.

كان كامران يتأمل هذا الوجه الجميل أكثر من الإصغاء إلى كلامها، فلاحظ شفافية في بشرتها واحمرار خفي كوردة ذبلت دون أن تقطف، ولوناً لا يعكس حياة طبيعية سعيدة، وبوادر شيخوخة لفتاة لا تعيش عشقاً حقيقياً.

كانت شمس الصباح تضيء في هذا المحيا خطوطاً دقيقة تحمل معاني كثيرة، صدمت الشاب وكادت تدفعه للبكاء. لا يعلم كامران أن جمال محيا هذه الفتاة لا يزال باقياً رغم كل ما واجهته من محن.

كانت فريدة تتحدث عن ذكريات الطفولة والابتسامة لا تفارق محياها، بصوت في تناغمه كرنين تهشم الكريستال.

تجرأ كامران وسألها عن ذكريات أحدث لا يعرفها.

أدارت فريدة رأسها ونظرت إلى البعيد، ثم هزت رأسها بجدية وقالت:

-لا أتذكر، يا كامران. لا أزال أتذكر الماضي البعيد حتى سن الخامسة عشر، أما ما بعد ذلك، فلا أرى سوى ضباباً قاتماً.

انتقلت بالحديث فجأة، من أقدم ذكريات للطفولة إلى ذكرياتها عن آخر خمس سنوات. بينما كانت تتحدث عن حياة حجّي كلفا، وعن تصرفات مختار الزينيّون، وعن غرائب المدير رجب، كان يبدو الانفعال على حركاتها وعلى عينيها الضاحكة، ويزداد صوتها الكريستالي عمقاً، ويزداد ارتعاشاً كقلب محزون.

حين تحدثت عن مياه جارية، أغمض كامران عينيه، وقال في قرارة نفسه: "ويلك إن كانت تلك ضفة الشلال حيث وضعت رأسك على ركبتي حبيبك ونظرت إلى عينيه كي يعزف على الطنبور".

بعد أن روت طائر النمنمة بعضاً من الأحداث العادية من حياتها، قالت على نحو مفاجئ:

-كامران، لم أرِكِ صورة صهرك بعد.

مدّت نحو كامران قلادة ذهبية بسلسلة ذهبية ناعمة معلقة حول عنقها.

أمسك الشاب الصورة محاولاً إخفاء اصفراره وارتعاشه، وقرّبت فريدة رأسها من رأسه كي تشاهد الصورة معه.

-انظر إلى هذا المحيا، يا كامران، كم هو أصيل وجميل هذا الوجه، أليس كذلك؟

كان الشاب يتابع فريدة بطرف عينه خلسة، وكانت فريدة تتأمل الصورة بمحبة، فلم تلاحظ حركات كامران.

تلك اللحظة، كانت الأكثر مرارة في حياة كامران. إذن فجمال فريدة الرقيق الناعم البريء، قد أصبح من نصيب هذا العجوز الفظ ذو الشعر الأشيب والوجه القبيح!

يمرّ أمام عينيه خيال مجنون فجأة، يرى فريدة بين ذراعي هذا العجوز يعاملها بخشونة، وعلى خديها أمواج من الاحمرار من خجلها ودموع تنهمر من عينيها الشهلاوين نصف المغمضة، وعلى شفتيها رعشة تشبه توسل طفلة بريئة.

انتفضت طائر النمنمة بخفة كأنها أدركت ما يجول في ذهن كامران. أعادت القلادة إلى صدرها بتثاقل، وقالت:

-اسمح لي يا كامران. أظن أن لدينا ضيوف، هذا اليوم.

-٤-

مضى عشرة أيام على عودة طائر النمنمة إلى عشها. ظلّ الصهر عزيز

يردد كل مساء:

-ألا تلاحظون؟ حصل تغيير جميل في البيت. هذه المرة، كأن طائر النمنمة أصبحت طائر السنونو. لقد جلبت الربيع تحت جناحيها. أشعر بالأسف مع انقضاء كل يوم.

-لا بأس يا صهري. سآتي لزيارتكم ثانية. لا تعكر صفوك من الآن، لا يزال أمامنا العديد من الأيام لنقضيها معاً، كانت تجيب.

عادت طائر النمنمة إلى سابق عهدها، كوردة تأثرت بعاصفة عابرة، واستردت نضارتها وتفتحت يوماً بعد يوم، مذ أشرقت عليها الشمس.

عادت من جديد، توجّه أطفال البيت، من بنت موجغان ذات الثلاث سنوات، إلى نجدت الأكبر سناً، وحتى نرمين التي أكملت السابعة عشر من عمرها. تعلّق بها كل الأطفال الصغار منهم والكبار، لا يفارقونها من الصباح حتى المساء، ويملؤون أرجاء البيت بالمرح والضحك.

كان كبار السن من أهل البيت يتذمرون من هذا الصخب، ويسعدهم في آن معاً، لكنهم كانوا يخشون من نكئ الجروح القديمة للخطيبين القديمين بعد أن بَرَأت، وإن شعروا بشيء من الطمأنينة لما بدا من هدوء وحلم كامران تجاه مرح فريدة المفرط، وظاهر سلوكه كأنه لا يريد شيئاً سوى رؤية فريدة تمرح بسعادة.

مع هذا، لم يتركوا جانب الحذر والحيطة، وسعوا لإحياء الحس القديم بينهما كأخ كبير وأخت صغيرة، ويتحاشون التفوه بكلام غير محسوب العواقب، خشية إيقاظ الماضي الحزين، مثلما يُتفادى الحديث في غرف المرضى الغارقين في النوم خشية إيقاظهم.

ظل الصهر عزيز يسأل من حين لآخر:

-أليس بالإمكان إطالة هذه الزيارة أكثر، يا طائر النمنمة؟

تذكير طائر النمنمة بقرب انتهاء زيارتها، كان يحزنها، فتجيب:

-لا مجال يا صهري. لقد أصبحت طائر النمنمة أماً في عش آخر. هناك من ينتظرون عودتها.

أكثر ما كان يثير مشاعر كامران، المودة القوية التي نشأت بين فريدة ونجدت، ولم يكن يستطيع إبعاده عنها حتى ينام بين ذراعيها.

في أحد الأيام سمع كامران جدالاً يدور بين فريدة ونجدت.

طائر النمنمة تقول ضاحكة:

-أسمعني يا نجدت، قل عمة، عمة، عمة.

لكن نجدت لا يستجيب لها، يهز رأسه الأشقر العنيد ويصّر قائلاً: "أمي، أمي، أمي!".

-دعيه يقل ما يشاء يا فريدة، ما المشكلة؟ ربما المسكين بحاجة إلى هذا الإحساس، قال كامران.

صمتت فريدة وانحنت على الطفل وداعبت شعره طويلاً.

-٥-

استيقظ كامران ذات صباح، على طرق حصي على أباجور النافذة. يعلم أن طريقة إيقاظه هذه خاصة بفريدة فقط. كانت طائر النمنمة تدعوه لضيافة صباحية تحت شجرة الجوز الضخمة، كما سبق ووعدته. حليب تفوح منه رائحة الإجاص ذكية، وقطع صغيرة من الكعك الريفي،

وحلوى وردية قوامها أشبه بقوام المربى.

دهنت فريدة الكعك ببعض من هذه الحلوى، وقدمتها لكامران:

-هذا من عمل يدي... لا أعرف اسم هذا الكعك، لكنهم يدعون الحلوى بحلوى الورد.

ثم جلست على كرسي مطبخ واطئ على مقربة من ركبتي كامران.

-أخبرني الآن يا كامران، هل أعجبتك حلوى الورد؟

أجاب الشاب ضاحكاً:

-أعجبتني.

-هل أحببتها؟

-أحببتها.

-قل ثانية.

-أحببتها.

-بل قل "أحببت حلوى الورد".

ضحك كامران دون وعي منه لهذا الإصرار الطفولي:

-أحببت حلوى الورد.

توهجت وجنتا فريدة احمراراً، وارتعشت أهداب عينيها، وازداد وجهها قرباً من وجهه، وتسارعت أنفاسها خجلاً:

-قل ثانية يا كامران، "أحب حلوى الورد كثيراً"، هيا قل.

نظر الشاب بحيرة لكن بسعادة، إلى طائر النمنمة محنية الرأس

وشفتيها ترتعش، كطفل مدلل على وشك البكاء إن لم تُلبَّ رغبته، وشعر برعشة غامضة تسري في أوصاله، ثم قال:

-أحب حلوى الورد كثيراً، أحبه كثيراً بقدر ما ترغبين.

صفّقت فريدة بيديها بسعادة طفلة، وبينما كانت شفتاها تضحكان، اغرورقت عيناها فجأة. حاولت مسح دموعها بأصابعها بارتعاش، وفي قرارة نفسها تقول: "أليس من الجنون أن يُسعدني الإعجاب بهذه الحلوى إلى هذه الدرجة؟". وحين لم تتوقف دموعها عن الانهمار، أطلقت تنهيدة تشبه صرخة مكتومة، أخفت وجهها بكفيها، وانطلقت هاربة إلى البيت

اعتاد الأطفال على الاصطفاف أمام باب البيت حين رؤيتهم لعودة كامران وصهره من السوق من بعيد، بانتظار ما يجلبان معهما من مكسرات وحلوى وشوكولاتة. ذات مساء، بعد أن عاد كامران وصهره من السوق، ووزعا ما جلباه على الأطفال، تساقطت حصي عند قدمي كامران. تلفّت حوله فرأى طائر النمنمة تقف إلى جوار شجرة الكستناء الضخمة، تلوّح له بيديها:

-ألا تعلمون أننا هنا يا سيد كامران؟

اعتادت أن تخاطبه بأنتم وسيد حين تريد مناكدته. ثم استأنفت ضاحكة:

-يبدو أنكم تماديتم بتجاهلي. أين حصتي من الحلوى؟ أنا لا أنسى الأحداث القديمة. إما أن أنال نصيبي من الحلوى، أو أروي حادثة شجرة الكرز على مائدة الطعام هذه الليلة.

كما فعلت قبل عشر سنوات، أخرجت لسانها الأحمر الدقيق بين

شفتيها، وضحكت بمرح.

أخرج كامران علبة صغيرة من جيب معطفه، وقال ضاحكاً:

-أنا على أتم الاستعداد لفعل الخير دائماً. يا للمصادفة السعيدة يا فريدة! لقد اشتريت اليوم، علبة فوندان. كنت أريد تناولها وحدي، لكن لا حيلة لي أمام هذا الابتزاز...

تألق وجه فريدة بفرح طفولي:

-رائع، رائع!

-لكن لي شرط واحد يا طائر النمنمة. سألقمك إياها بيدي.

-لماذا؟

-ألا تذكرين ما كنا نفعله حين كنت في الثالثة عشر من عمرك؟

ثم أخذ قطعة من الفوندان وقرّبها من فريدة. ترددت طائر النمنمة قليلاً، ثم مدّت رأسها وفتحت شفتيها المرتعشتين قليلاً. لم تأكل سوى قطعة واحدة رغم الإصرار الشديد، وقالت:

-أعطني العلبة، سأتناول الحلوى مع نجدت بعد الطعام.

-لنذهب معاً حتى ذاك الجدار يا فريدة. انظري إلى جمال البحر. نتابعه ونتحدث قليلاً.

-حسناً، انتظرني لدقيقة واحدة حتى أترك علبة الحلوى في البيت.

تجرأ كامران على لمسها أول مرة، وأمسكها من معصمها وقال:

-كلا يا فريدة. لا أثق بك. تقولين انتظرني لدقيقة واحدة، ثم تذهبين ولا تعودين. ألا ترين؟ ما عدت أثق بوعودك.

أمالت فريدة رأسها إلى صدرها، لم تجبه واكتفت بالتقدم نحوه ببطء. كان الحزن والشرود بادياً على كامران هذا المساء. يقول كلاماً غير

مترابط، يتحسّر حيناً، ويشتكي حيناً آخر، ولا يضبط انفعاله. في تلك الأثناء، بدت ظلال سرب من الطيور المهاجرة فوق البحر، فأشار بيده إليها وقال:

- فريدة، بعد أيام، ستطيرين مثلها وتهاجرين، أليس كذلك؟

- ...

- ما قولك، أيسعدك هجرك لخالاتك، وأبناء خالاتك، وصديقاتك، والمكان حيث قضيت طفولتك؟

- ...

- بينما تُسعِدين وتَسعَدين في عشك، ألا يحزنك هجر عشٍ آخر وتركه حزيناً وبائساً من فراقك؟

لم تجب فريدة، بل كانت لا تصغي، وتخط شيئاً ما بقلم رصاص، على علبة الحلوى.

قال كامران بنبرة حزينة:

- لمَ لا تجيدين يا فريدة؟ .

نظرَت طائر النمنمة إلى وجهه بشرود:

-أعذرني يا كامران، كنت شاردة قليلاً، فلم أسمع ما قلته. أغنية سمعتها قديماً، أعجبتني في حينه، ثم نسيت كلماتها. تذكرتها الآن، فأسرعت بكتابتها حتى لا أعاود نسيانها. أترغب بقراءتها؟ لقد بدأتُ أشعر بالبرد. سأعود إلى البيت.

قرأ كامران تلك المقاطع الأربع لما كتبته فريدة بخط رديء على علبة الحلوى:

ناري مستعرة لا تفتح فمي أبداً،

يا ظالم، لا تجبرني على البوح بما في قلبي من أشجان،
ألا أعلم أفعالك؟ لا تحاول الإنكار،
يا ظالم، لا تجبرني على الكلام، ففي قلبي فيض من الأشجان!

-٦-

مرت أربعة أيام على تلك الحادثة. غدت فريدة تتحاشى خطيبها القديم، وتتذرّع بحجج واهية كي تبتعد عنه، وإن اضطرت للحديث معه، تتحاشى النظر إلى وجهه وأن تتلاقى عيناها بعينيه.

مساء اليوم الرابع، دُعي أهل البيت مع أطفالهم إلى زيارة دامت حتى أذان العشاء. شعر كامران بالضيق، فخرج للنزهة رغم هبوب عاصفة شديدة مصحوبة بالغبار.

كانت الرياح تصفر على القمم البعيدة، والأشجار تحفّ كأنها تتعرض لوابل من المطر، ودوامة من الريح المحملة بالغبار تحوم فوق الطريق على مدى البصر.

ملأ الغبار وجه وعيني كامران، فاضطر للتوقف كلما تقدم بضع خطوات، معطياً دبره للرياح. بدا له من بعيد، مرتفع أجرد بتجويف صخري، إلى جانبه شجرة هزيلة ترقص أغصانها مع الريح، كأنها تلوح له. أسرع نحوها، والتجأ إلى الصخرة مجلساً له ووقاية من رياح الغبار.

كل ما حوله كان خالياً تماماً كصحراء متمادية الأطراف. لم يسبق له أن شعر بهذا القدر من الكآبة واليأس والإحباط قط.

في تلك الأثناء، لاحظ طيفاً ملوناً لفتاة في البعيد، على طريق يمتد نحو البحر كأنه يخترقه. توجه نحو الطيف دون وعي أو هدف.

ما إن بدأ بالاقتراب من الفتاة حتى تعرف عليها من ملاءتها. كانت تلك الملاءة الحمراء لنرمين. يبدو أن الفتاة قد تعرفت عليه أيضاً، فشرعت تلوح له بمظلتها من بعيد.

لَمَ افترقت نرمين عن الأهل، ولِمَ تمشي وحدها؟ شعر بفضول شديد، فأسرعَ خطاه نحوها.

كانت الفتاة تحني رأسها أمام الرياح، تحاول مسك تلابيبها بإحدى يديها، وتشد بالأخرى ملاءتها المشرعة كجناحي طير شرس.

حين تبين كامران ملامح وجه الفتاة خفق قلبه. لم تكن سوى فريدة وقد ارتدت الملاءة الحمراء لنرمين.

ما إن اقتربا من بعضهما حتى أطارت الريح مظلة فريدة. صاحت طائر النمنمة محاولة الإمساك بمظلتها، فانحسرت الملاءة عن رأسها وتناثر شعرها متراقصاً في الهواء. تمكن كامران من الإمساك بالمظلة عند شجيرة قريبة، ثم شرّع معطفه ليقي فريدة ريثما تلملم نفسها. صاحت طائر النمنمة بفرح:

-لقد جئت في الوقت المناسب يا كامران. كادت الرياح أن تطيّرني كنمنمة حقيقية!

لم تستطيع أن تكمل كلامها، فالغبار الشديد أجبرها على إحناء رأسها وإغماض عينيها وضم شفتيها. ظل كامران مشرّعاً معطفه ليقيها من الغبار وتابعا سيرهما.

حين أصبحت فريدة في حالة تسمح لها بالكلام، لم تستطيع ضبط نفسها فشرعت بالضحك، ثم راحت تتكلم على مراحل متتالية:

-هل تعلم لِمَ أضحك يا كامران؟ بينما كنت جالسة عند من دعونا لزيارتهم، تذكرتَ أمراً مهماً يجب عليّ قضاءه. ردائي كان خفيفاً جداً، والجو بارد. عرضت نرمين عليّ ارتداء ملاءتها. بينما كنت في السوق، مرتدية ملاءة نرمين، ووجهي مغطى، لمحتُ ضابطاً يتعقّبني. ما إن اقترب مني حتى قال: "يا للمصادفة الجميلة، يا آنسة نرمين!". لقد كشفت المسكينة سرها بتقديمها معروفاً لي. لم أستطع تمالك نفسي، فضحكت. أدرك الضابط اللّبْس الذي وقع فيه، فارتبك واختفى عن نظري في لمح البصر...

تابعت فريدة كلامها وكامران يستمع إليها ضاحكاً:

-أشعر أني أخطأت بكشف سر البنت المسكينة. لا يصمت لساني الثرثار أبداً... بالله عليك يا عزيزي، لا تخبر أحداً بذلك، أرجوك. ربما الفتاة ترغب فيه... وقد تقف إلى جانبها في المستقبل...

-أعدك يا فريدة، لكن ألا ترين أن نرمين لا تزال صغيرة على...

اعترضت فريدة بمودة:

-صحيح، لكن قلوب الصغار ليست كما نظن دائماً.

صمت الاثنان، وتابعا السير جنباً إلى جنب.

بدأت شدة الريح بالتراجع، بينما تثاقلت خطواتهما كأنهما لا يرغبان بانتهاء صحبة الطريق هذه. في تلك الأثناء كان كامران يقول في قرارة نفسه: "قبل قليل، كنت أرى أن لا شيء حولي جدير بالاهتمام. كنت أشعر بالكآبة والحزن، ثم شعرت بسعادة عظيمة حين استطعت حماية هذا المخلوق الصغير الرقيق الجميل من الريح العاتية. سأكون سعيداً إن استطعت إسعادها دائماً... لكن ليس لي سوى الحسرة!".

بعد شرود كليهما وتثاقل خطواتهما، استأنفت فريدة الكلام على نحو مضطرب وغير مترابط:

-رغم كل ما حدث، لكنني أشعر بالمتعة تغمرني. على أية حال، خلال سنة أو سنتين، سيعاودني الحنين إلى رؤية خالاتي وجميعكم ثانية. سآتي دون تردد... ستمضي السنين على هذا النحو... سيبدأ شعري بالمشيب، أنت أيضاً. تلك هي الحياة! الفراق مؤلم دائماً... يحزن المرء ثم يعتاد... من يعلم؟ ربما، أبقى في المستقبل، مجرد احتمال... ستكون لي أخاً كبيراً. سندرك أهمية الكبار حين يغادروننا الواحد تلو الآخر. سنتقبل

أخطاءنا الصغيرة، ونراها جميلة. وهكذا سنمضي سنوات عمرنا الكبير حيث أمضينا طفولتنا...

تعمّق الجرح غير المرئي في صفاء صوتها باضطراد، كأنها تودع بكلماتها وصية سرية حزينة.

لاقتهما متسولة وطفلها في الطريق. ركض الطفل بقدمين حافيتين نحوهما، وأمسك بطرف ملاءة فريدة. توقف كامران ليناول المرأة بعض النقود، بينما راحت فريدة تربت على رأس الطفل. وبينما كانا يبتعدان، كانت المرأة تلهج لهما بالدعاء وتقول:

-لا فرّقكما الله عن بعضكما أبداً. ليُدم الله لك زوجتك الجميلة هذه.

توقفا في مكانهما. قال كامران وقد بان في عينيه ما يعانيه من حسرة:

-فريدة، هل سمعت ما قالته المرأة؟

أجابت على سؤاله بقطرتي دمع كبيرتين، ثم تابعا طريقهما في صمت وشرود.

حين وصلا إلى باب القصر، كان المساء قد حلّ، والرياح قد هدأت تماماً، وتوقف صفيرها، وغطّت الأشجار في نوم عميق داخل ظلالها.

- الوقت لا يزال مبكراً يا فريدة. لم يعودوا بعد. أنتابع المشي قليلاً؟

أمالت فريدة رأسها بفتور ووهن، وقالت بصوت يشوبه التوسل:

-أرجو أن تعذرني يا كامران. لقد أرهقتني الرياح. سأدخل لأخلع ثيابي.

كانت الملاءة الحمراء قبل قليل، تلتف حول جسم فريدة كطير

يرفرف بجناحيه بحركات رشيقة وحنونة، والآن، يتدلى على كتفيها بفتور ووهن.

توقفت بالباب مترددة، ثم شعرت بتراخ فجلست على مقعد قرب الباب، وراحت تخط بطرف مظلتها، على التراب، خطوطاً متقاطعة ومتكسرة وعميقة، كأنها ترسم مسيرة حياتها اليائسة.

بعد قليل من الشرود، شعرت بكامران يجلس إلى جانبها وكتفه إلى كتفها، ويده تلامس يدها. ارتبكت ونظرت إليه بذهول. راودها شعور بالهرب، لكنها تراخت ولم تقوَ على النهوض.

رأى كامران استسلاماً يائساً في عينيها الجريئتين، وتسارع في أنفاسها. تركت يدها المرتعشة الباردة لتدفئها يد خطيبها القديم. أغمض كلاهما عينيه، وراح كامران في شرود بهيج، ويقول في قرارة نفسه: "يا لسعادتي! يد فريدة المرتعشة في يدي، ما كنت أراه في أحلامي، وأظنه مستحيلاً، أصبح حقيقة واقعة". فتح عينيه ثانية، ليتأمل فريدة وقد أسندت رأسها على كتفه، وأنفاسها تتلاحق متسارعة. شعر بازدياد قربها منه، شدّ على يدها، ودون أن يعي ما يقول، همس في أذنها:

-أحب حلوى الورد.

في تلك اللحظة، استفاقا من أحلامهما حين فُتح باب القصر فجأة. وثبت فريدة بخفة طير راعه صوت إطلاق نار. دخلت نرمين في المقدمة، فارتمت طائر النمنمة عليها وعانقتها بسعادة وانفعال، وأغرقتها بقبلاتها. أصيب الجميع بالحيرة من هذا الاستقبال المفاجئ، ثم انطلقت تلاعب الأطفال الصغار وترميهم في الهواء بمرح شديد. اتجه الجميع إلى داخل القصر، وحاولت طائر النمنمة البقاء في المؤخرة بانتظار اقتراب كامران

منها. في عتمة المدخل، همست:

-ميرسي، كامران.

-٧-

في اليوم التالي نزلت فريدة إلى المدينة وحدها. حين عادت إلى القصر عصراً، بدت متعبة جداً. رغم ذلك، دعت الأطفال إلى الحديقة، ونصبت لهم أرجوحة كبيرة.

في تلك الأثناء، كان كامران يجلس مع أحد ضيوف الصهر عزيز العجائز الثرثارين. حين علم بعودة فريدة، تذرع بحجة ما وخرج للقائها في الحديقة. كانت فريدة ونجدت يتأرجحان بشدة. نجدت يصيح متشبثاً بعنقها كقطة صغيرة.

صاح كامران كما فعلت الخالة عائشة قبل عشر سنوات:

-فريدة، يا ابنتي، دعك من هذا الجنون، ستوقعين الطفل!

لم تبالِ طائر النمنمة بما قاله، وأجابت بمرحٍ:

-لا تخشي شيئاً يا خالة، نجدت ليس خائفاً، ويصيح من الفرح، ألا ترى ذلك يا كامران؟

شرعت فريدة تلاعب الأطفال بأرجحتهم الواحد تلو الآخر.

لكن نرمين، أكبر الأطفال سناً، كانت الأشد خوفاً. صاحت بهلع، وقفزت عن الأرجوحة.

حين أوقفت فريدة اللعب، كان شعرها قد التصق بجبينها المحمر ووجنتيها لشدة تعرّقها، تمسح راحتيها لتخفف من ألم مسكها الحبل

بشدة، ثم قالت:

-لم يبقَ أحد لم يتأرجح.

وقال كامران بتردد:

-نسيتني يا فريدة.

لاحت على ثغر فريدة ابتسامة باهتة. وقعت في حيرة من أمرها، لا تريد رفض عرضه ولا ترغب بإعلان قبوله صراحة. عاينت الحبل وغصن الشجرة بنظراتها، بانتظار تشجيع من الحاضرين.

-لا أدري، لكنني أظن أن الحبل ليس قوياً ليحمل كلينا، أليس

كذلك يا موجغان؟

عاينت موجغان الحبل بيدها، ثم التفتت إلى كامران بهدوء وقالت:

-المشكلة ليست بالحبل... لكن فريدة قد أُرهقت جداً. انظر إليها يا كامران. لا أظنك ترغب بإرهاقها أكثر.

كانت فريدة على وشك أن تقول: "لا مشكلة في ذلك، لست متعبة جداً"، لكنها حين أدركت ما ترمي موجغان إليه من قولها هذا، أمالت رأسها إلى صدرها كطفل مذنب، خجول وخائف، وقالت بهدوء:

-أجل، أنا متعبة جداً، أخشى من المرض.

انطفئ بريق البهجة من عينيها، بعد أن كان يلمع قبل قليل، وبدت محبطة.

حدجت موجغان كامران بنظرة لوم، وقالت بصوت خفيض:

-أنت قاسي القلب أكثر مما كنت أظن، يا كامران!

سأل بالصوت الخفيض نفسه كي لا تسمعه فريدة:

-لماذا؟

أجبرته موجغان على السير معها إلى الجهة الأخرى من الحديقة:

-ألا ترى حال المسكينة؟ ألا يكفيك ما سببته لها من حزن ومرارة في قلبها وحياتها؟

-موجغان!..

-لم يسأل أحد منا عن حالها، كل هذه السنوات. لكنها رغم ذلك، لم تحتمل ألم الشوق، وعادت إلينا متناسية جحودنا ومرارتها. بعد أن تعافت من جراحها، أتريد أن تنكأ هذا الجرح من جديد؟

تابعت موجغان كلامها وقد اغرورقت عيناها:

-أفكر بمعاناة المسكينة من جديد حين تغادرنا غداً... هل تعلم يا كامران، أن فريدة ستسافر غداً؟ لقد تهيأت للعودة. لم أكن أعلم بذلك أيضاً. ما عادت فريدة تحدثني عن قلبها وحياتها كالسابق. لقد أخبرتني بنيتها للسفر قبل قليل، وحين سألتها عن قرارها المفاجئ هذا، بررت قرارها باستلامها رسالة من زوجها. أنا على ثقة أنها تكذب. فريدة تريد الهروب منك. ما عادت المسكينة قادرة على الاحتمال. لا أقول لك هذا الكلام عبثاً، يا كامران. أخشى أن هذا الفراق الجسدي الذي لابد منه سيكون صعباً عليها. رغم أن فريدة تمتلك عزيمة قوية إلى درجة لا تُصّدق، لكن قبل كل شيء، فهي امرأة. أنت مدين لهذه المسكينة بتحطيم حياتها. عليك أن تكون متماسكاً وهادئاً في أيام فراقها هذه، كي تعطيها العزيمة قدر الإمكان...

بينما كان كامران يستمع إلى موجغان، بدا كل جزء من جسده أصفر حتى عيناه الخضراوان:

-تتحدثين عن حياة فريدة التي تحطمت، وماذا عن حياتي؟ قال.

-أنت من فعلت ذلك بنفسك.

-لا تكوني قاسية القلب إلى هذا القدر، يا موجغان.

-أتظن أني سأقف مكتوفة الأيدي لو كان هناك ما يمكن فعله؟ لم يعد في أيدينا أي حل. الآن، فريدة زوجة لرجل غيرك. المسكينة يدها مغلولة أيضاً. أرى أنك سيء الحظ أيضاً. ما عدت غاضبة منك، وليس بإمكاننا فعل أي شيء.

علم الجميع بسفر فريدة في اليوم التالي. تناولوا طعام العشاء

بصمت، ولم يجرؤ أحد على التحدث حول سفرها. بدا الصهر عزيز أكبر سناً وشارداً. أجلس فريدة إلى جانبه، يربت على كتفها ويتأملها من حين لآخر، ويقول:

-آه منك يا طائر النمنمة! تحزنين قلبي في شيخوختي.

تلك الليلة، صعد أهل البيت إلى غرفتهم مبكرين.

-٨-

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. نام أهل البيت منذ وقت طويل. خرجت موجغان من غرفتها حتى باب غرفة كامران، تمشي على أطراف قدميها، وشاح خفيف على كتفيها، وشمعدان صغير بيدها. لا صوت ولا ضوء يصدر من غرفته. طرقت الباب بخفة، ونادت بهمس:

-كامران، هل نمت يا أخي؟

فُتح الباب في الحال. لم يخلع كامران ثيابه بعد. بدا محياه في ضوء الشمعة، شاحباً وحزيناً، وأهداب عينيه ترمش كأن الضوء الباهت قد أبهرها.

-ألم تنم بعد، يا كامران؟

-كما ترين.

-لِمَ أطفأت مصباحك، إذن؟

-هَذه الليلة، أشعر بحرقة في عيني من الضوء.

-ماذا تفعل في العتمة؟

ابتسم بحزن:

-لا شيء، أحاول مواساة نفسي وتقبّل يأسي ومأساتي. لكن، لِمَ

أتيت في مثل هذه الساعة، ماذا تريدين؟

حاولت موجغان السيطرة على انفعالها بصعوبة:

-أحمل لك أخباراً مثيرة. لا تضطرب يا كامران. اُصغُ.

دخلا الغرفة. تركت موجغان الشمعدان على الأرض؛ ثم أغلقت الباب بهدوء. بدت مرتبكة، لا تدري من أين تبدأ، ثم قالت بصوت محاولة أن تبدو هادئة:

-لا تضطرب يا عزيزي كامران. لا أحمل أخباراً سيئة، بل على العكس، أخباراً سعيدة. لا ترتبك فتربكني معك...

بينما كانت الشابة تسعى لتهدئته، كانت نفسها ترتعش، الدموع في عينيها، والارتباك في صوتها:

-كامران، قبل قليل، جاءت فريدة إلى غرفتي. تصرفت بغرابة،

وقالت لي: "موجغان"، حتى هذا اليوم من عمري، لم أفتح قلبي لسواك. لا أحد أقرب إليّ منك. عندي سر أودعك إياه. لا تبوحي به قبل سفري غداً. إن شئت اكشفيه بعد سفري. لابد أن عودتي فجأة لرؤيتكم بعد كل هذه السنوات، قد أصابتكم بحيرة شديدة. لم أكذب حين قلت إني شعرت بشوق إلى رؤياكم، لكن الدافع الحقيقي، لم يكن حنيني فحسب، بل لأني بوعد قطعته على نفسي أمام رجل كان يحتضر على فراش الموت، قبل ثلاثة أشهر. الرجل الذي أكن له المودة الأعظم في حياتي. أنا الآن أرملة. توفي زوجي قبل ثلاثة أشهر بعد إصابته بالسرطان".

بينما كانت فريدة تروي لي ذلك كانت تسند رأسها إلى كتفي، وتنتحب. تابعت كلامها والدموع تملأ عينيها: "في يوم وفاة الدكتور خير الله قال لي: ما عدت أخشى عليك من الحاجة يا فريدة، فكل ما أملك أصبح لكِ. سيعيل امرأة بريئة ونقية مثلك، وتعيشين في بحبوحة حتى نهاية عمرك. لكن المال لا يكفي لتعيش امرأة وحدها، وإن كانت ثرية. المال شيء والأحاسيس شيء آخر. فريدة، إن كنت ترغبين أن أموت سعيداً، اقسمي لي الآن، أن تزوري أهلك في استانبول بعد وفاتي. أما إن كنت لا ترغبين بالإقامة معهم بشكل دائم، فعديني أن تزوريهم كل شهرين أو ثلاثة أشهر. العمر طويل والحياة صعبة، قد يكونون سنداً لكِ في الملمات، ولابد أنك بحاجة إلى حنين العائلة. فريدة، إن تيقّنت أن علاقتك مع أهلك ستعود إلى سابق عهدها، سأغادر هذه الدنيا وأنا هانئ البال". وعدته أن أنفذ وصيته الأخيرة باكية. لم يكتفِ خير الله

بذلك، بل أصر أن أعيد المياه إلى مجاريها في علاقتي مع خطيبي السابق أيضاً، وقال قد يكون لكِ أخاً كبيراً ذات يوم. ثم ناولني مغلفاً مختوماً كي أسلمه لكامران بيدي، وقال:

-داخل هذا المغلف كتاب غرام قديم. لقد أثّر في مشاعري كثيراً، وأريد أن يقرأه خطيبك السابق، بشكل خاص. اقسمي لي أن تسلميه له دون أن تفتحيه.

هذه هي الحقيقة يا موجغان. تعلمين كل شيء، الآن. كان خير الله رجلاً طاهراً ومحباً للآخرين. كان يظن أن إعادة تواصلي مع عائلتي دواء شافياً لي، ولم يدرك كم سيكون جارحاً ومؤلماً لي. أتيت إلى استانبول بعد أن استودعت خير الله إلى جانب مؤنسة. بعد أن علمت بوفاة زوجة كامران، وما أُشيع حولي من كلام باطل، تبيّن لي صعوبة تنفيذ وصيته. لو كانت زوجة كامران ما زالت على قيد الحياة، لكان الأمر طبيعياً، باعتباري أرملة توفي زوجها حديثاً، وأتيت لزيارة أهلي. لكنكم الآن، جميعكم، حتى كامران، وحتى أنت يا موجغان، رغم أنك تعرفيني تمام المعرفة، أكثر من الآخرين، ستظنون بي أسوء الظنون. امرأة تنقلت من بلد إلى بلد، وحدها لسنوات طوال، وعاشت تجارب مشينة، وبأي حسابات خسيسة باعت نفسها لرجل عجوز. وحين علمت أن خطيبها السابق قد أصبح حراً ثانية، عادت إليكم، وإلى البيت الذي هربت منه قبل خمس سنوات، لتلاحق خطيبها السابق، بالحسابات الخسيسة نفسها. أشعر بالمهانة أمامكم حتى وإن أبديتم تسامحاً وتعاطفاً نحوي.

تابعت موجغان كلامها وقد ازداد تأثرها وانفعالها:

-آه يا كامران، ما كنت ستحتمل رؤية دموع فريدة وهي تتحدث

بين ذراعيّ بيأس! لن أنسى ما قالته أخيراً طوال عمري. أتعلم ما قالته فريدة؟ "لا يمكنني وصف مشاعر خيبتي حين هربت من بيت عائلتي، ولا مشاعر الألم التي ملأت حياتي، ولا مشاعر الانهيار حين أكرهت على الزواج. ماذا يحدث لفتاة بلغت الخامسة والعشرين من عمرها، وأمضت الخمس سنوات الأخيرة من عمرها تتعثر هنا وهناك، وتقضي سنوات في بيت زوجها، ثم تدّعي أنها لا تزال فتاة لم يلمس جسدها ووجهها وشفتيها رجل؟ سيسخر الجميع منها ويقول إنها كاذبة رخيصة، أليس كذلك يا موجغان؟ إثبات عكس قولهم غير ممكن! ما عاد عندي ما أقوله أكثر من ذلك. خذي هذا المغلف الذي أوصاني خير الله أن أسلمه لكامران. لا أعلم ما بداخله، ويجب عليّ تنفيذ وصيته الأخيرة، لكنني لا أملك الجرأة على تسليمه لكامران بيدي. أعطه لكامران بعد انطلاق الباخرة غداً".

سكتت موجغان، وراحت تبكي كطفلة صغيرة، رغم ما كان يقال عنها إنها باردة الأعصاب ولا تبالي بأكثر الأمور ألماً. رفعت يديها المرتعشة وقالت:

-ينبغي أن لا نسمح لها بالسفر يا كامران. يجب منعها بأي وسيلة كانت. يجب أن لا تفترقا بعد الآن، بغض النظر عما حدث في الماضي. أظن أنكما لن تحتملا البعاد ثانية.

بدا كامران فاقداً القدرة على التفكير كالمخدر. بدا له هذا الأمل أقرب إلى المستحيل، بعد أن أمضى سنوات بالهروب من الواقع والعيش على أحلام كالأوهام. يتلفت حوله في العتمة، يفتح عينيه ويغمضهما كأنه يبحث عن شيء فقده، وضاع إلى الأبد.

أخرجت موجغان مغلفاً كبيراً مختوماً بالشمع الأحمر من تحت وشاحها:

-أسلمه لك الآن، رغم وعدي لفريدة أن لا أعطيك إياه إلا بعد سفرها، قالت.

التفّت بوشاحها استعداداً للخروج، لكن كامران أوقفها بيده وقال:

-أرجوك يا موجغان، لا تتركيني وحدي. كنت الأكثر اهتماماً من الآخرين بقصة حبنا. لنفتح هذا المغلف سوياً، لنعرف ما في داخله.

بينما كانت موجغان تشعل مصباحاً كان على الطاولة، فتح كامران المغلف. رسالة ومغلف آخر كانا داخل المغلف الكبير.

الرسالة موجهة لكامران ومكتوبة بخط منمق:

"ابني كامران،

كاتب هذه الرسالة، عجوز انعزالي، ومحب للوحدة. رهن بعضاً من حياته للكتاب والبعض الآخر لجرحى صراع العميان أو ما ندعوها بالحياة. قبل أن تلمس يدك الرسالة هذه، سيكون هذا العجوز قد غادر الدنيا غير آسف عليها، منذ وقت طويل. دفعني تعاطفي مع إنسانة عزيزة جداً إلى قلبي أن أتحمّل عناء كتابة هذه الأسطر وأنا في النفس الأخير:

ذات يوم في بيت خراب في قرية نائية، صادفت بنتاً استانبولية صغيرة وجميلة كالحلم، نقية وطاهرة بقدر الضياء. شعرت في تلك اللحظة، كأني أفتح نافذة غرفتي في شتاء قاس، في ليلة هطول ثلجها شديد، على صوت بلبل في تلك العتمة

هذه البنت الطفلة البريئة الرقيقة، وهذه الحلية الجميلة والنفيسة،

أي قدر وأي حظ تعيس رماها إلى دمنة هذه القرية المظلمة؟ بينما كانت روحها تبكي كانت عيناها وشفتاها تضحك. كانت تحاول خداعي بحكايات التضحية المستحيلة. آه منك أيتها البنت الصغيرة المسكينة! ألأنا كحبيبك المغفل الأحمق الذي تركتِه في استانبول حتى تخدعينني بهذا الكلام؟ لقد تكشّف لي كل شيء من عينيها الذابلتين كطفل استيقظ دون أن يشبع نوماً، من أفكارها المشوشة لا تدري أين تمضي، من عواطفها المشتتة وشفتيها المرتعشتين كأنها تعيش في حضن خيالي، وقُبَلٍ غير مرئية

كان ذلك المجنون الذي هام في الصحارى بحثاً عن ليلى في قصص الزمان الغابر، يراود خيالي من حين لآخر، وأشعر نحوه برقة عذبة. لكن منذ ذلك اليوم نسيته، وأصبحت ليلى الصغيرة تراود خيالي بدلاً منه، تلك ذات العينين الشهلاوين البراقتين، تلك الفتاة البريئة النقية كالحرير.

ثم صادفتها ثانية، بعد سنتين. لا نجاة من المرض. كانت تذوب كالشمعة من حزنها على طفلتها. لم أرتكب جهالة في حياتي كتلك الجهالة. آه، كان ينبغي عليّ أن أحملها على حصاني رغماً عنها، وأعيدها إلى بيتها، إليك.

في لقائنا الثاني، كان الأمل قد ضاع. كنتَ قد تزوجت. رحت أواسي قلة حيلتي بأنها ما زالت صغيرة، وقد تنسى مع مرور الأيام. لكن أثناء مرضها، وقع دفترها تحت يدي مصادفة. تبين لي مدى عمق جراحها. لقد كتبت كل ما مر بحياتها في هذا الدفتر. حينذاك، فقدت الأمل، وقررت أن أقف إلى جانبها كأنها ابنتي من لحمي ودمي. لكن فساد الناس وسوء أخلاقهم لم يعطياني المجال. فكرت أن أزوجها برجل مناسب، لكن تلك مغامرة غير محمودة العواقب. تلك الفتاة تعيش من أجل عشقها،

وعلى استعداد للموت من أجله. ربما ستموت حزناً إن وجدت نفسها بين ذراعي رجل لا تعشقه. لم أجد حلاً لحمايتها إلا بزواجي منها، لكن على الورق فقط. وهكذا سأحميها وأدافع عنها ما دمت حياً، وأؤمن لها حياة كريمة بعد وفاتي، بما سأورثه لها. متابعة حياتها كأرملة أسهل عليها من العيش كفتاة مشبوهة، تعيش على أمل ضاع بزواجك. لكن لا شيء مستحيل في هذه الحياة! كنت أتقصى أخبارك من استانبول دائماً. علمت أن وفاة زوجتك قد أثرت بك كثيراً، لكن دون نفاق، وفاة زوجتك منحني الأمل من جديد. فكرت أن أطلق فريدة من هذا الزواج الوهمي، وأعيدها إليك. لكن كلام الناس لا يمكن تجاوزه، رغم أني لا آبه به إن كان في حقي، لكن ليس في حق فريدة. في تلك الأثناء، تفاقم مرضي، وشعرت بدنو أجلي. أدركت أن المشكلة ستُحلّ من تلقاء نفسها، خلال بضعة أشهر. هل هناك من داعٍ للتوضيح أكثر من ذلك؟ أُعيد فريدة إليك بذريعة تسليم تلك الأمانة. أنا على يقين أنها ستلتزم بوصيتي لها. لقد أصبحت على معرفة تامة بطباع هذه الفتاة. قد تشاكس أحياناً، لكن لا تبالِ. إياك أن تتخلَى عنها، مهما بدا منها من طيش. إن عاندتك، كن فظاً معها كرجال الجبال، ففي ذلك سعادتها

أخيراً، أقول لك بكل صراحة، ما كنت لأهبك ولا حتى قطة، فكيف لي أن أقدم لك فتاة لا مثيل لها ورائعة مثل فريدة؟ لكن الفتيات مجنونات ولا مجال لإقناعهن حين يعشقن. لا أدري ما هو الجانب الذي يُعشق في رجل غرٍ بلا فؤاد مثلك!

المرحوم خير الله

ملاحظة- دفتر فريدة داخل المغلف. لقد فقدته فريدة مع صندوقه السنة الماضية حين كنا ذاهبين إلى المزرعة. في الحقيقة، كنت قد أخفيته، على أمل أن أوصله إليك، ذات يوم، وادعيت أنه ضاع أثناء الرحيل. أعلم أنها حزنت من أجله كثيراً، لكن، بدا أنها فقدت الأمل بالعثور عليه ثانية. أظن أني أحسنت فعلاً باحتفاظي به، وهذا هو الوقت المناسب لتطلع عليه.

-٩-

حين أنهى موجغان وكامران قراءة دفتر فريدة المدرسي ذي الغلاف الأزرق، كان الفجر قد بدأ ينبلج، والعصافير بدأت بالتغريد على أغصان الشجرة جوار النافذة.

أسند كامران رأسه المتثاقل من الحزن والإرهاق على إحدى صفحات الدفتر المصفرّة، ثم راح يقبل كلمات العشق التي تبللت بدموعه. حين أراد إغلاق الدفتر، أمسكت موجغان الدفتر وقرّبت غلافه الأزرق من المصباح:

-مذكراتها لم تنته بعد، لقد كتبت على الغلاف أيضاً يا كامران، يصعب تمييز ما كتبته بالحبر على الغلاف الأزرق للدفتر، قالت.

رفعا إضاءة المصباح وقرّبا رأسيهما إلى الدفتر وقرآ تلك الأسطر:

"أمس، أغلقت دفتري إلى الأبد. لا لأكتب عن ذكرياتي لصباح ليلة زواجي، ولا عدت أجرؤ على النظر إلى المرآة كي لا أرى وجهي القديم، ولا أن أتكلم كي لا أسمع صوتي القديم. لكن...

أمس، أصبحت عروساً. استسلمت أمام ظلم الحياة، وتركت نفسي

كورقة شجر جافة ينقلها السيل أينما شاء. أفعل ما يُطلب مني دون أدنى اعتراض. لم أتردد بالسماح لهم بإلباسي الفستان الأبيض الطويل الذي أحضره الدكتور خير الله من إزمير، ولا بترك خصلة من شعري تتدلى جانباً. لكن حين أحضروني أمام المرآة الكبيرة كي أرى نفسي، أغمضت عينيّ خلسة. هذا كل ما بقي لي من تمرد وعصيان.

أتى غرباء كثر ليروني. زميلاتي المعلمات السابقات، كن من بينهم. لم أكن أسمع أو أعي ما يقال، لكن كنت أحاول الابتسام في وجوههم بالابتسامة المرتعشة نفسها. عجوز قالت على مسمعي:

-يا للحظ السعيد لهذا الخرف؟ لقد دارت عجلة الحظ معه، وفاز بالجائزة الكبرى.

وصل الدكتور خير الله إلى البيت، مع موعد طعام العشاء. ارتدى لباس مراسم يضم جسمه السمين كالمشد، ربطة عنق غريبة بلون أحمر

فاقع. رغم حزني الشديد، لم أتمالك نفسي من الضحك. لكن ينبغي عليّ أن لا أقبل أن يصبح في موضع سخرية. نزعت ربطته الحمراء وشبكت أخرى أكثر تناسباً مع لباسه. ضحك الدكتور خير الله وقال:

-مرحى لابنتنا، ستكونين ربة بيت رائعة. أرأيت فضيلة الزواج من شابة؟

بعد أن انفض الجمع، جلسنا وجهاً لوجه، جوار نافذة غرفة الطعام. قال الدكتور خير الله:

-صغيرتي، أتعلمين لَمَ تأخرت؟ لقد أديت واجب الزيارة إلى قبر مؤنسة ووضعت باقة من الزهور، وخيطاً من ثوب زفافك. كانت المسكينة تقول لي دائماً: "حين تصبح أختي عروساً ستشبك على شعري خيطاً من ثوب زفافها". وقد وعدتها أن أفعل. لكن الله لم يعطها العمر لأشبك طرحة على شعرها الأصفر كريش الكناري.

بينما كان الدكتور يحدثني بما فعله، لم استطع تمالك نفسي، أدرت رأسي نحو النافذة، وبكيت طويلاً بدموع خفية ندية كضباب مساء هذا الخريف الحزين.

أمضينا أولى ساعات الليل في غرفة الطعام في الطابق الأسفل، كعادتنا كل مساء. جلس الدكتور خير الله في ركنه المعتاد، ووضع نظارته على عينيه، ووضع كتاب "روسو" ذا الجلد السميك فوق ركبتيه، ثم قال:

-أرجو المعذرة يا سيدتي العروس، ليس من اللائق أن يقرأ عريسك الجديد كتاباً. لكن لا تقلقي، الليالي طويلة، سأجد متسعاً من الوقت لقراءة ملاحم عشق للعروس الجديدة.

أملت رأسي إلى منديل أطرز حوافه. آه من هذا الدكتور العجوز! كم كنت أحبه، والآن كم بتّ أكرهه. إذن، حين كاد يغمى علي من الحزن والكرب فأسندت رأسي على كتفه... كانت العينان الزرقاوان التي كنت أظنها بريئة بأهدابها البيضاء، تنظر إليّ كزوجة. ظللت أهذي بمثل هذه الأفكار الحزينة والمؤلمة، إلى أن دقت الساعة معلنة الحادية عشرة ليلاً. وضع الدكتور كتابه على الطاولة، ثم تمطط وتثاءب:

-هيا يا سيدتي العروس، جاء وقت النوم، قال ونهض.

وقعت الإبر والخيطان من يدي دون إرادتي. نهضت وحملت شمعداناً كان على الطاولة، ثم اقتربت من النافذة بذريعة إغلاقها. نظرت طويلاً إلى العتمة. جال في ذهني أن أقفز بهدوء من هذه النافذة، وأهرب بعيداً في تلك الطرقات المظلمة. لكن إلى أين؟

-سيدتي العروس، لقد شردت طويلاً. هيا اصعدي في الحال. سأكلم الحارس وأعود سريعاً، قال الدكتور.

أبدلت المربية العجوز وامرأة من الجيران ملابسي، ثم ناولاني الشمعدان، واصطحبتاني إلى غرفة زوجي. لم يصعد الدكتور خير الله بعد. وقفت جوار الخزانة، أرتعش وأدعك ذراعيّ من البرد، والشمعدان يهتز ويحرق أطراف شعري. أخيراً، سمعت طرق أقدام الدكتور خير الله على الدرجات ثم في الردهة. دخل يتمتم مغنياً، وخلع معطفه. ما إن رآني حتى فوجئ وقال:

-ألم تنامي بعد يا بنت؟

فتحت فمي كي أجيب، لكن أسناني اصطكت. اقترب مني ونظر في وجهي بحيرة:

-لَمَ أنتِ في غرفتي وبهذه الحال يا بنت؟

ثم أطلق قهقهة مجلجلة ترددت في أرجاء الغرفة:

-إياك يا بنت، أنت هنا...

لم يكمل كلامه. ظل يضحك ويصفق ركبتيه بيديه:

-إذن، أتيت إلى هنا... أمختلة العقل أنتِ؟ هل تظنين أننا زوجان حقاً؟.. يا للعيب!.. سامحك الله! أنا في مقام والدك...

بدأت الغرفة تدور حولي كالدوامة، والسقف كأنه يطبق على صدري. راح يعض على إصبعه بغضب وخجل:

-كيف تجرأت على دخول غرفتي بلباس النوم هذا، يا بنت؟

تقلّب لوني بين الأحمر تارة والأصفر تارة أخرى:

-دكتور، والله، كيف لي أن أعلم؟ لقد طلبن مني ذلك.

-دعكِ من هذا الهراء، إن كنّ قد أسأن التفكير، أين عقلك أنتِ؟.. لم يخطر ببالي أن تظني بي على هذا النحو!..

آه يا ربي، ما هذا العذاب! أين أختبئ؟ أدميت شفتي من شدة ما عضضت عليها، بينما تابع سخريته مني ووقف عند النافذة:

-بنت، لا تقتربي مني، أشعر بالخوف منك. سأفتح النافذة، وأطلب النجدة... أبعد هذه العثرة!

لم أعد أحتمل سماع سخريته، فأسرعت نحو الباب للهرب. لكنني عدت سريعاً بشعور قوي من المودة نحوه وبحركة لا إرادية احتضنته صائحة والدموع تنهمر من عينيّ:

-بابا، بابا!

ضمني بين ذراعيه، وصاح بالشعور نفسه:

-ابنتي، صغيرتي.

ثم وضع قبلة أبوية مرتعشة على جبيني لا أنسى لذتها طوال عمري.

حين عدت إلى غرفتي، أثرت ضجة من البكاء والضحك. طرق الدكتور الحائط ما بين غرفتينا:

-كفاكِ ضجيجاً يا بنت، ستهدمين البيت! ستأخذ بالجيران الوقحين الظنون.

هكذا مضت الليلة التي أصبحت فيها عروساً. كم هو صاحب مشاعر طاهرة وطيب القلب دكتوري هذا! لم يعد هناك من مبرر للقول إن زواجنا ليس سوى حبراً على ورق. كم كنت مسيئة في ظني به، وكم كان سامياً في ما يظهره من مودة نحوي! في الواقع، هناك عدد قليل من الرجال الطيبين، لكن غالبيتهم سيئون، أما النساء فجميعهن طيبات ومظلومات أيضاً.

-١٠-

لم تستطيع فريدة النوم، تلك الليلة، حتى طلوع الفجر. حين استيقظت، كانت تشعر بإرهاق وإحباط أشد مما كانت عليه ليلة الأمس. كانت الشمس قد ارتفعت، والساعة قد تجاوزت الحادية عشرة. أطلقت صيحة هلع قصيرة كالأطفال المتأخرين عن المدرسة، ووثبت من السرير على عجل.

كانت موجغان تجلس إلى المائدة، فقالت فريدة بحرد:

-لَمَ لم توقظيني يا موجغان، ألا تعلمين أني سأسافر اليوم؟

أجابت موجغان بهدوئها المعتاد:

-لقد دخلت غرفتك أكثر من مرة. كنت تغطين بنوم عميق متعبة. لم أشأ إيقاظك. لا يزال الوقت مبكراً، كما أن ساعة انطلاق الباخرة ليست مؤكدة بعد، فعاصفة تهب على بحر مرمرة.

-سأسافر مهما يكن.

-لقد أخبرت أبي بذلك، وذهب إلى الميناء لإجراء اللازم. سيرسل العربة، أو يأتي بنفسه حين وصول الباخرة، قالت.

شعرت فريدة بلا مبالاة لفراقها من طرف الجميع. موجغان تعني بطفلها، وخالاتها يثرثرن ويضحكن، غير آبهات بسفرها. شعرت بالحزن والأسى لعدم اهتمام الجميع، كما أن كامران غير موجود لوداعها. خلال الحديث الدائر، قالت موجغان لها بصوت خفيض:

-فريدة، لقد أبعدت كامران عن البيت، من أجلك. ربما ستشعرين بالحزن عند وداعه. لقد اقتنع بما قلته له.

-ألن يأتي لوداعي؟

-ربما سيأتي لوداعك في الميناء. أظن أني فعلت خيراً.

-أشكرك، أحسنت صنعاً، أجابت وغابت بعيداً، عيناها شاردتان، وشفتاها ترتعشان، تفكر بصديق طفولتها، وحبيب عمرها، كأنها لن تراه بعد اليوم، أبداً.

في تلك الأثناء وصلتهم دعوة للغداء، يقيمها أحد الجيران في

مزرعته، بمناسبة انتقاله إلى قصره الشتوي في المدينة. قالت فريدة:

-لا يمكنني الذهاب. قد تصل الباخرة في تلك الأثناء!

وقالت الخالات:

-ليس من اللائق رفض الدعوة يا فريدة، كما أن المزرعة لا تبعد أكثر من خمس دقائق. على أية حال، فأنت جاهزة وقد ارتديت ملاءتك منذ الصباح.

بدت لها خالاتها غير مباليات بفراقها. أمالت رأسها إلى صدرها وقالت:

-حسناً، كما تشئن.

ظلت فريدة قلقة طوال الوقت، تراقب الطريق المؤدية إلى بيت صهرها. حين اقتربت الساعة من الثالثة، ظهرت عربة قادمة من بعيد، فصاحت:

-عربة قادمة يا موجفان، أظن أنهم قادمون لاصطحابي إلى الميناء.

في اللحظة نفسها، تعالى دخان باخرة قادمة من البحر.

اضطربت فريدة وصاحت ثانية:

-الباخرة قادمة!

قام الجميع لارتداء معاطفهم، استعداداً للمغادرة، بينما أسرعت فريدة وقالت لخالاتها:

-لن أستطيع انتظاركن، سأذهب بسرعة.

شرعت فريدة وموجفان بالركض من طريق مختصرة عبر المزارع. ما إن وصلتا باب القصر حتى التقيتا بالطباخة العجوز:

-كنت قادمة إليكما يا آنسات. لقد وصل السادة بالعربة قبل قليل، يسألان عنكما، قالت.

كان الصهر عزيز وكامران يجلسان في صالة الطابق الثاني. تفحص الصهر عزيز فريدة وقال:

-ما هذه الحال يا آنسة، ما بكِ تتصببين عرقاً؟

-لقد وصلت الباخرة يا صهري!

-أعلم، لكن لا تستطيعين السفر. زوجك لا يريد أن تغادري...

ارتدّت فريدة إلى الخلف، وقالت بذهول:

-ماذا تقول يا صهري؟

-هذا ما قاله زوجك يا ابنتي، أنا لا أتدخل بينكما!

أطلقت فريدة صيحة مذهولة، وغطّت وجهها بيديها. كانت على وشك الوقوع على الأرض، لكن يداً أمسكتها من معصميها. فتحت عينيها... كان كامران من أمسك بها.

ضحك الصهر عزيز بمرح:

-أخيراً، دخلت القفص الذي تريدين. هيا رفرفي بجناحيك. ما عاد يمكنك الطيران بعيداً!

حاولت فريدة تغطية وجهها، لكن كامران لا يزال يمسك بيديها، ظلّت تتلوى جاهدة، ولم تجد سوى صدره وكتفه لتخبئ وجهها. ضحك الصهر عزيز بمرح ثانية وقال:

-لقد أعدّ كامران وموجغان كل شيء. أخبرانا برسالة المرحوم الدكتور خير الله، تغمده الله بوافر رحمته. لقد أوضح كل شيء،

برسالته تلك. ذهبنا إلى القاضي. كان القاضي رجلاً متفهماً، وبصفتي زوج خالتك وبمقام والدك وولي أمرك، وافق على عقد زواجك على كامران. هل فهمت الآن يا طائر النمنمة، ما حصل؟ كامران أصبح زوجك شرعاً. هو يحبك بقدر ما تحبينه، ولن يتركك بعد الآن إلى الأبد.

اتقدت فريدة احمراراً، وحارت جواباً، واستأنف الصهر عزيز كلامه:

-هيا يا طائر النمنمة، لا تتظاهري بالتمنّع. نعلم أنك سيغمى عليك من السعادة. هيا كرري ورائي "لقد أحسنت صنعاً يا صهري!".

بعد أن أجبرها الصهر عزيز على تكرار قوله، فتح باب الغرفة وقال كالمنتصر:

-أيها السيدات والسادة، بصفتي ولي أمر طائر النمنمة ، باردون السيدة فريدة، أعلنها زوجة للسيد كامران. ادعوا لهما بالسعادة، ونحن نردد آمين.

ثم التفت إلى فريدة وقال:

-كم أتعبتنا بألاعيبك وحيلك الشقية لسنوات طويلة يا طائر النمنمة! لكنني أفلحت بالتحايل عليك أخيراً.

في تلك الأثناء، تعالت أصوات الحضور في القصر، مصحوبة بأصوات الأطفال في الحديقة، فقال الصهر عزيز:

-سيستمر تقديم التهاني والتبريكات طويلاً. دعكما من كل ذلك. سأعد بنفسي مأدبة فرح رائعة. لا داعي لتستمعا إلى ثرثرتنا، هيا يا بني، خذ زوجتك واخرجا من الباب الخلفي. اذهبا أينما تشاءان، لكن لا تتأخرا عن المأدبة.

ثم مسح دموع عينيه بيده، ورفع فريدة في الهواء بينما كان كامران لا يزال ممسكاً بيدها لا يفارقها. قبلها من جبينها، ثم قال:

-لقد أنقذناك من العاصفة البحرية، هذه الليلة. لكن هذه العاصفة الشقراء، تبدو لي أعنف. كان الله بعونك، يا طائر النمنمة.

حين حمل كامران فريدة بين ذراعيه لينطلق بها إلى الخارج من الباب الخلفي، لحقت بهما موجغان. تعانقت الفتاتان وقبلتا بعضهما ودموع الفرح تنهمر من عيونهما.

نزلا الدرج بسرعة كطائرين، ثم ضمها إلى صدره وقال بفرح:

-لا أصدق يا فريدة، أنك قد أصبحت لي! أكاد أطير من الفرح!

أنفاسها تتسارع، وجسدها يرتعش، وشعرها يتطاير على وجهه. عادت إليه حيويته السابقة، وتتدفّق الدماء في عروقه متأججة، فضمّها بشدة إلى صدره. راحت تضحك تارة وتبكي تارة أخرى، وتتوسل قائلة:

-دعني أذهب كي أبدّل ثيابي.

تمسّك كامران بها بشدة وقال ضاحكاً:

-لن أسمح لكِ بالابتعاد عني ثانية، يا فريدة. لقد أخطأت مرة بتركِكِ تذهبين، ولن أسمح لنفسي أن أقع في الخطأ نفسه مرة أخرى.

دفنت رأسها في صدره متراخية، واعترفت بخجل:

-أتظن أني لم أشعر بالندم الشديد على ابتعادي عنك؟

ظلّ يداعب وجنتيها وشفتيها بأصابع العاشق الولهان.

تابعا السير على الطريق يحضنا بعضهما، ويتحادثان بنشوة، ولم

يتباعدا إلا حين شاهدا صيادين قادمين من بعيد.

حين وصلا إلى طريق المزرعة حيث التقيا قبل عشر سنوات مضت، أمسكها كامران من كتفيها برقة وقال:

-قد لا يعني لكِ هذا المكان شيئاً، يا فريدة.

تأملت فريدة جوانب الطريق ضاحكة.

-نظراتك تشي بمعانٍ خفية. إذن، فأنت تذكرين تلك اللحظة أيضاً، يا فريدة!

تنهّدت فريدة ونظرت إلى وجه كامران بعمق وشرود كأنها تتبسم من حلم قديم:

-أيمكن لي أن أنسى ما شعرته من سعادة في تلك اللحظة، يا كامران؟ قالت.

أدار وجهها نحوه كي لا تهرب بعينيها بعيداً عن عينيه وقال بعاطفة عذبة:

-فريدة، انظري إليّ. لقد بدأ مسلسل عشقنا هنا. أرى في عينيك تفهماً لما عانى كلانا من عذاب وشجن. حين شعرت بميل نحوك، كنت فتاة صغيرة شقية وطائشة. فتاة كالضياء والصوت، يظهر ويختفي. لا تفكر إلا باللهو والضحك. طائر نمنمة حقيقية لا يمكن امتلاكها. حين أستيقظ كل صباح، أشعر بعشقي لك يكبر ويتعمق في قلبي أكثر. ضعفي تجاهك يخجلني، وتقلبات نظراتك وكلامك يضاعف خفقان قلبي، ويرهبني. عينان طفوليتان ضاحكة ولاهية حيناً، وروح شابة لطيفة ورقيقة حيناً آخر. خشيت لفترة من الوقت أن تحطمي حياتي، ولم أفكر يوماً أن تهبيني قلبك بهذا القدر من الوفاء. كنت أظن ارتعاش

شفتيك الجميلتين ثم هروبك مني كي تخفي مشاعرك نحوي، مجرد طيش طائر النمنمة، فأشعر بالقلق والخوف على علاقتنا المستقبلية. أخبريني يا فريدة، لِمَ احتفظت بهذا القدر من الوفاء، وهذه الروح الرقيقة، داخل قلب طائر النمنمة الصغير؟ ألم تشعري يوماً، بأني أبادلك الشعور نفسه؟

توقف كامران قليلاً عن الكلام ليلتقط أنفاسه، ثم لامس وجهها بوجهه برقة وتابع:

-كنت أخشى عليك من عشقي الشديد لك أن يؤذيكِ، وأخشى على نفسي من ضياع متعة هذا الهيام بكِ. لقد استحال القرب منك كما استحال بعادك أيضاً، ومهما حاولت فطيفك لم يغب عن خيالي قط، مهما حاولت.

أغمضت فريدة عينيها كطفل يتهيأ للنوم، وقطرات من الدموع تبلل أهدابها. تركت جسدها بكل ثقله بين ذراعي كامران، باسترخاء ممتع، وتحركت شفتاها كأنها في حلم وتمتمت:

-ها أنت ترى، لقد ماتت طائر النمنمة إلى الأبد.

داعب وجنتيها الحمراوين، وهمس بالرقة نفسها:

-لكن عشقي لها لم يمت. لقد انتقل من عشقٍ بطائر النمنمة، إلى هيام بحلوى الورد.

شعر كامران بجسدها المتراخي بين ذراعيه، يستعيد قواه ويتلوى برعشة عذبة:

-كامران، أتوسل إليك، لا تقول ذلك.

رفعت رأسها المسترخي على صدره، وتأملت وجهه بأنفاس

متسارعة وارتعاش بشفتيها.

كرر كامران بصوت عاشق:

-حلوى الورد... أنت لي وحدي يا حلوى وردي!

ازداد ارتعاش جسدها، فمال بشفتيه على شفتيها المرتعشتين بنشوة.

تباعدا بعد قليل، مرفرفين كطائرين ارتويا للتو من جدول برّاق عذبة مياهه. طرقت الأرض بقدمها، وغطت وجهها بيديها، وقالت بحدة يشوبها الخجل:

-يا للعيب، يا ربي، يا للعيب! أنت من بادر إلى ذلك.

في تلك الأثناء، حطّ على غصن الشجرة فوقهما، طائر نمنمة وراح يغرّد طرباً.

-النهاية-



telegram @soramnqraa

طائر النمنمة من أكثر الأعمال الأدبية الكلاسيكية التركية انتشاراً. عرضت على شاشات التلفزيون والسينما، وترجمت إلى العديد من اللغات الغربية والشرقية.

تروي مغامرات مثيرة لفتاة متمردة ذات شخصية مثالية، عانت كثيراً من أجل المثل العليا التي تحملها. تركت عائلتها الثرية في استانبول بعدما عاشت خيبة أمل عميقة من خطيبها، لتعمل معلمة في الأناضول. عاشت وحيدة دون سند، وواجهت الفقر والمصاعب والمكائد في تنقلها من قرية إلى أخرى، وتعرضت لأحكام غاشمة في مجتمع متخلف، لكن الحب الصادق الذي تحمله في قلبها الطاهر لم يزل، وظل يرافقها في حلها وترحالها.

رشاد نوري غونتكين ولد في استانبول، وتخرج في كلية الآداب. عمل معلماً ومديراً ومفتشاً في وزارة التربية والتعليم، وممثلاً لتركيا في اليونسكو. توفي في لندن تاركاً خلفه أكثر من مائة عمل أدبي في مجالات القصة والرواية والمسرح.





www.wardbookjo.com